قصة الديانات



سليمان مظهر

ديانات

١٧٠٩

٢٠٠٠

قصة الديانات

اهــــــــداء2004
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

قصة الديانات

سليمان مظهر



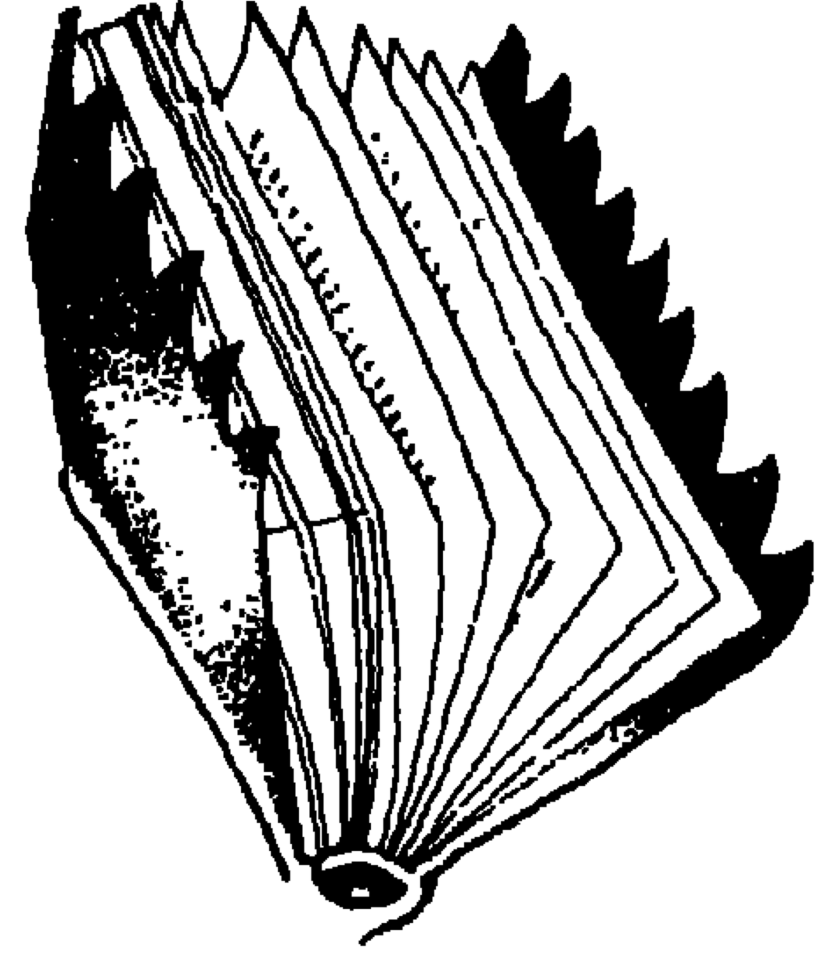


٢٠٠٠

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٦٠٠ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى 9-207-305-977



إهداء

إلى وطني ..

أرض الخَير .. وَالحقيقة .. وَالايمَان

سليمان مظهر

ما اعجب قصة الخلق.. وما اعجب حياة الإنسان على هذه الأرض...

لقد كانت هذه القصة دائماً، هي الأساس الأول في كل العقائد الإنسانية التي نشأت في هذا العالم الكبير. ومهما غاص المرء في اعماق تاريخ البشرية.. فسيجد لهفة الناس تتركز على تحديد تاريخ خلق العالم.. والطريقة التي صنع بها.. ومن هو الذي خلقها.. وما هو تفسير هذا الخلق.. ومتى عين الإنسان مشرفا عاما على هذه الأرض.

وكان هذا هو اول طريق البشرية في محاولة البحث عن الله.

فقد عاش الإنسان أول أمره حياة بدائية تحوطها مئات الاخطار والأسرار. وحملته مدهشات الكون واعاجيبه التي لم يستطع ادراكها علميا.. على ان يتوهم لها تفسيرا.. ويتخيل اصولا ووقائع يرتاح اليها وتزيل حيرة نفسه.

وكان أول ما ملأ رأسه من تلك الخوارق التي تخبط به.. ايمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة اسمى من قدرة كل العناصر والكائنات.

وبدأ الإنسان يتأمل تلك القوى، ويجسم كل شيء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول اليه فيجعله الها، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين.. فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد.. كلها آلهة طفق الإنسان ينسج حولها القصص.. ويتناقلها خلفا عن سلف، جيلا بعد جيل.

ولكن الإنسان اخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى.. كيف جاءت هي الاخرى؟! لا بد أن هناك شيئا خالقاً.. شيئاً أقوى من كل شيء، استطاع ان يصنع وحده كل تلك الاشياء.

من هنا بدأ تصور الإنسان لقصة الخلق.. وملأت رأسه افكار كثيرة حول تصوره لهذا الخالق.. وكيف اقام السماء والأرض، وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها واشكالها لتعمر الكون.

بداية الخلق

لم تستطع قصة الخلق الخالدة في ذهن الإنسان أن تجد زمناً محدداً يتفق عليه كل الناس. فقد آمن البعض أن العالم تم خلقه منذ ٥٧٠٠ عام على وجه التحديد. بينما قال القوم في أواسط آسيا ان الإله أديناث قد ظهر على الأرض منذ مائة تريليون

« باليا ». والباليا فيا يقولون هي تلك الفترة من الزمن التي يستغرقها طائر صغير في تفريغ مساحة ميل مربع مليء بالشعر الدقيق، لو انه نقل شعرة واحدة كل مائة عام..! لقد جاء اديناث كما يقولون منذ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ باليا، ولنا ان نتصور بعد ذلك كم يظن هؤلاء الناس عمر العالم...

ولكن قبل ان يحاول البشر كشف التاريخ الغامض للخلق وما يتصل بذلك من تصور الخالق. أهتموا بعدد كبير آخر من المسائل. ويبدو في الحقيقة ان الرجل البدائي كان غريباً جداً في هذه الناحية. ولقد كان كغيره من المخلوقات على هذه الأرض.. يأكل ويشرب وينام. وكان كغيره يتمنى الحر عندما يشتد البرد، ويتمنى البرد عندما يشتد الحر. وكان ايضاً كسولاً جداً. ولكنه خالف بقية المخلوقات في أنه كان ينظر ويتساءل..

الخيالات الأولى

منذ الصباح حتى الليل.. كانت تملأ رأس الإنسان البدائي اسئلة كثيرة.. لماذا تشرق الشمس نهاراً وليس بالليل؟ اين تذهب الشمس عندما يهبط الظلام لماذا يزداد الهلال ضخامة واستدارة من ليلة لاخرى؟ اين تكون الريح عندما لا تهب؟ لماذا يزأر الرعد بعد وميض البرق؟ ثم.. من الذي صنع كل هذه الأشياء في العالم؟!

لم تكن تلك الاسئلة سوى قليل من كثير جداً سألها الناس بعضهم للبعض.. او على الأقل سألها الإنسان لنفسه منذ تلك الآلاف من السنين.

وبعقل الرجل البدائي كان لا بد ان يستخدم الإنسان خياله بشكل واسع في الحصول على اجابة كل سؤال.. تماماً كما يفعل البعض منا كثيراً في عالمنا الحديث.

الشمس... قوة الحياة

ويبدو ان الإنسان كان مؤلفاً بارعاً، او قصاصاً.. ومن هنا كان يستطيع ان يتخيل الإجابة على كل سؤال يلقى عليه...

كان الإنسان عندما يقرصه البرد.. يشعل النار في الحطب في محاولة ليستثير الدفء بين اعضائه.. ولكنه لم يكن يستطيع ان يشعل النار في كثير من الاحيان عندما يكون المطر المنهمر قد بلل كل شيء...

وتصرخ المرأة في رجلها الذي يطالبها باشعال النار:

- النار لا تشتعل.. الحطب غارق في ماء المطر.

ويملؤه الصبق ويصرخ:

- اللعنة.. كل شيء بلله المطر.. كل شيء.. كل شيء.

وتحاول امرأته ان تهدىء ثورته.. فتقول له:

- لننتظر حتى تطلع الشمس.. لنتحمل الصقيع حتى تشرق من جديد...

اجل.. ان عليهما ان ينتظرا الشمس..

الشمس؟! ما اعجب سر هذا القرص الذي يصنع كل شيء.. النور والدفء والحياة..؟ هذا النور الذي يرسله ذلك القرص ليصنع الدفء ويمنح الخير.. ما حقيقته؟! هل هو من صنع خالق معين؟! هل هو الخالق نفسه؟! هل هو صاحب القدرة وحده على كل هذه الاشياء؟!

ويبدو للمرأة ان رجلها الحائر بين كل هذه الاشياء قد اصابته لوثة... ولكنها تسمع صرخته:

- اللوثة في عقل كل من يرى هذا الذي يجري، ولا يدرك ان هناك قوة مسيطرة تدير هذا الخلق.. هناك خالق.. هناك خالق لهذا الكون.. هناك قدرة معينة تصنع اشياء معجزة.. هناك شيء يهدينا الى الخير ويحول بيننا وبين الشر.. من هو هذا الخالق؟ انه السر الذي أريد أن أعرفه...

نعم... هذا السر.. اترى يكون قرص الشمس هو الخالق نفسه؟!

ولكن أبداً.. هناك شيء آخر هو الذي خلق قرص الشمس.. هو الذي يحركه.. ويجعله يختفي ليتأتى الليل.. ويظهر ليجيء النهار..!

ولكن هذا الإنسان يجد في بعض الإحيان قصاصاً بارعاً من رفاقه يجيب عليه في بساطة اذ يستغرب شروق الشمس وغروبها:

- ما أسهل تفسير هذا الأمر.. فتلك الشمس التي في كبد السماء ليست سوى عجلة من نار تركبها كل يوم روح الشمس عبر السماء لترى العالم. وفي الليل تضع روح الشمس عجلة النار في بهو الظلمات وتأوي إلى فراشها. وفي الصباح التالي تخرج العجلة مرة اخرى لتقوم برحلة ثانية عبر السماء... اما اذا شعرت روح الشمس بالكسل او الغضب يوما فانها لا تقوم بالرحلة.. وفي مثل ذلك اليوم لا تشرق الشمس قط.

العبادة والتراتيل

وقد يحدث بالفعل كسوف للشمس ذات يوم فجأة.. وهنا يتصور الإنسان ان قصة ذلك القصاص قد تكون صادقة.. ويتذكر الرجل الأول هذا الذي حدث

بالفعل.. فيتساءل: إذا لم تشرق الشمس.. فكيف نستطيع ان نذهب الى الصيد لنأتي بقوتنا؟

ويهز القصاص البارع كتفيه وهو يجيب: لا ادري.. ولكننا نستطيع ان نغري روح الشمس بعيداً عن الكسل والغضب...

كيف؟ ويكون الجواب: الامر بسيط.. فعندما تصعد الشمس في الصباح المبكر.. نستطيع ان نصعد الى قمة الجبل لنكون قريبين تماما من الشمس.. ثم نغني لروح الشمس ونثني عليها.. وبذلك نغريها فلا تلجأ الى الكسل، أو الغضب ابداً...!

ويبدو الجواب مقنعا.. فيروح الاثنان الى قمة الجبل ليمتدحا روح الشمس..

ومن هنا تبدأ عبادة الإنسان البدائي.. للشمس.. او لروح الشمس.. القوة المسيطرة التي تختفي وراء هذا القرص... ويصبح الصعود الى قمة الجبل والتغني والترتيل تعبدا لروح الشمس.

عبادة الطبيعة

ويعود الإنسان يفكر...

إذا كانت للشمس روح يمكن اغراؤها والثناء عليها.. فمن المؤكد ان للقمر هو الاخر روحاً تقوم برحلة الليل.

واذن.. فليعبد الناس روح القمر أيضاً...

ومنذ ذلك الوقت يروح الناس ينظرون الى النجوم التي تملأ السماء.. لا بد انها هي الاخرى مواطن ارواح اخرى وان كانت اصغر شأناً. واذن فليتقرب الإنسان الى الكواكب ايضاً ويثني عليها ويتقدم إليها بالصلاة. وليفعل الشيء نفسه للروح الغاضبة في الرعد.. والروح الثائرة في الريح.. والروح الباكية في المطر.. والروح الوديعة في النهر.. والروح الغامضة في الغابة.. والروح الهائجة في المحيط...

وتكون عبادة جميع ارواح قوى الطبيعة هي اول عقيدة للانسان البدائي وهو في طريق البحث عن الله.. وتكون اول التراتيل التي يعرفها عنه الإنسان الحديث وهو يكشف رسوم التراتيل والعبادة على جدران الكهوف قبل الآف السنين:

يا روح الشمس.. استيقظ بسلام..
انت يا ذا النور المضيء الطاهر..
انك انت الذي تشرق على كل مكان بنورك..
ونور عجلة النار التي تركبها.

لا تعصب علينا وتنزل بنا نمنك
اظهر في سلام..
يا حسن الوجه..
يا رب الاشعة..
يا خالق النور.

ولكن اذا كانت هذه هي اول تراتيل الإنسان للقوة العظمى التي شهدها امامه وهو يبحث عن طريق الله.. فان التفكير تحول بالإنسان البدائي بعد مرحلة اخرى من تاريخه الى طريق آخر.. مليء بالظلام والعثرات.

الطواطم والاوثان

فمع مضي السنين، وتعدد البشر على الارض.. راح قصاص بارع جديد يتصور أشياء اخرى جديدة.. وتخيل ان الأرواح لا يمكن أن تقتصر على الطبيعة وحدها.. بل هناك ارواح اخرى مخيفة.. تبدو في الظلام..

ويتساءل الناس: وكيف عرفت؟

ويلقي القصاص البارع بنظره الى الغابة ويقول: اذكر ذات مرة ان احاطت بنا النار في الغابة. وكنت انا وامي واختاي نلتقط التوت، عندما إحاطت بنا النار التي راحت تجتاح التل وتلتهم الاشجار وكانها ثور ضخم يلعق بالسنة اللهيب كل شيء حتى العشب. وتلفتنا حولنا دون ان ندري ماذا نصنع، فالنار من امامنا ومن خلفنا. ولم يكن من سبيل لنا الا ان نحفر حفرة ونقفز بداخلها وننتظر. وعندما انتهت النار وخرجنا من الحفرة وجدنا انفسنا وليس من ضرر اصابنا.. فمن الذي حمانا من الاحتراق في تلك النار الرهيبة؟

وبالفعل.. تصبح مسألة محيرة في ذهن الإنسان البدائي.. ويسمع ردا على حيرته يقتنع به... لان قائله قد فكر فيه قبله واقتنع بما تصوره. انها روح العائلة..!

روح العائلة.. اننا نعرف ان روح الشمس تقيم في الشمس، وروح القمر تقيم في القمر، ولكن اين تقيم روح عائلتك تلك؟

ويجيب صاحب الخيال البارع:

تقيم روح عائلتنا في ضفدعة.. ولكنها ليست ضفدعة عادية بالطبع.. بل هي في حجم ذلك التل. لها عين واحدة وينبت في جبينها قرن ذهبي.. لقد رأيناها في ذلك اليوم حين احاطت النار بنا في الغابة.

ويهز الناس رؤوسهم ويقولون: لم نر مثل هذه الضفدعة قط..

ويجيب الرجل: لي صديق سأسأله ان يصور لكم روح عائلتنا حتى يمكن ان تروها.

صور وتماثيل

يذهب القصاص البدائي البارع الى صديقه.. فيرسم له على الصخرة صورة للضفدعة كما وصفها صاحبه.. ويلون قرنا باللون الذهبي..

ويقول الناس: اذا كانت لعائلة هذا القصاص روح تحميها.. فمن المؤكد ان لعائلاتنا ارواحاً نحن الأخرون.

ويروح الناس يصورون ارواح العائلات.. كل بالشكل الذي يتخيله. ولا يمضي وقت طويل حتى تكون هناك الآف الصور.. صور صنعت من الخشب.. وصور صنعت من الطين.. وصور صغيرة وصور كبيرة بعضها يبدو كالذئاب والدببة والاسود والتماسيح والضفادع والسمك.. وبعضها يبدو نصفه سمكة ونصفه الآخر نسراً. وبعضها نصفه ثعبان والنصف الآخر غزال.. وبعضها ليس له شبه بأي مخلوق على ظهر الأرض.

وهكذا ترك الإنسان البدائي عبادة الطبيعة.. ليعبد التماثيل التي سميت بالاصنام.

العبادة الطوطمية

مر الإنسان البدائي بهذه الفترة المظلمة من تاريخه خلال بحثه عن القوى المسيطرة على هذا العالم الكبير.. وجاء وقت اعتقد الإنسان ان للاصنام قدرة- اذا تقدم اليها بقربان- على ان تفعل الخير له وتلحق الضرر باعدائه.

فاذا تنازع رجل مع جاره جاء الى صنمه المحبوب وصلى له ليجعل بقرة جاره تدر لبنا دمويا.. أو يضره بأي شكل آخر..

ولكن الجيران هم الآخرون كانت لهم اصنامهم.. وبينما يدعو الرجل اصنامه لتضر اعداءه.. راح يشعر بالقلق ازاء ما قد تفعله ارواح اصنام اعدائه له ولاهل بيته..

واضطر الناس ان يفكروا في شيء يحميهم من ارواح اعدائهم. فوضعوا حول اعناقهم تماثيل صغيرة لاصنامهم لحماية انفسهم من قوة الارواح الشريرة التي تحارب في صفوف الاعداء..

واصبحت هذه التماثيل الصغيرة.. هي التمائم.. والطواطم.. وبدأ بعض الناس يعتقدون ان بعض التمائم تستطيع القاء التعاويذ على الآخرين وتجعلهم يمارسون السحر. وراح هؤلاء البعض يؤمنون بأنهم ببعض التمائم ومناداة الاسماء الحقيقية لبعض الارواح يستطيعون فتح ابواب المستقبل ورؤية ما يخبئه لهم..

المجتمع الالهي

برغم هذه التماثيل والطواطم.. كان الإنسان البدائي يواصل التفكير في الخالق الأول ويتصوره مصدراً رئيسياً للقوة والخلق.. يهيمن على كل شيء، ويسيطر على اركان الكون الشاسع.

ولكنه مع مرور السنين.. بدأ يتصور هذا الخالق ومن حوله الالهة الآخرون.. ينظمون الحياة على الارض.. ويبصرون اعمال الناس، فيثيبون المحسن وينكلون بالمسيء.

وتباينت صور هذا الخالق في اذهان البشر.. حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد.. الذي يتمثل دائماً في رب الارباب او كبير الالهة.. وجعلوا الالهة الأخرى اتباعاً له يكلفهم مساعدته ويوكل لكل منهم مهمة معينة، ويمنحهم قوى خاصة يمارسونها تارة بارشاده، وتارة أخرى من تلقاء انفسهم، دون ان يكون في ذلك مساس به أو تجريد لما له من ربوبية مطلقة، وسلطان شامل على كل شيء..!

وكان لا بد للانسان بعد ذلك ان يتخيل ذلك المجتمع الالهي الذي يختلط فيه آلهة مختلفو النزعات والاهداف والمهام.. فهم الذكر فيهم بالانثى. وكان لا بد ايضا ان تختلط تلك الصور في ذهنه بالعالم الارضي الذي يعيش فيه هو نفسه.. فنسج في اساطيره كل ما تخيله لذلك المجتمع الالهي.. من صور الصراع والنزاع والحسد والطمع والجشع والخير والشر.. مما يراه كل يوم ويشهده في العالم البشري.

قصة الطوفان

عندما تصور الإنسان مجتمع الالهة وتخيله.. بدأ يربط بينه وبين مجتمعه، حيث كان لا بد من اتصال الالهة والبشر.. واشتباك اعمال هؤلاء بأعمال اولئك.. فنشأت صور جديدة ترسم ذلك الاتصال.. ثم الاشتباك.. ثم الصراع الذي كان لا بد ان يكون..!

ولا شك ان الإنسان منذ الآف السنين قد شهد آثار التخريب والتدمير الذي حدث للارض...

وقد كان هناك بالفعل.. الطوفان الذي اغرق الارض..

ولكن الإنسان من خلال تصوراته لحقائق لم يعرف تفاصيلها.. بدا ينسج من هذه التصورات قصصاً تصور الطوفان..

لماذا لا يكون هذا الطوفان الذي وقع على الارض نتيجة لصراع بين الالهة والبشر ؟!

لا بد ان هذا قد حدث.. حين يمعن اهل الأرض في الفساد والسخرية بالالهة، فيغضب الالهة عليهم.. وينزلون بهم نقمتهم بغمر صاخب تنفجر له عيون السماء.. فيهبط طوفان هائل يقضي على البشر المفسدين.. الا واحداً يصطفيه الالهة فينجو في فلك يصنعه.. وعلى يديه تعود الحياة من جديد..

وإذا كان الباحثون لم يعرفوا بالضبط تفاصيل حادث الطوفان كما كان يتصوره البدائيون.. الا ان اساطير الطوفان التي عرفت في المراحل التالية من الديانات الانسانية قد اكدت وجود هذا التصور في اذهان البشر.. اذ بدت صورة الطوفان واضحة في مختلف الاساطير.. وتماثلت صورة الانسان الذي اصطفته السماء.. فهو شمس فيشتين عند البابليين.. وتجتوح عند السومريين.. وكزيزوترزوس عند الاشوريين... ودوكاليون عند الاغريق..!

الابطال والخوارق

عاد الإنسان خلال ذلك يواصل المسير بحثا عن الحقيقة والنور ومحاولة الوصول الى معرفة الله. وراح يطل الى الأشياء الغامضة التي تحيط به، فوهم ان لكل شيء حوله نفس الصفات التي له. وبعد ان كان يتصور ان الارواح هي في مظاهر الطبيعة وحدها.. عاد يتصور ان للجماد روحا وللنبات روحا كما لبقية الالهة التي تصورها من قبل أرواحاً.. واذن فهي تتصرف تماماً كما يتصرف الإنسان.. تحب وتكره.. ترضى وتغضب.. وتفعل كل ما يفعله هو نفسه...

واستمر الإنسان في صراعه مع الطبيعة.. ومع الحيوان.. صراع عنيف ينتصر فيه الانسان مرة والطبيعة والحيوان مرات.. فما كان لدى الإنسان سوى وسائل بدائية بسيطة ساذجة.. للنزول بها في معترك هذا الصراع الرهيب.

ولم تعد وسائل الحرب العادية البسيطة تكفي ذلك الانسان... وهو يصارع قوى اشد منه واكثر قدرة. فبدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بوقاها الخارقة منازلة اعدائه.. ومن خلال خيالاته بدأ يستعين بأصحاب الخوارق فيما لم يستطع ان يفعله

بنفسه.. فصور اتصاف الالهة يستمدون قواهم من السماء.. وصور ابطالاً خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان.. ومظاهر الجبروت عند الالهة..

وهكذا ظهرت الميثولوجيا الإنسانية في أساطير الإنسان.

مجتمع الجن

لم يكتف الإنسان خلال بحثه عن مصادر القوة التي تساعده على الأعداء بمثل هؤلاء الابطال فبدأ يتخيل من جديد كائنات اخرى تستطيع القيام بما يعجز عن الإتيان به والوصول اليه.

وهنا ظهر الجن في تصورات الإنسان القديم.. جن خيرون يستطيع بواسطتهم الوصول الى ما يجد نفسه عاجزاً عن بلوغه بغير شيء خارق... وجن شريرون يساعدونه في الانتقام من الأعداء عند تصور اقصى انواع الشر في مجال الشر. وجعل الإنسان للجن من القوى والسمات الفائقة ما يقدمهم عليه هو نفسه.. ما دام هو ادنى قوة واقل من الجن سلطاناً..!

تصور الإنسان أن المجتمع الجن مثل مجتمع الإنسان من حيث التركيب.. ففيه حكام وامراء وفيه اجراء وصعاليك، وفيه خيرون وشريرون. ولكن اهم صفات هذا المجتمع انه يساكن الإنسان ويعاشره ويساكنه في جسمه وفي ثوبه وفي طعامه وفي تفكيره وفي علاقاته الجنسية وفي اخص خواطره..

هكذا تخيل الإنسان الجن الذين لا يراهم رأي العين.. وادخلهم دائماً خلال صراعه بين الخير والشر.. وبين البشر والآلهة. ونظم اسلوباً للتعامل بينه وبينهم، وجعل عالمهم تصاعدياً مطبوعاً بالسلطة شأن المجتمع البشري الاقطاعي... واضاف الى اشخاصهم صفات الشذوذ في الهيئة والمسكن والسلوك والصوت.. حتى يستطيع بذلك ان ينم عن صفاتهم الخارقة للمصطلح العام، ويدل على التميز البالغ حد التفوق.

السحر في شعائر العبادة

غير ان اشياء اخرى في تفكير الإنسان دفعته الى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ اهدافه.. وسائل يستطيع ان يلمسها ويتبينها بنفسه في الوقت الذي لا يستطيع فيه ان يلمس ويتبين اشخاص الجن. وهنا.. اتجه الإنسان نحو السحر..

واصبح السحر في عقيدة القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادة. وتصور الإنسان محاولات جديدة لاسترضاء الالهة والقوى الخفية التي ظل يجهل طبيعتها وغايتها.. فعمل على اجتلابها في صفة لمعونته.. ولم يجد سوى السحر سبيلا الى ذلك.

باعتباره القوة الجديدة التي يستطيع بها ان يقهر القوى المناهضة له او الخارقة لكل مستطاع. وهكذا شاع الاعتقاد بأن الرقية او التعويذة او القسم القدسي يجبر القوى الخفية على ان تطيع الإنسان.. وجعل هذا الإنسان قوة السحر اساساً جديداً لصراعه مع العالم المجهول.

اصول الديانات الإنسانية

كل هذه الافكار البدائية التي ابتدعها الإنسان البدائي خلال مراحل تفكيره في الخلق والخالق.. عاشت مع الإنسان بعد ذلك حتى بدأت الديانات السماوية..فاخذت تتلاشى كنظام حل محله النظام الديني. ومع ذلك فان بعض هذه الافكار ما زال لها بقايا في معتقد كل أمة، حتى الأمم التي تعيش في ظل الصناعة والعلوم.. بقايا لا تزال مسيطرة على العادات والتقاليد والثقافة الإنسانية بوجه عام..

من ذلك ان الفراعنة.. حتى بعد ان سموا بالتفكير البدائي الى مراحل اعلى.. فسروا الفيضان في اساطيرهم بأنه حقيقة الدموع التي تسفحها ايزيس وهي تبكي اخاها اوزوريس الذي قتله ست. وعندما جاءت المسيحية مصر وازالت عبادة ايزيس.. استامرت اسطورتها تعيش في معتقد الفلاحين في شكل تصور مسيحي جديد يقول ان الفيضان ينبع من دموع القديس ميخائيل الذي كان كلما حل ميعاد الفيضان يدخل على العرش الالهي يرجو الله ان يرحم عباده المصريين فيأمر بزيادة النيل.. ويظل يتضرع ويبكي حتى يستجاب دعاؤه ويفيض النيل من فيض دموعه..

المراحل الاخيرة للتفكير البدائي

كل هذا التفكير وهذه الصور لجأ اليها الإنسان البدائي وهو يحاول الوصول الى معرفة الله..

واذا كان الانسان قد اخذ يدرك حقيقة الفرق بين الخير والشر.. وضرورة ان يكون الخالق الاول خير عظيم...

الا إن الشر كان مع ذلك ينتشر في الأرض..

ومع مضي الأيام.. تبين الحكماء ان اساس كل هذا الشر هو عبادة الاصنام.. فأخذوا يعظون الناس بالكف عن عبادة الأوثان...

وقامت عقائد جديدة على الأرض...

عقائد انسانية كثيرة اخذت مكانها في افكار كثيرة وبين شعوب عديدة في ارجاء الكون.. في محاولات جديدة لرحلة البحث عن الله...

ومن اجل ان تهدي السماء الناس.. ارسلت الرسل برسالات محددة الى اهل الارض.. لتبعدهم عن الجاهلية الاولى...

ومع تغير الناس في العالم وتناسلهم راحت تلك العقائد الإنسانية تتغير.. وراح كل جديد يمحو القديم.. حتى انمحت من الوجود الان بعض الديانات الإنسانية التي كانت موجودة فيما مضى من الأيام.. تماماً كما انمحت امم وشعوب كانت موجودة على الأيام.. ولكنها كانت مع كل ذلك تواصل جهدها لمحاولة الوصول الى معرفة الله... الخالق الاول العظيم.

سليمان مظهر

ديانة
مصر
القديمة

القسم الأول

عقائد مصر والشرق الأدنى القديم

شروقك جميل يا سيد الأبدية
انت مشع وجميل وقوي
حبك عظيم وكبير
اشعتك تظهر كل ما خلقت
سطحك يضيء معطياً الحياة للقلوب
أنت تملأ الأرض بحبك
أيها الإلّه المعبود
الذي صنع نفسه بنفسه
الذي صنع كل أرض وخلق كل ما عليها
ما أكثر مخلوقاتك التي نجهلها
أنت الإلّه الأحد لا شريك لك
خلقت الأرض بإرادتك
ولما كنت وحيداً في هذا الكون
خلقت الإنسان والحيوان.. الكبير والصغير
والمخلوقات التي تدب في الأرض
أو تطير بأجنحتها
أنت الذي احللت كل إنسان في موضع
وأنعمت عليه بحاجاته
فصار كل منهم يأخذ نصيبه
ويعيش أيامه المعدودة
لقد خلقت ألسنتهم واجسامهم وجلودهم
فسبحانك من مميز لخلقك

« اخناتون »

كل العبادات.. حتى التوحيد

هناك.. في قلب هليوبـوليس.. كان يقبع قصر فخم لم تعرف مصر قصراً مثله على الإطلاق.. امام ابوابه تنتصب مسلات شامخة، وعمد ضخمة، وعلى جوانب ممراته تصطف تماثيل اسود وكباش، ترقب كل زائر غريب. وتنحي كل مارد رجيم. اما القصر نفسه، فيموج بجموع هائلة من الخدم، كلهم عيون مفتوحة وآذان مرهفة، في حراسة الإِلّه الأكبر «رع» رب القصر العظيم.

هنا.. في هذا القصر.. كانت تجري قصة الحياة..

يفتح رع إلّه الشمس عينيه، فيبزغ الفجر على الوجود. وينهض من فراشه ليدلف الى الحمام يستحم بالماء البارد. وتقبل عليه «انوبيس» إلهة الندى فتصب علبه أباريقها الأربعة الطاهرة، وينطلق «مورس» فيدلك جسده. وينحني «توت» فيجفف ساقبه. وما يكاد الجميع ينتهون، حتى يرتدي الإله الأكبر ملابسه المتلألئة ذات البريق. وينطلق ومن امامه الرسل تتسابق لإخلاء الطريق، ومن حوله جنود الموكب ينحنون حتى تلامس جباههم غبار الارض. ويصل الإله الى زورقه العلوي الراسي على ضفة النهر، فيستقله منزلقاً به على الأفواه، بلا مجذاف ولا شراع ولا دفة.. ويطلع النهار فيهتف الناس والإلّهة على الضفتين:

«تباركت يا رع.. يا خالق السموات والارض.. يا مرسي الجبال وساقي البحار.. يا رسول الفرح والحرارة والضوء الى ارض السلام».

ومن الشرق، تبدأ دورة كل يوم، لتنتهي بعد ذلك في الغرب، حيث يختفي موكب رع في ظلمات الافق، فتظلم الارض، وتضيء ظلمات العالم

السفلي... اقليم الجحيم الرابض في الأعماق. وهناك، يستمر مسير الإله على صفحة نهر كبير، يخترق وادياً يتفرع الى اثني عشر فرعاً، تفصل كل واحد منها عن الآخر جدران هائلة ذات ابواب ضخام..

وتجري رحلة الليل كما تجري كل يوم. وتمر الساعات هادئة طوالاً والإله لا يزال يسير، حتى يلج الباب الذي يصل الى حدائق «أيالو»، حيث يرقد رقدة قصيرة في قصره الكبير... ما اسرع ما ينهض بعدها ليبزغ الفجر، وتبدأ إشراقة يوم جديد.

وكان الناس.. كل الناس في هذا العالم الكبير، يسجدون لرب النور كل صباح.. الرب السخي على كل خلقه في هذه الأرض. فهو لا يني طوال تسياره يصرف كل انواع الأعمال.. يقابل الخلق ويهديهم. ويقضي على شكاوى والمظلومين. ويرفق بالمعذبين فيزيل عنهم الأوجاع. ويعلم الناس تعاويذ الوقاية من خطر الثعابين والحيات. ويمنحهم الطلاسم التي تطرد كل شرير من الارواح. ولم يبخل رع ابداً على الناس بما يحمل من تعاويذ وطلاسم لحمايتهم من الشرور.. فهؤلاء الناس بعض خلقه.. هم مخلوقاته التي اخرجها من فمه عندما لم تكن سماء ولا ارض.. وكان خلقه لهم بصورة مخالفة لما سبق ان صنعه هو نفسه من نفسه. ففي البدء لم يكن هناك غير محيط ازلي مظلم.. هو «توق».. برز منه إله الشمس بقدرة فيه.. وكان هو نفسه رع.. تماماً كما كان هو نفسه أيضاً الإله المبدئي «آتوم» مقترنين معا. وبقوته المذكرة، او بقوة الاستنماء الداخلي، اعتلى «رع آتوم» حجرا مدبباً من أعلاه يسمى «بنبن» ثم خلق من نفسه وبطريقة مادية اول زوج من الالهة.. هما «شو» إله الهواء... و«تفنوت» الهة الندى. ومن هذين ولد «جب» اله الأرض و«نوت» الهة السماء. وكانت الأرض والسماء رتقا ففتقهما شو. ومن تزاوج جب ونوت ولد «أوزوريس» و«ايزيس» و«ست» و«نفنيس»... ومن الجميع تكون التاسوع المقدس لعين شمس.



(١) حور

كل ذلك كان البشر يعرفونه ويؤمنون به في مصر ... وفي هليوبوليس بالذات.. وكانوا يقولون ان رع حين خلق بقية الالهة كان نجلس عالياً على البنبن في صورة طائر الفينكس المعروف بروح رع.. كما كان يتخذ لنفسه احدى صور ثلاثة.. فهو يظهر عند الفجر في صورة جفران هو خبري.. وهو عند الظهر في صورة الشمس رع.. وهو في نهاية البوم في صورة الرجل المسن.. آتوم.. والناس يعرفون له اسماء اخرى كثيرة واشكالا اخرى. عديدة.. فهو خالق السماء وخالق الأرض.. وهو شمس الصيف، ووهج الظهيرة. هو النور والظلام «مرسي الجبال ومجري البحار» هو من يتولد الضياء من فتح عينيه ومن غمضهما يتولد الليل..

غير انه مع كل ذلك.. وكما تصور المصريون القدماء... تعرض ذات يوم للهوان مع زوال قوته وسريان دبيب الشيخوخة فيه.. وأطل البشر من حولهم، فإذا الههم هرم عاجز. شقي ساخط، لا يستطيع ان يفعل شيئاً بعد...

وبدأت حركة العصيان البشري ضد رع.. وبعد ان كان البشر يسجدون ويصلون للاله العظيم.. راحوا يسخرون ويضجون ويتغامزون.. ويهاجم بعضهم بعضا من أجل الهزؤ بأبي الالهة.. ويقولون: «انظروا.. لقد شاخ رع شاخ الذي عظامه من فضة... ولحمه من ذهب.. وشعره من لازرد..

واضطرب رع. وشعر بالمهانة والخزي. وملأ غضب صاخب على جميع مخلوقاته فوق ظهر الأرض. وهتف رب الشمس في آلهة التاسوع الذين يحيطون بموكبه كل يوم.

– ايتها الالهة.. اجدادي وابنائي.. ها انتم اولاء ترون البشر.. مخلوقاتي التي أخرجتها من فمي «يتهامسون علي ويأتمرون بي.. أصبحوا يتعمدون احتقاري ويسخرون بهيبتي ونفوذي.. وراحوا يواصلون الفساد والشر على الأرض... فماذا انتم فاعلون؟

وتكلم «نون» الجد الأعظم لكل الآلهة..

- يا ولدي رع.. يا إلها اكبر من الآله الذي انبثقت منه... احكم بالعدل.. واقم الدعوى على المذنبين.. حتى يبين المارق فيعاقب.. ويظهر المذنب فيدان..!

ولم يقتنع رع:

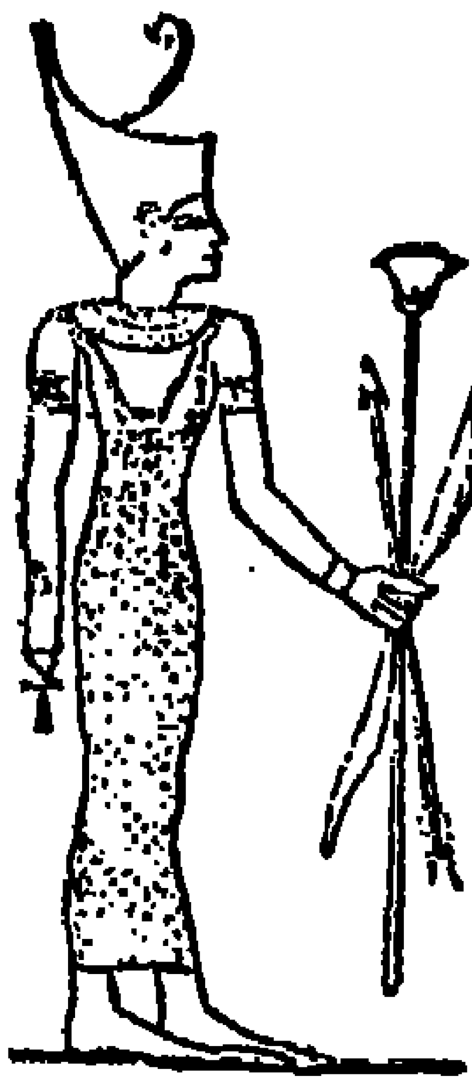
- اذا نحن انتظرنا حتى نقيم العدل.. استشعر المارقون بالخوف، وعرفوا المصير الذي سيأخذ بالمذنبين.. في ذلك الوقت سيعمدون الى الصحارى والقفار يختبئون فيها، ولا يعود لنا اليهم من سبيل.

وتشاور الالهة.. ثم احنوا جباههم وهم يقولون مجتمعين:

- ليعاقب البشر دون محاكمة.. ولتكن حاتمور.. عين رع الالهية في صورة سخمت.. هي الجلاد..!

وهكذا كان..

وانقضت حاتمور تلاحق البشر في كل مكان.. وتثخن فيهم طعنا وتذبيحا.. تعذب هنا وهناك.. تذبح وتقتل.. وتعب الدم عبا.. انتقاما لأبيها المقدس ممن كانوا يفسدون...



(ب) نيت

ومن كل اركان الارض الملتاثة، علت صرخات البشر ذليلة خانعة تطلب الغفران. ومن عليائه أطل رع.. فإذا مصر كلها انهار من دماء، وصفوف طويلة من أجساد الأشقياء. واغمض الإله الرحيم عينيه. فما تصور قط ان حاتمور تفعل كل هذه الافاعيل بالبشر الذين خلقتهم.

وانفثأ غضب رع، واخذته بالناس شفقة غامرة رحيمة، وصاح في ابنته ان تكف عن القتل والتذبيح... ولكنها لم تهتم قط.. وما سمعت له ابدا.

وكان الفتك والتقتيل وطوفان الدم بشعا مخيفاً.. ولم يكن بد من أن يسرع رع بإنهاء رحلة النهار، فهبط الليل، وسادت الظلمة، وتوقفت شاربة الدماء عن الطواف الجتاح على أمل ان تستأنفه في الصباح.

وأطل رع حزيناً الى شعبه المسكين وملأه الاسى.. وهتف فيمن حوله من ارباب السماء أن يأتوه سراعا برسل حاذقين اسرع جريا من الهواء. وعندما أتوا امرهم بالذهاب الى جزيرة « فيله » واحضار كمية هائلة من ثمار الرمان.. والخشخاش...



(جـ) حتجور

وما هي الا لحظات حتى كانت الثمار قد وصلت. وكان الإله قد استدعى طحان هليوبوليس، وامره بعصر الثمار ومزجها بمسحوق حب الشعير.. وعندما امتزجت كل تلك الاشياء، نتج عنها مزيج مسكر بلون الدم البشري، يملأ ستة الآف مكيال. وأمر رع بنقل المكاييل الى كل انحاء الارض. وصب الرسل السائل الاحمر في كل مكان، فامتلأت به الكهوف والحقول والانهار..

وجاء الصباح. ونهضت حاتمور تستأنف دورة التقتيل وعب الدماء واطلت فإذا طوفان شامل يشبه الدم يغريها ويدعوها لري الظمأ. وراحت تعب من السائل المسكر المخدر وهي تظنه دماً بشرياً صرفاً حتى ارتوت. وظلت تشرب حتى هدأت ثورتها ولان قلبها. وانطلقت سكرى مخدرة لا تفكر في متابعة التذبيح والتقتيل.. واستقلت في راحة لتضع حداً للمجزرة المجنونة الهائلة.

وعادت الحياة من جديد على ظهر الارض.

واستمرت الأيام تمضي وفي اعقابها السنون. والشيخوخة تنخر بدبيبها الثقيل في جسد رع. حتى اتى زمن جديد عاد فيه البشر الى التهامس عليه والسخرية به.. واستئناف الفساد والشر..

في هذه المرة لم يفكر الإله في تعذيب البشر واهلاكهم.. بل ملأته الرغبة في التنحي عن حكم العالم.. والخلود الى الراحة والهدوء.. وقرر ان يرحل الى حيث لا يصل إليه بشر قط.

ونادى رع ولديه شو.. إله الجو.. ونوت إلهة السماء..

- يا ولدي شو.. انا تارك لك مقاليد الحكم.. فأكمل مشيئتي وتولَّ أنت

الأمر.. وأنت يا ابنتي نوت.. احملي اباك على ظهرك وارفعيه بعيداً جداً فوق الأرض..

وحاولت نوت ان تعترض. غير انها اذعنت للامر فتحولت الى بقرة. وحملت اباها رع فوق ظهرها الكبير.

وطلع الصباح على الناس، فإذا رع العظيم قد غادر قصره.. واذا بقرة إلهية هائلة قائمة ومن فوق ظهرها الإله الغاضب على البشر.

وراح الناس يتوسلون الى الإله ان يعود.. وراحوا يقدمون له قرابين بشرية ليزول غضبه.. ولكنه كان رحيما بعباده.. فلم يحتمل قلبه ان يضحي بعض البشر ببعضهم تكفيراً عن ذنوب المذنبين.. فقرر ان يهديهم الى استبدال المذنبين بالثيران والطير في القربان.. على ان يتلو الكاهن الذي تولى تقديم القربان تعاويذ خاصة تحل الحيوانات محل المذنبين..

وبعد أن تعلم الناس القربان.. اعتلى رع ظهر البقرة الإلهية ابنته نوت.. فارتفعت اكثر وتقوست حتى اصبحت كالقبة.!

غير ان نوت لم تستطع ان تصمد طويلا. وكادت تنهار تحت ثقل رع. فخارت قواها ووهنت قوائمها. ولم تجد بداً من طلب يد العون. عندئذ قال رع:

- يا ولدي شو.. ضع نفسك تحت ابنتي نوت، وآزرها في حملي. واجعلها تستند على ذراعيك القويتين من الجانبين.. واحفظها فوق رأسك العظيم.

واطاع شو.. وسلمت نوت من السقوط. وامتد بطنها قبة زرقاء صارت هي نفسها فيما بعد السماء التي تغطي الكون.. وراح رع ينثر على صفحتها النجوم لتنير الليل. وانصرف من بعد الى تنظيم العالم الجديد الذي اكتشفه من فوق ظهر البقرة المترامية الاطراف.. واستمرت الحياة تسير.

الآلهة الكونية:

بمثل هذه الأساطير تصور الناس في مصر القديمة قصة الخلق والطوفان.. وحقيقة الاله الخالق والآلهة المساعدة التي تنظم شؤون الكون.

وكانت الالهة الكونية كما يقول العالم المصرولوجي انور شكري هي ابرز معتقدات الإلهية عند المصريين: «حيث للعناصر الكونية في ارضهم قوة ووضوح وشخصية تؤثر تأثيراً ضخماً على كل شيء.. ينظر المصري فيرى حوله سماء صافية لا تكاد تغيم، وشمساً ساطعة تشرق مرسلة شعاعاتها الباهرة وهي تنطلق في تؤدة ملك عظيم لتحيط بالكون مشرقة عليه من الشرق الى الغرب. ونجوما زاهية تضيء الليل وقد تحددت خطاها واتضحت مسالكها، ونيلا يفيض في موعد ثابت كل عام يرتقب مجيئه ويثير الرهبة الى تعدي حده.. يروي الأرض فينمو النبت ويأكل السكان ويكتسون.. كل ذلك الى جوار صحارى قاحلة تحيط بالوادي ممتدة الى ما لا يحده طرف.. باعثة الرهبة في قلب من يجوب فيافيها ومتاهاتها. من هنا لم يكن عجيباً ان تعلق قلوب المصريين بمظاهر الطبيعة وتتوه بينها خيالاتهم.. فيروا في الشمس والقمر والأرض والسماء والماء والهواء آلهة يرهبون جانبها ويقدسونها حيثما تكون دون الحاجة في البداية لرمز يكن عنها، او معبد يشير لعبادتها، على غير ما كانوا يصنعون مع المعبودات المحلية. ومع التقدم السياسي وما صاحبه من تقدم في التفكير الديني لم تعد اسر الآلهة المحلية الأولى تتفق وقيام حكومة في البلاد ذات سلطان شامل، كما لم تعد تكفي لتفسير نظام الكون وخلق العالم على صورة منطقية مقبولة. لذلك ابتدع المفكرون من رجال الدين نظريات دينية جديدة اختاروا عناصرها من الآلهة الكونية، كما اضافوا في بعض الأحيان من الصفات الكونية على الإله المحلي ما كان يرتفع به الى مصاف الآلهة الكونية العظيمة...

الآلهة المحلية:

اذن.. كانت هناك آلهة محلية تتصل بالعصور الحضارية الاولى.. كيف كانت هذه الآلهة..؟ الى أي شيء كانت ترمز؟ وما هي مميزاتها؟

الحق ان تتبع هذه الآلهة، وعلى الأصح المعبودات المحلية يحتاج أولا الى

تعقب تاريخي لما كان يجري على أرض النيل الخالد منذ أكثر من خمسة آلاف سنة.. والعقيدة المصرية القديمة بشكل عام يمكن تعقبها من اصولها البعيدة الممتدة الى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، حيث اظهرت الاثار والحفريات كيف كانت بعض الحيوانات تعامل وتدفن بتقديس كبير يؤكد أن عبادة الحيوانات كانت جزءاً من العقيدة المصرية.

ولماذا لا يحدث ذلك.. بينما الظروف الطبيعية التي كانت تسود مصر تجعل للحيوان قيمة كبيرة عند المصري القديم منذ الأزمنة الأولى قبل عصر الأسرات؟ لقد كانت الطبيعة المصرية غنية بالمناقع والاحراش حيث افراس النهر والتماسيح.. وحيث الغزلان والأيائل في وديان الصحارى المحيطة بوادي النيل.. وحيث الظباء والثيران والسباع والذئاب.. ولم يكن غريباً ان يأنس المصريون- وهم في حياتهم على اوثق اتصال بطبيعة بلادهم- في بعض الحيوان والطير من الصفات والخصائص ما يثير شعورهم فيقدسوه.. إما عن رهبة وخشية كاللبؤة والتمساح، او ابتغاء خيره ونفعه كالبقرة والثور.. او لغرابة في طبعه ومظهره كأبي منجل والقرد.. او لصفة ممتازة فيه كالصقر..

ولكن كل هذه المعبودات لم تكن مهيأة للتقديس في كل انحاء مصر معاً فقد كانت مصر قبل الاسرات تنقسم الى مقاطعات.. لكل مقاطعة اعلامها. ولكي تبين كل مقاطعة عن الاخرى كان كل علم يحمل رمز الحيوان او النبات الذي يميزه عن غيره.. وهي في مجموعها تمثل اقدم الالهة. ومن هنا لم تعد المقاطعات مقسمة تقسيماً ادراياً فقط بل تحولت الى مناطق نفوذ ديني. وظل سكان كل مدينة مستقلة يعتبرون معبودهم اعظم الآلهة واليه ينسبون خلق الكون. وعندما قام الإتحاد اصبح إله العاصمة الإله الرسمي للمقاطعة ولم ترتح المدن المغلوبة على أمرها الى ذلك فارتبطت آلهة المقاطعة برباط عائلي. ثم بدأ التوحيد يحدث على نطاق اوسع بين المقاطعات جميعاً. واصبحت لبعض هذه المعبودات صفة عالمية.. اظهرت بعض هذه الآلهة في

صورة آدمية لتقريبها للاذهان وان احتفظت برأس الحيوان او برمز يذكر بأصل المعبود مثل الإله من آلة الخصب.. بينما أخذت آلهة اخرى صورة آدمية خالصة عندما تكون شخصيتها مجردة مثل «آتوم» في هليوبوليس و«آمون» في واسه و«بتاح» في منف.. وآمون في طيبة. ومن ابرز أمثلة الآلهة المحلية التي تحولت الى آلهة عالمية.. ارتفاع المعبود «حور» الحيواني الاصل من صورة الصقر الى مرتبة ملك السماء صاحب العينين العظيمتين.. الشمس والقمر.. وكانت مرحلة الانتقال معاصرة لانتصاره الحربي مما ادى الى ظهور «رع حوراختي» فيما بعد في هليوبوليس..


(د) خنوم

اما في الجانب الآخر فقد توقفت بعض الآلهة عن الصعود الى سلم الترقي بسبب «عالمية الوظيفة» مثل «خنوم» صانع الاواني الفخارية والصور الآدمية، و«تحوت» اله العلم.. و«بتاح» اله الفن و«سشات» الهة الكتابة و«حقات» حامية الحوامل..

وبشكل عام.. فقد اخذت المعبودات في معظم الحالات الشكل الحيواني.. وقدم الاله في صورة حيوان كامل كما هو الحال مع الإله العجل ابيس، او كمخلوق له جسم الإنسان ورأس الحيوان. ويعتبر هذا المزج بين الحيوان والإنسان تطوراً احتذاه قدماء المصريين كحل وسط. وتتضح هذه الأمثلة في اشكال الإله انوبيس برأس ابن آوى، والصقر حورس، والكبش خنوم..!

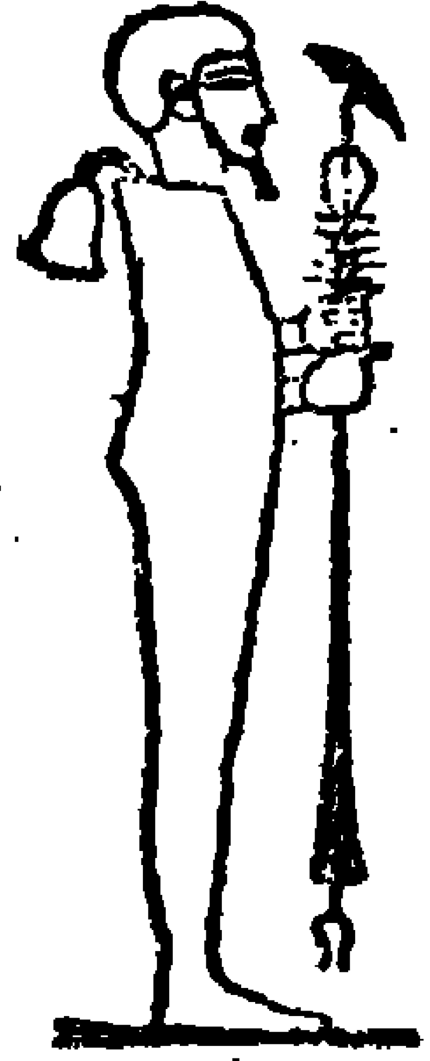
وتعتبر العبادات الحيوانية في الواقع جزءاً اساسياً من الديانة المصرية. كما تشير أيضاً الى الحياة الجماعية في افريقيا والتي نشأت في أودية الأنهار. وعديد من الآلهة الكونية او الآلهة التي من صنع الإنسان نبعت من منطقة شرق الدلتا.. ولكن هذا لا يمنع ان هناك ديانات اخرى كثيرة كانت تقدس الحيوان ايضاً. ولكن الأمر الجدير بالملاحظة في مصر هو انه كان هناك احياء وامتداد للعبادات الحيوانية التي شهدتها الفترة السابقة لعصر

الاسرات.. واحدى هذه العبادات التي امتدت واتسعت هي عبادة العجل ابيس في ممفيس والذي قدس في وقت مبكر منذ الأسرة الأولى. وكان تقديس ابيس يصور تطوراً شعبياً الى حد ما. وبعد البداية الذاتية التي بدأها ابيس، فقد تم بعد ذلك ربطه بالآلهة الكبرى رع وأوزرويس كما ربط ايضاً بالإله بتاح الاله الرئيسي لممفيس.

وبينما كان فرعون نفسه هو الإله من الناحية الرسمية فقد حظيت جماعة قليلة اخرى بهذه المنزلة، وكانوا محل التقدير والاحترام بعد موتهم اعترافاً بصفاتهم المميزة، ومن خلال هذه العقيدة كانت النظرة الى امنحوتب المهندس اللامع الشهير للملك روسر في الأسرة الثالثة. كذلك كانت النظرة الى امنحوتب ابن جابو في الأسرة الثامنة عشرة. كما نجد أيضاً ان تقديس الموت في مرحلته الأخيرة اظهره- وعلى غير توقع- الها للطب مما وحده بعد ذلك مع اسليبيوس اليوناني. كما كان هناك نوع آخر من الالهة يختلف تماما يضم سلسلة من المعنويات المجسمة مثل سيا اله النهم، وحو اله الكلام، وهايل اله السحر.

ولعله يبدو من خلال ذلك ان الديانة المصرية تحتوي على افكار وعقائد لا تخلو من تناقض في بعض الأحيان. ولكن ذلك لا يرجع الى طبيعة المصريين، وانما إلى أنه تراث اجيال طويلة وعبادات مختلفة. وعلى أية حال فقد تصور المصريون آلهتهم على شاكلتهم، عاشوا على الأرض وتعرضوا فيها لما تتعرض له الحياة الإنسانية من افراح وآلام، واعتورهم ما يعتري الإنسان من ضعف وموت. وكان لهم ما له من غرائز وشهوات. بيد انهم الى جانب ذلك تمثلوا الإله الأكبر ايا كان اسمه او مكان عبادته، بأنه الإله العظيم.. القوي.. الطيب.. العدل.. الرحيم.

لقد كان خيال المصريين القدماء خيالاً واسعاً عريضاً عميقاً حقاً كما يقول عالم المصرولوجي «نجيب ميخائيل..» فقد رأوا في السماء بقرة كبيرة تعتمد على قوائمها الأربع التي تمثل دعائم السماء وفيها يبحر قارب يحمل


(هـ) پتاح

شمس الصباح. ورأوا في السماء أيضاً امرأة تحل محل البقرة أحياناً، تنحني بجسمها المديد فوق الأرض وتعتمد على ذراعيها وساقيها التي تحل محل قوائم البقرة. أما الشمس فقد رأوا فيها حيواناً مرة ورأوا فيها مرة أخرة قرصاً مجنحاً.. وهو مرة ثالثة قرص يتحرك بين جسدها وارجلها. كانت السماء انثى والأرض ذكراً. السماء آلهة هي «نوت». وان كانت للسماء الهات اخريات هن «حاتمور» برأس البقرة وذراعي وساقي المرأة او بالأرجل الأربعة للبقرة التي تمثل دعائم السماء الأربعة. ثم تتحول الدعائم فيا بعد الى جبال. وتحت البقرة او المرأة على وجه السماء خضم تبحر فيه سفن الشمس وتسقط منه الأمطار. اما الأرض فرجل يستلقي على بطنه أو على ظهره وتنمو النباتات على ظهره ويحيط به محيط واسع. واحد جانبيه أحمر قاحل يعيش فيه المتدبرون والآخر أسود خصب حيث المصريون. والأرض جسد مؤله هو «جب». وبين السماء والأرض يقبع الفضاء «شو» وهو آله يسند مع غيره من الآلهة البقرة. ولكنه يمتاز عنهم بأن له زوجة.. وهو يقف على الأرض ويسند السماء بذراعيه. اما النيل فمنحه الآلهة تلناس، وهو يخرج من الجندل الأول وهو جسد مؤله كذلك له صدر الهة انثى. وتحت الأرض العالم السفلي.. عالم الموتى. تدخله الشمس كل مساء وتقضي به الليل لتخرج منه من الشرق كل صباح. وفي العالم السفلي نهر تبحر فيه الشمس في قارب السماء التي هي سماء ثانية سفلية. والعالم السفلي يعج بالموتى الذين يسعدون برؤية الشمس. وعند خروج الشمس من العالم السفلي تتهلل القردة..

الا ما اوسع خيال المصري القديم وهو يتصور معبوداته من خلال طبيعة ارضه وسمائه.

فعندما تأمل المصريون الخصب الدائم الممنوح لأرضهم الطيبة اعتبروا ان صانع كل ذلك هو النيل والشمس.. وان الآلهة المرتبطة بكل من هاتين

الظاهرتين هي صاحبة اليد الاولى لحركتها ومسيرتها وتأثيرها في حياة الأرض والناس. وارتبط النهر الخالد بالاله حابى.. الى جانب آلهة اخرى محلية هي التي تحمل الطمى الخصب والنبات في الفيضان.

ومع ابتداء وصول مياه الفيضان في يوليو كان يظهر النجم سيروس مع شروق الشمس.. ومن هنا سمي هذا النجم اللامع بالآله سوزيس.. ممثلاً للخضرة الناشئة من خصب الفيضان.. كما كان الآله سبك.. الآله التمساح. بل ان الآله اوزوريس ايضاً يمثل وهو في كفن الموتى علاقة قريبة بين النيل والخصب.

الآله رع:

اما عن الشمس.. فإن الآله رع في هليوبوليس هو الذي يمثله في قوة اللاهوت الكونية. وكان رع يتمثل في شكل آتوم رع.. وفي آله السماء حورس.. الآله الصقر الذي يعني اسمه انه «هو البصير». ورع اختى يتمثل في شكل جسم رجل ورأس صقر. والرمز الرئيسي لرع هو المسلة.. والمثل العليا للعدالة والكلمة المقدسة هي الآله رع.. والآلهة ماعت «الصدق والعدل والوئام» هي ابنته. وكانت عبادة الشمس قد بلغت من الأهمية والانتشار ما مهد لقيام الأسرة الخامسة بعد غصر بناء الأهرام وهي التي جعلت من ديانة رع الديانة الرسمية للبلاد. وشيدت لها المعابد وحسنت عليها الأراضي.. واصبح يراعي منذ ذلك العهد ان يتألف الاسم الذي يتخذه الملك عند توليه العرش من اسم «رع» ان لم يكن اسمه الأصلي الذي عرف به منذ ولادته يشتمل عليه. وقد قدر لعبادة الشمس ان يكون لها أثر عميق في ذات المعبودات المحلية، فقد حدث عندما اصبحت هي العبادة الرسمية ان حرص كهنة العبادات الأخرى على الا تتخلف معبوداتهم عن اله الشمس، فشبهوها به وادعوا انها هصور له ليكون لها نصيب من جاهه وسلطانه. وهكذا اتخذ كثير من الآلهة شخصية اله الشمس واتحدت به مثل «مين رع» و«سبك رع» و«خنوم رع» و«آمون رع».

الآله بتاح:

على ان هذا لا يمنع من وجود آلهة أخرى رئيسية غير رع آله الشمس في هليوبوليس. فقد كان هناك الآله بتاح الذي كان آلهاً للعاصمة الجديدة منف او ممفيس بعد ان زالت دولة هليوبوليس وكان يعتبر آله الفنون والصناعات واعتبر أيضاً خالق كل شيء من آلهة وبشر. وقال الكهنة انه خالق الأشياء كلها بفكره، فكر فيها القلب ونطق بها اللسان.. وبمعنى آخر فقد نشأ الكون اول الامر صورة في عقل بتاح.. ثم نطق لسانه بما فكر فيه عقله فخلق الكون بالكلمة.

وكان هناك آمون.. آله الأمبراطورية وخاصة عندما انتقلت العاصمة في الدولة الحديثة الى طيبة. ومن خلال اناشيد آمون التي نشرها كهنة يدعى الإلّه ناته «ملك الآلهة» و«سيد الملوك» و«الإلّه العظيم» و«بداية ما جاء الى الوجود» و«سيد السماء».. وفي الدولة الوسطى كان آمون مقترناً تماماً بإلّه الدولة القديمة رع تحت اسم آمون رع القوي الشهير. فلما كانت الدولة الحديثة طغى آمون على جميع اختصاصات وصفات رع فأصبح هو إلّه الدولة آمون رع والاب الجثماني للملك الحاكم كما كان رع من قبل.. وتحول بذلك النظام الشمس الكاملة لدولة رع الى آمون رع.

وفي الكهنوت الطيبي يعتقدون ان آمون عندما جاء الى الوجود لم يكن هناك شيء كائن. لهذا كان هو خالق نفسه بنفسه ثم جاءت الآلهة بعده الى الوجود. وهو لم يكن له اب او أم بل انه شكل بيضته بنفسه ومزج نطفته بجسده وكان مختفياً كآمون على رأس الآلهة. وهو يرتبط بظاهرة الهواء في الضوء والماء ايضاً. واقدم رمز له هو الأوزة وبعد بدء الدولة الحديثة يصبح رمزه هو الخروف. وكان يمثل على هيئة رجل ملتح يلبس غطاء راس تعلوه ريشتان ومن خلفه يتدلى خيط ويمسك في يد «واس» وفي الأخرى «غنخ». وقد كانت لآمون السيادة حين كانت هناك مستعمرات

مصرية. وازدادت عظمته بعظمة مصر واختفى حين ضاعت هيبتها.. فقد كان حقاً إله مصر الأمبراطورية.

أسطورة أوزوريس:

وكان هناك غير ذلك الهان بارزان آخران لعبا دوراً كبيراً في العقيدة المصريـة القديمة.. هما أوزوريس وموريس.. ولهما قصة تتحدث عنها الأساطير..

«بعد ان لعن رع الآلهة نوت اصدر حكمه بأن تظل عاقرا طيلة أيام السنة.. وهزت الشفقة عاطفة الآله تحوت نحوها فخلق لها ايام النسيء الخمسة فوضعت فيها اولادها الخمسة «اوزوريس» و«ست» و«ايزيس» و«تفنيس» و«نبت حت». وعند ولادة أوزيريس صاح صوت في معبد طيبة ان ملكاً طيباً صالحاً قد ولد. ثم اعتلى اوزيريس العرش بعد ابيه «جب». وكان ملكاً صالحاً نشر الثقافة بين الناس وعلمهم الزرع واحترم القانون وأكرام الآلهة. ودربهم «تحوت» على الآداب والفنون وابتكر لهم الكتابة الهيروغليفية. وكان «اوزيريس» موسيقياً بارعاً احبه الناس فحقد عليه اخوه ست وتآمر مع آخرين حتى صنع صندوقاً بحجم اوزيريس زعم في حفل اقامه له انه يهديه لمن يتسع له. ولم يتسع لغير اوزيريس الذي كان طويل القامة جداً. واغلق ست الصندوق بمعونة انصاره والقاه في النيل بعدما احكم اغلاقه. وجدت ايزيس زوجته في البحث عن جثته حتى عثرت عليها داخل شجرة ارز في جبيل «ببلوس» كان الملك قد قطعها واقامها عموداً ودعامة في قصره. وتعرفت ايزيس الى نساء الحريم الملكي حتى يستخدمها الملك مربية لاولاده. واستطاعت ان تصل الى هدفها. وفي الليل اشعلت ناراً بجوار جسد احد الاطفال. ورأتها الملكة تحوم على هيئة طائر حول العمود. واضطرت ايزيس عند سؤالها ان تكشف عن شخصيتها وتميط اللثام عن سيدها. واخرج الصندوق من داخل ساق الارز. وكان بكاء ايزيس قد قضى على اصغر اطفال الملك. وحاولت ان تأخذ ابنه

الاكبر معها ولكنه رآها تقبل جسد زوجها اوزيريس فخر ميتا حين نظرت اليه الآلهة بعينها الساحرة. وحين عادت الى مصر اخفت الصندوق في مستنقعات شميس. ثم ولدت موريس وقامت على تنشئته في بوتو. واستطاع ست ان يعثر بعد جهد على جسد اوزيريس وانتهز فرصة غياب ايزيس وقطع الجثة الى اربعة عشر قسماً وبعثر اجزاءها في جميع مقاطعات مصر. وراحت ايزيس تواصل البحث من جديد عن جثة اوزيريس حتى عثرت على الأجزاء جميعاً ودفنت كل جزء في الموضع الذي عثرت عليه به. وصار اوزيريس ملكاً للموتى ثم اعتزل هذه المملكة فترة من الزمان ليهيء ابنه موريس للكفاح ضد ست. وانتصر الابن على عمه بعد معركة عنيفة واقتيد ست مكبلاً بالأغلال الى امه. واشفقت ايزيس على اخيها ففكت قيوده. وغضب موريس فألقى بتاج امه على الأرض. واعاضها عنه تحوت بما يشبه رأس البقرة. وحين تحرر ست من قيده اتهم موريس بأنه ابن غير شرعي.

وتتحدث اسطورة اوزيريس عن الصراع الطويل بين موريس وست والذي استمر ثمانين عاماً. وكيف قدم ست لمحكمة التاسوع المقدس حيث صدر الحكم في النهاية لصالح موريس واضطر ست للتنازل عن حقوقه المزعومة وجلس موريس على عرش ابيه وتوج بالتاج الأبيض وقدمت له ايزيس التحية كملك. وتساءل بتاح عما يصنع ست فطلب رع ان يعتبر ست ابناً له ثم منحه الأرض الحمراء اي الصحراء ليكون حاكماً لها.

وهكذا عرف المصريون اوزيريس واتخذوه رمزاً للطبيعة ما دام قد عاش ومات وبعث كما تعيش وتموت وتبعث الطبيعة. ثم عرفه المصريون اله للموتى حيث يتولى محكمة الحساب بعد البعث.

مساعدو الموتى:

على ان اوزيريس لم يكن وحده المقدس المعبود بين الآلهة التي تقبل بالموت والموتى. فقد اعطى المصريين دائماً تقديساً كبير العدد من الآلهة غير

اوزيريس كانوا يعتقدون انها تساعد الموتى. ومن بين هذه الآلهة انوبيس وشوكاريس وحنتامتشيس وببواديث التي تأكد وجودها في ايام الدولة القديمة.

من بين هذه الآلهة، كان الإلّه انوبيس الذي أخذ شكل الكلب المتوحش او ابن آوى. وقد ارتبط هذا الإلّه بعملية تحنيط الموتى، كما حظي هذا الإلّه باهتمام دائم عبر التاريخ الطويل للديانة المصرية القديمة.

ومن ناحية اخرى انتقل الاله اوزيريس من الغموض النسبي الى الأهمية الجارفة في محيط المعتقدات الجنائزية، وفي رحلة صعود هذا الإله الى القوة الروحية، وشكل توحيده مع الفرعون الميت مرحلة هامة في هذه الرحلة.. وكان ذلك خلال ايام الأسرة السادسة.

ومن هنا ايضاً اصبح اوزيريس يعتبر حاكماً لمملكة الموتى يتولى حساب الموتى حيث يجازي الاخيار ويعاقب الاشرار.

اسطورة الحساب:

وتورد احدى الأساطير المصرية القديمة صورة محكمة الحساب وكيف يتم الجزاء للأخيار والأشرار. فقد بشر الإله بتاح ساتني ابن فرعون اوزيناريس الذي كان يتوق إلى إنجاب ولد بأن امرأته ستنجب ولدا يسميه سنوزيريس يأتي بالخوارق. وبالفعل لم يكد سنوزيريس يرى النور حتى هتف باسم بتاح ثم سجد يصلي. كان الولد معجزة وكان وهو في السادسة من عمره يشترك مع كهنة بتاح في قراءة كتاب الحكمة. وذات يوم بينما الأب وابنه معاً شق السكون صوت عويل يرتفع في الطريق تختلط به اهازيج موسيقى الموت. واطل ساتنى فإذا مأتم رهيب في الطريق الى مدافن ممفيس لواحد من الأغنياء يشيع الى مدفنه الأخير في موكب فخم. ومضت لحظات واذا ميت آخر يعبر الطريق ملفوف في خرقة. يشيعه بضعة افراد من ولده الى خارج ممفيس، بغير ما موسيقى ولا احتفال ولا موكب. وهتف الأب وهو يطل الى السماء:

- يا اوزيريس يا سيد الامنت العظيم القدرة في العالم الآخر اكتب لي دخول دار الاموات في عظمة وجلال كهذا الغني، ولا تحرمني شجو الموسيقى وندب النادبين كما حرمت هذا الفقير.

ونظر إليه ولده سنوزيريس طويلاً ثم قال:

- يا ابت، اني لاتمنى لك ان تموت ميتة هذا الفقير لا ميتة هذا الغني.

وتألم ساتني لامنية ولده له. ولكن الابن قال له:

- اذا اردت.. فأنا على استعداد لأطلعك على مصير كل منهما في الآخرة. الغني الذي بكاه الناس، والفقير الذي لم يجد من يبكيه.

وامسك سنوزيريس بيد أبيه، واخذ يتلو تعاويذ بدت غريبة حتى على ابيه، ثم انطلق به يقوده الى جبل ممفيس حيث هبطا معاً فجوة ضيقة بين الصخر، ما كادا يهبطانها حتى وجدا نفسيهما في قاعة قادتهما الى اخرى اكثر سعة، ثم الى ثالثة تزيد اتساعاً عن كل قاعات قصر الفرعون نفسه. وهنا شهد ساتني جماعة مزدحمة من الناس... فيها الفقير والغني، الوضيع والرفيع، الجميل والقبيح.

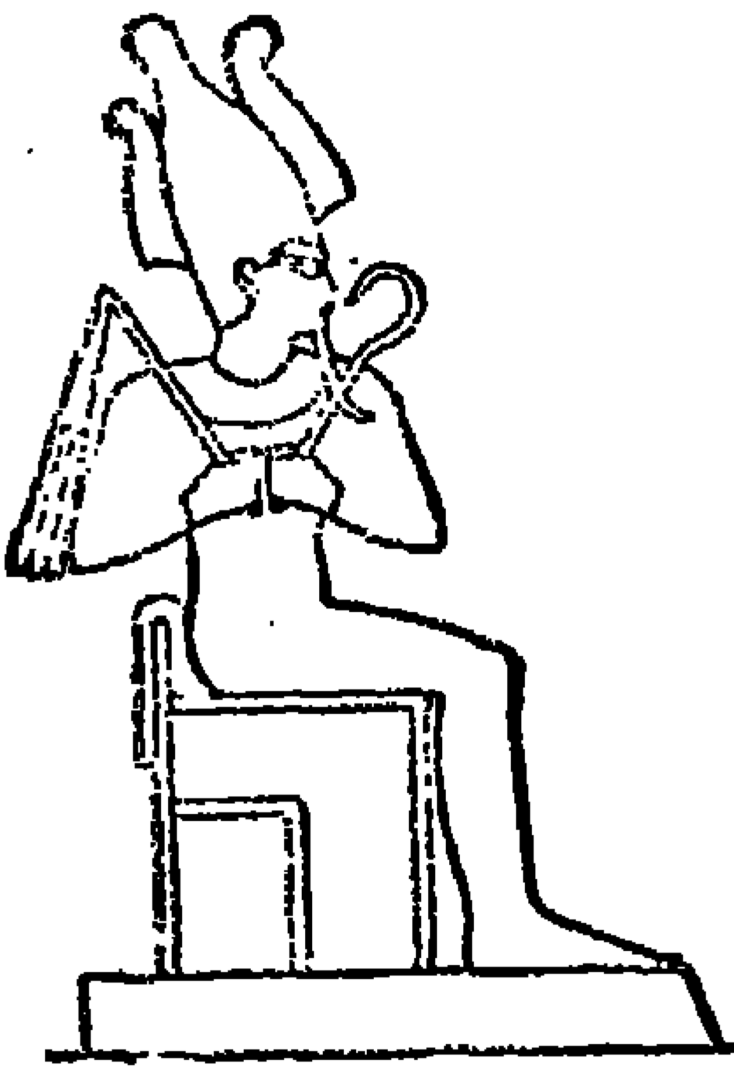


وعاد سنوزيريس يقود اباه ويجتاز به الباب الى قاعة رابعة، حيث شهدا قوماً مولين وعلى ظهورهم حمير تأكل، وقوما اخرين يمدون ايديهم الى الطعام المعلق فوق الظهور فلا يستطيعون اليه سبيلاً، إذ تقف دونهم حفر يحفرها قوم اخرون.. تتسع وتتسع وتحول بينهم وبين الوصول الى الزاد.

وتحولا معاً ليجتازا القاعة الرابعة الى الخامسة. وشهد ساتني باب القاعة يرتكز على عين رجل راح يستغيث ويصرخ.. ومن خلفه ناس يبكون ويلحون في طلب الدخول فلا يسمح لهم. وكان لا بد لساتني وولده كي يدخلا القاعة الخامسة ان يطأ الرجل المنطرح تحت الباب. وكان هذا جزءا من العقاب الذي قدر له ان يطأ كل الاموات الذين يجتازون قاعات العذاب الى مكان السعداء.

وكانت القاعة السادسة.. وشاهد ساتني محكمة الموتى منعقدة. يرأسها القاضي الاكبر اوزيريس سيد «الأمنت» أي الدار الآخرة.. متربعاً على عرش من ذهب، وفوق رأسه تاج الجنوب الأبيض المرصع من جانبيه بريشتي نعام رمز العدل والحق. والى جوار اوزيريس كان يتربع الإله انوبيس والإله توت. وحولهما من شمال ويمين اثنان واربعون قاضيا من الالهة تكتمل بهم هيئة المحكمة.

كان هناك في وسط القاعة ميزان توزن فيه الحسنات والسيئات. يستجوب انوبيس الميت ويدون تحوت اجوبته. فمن رجحت حسناته السيئات قاده الإلهة المحيطون بأوزيريس الى جنة الأموات الصالحين حيث يتمتع بالسعادة الخالدة. واما من رجحت مساوئه حسناته، فانه يسلم الى الآلهة معات كلبة سيد الامنت المفترسة، المستلقية تحت قدميه، مستعدة دائماً لتمزيق كل محكوم عليه بالعقاب.. وهي تثير الرعب بفمها الفاغر كأتون، ومخالبها الحادة كسكين، ورأسها المدبب كتمساح، وجسمها البشع كتنين..!



ولمح الاب رجلاً نبيل الطلعة، يرتدي ثوباً من كتان فاخر، يقف الى جوار اوزيريس. وتساءل عنه فأجابه ولده: هذا هو الفقير الذي رأيته مكفناً بخرقة بالية ومحمولاً بلا موكب الى خارج ممفيس. انه هو نفسه الذي تمنيت لك يا ابي ان تموت ميتته. لقد حل امام محكمة الموتى. فرجحت حسناته سيئاته. انه تعذب كثيراً في الأرض ليسعد طويلاً في السماء. ولكي تتم سعادته خلع اوزيريس عنه كفنه الممزق، وألبسه كفن الغني الذي رأيته مشيعاً في حفاوة الى مقبرة ممفيس. هذا الغني نفسه هو الذي وطئته قدماك عندما ولجت القاعة، وكان محور الباب مرتكزاً في عينه اليمنى يغريها كلما فتح أو أغلق.. فقد حوكم الغني فرجحت سيئاته حسناته، وحكم عليه بالعقاب الصارم.

وسأل ساتني ولده: لقد رأيت يا بني في الأمنت ما ادهشني. فهل تستطيع

ان تخبرني عن هؤلاء الذين رأيناهم مولين وعلى ظهورهم تأكل الحمير؟ وعن اولئك الذين لا يملكون سبيلاً الى الزاد بسبب الحفر التي تزداد وتتسع تحت اقدامهم؟

اجاب سنوزيريس: الأولون هم ابناء هذه الأرض الذين لعنتهم الآلهة لكثرة سيئاتهم. يعملون ليل نهار ليضمنوا بقاءهم.. فتتحول نساؤهم الى حمير نهمة، تنهب اموالهم وتأكل على ظهورهم.. اما الذين يمدون ايديهم عبثاً الى الطعام، فهم اولئك الذين استأثروا بخيرات الأرض وما شبعوا، فعوقبوا بالحرمان جزاء حرمانهم للأخرين..!

العقائد الجنازية والكهنة:

لقد كانت العقيدة المصرية القديمة تؤمن بالبعث والحساب ولذلك عمل المصريون لذلك اليوم الف حساب.. وكانت العقائد الجنازية من ثم لها ايضاً مكان كبير في الديانة المصرية.

كانت العقائد الجنازية كما يقول علماء المصرولوجي خليطاً من الأفكار والخيالات. فكان يعتقد أن الميت في قبره يأكل ويشرب وانه يحيا حياة خالدة في مملكة الغرب. وانه بين حاشية الشمس في نفس الوقت. وكان يغالي في تحنيط الجثة وما يؤدي لها من طقوس وما يودع معها من أثاث. وكثيراً ما كان يزود الميت بتعاويذ وفصول تكتب على اوراق البردى من كتاب الموتى. وكثرت التمائم واختلفت أصنافها. وزاد عدد التماثيل الجنازية حتى كان يودع منها مع الميت مئات في بعض الأحيان. وازداد في نفس الوقت شأن الآلهة المختلفة بما كانت تلقاه من كل ملك يتولى العرش من هبات وعطايا.. وكان ابرز هذه الآلهة آمون إله طيبة الذي كان كهنته قد بلغوا وخاصة في عصر الامبراطورة شأوا كبيراً في الغنى والسلطة والنفوذ بحيث أصبح بيدهم التحكيم في كل شيء من ثروة البلاد وسياستها.. كما اصبحوا أيضاً موضع الحقد والغيرة من كهنة الآلهة الأخرى في مصر...

ثورة اخناتون الدينية:

من هنا.. بدأت تظهر بوادر الثورة الدينية في مصر في عهد اخناتون.. واذا كان الكهنة وعامة الشعب قد تمسكوا باستمرار بذلك الخليط من العقائد والعادات.. فالحق ان خاصة المفكرين ما كانوا يرتضون ذلك.. بل لعلهم احسوا الحاجة الى دين واضح مريح، يعلي من شأن الحقيقة والواقع. ويتحرر من ربقة التقاليد البالية، ويشمل سلطانه الكون الفسيح، وترضى به الشعوب على اختلافها.

واذا كان الأمر كذلك.. فلا شك ان النظرة الى إله الشمس كان لا بد ان تبرز من جديد.. فهو إله واضح.. عبادته بعيدة عن الغموض والأسرار والظلام والخداع... والرضى به يمكن ان يشمل كل الشعوب التي ترى مظهره وقوته وتلمس اثره وسلطانه. لذلك فهو أحرى الآلهة جميعاً بالعبادة، وهو أحق المعبودات ليكون إلهاً عاماً للامبراطورية في كافة انحائها.

على أن إله الشمس اتخذ هذه المرة اسماً جديداً هو آتون. ولم يكن هذا الاسم مجهولاً من قبل، ولكن لم تكن له قداسة أو صفة دينية، اذ كان المصريون يقصدون به قرص الشمس التي لم يكونوا يتعبدون لها ولكن يرون إنها مقر الآلهة. أما الآن.. فلا بد ان يصبح هذا الإسم مقدساً ولا بد أن يصبح دين أتون هو الدين الرسمي للامبراطورية.


(جـ) سوبك

وكان صاحب هذا الهدف وتلك الأفكار هو الفرعون نفسه امنحوتب الرابع.. الذي تسمى بعد ذلك باخناتون..

ويلخص بلاكمان عقيدة اخناتون الدينية عندما يقول: «يمكننا ان ندرك ان التفكير الديني في المدة السابقة لحكم اخناتون تميل الى الوحدانية. ولكنه كان من الضروري ان تتقدم الى هذه الناحية خطوة او خطوتين لنصل الى التوحيد الحقيقي. وهذا هو ما فعله اخناتون حين أكد بل قطع نهائياً بان إله الشمس ليس الإله الأكبر والعالمي فحسب، بل هو الإله الوحيد.. وهو توكيد لم يضغط عليه من

سبقه من المفكرين الدينيين، بل كان متشعباً ومبهماً وكانت الإشارة إليه يحوطها الغموض والإبهام وعدم التحديد ».

وقد زاد برستد تلك الفكرة وضوحاً حين قال: « أن ما كان يؤلهه الملك هو القوة التي جعلت من الشمس شيئاً يحس به على الأرض. ومهما كان واضحاً ان المصدر الهليوبوليسي هو أصل الدين الجديد فان العبادة لم تكن عبادة الشمس نفسها لان كلمة «آتون» استعملت بدلا من الكلمة القديم «إله ». وكانت العقيدة في الإله أبعد من ان تكون الشمس العادية. وكان الملك من غير شك يؤله الضوء او الحرارة الحيوية حين ادرك انها تعجب الحياة كلها.

وكرس اخناتون حياته لعقيدته الدينية والدعوة لها. وانصرف الى تحقيق افكاره الدينية وشغل باعلان معتقداته والترويج لها وهداية شعبه الى الحقيقة والى الدين الصحيح. وبدأ باقامة معبد لأتون بالقرب من معبد آتون في طيبة واتخذ لإلّهة الواحد صورة الإله «حواختي» الذي كان يمثل بجسم انسان ورأس صقر يعلوها قرص الشمس. على انه لم يلبث ان اهتدى الى رمز جديد لآلهه قبل هجرة البلاط الى آخيتاتون. وكان الرمز الجديد على صورة قرص شمس باسفله الصل متدّلياً وتنزل من القرص أشعة تنتهي بأيدي بشرية تمسك بعلامة «عنخ» كأنها تهب الحياة إلى المتعبدين. وكان الصل يرتفع احياناً من قاعدة القرص إلى ناحية المركز. وربما كان ذلك أحياء لمعنى ان الإله الجديد لم يكن إلهاً عالمياً فحسب بل ملكاً عالمياً كذلك. لقد كان الرمز رمزاً متسيداً معناه قوة تخرج من فيضه السماوي وتبسط يدها على العالم واعمال الناس.


(د) سنخ

كان خروج الملك بهذا الدين الجديد ضربة عنيفة لكهنة آمون اصحاب النفوذ الرئيسي في طيبة.. فما كانوا ليرضو عن ان يشغل ذلك الإله الطارىء الملك عن آلههم، وان يضيع ما كسبوه من مركز وسلطان. وكان لا

بد لاخناتون ان يقضي على هذه المعارضة وان يمحو العبادات المختلفة اذا اراد الالهة القوة والسلطان او ان تتحقق الوحدانية التي كان يدعو اليها. لذلك لم يلبث أن أعلن على المعبودات القديمة وخاصة آمون حرباً ضارية. فأرسل جنوده واتباعه يمحون اسماءها وصورها من على الآثار القائمة، ويهشمون تماثيلها في المعابد.

وقرر اخناتون ان يترك طيبة ويبني عاصمة جديدة في مكان لم تدنسه عبادة اي اله من قبل. وهكذا انتقل الى تل العمارنة حيث اقام عاصمته اخيتاتون.. وهناك اتيحت الفرصة للديانة الجديدة ان تستكمل خصائصها دون معوقات من تقاليد وآثار قديمة.. وراح اخناتون يصوغ من الأناشيد ما يشيد فيه في حماس شديد بنعيم الإله الواحد على الكائنات المختلفة من أنسان وحيوان ونبات وما يفيضه عليها جميعاً من قوة وحياة.. وكان يقول:



(هـ) رع

بزوغك جليل في افق السماء يا آتون يا حي يا مبدىء الحياة..

اذا صعدت في افق السماء الشرقي افضت على الارض جمالك..

ما ذلك الا لإنك جميل عظيم نير في السماوات العليا.. تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك باشعتك.. أنت بعيد عن الأرض ولكنك على اتصال معها بأشعتك...

أنت عال لكن اثارك واضحة في ضوء النهار..

انت خالق الجنين في بطن امه انت خالق نطفة الإنسان انت واهب الحياة للجنين في رحم امه وملطفه حتى لا يتكدر فيبكي...

كيف لا وأنت المربي في الرحم..

انت معطي نفس الحياة لكل مخلوقاتك...

انت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده امه..

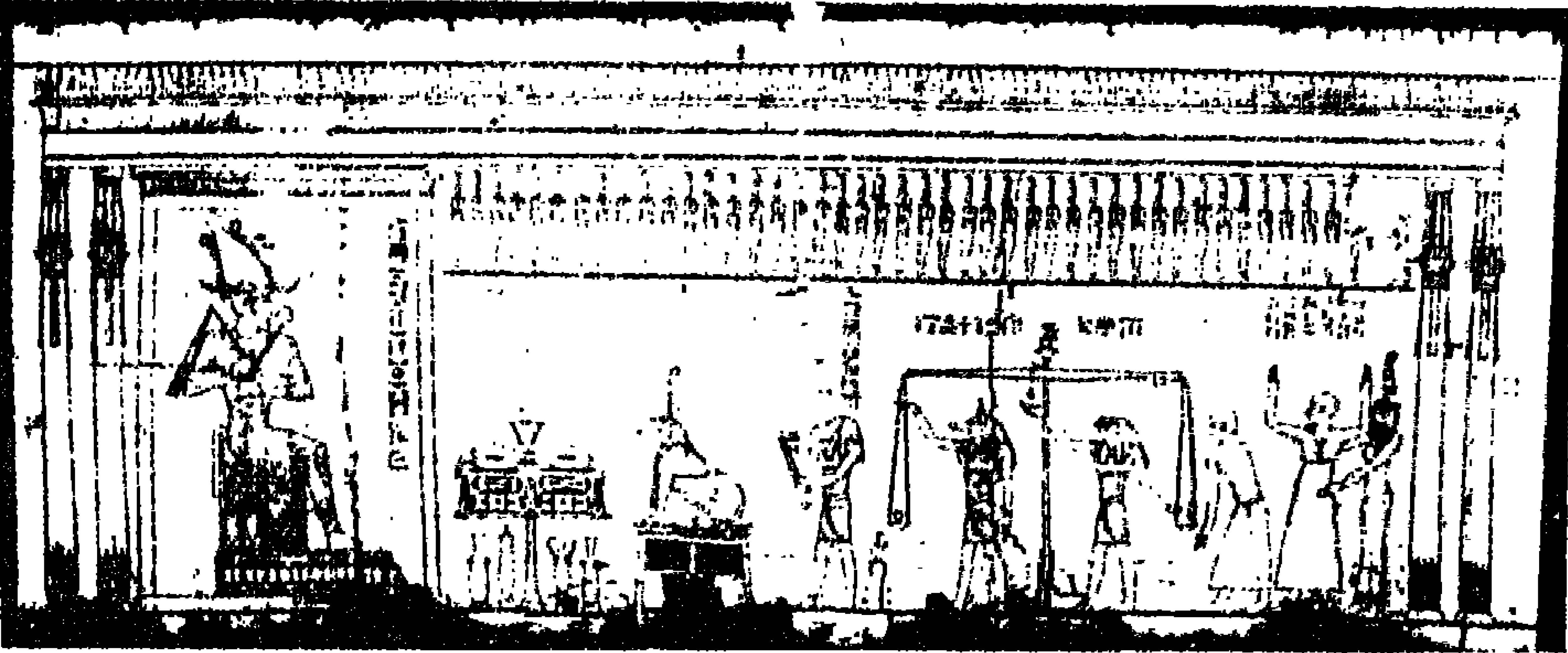
ما اكثر مخلوقاتك التي نجهلها..

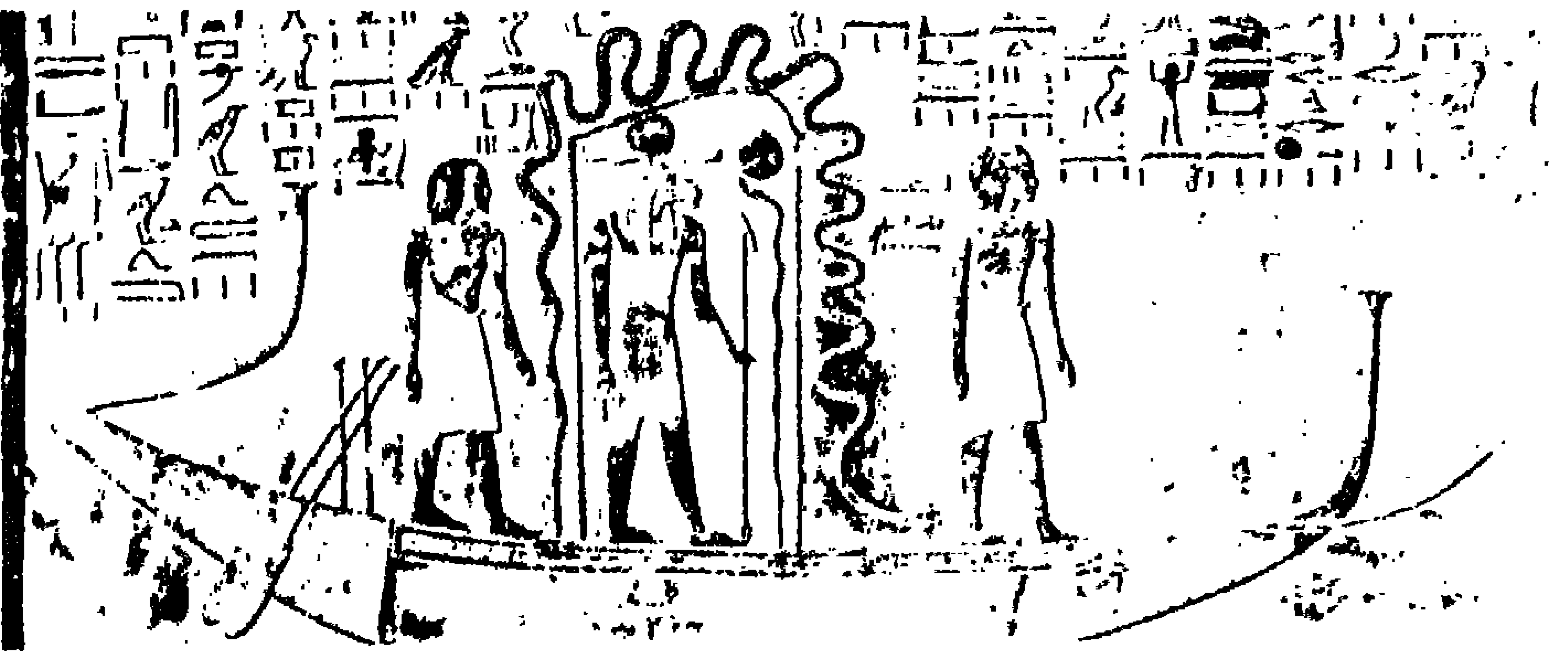
أنت الإله الإحد لا شريك لك في الملك..

خلقت الأرض بارادتك..









مجموعة من الصور والتماثيل الفرعونية تمثل الأولى الإله أنوبيس (ابن آوى) حارس الموتى من مجموعة مقبرة توت غنخ آمون. والثانية للالهة ايزيس وهي ترضع ابنها حورس. ويرى في الثالثة أوزوريس إله الموتى والعالم الآخر في قاعة الحساب بينما قلب الميت يوزن لتبين حسناته من سيئاته. والرابعة الإله رع وهو يعبر الافق من الشرق الى الغرب على سفينة الشمس المقدسة.





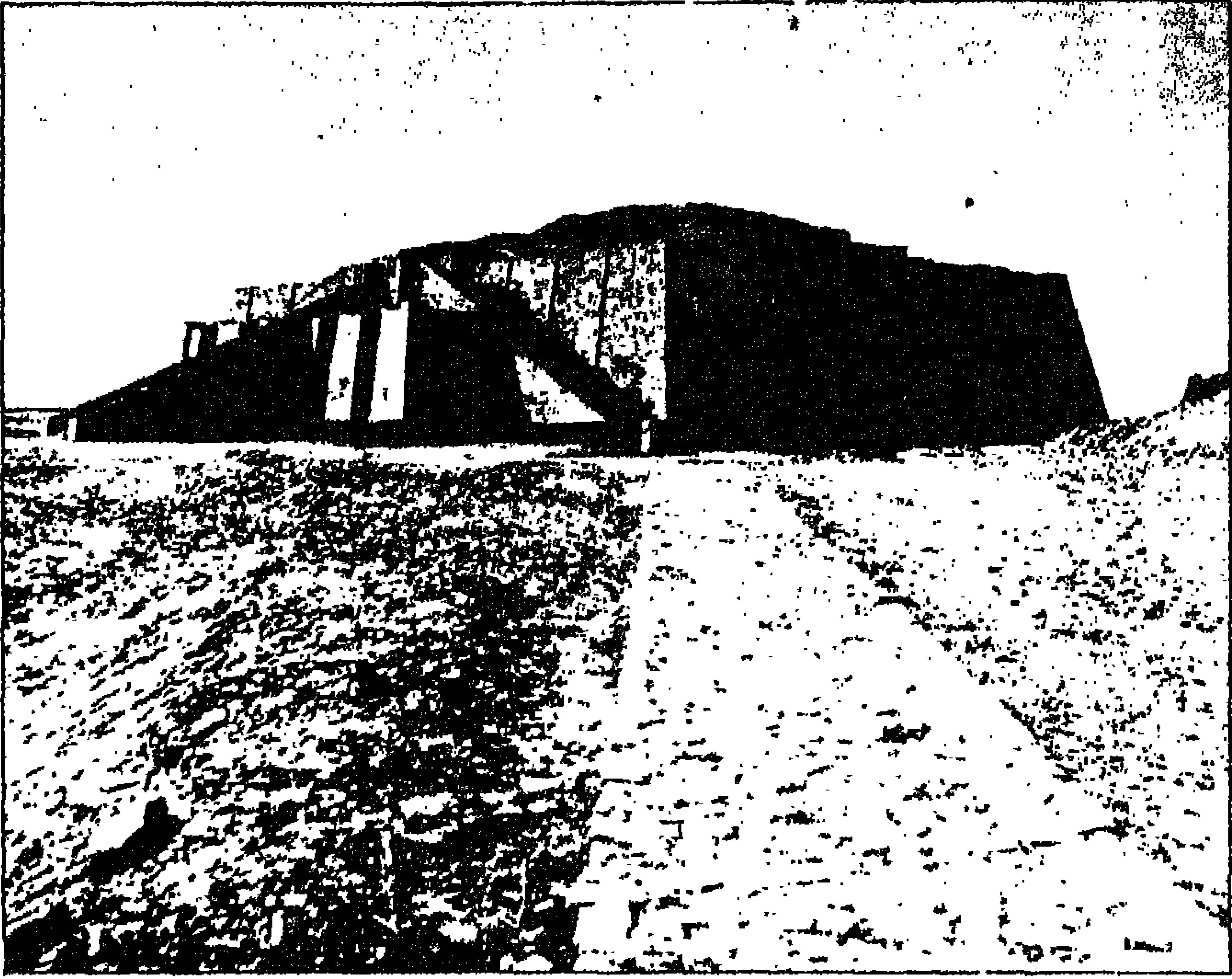


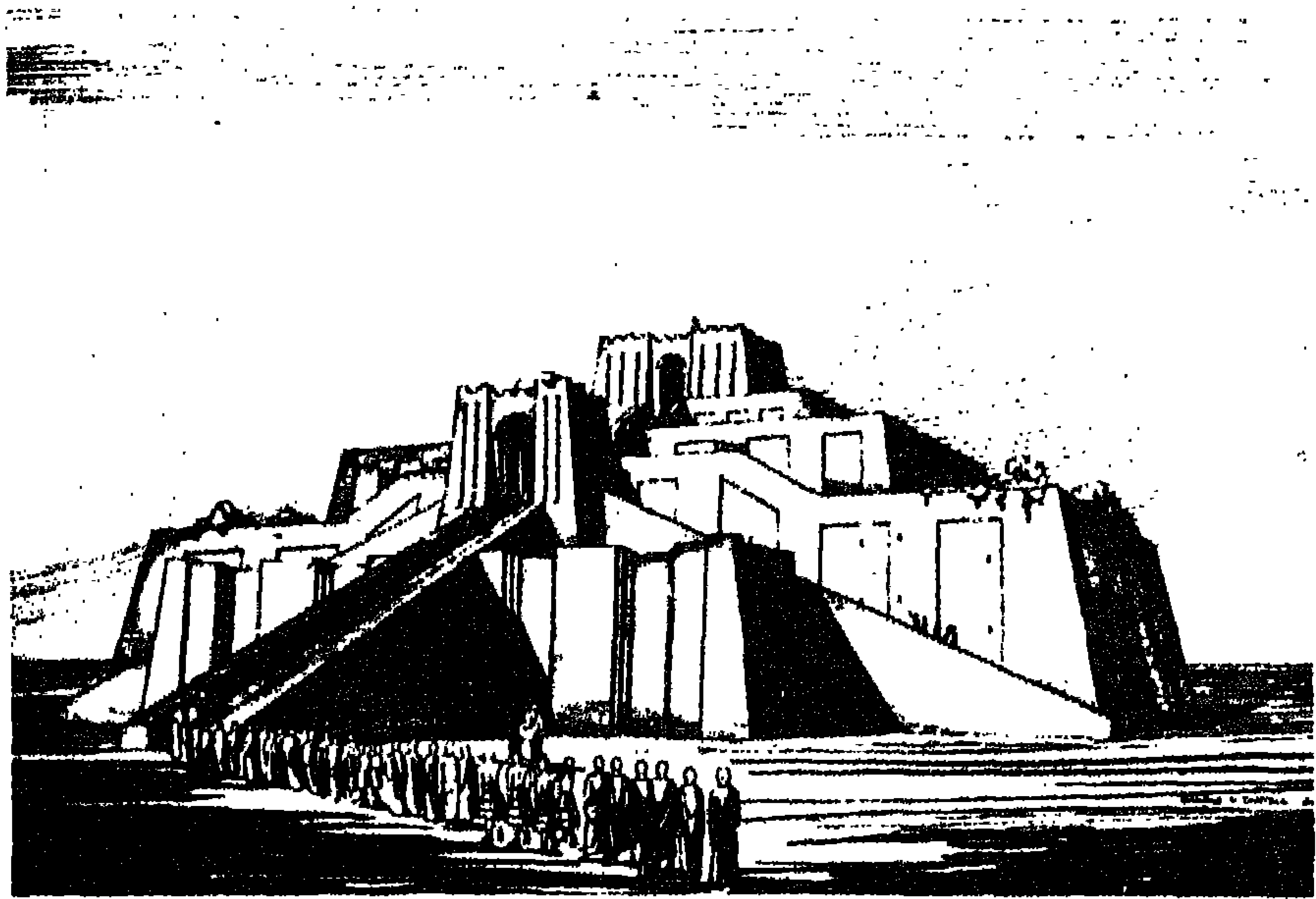
الإله باسيت برأس قطة.. أحد المعبودات المصرية ومركز عبادته في بوبسطة.. ويلاحظ في يده اليمنى ولع يمثل رأس أسد.

أخناتون.. عرف الإله الواحد ورمز له بالقوة وراء قرص الشمس آتون.. هو الذي يرسل أشعة حاملة الخير والنور والسلام.



نبيشتيم.. الذي انجته الآلهة من الطوفان في الحقبة البابلية يقدم القرابين للآلهة بعد ان رست سفينته على الأرض بعد انتهاء الطوفان..





برج المعبد المقدس الذي أنشأه أورنامو ملك أور في عام ٢١١٠ قبل الميلاد حيث تقدم العبادة للالهة.. والرسم السفلي يعرض رسماً تخطيطياً للمعبد بكامل تفاصيله..

ولما كنت وحيداً في هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان..

الكبير منها والصغير.. والمخلوقات التي تدب في الأرض وتطير بأجنحتها..

انت مبدع الجمال من نفسك..

فالمدن والبلاد والقرى والطرق والانهار..

كلها عيون تبصرك امامها..

كيف لا.. وأنت آتون النهار فوق الأرض..!؟

لقد كانت هذه هي هي بعض اناشيد وتراتيل اخناتون للإله الواحد في الدين الجديد. إلا أنه لم يقدر لهذا الدين البقاء، فقد كانت العبادات القديمة اشد رسوخاً في البلاد من ان تعصف بها دعوة جديدة لم تتأصل جدورها. تقوم بها أقلية من المفكرين وان تزعمها ملك. وكان رجال الدين وخاصة كهنة آمون قوة تعتمد على مشاعر العامة وتمسكهم بتقاليدهم.. ولذلك لم يكن من السهل التغلب عليها.. بل كان الأسهل ان ينقض الكهنة على الدين الجديد.. وان تنجم المؤامرات آخر الأمر في القضاء على دين التوحيد الذي جاء به اخناتون... وان تتحطم مع حطام مدينة اخيتاتون دعوة الإله الواحد في مصر القديمة... قبل ظهور ديانات السماء بعشرات كثيرة من السنين...

واستمرت الحياة تسير.

عقائد ما بين النهرين

ايها الرب.. تطلع الي وتقبل تنهداتي..
ايها الإله المعروف وغير المعروف..
الا ليفتىء غضبك..
البشر معوجون وليس لدى واحد منهم
بين الجميع من يعرف شيئاً؟!
مهما فعلوا من شر او خير.. ليس لدى واحد معرفة.
ايها الرب.. لا تطرح خادمك جانباً
انه ينكفىء في الحمأة فخذ بيده..
حول ما ارتكبت من آثام الى نعمة
لتحمل الريح بعيدا ما ارتكبت من تعديات..
جناياتي كثيرة.. مزقها كما يمزق الثوب
أي الهي.. آثامي سبعة فاغفر لي خطاياي.
اغفر خطاياي وسأتضع امامك..
ليهدأ قلبك كقلب الأم التي رزقت بمولود
ليهدأ قلبك كقلب أم رزقت بطفل..
وقلب اب رزق بمولود..!

« مزمور بابلي »

من أجل الخَلق... نَشَبت معركة السَّماء

لم يكن هناك سوى «السوّ» المحيط الأزلي.. و«يتامات» المياه المالحة.. لا سماء ولا ارض.. لا آلهة ولا بشر.. لا شيء من ذلك ابدا سوى الفضاء المحيط.. ابى كل شيء.. والمياه الممتدة الى ما لا نهاية، بكل ما فيها من اضطراب وفوضى، تضرب كلها الاطناب، وتخرج من بعد كل شيء حي..!

ولم تكن المياه قد تشكلت بعد في محيطات وبحار، او بحيرات وانهار. بل كانت كلها شيئاً واحداً، واسعاً الى غير حدود، عميقاً الى اللانهاية. اما المستقبل. فما كان يبدو منه شيء قط.. لا شيء سوى ظلمة اخرى حالكة.. اشد سواداً من اعماق الليل نفسه..!

وتعاقبت الأزمان، حتى جاء زمن اختلط فيه الماء بالفضاء، ومن اختلاطهما خرجت اشياء اخذت تنمو وتتخذ لها اشكالاً عديدة غريبة. ثم ظلت ترتفع حتى استقرت في أعلى.. وكان منها كل آلهة النور..

واطلت «تيامات» الى المخلوقات الجديدة وملأها الفزع.. فما كانوا قط من طينتها، ولا تشكلوا ابداً بأشكالها. فهي لم تكن تعرف في حياتها سوى الظلام والفوضى والاضطراب. اما الذين يعيشون في اعلى.. فلا يريدون غير النور والنظام والاستقرار. وكان هذا كله عكس ما تريد.. بل كان هذا كله اول اسباب الحقد والغضب والثورة على آلهة النور..

وقررت «تيامات» ان تتخلص من المخلوقات الجديدة.. وان تشن عليهم حرباً لا هوادة فيها قط..

وظلت تيامات تعمل بلا انقطاع.. فمن جوفها جاءت الوحوش المخيفة المفترسة وانطلقت الثعابين المهولة ذات السم.. وعلى سطح الماء برزت

رؤوس التنانين. بشعة تثير الرعب، وخرجت الكلاب مفترسة لا مثيل لوحشيتها والعقارب مخيفة سوداء كالمردة. ومن كل مكان انطلقت حيوانات أخرى كسيول شريرة مجنونة.. تتحرك تحت أمرة الوحش «كنجو» العملاق، الذي وعدته تيامات بالزواج واعطائه ملك كل شيء، اذا تغلب على آلهة النور، وسحقهم بذراعه القوي الجبار..

وفوجيء الآلهة بعدوان تيامات. وكان اول من عرف نواياها هو الإله «آي» الذي ساق الخبر الى الإله «انصار». وعجب هذا لموقف تيامات، وامتلأ قلبه حنقاً وسخطاً، يختلط بالخوف والرعدة مما قد يحل بمجتمع الآلهة.. وانطلق انصار الى «الإله اونو» فكلفه الذهاب الى تيامات يسألها عن سر تحديها للآلهة.!

وانطلق اونو الى مملكة تيامات...

غير انه ما كاد يقترب، حتى نهض له «كنجو».. الوحش المارد المستلقي الى جوار تيامات، وهاجه في شدة وعنف وجنون، وتوقف اونو، ثم حرك قدميه الى الخلف، ثم ادار ظهره.. ثم ولى الادبار هارباً يجري في مواجهة الحيوان الصاخب المهول..!

وتوالت مواكب الآلهة واحداً في اثر الآخر، لمقابلة تيامات.. ولكن احداً منهم لم يستطع الوصول اليها او مناقشتها.. ولا عرف احد منهم كيف يبحث معها سر ذلك الغضب العنيف.

وجلس الجميع ذات يوم يبحثون الأمر. وكان بينهم الإله «مردك» الذي لم يكن قد جرب حظه مع تيامات من قبل. ومن خلال الفشل الذي مني به الجميع، اطلوا الى «مردك» وطلبوا منه ان ينازل الآلهة المتوحشة. وبغير ما خوف انحنى لهم مردك.. وقد قبل النزال، بشرط ان يقر له الجميع متى انتصر بأنه هو الأقوى.. ولا احد اقوى منه.

ولم يكن امام آلهة النور بد من القبول.. ومنح مردك السلطة السماوية الكاملة ليكون له حكم الكون كله..!

أرادمردك- قبل ان يمضي لمصارعة تيامات- ان يجرب ما لديه من فنون القوة، واتى الإله برداء طويل القاه امام كل الآلهة.. وتلا بضعة تراتيل لم يكد ينهها حتى اختفى الثوب وتلاشى. واخذ بالآلهة العجب وطلبوا منه ان يعيد الرداء كما كان. وعاد مردك يتلو تراتيله فاذا الرداء يعود. ويمتد في نفس المكان الذي كان قد تلاشى فيه.

واقتنع مردك بأن أحداً من الآلهة لم يعد له مثل نفوذه وسلطانه. فقرر البدء في رحلة الانتقام.

وانتفض مردك وهو ينهض ليبدأ الصراع الجبار. فبدا رائعاً وهو يتحرك ومن امامه تبرق البروق، ومن فوقه ترعد الرعود، والقوس الضخم فوق ظهره، والرمح الثقيل في يده، والشبكة الهائلة التي قرر ان يصطاد بها الوحش كنجو الرهيب يجرها خلفه. لقد كان الإله المنتقم قد اعد عدته للكفاح، ولم يعد هناك سوى ان يلتقي بروح الشر في جسد تيامات..!

واستمر الإله مردك يقود مركبة القدر ليصل الى حيث تجري المعركة. وعندما وجد انه قد اقترب من المكان، نطق كلمة واحدة، فإذا ريح مروعة تجري امامه، واذا الريح تتحول فتصير عواصف وزوابع واعاصير، تتجمع كلها لتكون سلاحاً في يد مردك، سلاحاً اقوى من أي سلاح يمكن ان يحمله اله..

واطلت الحيوانات المهولة فإذا كل شيء قد انقلب، واذا نور يشع من خوذته يخطف الابصار، فهرعت تختفي في اعماق الظلمة، وافواهها من الخوف ترسل الزبد..! واستمر مردك، مصحوباً بكل دعوات آلهة السماء، في طريقه المرسوم.

وبلغ مملكة تيامات. واطل فإذا وحش مهول في شكل تنين مخيف، يحاول النهوض من استلقاءته، ومن عينيه ينطلق بريق مخيف، ومن منخاريه يندلع لظى اللهب وفتح التنين فمه فإذا به كجهنم. النار تغلي فيه، والاصوات المرعبة وتدوي ولا تسكت ابداً..

وتوقف مردك في مكانه. وزعق يخاطب تيامات من بعيد.. ويطلب منها ان تجنح الى السلم، وتبعد عن رأسها فكرة العدوان.

وقهقهت تيامات وهي تهتز. ثم سلطت في سرعة على عدوها اقوى ما عرفته من تعاويذ السحر واشدها اثراً..

ولكن مردك كان قد اعد العدة لابعاد السحر عنه.. وفي لحظة، رفع شبكته الهائلة وألقى بها في قوة الى حيث وقفت تيامات.. واندفعت الآلهة المهولة الى الخلف. ولكن الشبكة امسكتها وجذبها الإله اليه ثم اطلق على فمها رحاً صرصراً عاتية.

ودخلت الزوبعة عنيفة بين فكي تيامات.. واخترقت الحلقوم لتدخل في بطنها الذي ظل ينتفخ وينتفخ.. وعندما بلغ آخر درجات الانتفاخ. رفع مردك رمحه الضخم وطعن البطن المنتفخ. فانفجر في صوت صاخب كالرعد. وسقطت تيامات ميته..!

عندما انتهى مردك من قتل تيامات، وقف فوق جسدها، ثم قطع قلبها الشرير فألقى به في الفضاء الاسود. ثم تحول الى التنين الهائل فقضى عليه.. اما وحوشها الاخرى، وتوابعها السود، فقد اخذوا يصرخون وهم يحاولون الفرار، ولكنه لم يمهلهم بل اخذ يلقي عليهم شبكة تصطادهم واحداً في أثر آخر. ووقعوا كلهم في الأسر.

وانحنى مردك على جثة التنين فأخذ منها حبوب القضاء والقدر التي اعطتها له تيامات المذبوحة، تلك الحبوب التي تمنح النفوذ والسلطان- لكل من يحملها- على المصائر والأقدار.

وحملت رياح الجنوب دماء تيامات الى اماكن سرية مجهولة حين كان مردك قد انحنى من جديد على جثتها، وشقها جزءين مستطيلين: رفع احدهما ليكون السماوات.. وخفض الآخر ليكون الارض..!

وعندما انتهى مردك من رفع السماء، نثر على صفحتها الكواكب لتضيء، ولتجري في طريق منتظم مرسوم.

وعندما اضاء مردك السماء.. جعلها مكاناً لاقامة الآلهة «اونو وبعل

آي » اما الآلهة الآخرون فقد قسم عليهم الكواكب، ليكون كل كوكب بيتاً لإله. ثم قسم السنة وجعل لكل شهر ثلاثة كواكب. كما جعل لإله القمر حكم الليل واضاءته. ومنحه كل شهر يوماً يستريح فيه. اما الشبكة الهائلة التي صحبته في معركته مع تيامات فقد جعل لها كوكباً ومعها قوس.. واما الرياح التي ساعدته في القضاء عليها، فقد جعل لكل منها كوكباً جديداً.

واذ انتهى مردك من اقرار كل إله فوق كوكبه، وضع نفسه هو الآخر في كوكب كان اكبر من كل الكواكب الأخرى واضخم.. وجعله المصدر الرئيسي للنور في صفحة السماء غير ان مردك لم ينس الأرض عندما كان يرفع صفحة السماء.. فقد كانت الأرض التي وضعها في حاجة هي الأخرى الى معجزة..

واطل مردك وهو يفكر. لقد كانت الآلهة في حاجة الى من يصلي لها ويعبدها واذن.. فلتكن المعجزة هي خلق الإنسان.. وانحنى مردك على الارض وشرع يعجن التراب بدمائه، ويصنع من الطين ناساً تقوم على خدمة الآلهة والصلاة لهم وعبادتهم.. وهكذا خلقت البشرية..!

* * *

عمرت الارض بالمخلوقات الجديدة وطفق البشر يتزاوجون ويتناسلون، ويقيمون الصلاة للآلهة التي خلقتهم وسوت لهم الارض وقدمت لهم النور من السماء.. ولكن الأمر لم يكن ليستمر طويلاً على منوال واحد.. فاذا القوم كلما ازداد عددهم تنافروا وتنازعوا، واذا الصلوات تقل والعبادة تنهار، والشر يدخل كل يوم من حيث خرج الخير.. واصبح الخلق غير الخلق.. والناس غير الناس. وظهرت على الارض سلسلتان من البشر تسيران في خطين متوازيين.. احداهما لا تزال متصلة بالآلهة.. اما الأخرى فقد قطعت كل صلاتها بهم، ولم يعد امام اصحابها من هدف سوى الوصول الى اللذة من أي طريق.

واملأت الأرض بالشر..

واطل الآلهة من عليائهم وملأهم الحزن..

ان الإنسان لم يعد هو الإنسان الذي خلقه مردك.. وجعله صورة منه كريمة بريئة طاهرة.. وغضبت الآلهة على مخلوقات الأرض.. وكان اكثر الكل غضباً الإله مردك، الذي قرر ان يرسل طوفاناً عارماً ليهلك البشر ويمحو به آثار اعمالهم العامرة بكل ما هو سيء وخبيث..!

غير ان آي.. إله الحكمة، اخذته الشفقة على البشر، واعتزم ان ينجي منهم على الأقل رجلاً وامرأة.. يحفظان سر الخلق..

وكان «شمس نيشتين» وزوجته هما اللذان وقع عليهما اختيار الإله..

وفي ذلك اليوم.. وبينما كان شمس نائماً، جاءه صوت الإله في الحلم يقول:

- انهض يا ابن «اوبارا توتو».. يا من اطعت الآلهة، وحفظت العهد الذي وضعوه فيك.. انهض فاهدم بيتك، واصنع من الخشب فلكاً ضع فيه كل ما تحتاجه لحياتك.. وخذ معك حبة حبة من كل شيء.. نحميها كما نحميك من الطوفان الذي سيحل على الارض التي امتلأت بالشر والفساد والطغيان..!

وصرع «شمس نيشتين» بأوامر الإله..

ومع مطلع النهار نهض ليهدم بيته، ويبني من الخشب فلكاً ضخماً..

وواستخدم شمس عدداً من العمال واخذوا يعاونونه ويشقون له الالواح، حتى اذا ما انتهت ايام سبعة، كان الفلك قد نهض قائماً على الأرض كأحسن ما يكون الفلك، وقد ضم بين جنباته كميات كبيرة من الخمر والزيت، واكوام حبوب حية من كل نبت ظهر على الارض، زوجين من كل حيوان او طير جرت في عروقه الحياة..

واطل شمس الى فلكه وامتلأ رضا.. لقد كان طوله يصل الى ١٢٠ ذراعاً وارتفاعه ١٢٠ اخرى. وكان مقسما الى ستة طوابق كل طابق مقسم الى تسع غرف..

اما سطحه الخارجي فمدهون بالقطران، وسطحه الداخلي بالقار.

وعرف شمس من الهه ان عليه الدخول في فلكه واغلاقه، متى ظهرت الاشارة المتفق عليها.. وهي مطر عزير يسقط من السماء..

ومرت ايام.. وسقط المطر مدراراً..

لقد اتت الساعة..!

وانطلق شمس نيشتين الى الفلك ومعه زوجته وابناؤه.. ومن خلفه اغلق الأبواب..

ومرت بالافق سحابة سوداء غطت كل الأرض.. يسوقها الإله رامان مطلق الرعود. وتمسك بسكانها الآلهة «اورجال».. ومن خلفها الالهان «نابو» و«مردك».. يفتحان للمطر كل طاقات السماء..!

واطبقت العاصفة والظلام على الارض. وراح الناس يتساقطون غرقى وصرعى. حتى الذين ركضوا يطلبون النجاة في الاقبية والغرف ذات السقوف، ما استطاعوا ان يجدوا تحتها منقذاً من الطوفان.. ولا الذين لجأوا الى قمم الجبال، فقد طغت المياه.. وارتفعت حتى اختفت كل الجبال التي تحت السماء..!

واستمر الطوفان ستة ايام.. كان فيها الكفاية لتطهير الارض من كل من في أنفه نسمة حياة.. من انس وطير وبهائم ووحش.. ولم يعد هناك سوى شمس. وكل من حل معه في الفلك الامين..

وجاء اليوم السابع.. فهدأت الأمطار، وانسدت ينابيع السماء.. وبدأت المياه تنجاب عن الأرض.. واطل شمس نيشتين من طاقة في الفلك ثم صرخ عالياً.. لقد كان الناس جميعاً غرقى في الطين، وحيث كانت تمتد الحقول، ظهرت هناك مستنقعات وبرك.. لم يكن هناك شيء حي.. وكل العالم لم يعد يظهر منه سوى بحر مهول عملاق..

وظل شمس يبكي، والفلك يسير على سطح الماء في اتجاه التيار، ينخفض ويرتفع والمياه تتناقص من حوله شيئاً فشيئاً.. حتى إذا ما مضى اثنا عشر يوماً ظهرت الأرض من بعد..

وكان الارض التي ظهرت، هي قمة الجبل نازير..

وارسل « شمس » غراباً يستطلع حال الأرض. ولكن الغراب برغم انه لم يجد مكاناً يحط عليه، إلا انه انشغل في نهش الجثث الكثيرة المستلقية، ولم يفكر في العودة الى الفلك.

وانقضت ايام سبعة اخرى..

وارسل شمس عصفوراً.. ولكن العصفور ظل يطير من مكان الى مكان فلا يبصر شجراً أو أرضاً جافة، ولم يجد مستقراً لساقية فاضطر آخر اليوم للعودة الى الفلك. -

وانقضت ايام سبعة ثانية..

وارسل شمس يمامة.. ظلت تطير وتطير باحثة عن مقر تحط عليه فلا تبصر أرضاً جافة.. ولكنها ما تكاد تفكر في العودة حتى تبصر أشجاراً خضراء، فتحط عليها ثم تحمل في منقارها ورقة من غصن الزيتون تعود بها الى الفلك..!

وابتهج شمس.. وعرف انه الفرج..

وفتح ابواب الفلك، وخرج ومعه حاجاته وعائلته.. وكل الازواج الحية من حيوان وطيور.

وفي اللحظة التي لمست اقدامهم فيها الأرض. انكفأ شمس على وجهه وخر ساجداً ثم بنى مذبحاً وقدم عليه قرابين الشكر.. من اعواد القصب والبخور..

وشمت الآلهة الرائحة الذكية فتعجبت.. ثم راحت تتجمع كالذباب حول القربان وبين الجمع.. كانت هناك اشتار.. ربة الحب والربيع- التي رفعت قلادتها الآلهية تحي بها صاحب القربان. ثم قالت:

- باسم ج اهري الإلهية التي تحيط بعنقي، لن انسى هذا اليوم ابداً.. سأضعه دائماً في ذاكرتي، وسأذكر به كل الالهة الذين يحيطون الآن القربان. حتى مردك.. مردك الذي لا يريد ان يقترب من قربان الإنسان.. ورفض من قبل ان يجمع مجمع الآلهة يستشيرهم، وارسل الطوفان يقضي به على عبيدي المخلصين ويسلمهم للهلاك والدمار.

والحق ان مردك لم يكن بعيدا عن القربان. فقد كان يقترب منه هو الآخر، ويعجب لهذا المخلوق الفاني كيف نجا من الطوفان.. ويقسم ان لا بد من قتل شمس..

ووقف الإله آي.. الذي كان قد اوحى الى شمس ببناء الفلك فأنقذه.. وقف يدافع عن المخلوق الفاني الذي اخلص للآلهة ولم يحقد عليها، بل كان أول ما فعله حين وضع قدمه على الأرض ان قدم لها القرابين. وانتقد آي مردك الذي لم يستشر الآلهة عندما اتخذ قراره المدمر لمخلوقات الأرض..

واستسلم مردك آخر الأمر.. واقترب من القربان.. ثم اخذ بيد شمس وزوجته وباركهما، وسوى لهما مستقراً جديداً عند مداخل انهار الأرض..

وعادت الآلهة الى السموات.. ولكنها لم تنس قبل عودتها ان تكافىء شمس الذي قدم لها القربان.. وحفظ لها الجنس البشري..

ومنح شمس سر الخلود.. ورفع الى مرتبة الآلهة.. واصبح عليه ان يقيم في مستقره عند مدخل الأرض حتى الأبد.. لا يغادره الا في رحلة يومية طويلة يرافق فيها موكب مردك، ليشرف على ابنائه البشر الذين ينطلقون في الأرض ليعيدوا اليها المجد والحياة.. ثم يعود آخر اليوم الى مستقره، ليستأنف مع الصبح رحلته الطويلة الخالدة من الشرق الى الغرب..

وانطلقت البشرية تحيا من جديد..

هكذا كانت قصة الخلق والطوفان التي عرفها اهل العراق القديم تضع الحدود بين الآلهة التي تصورها الناس والبشر الذين عاشوا على ظهر الأرض في منطقة ما بين النهرين. واذا كان الحديث عن عقائد هذه المنطقة منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة يشمل الحديث عن ثلاث عقائد مختلفة عرفتها ثلاث عصور تاريخية هي عصر السومريين وعصر البابليين وعصر الاشوريين.. الا ان قصة الطوفان الذي نزل بالأرض والبشر تكاد تكون واحدة في مختلف هذه العقائد.. فقد تناولت الوثائق القديمة الشعبية كيف نزل نظام الحكم من السماء وكيف قام ثمانية آلهة بالحكم في ثماني مدن مختلفة

وحكم كل منها عدداً من السنين يزيد على الالف.. ثم انتهى حكمهم بحدوث الطوفان الذي عم العالم كله واهلك الحرث والنسل.

ومن خلال محاولات العلماء لاستقصاء حقيقة ما جاء في هذه الوثائق الشعبية القديمة عن الطوفان، تأكد ان هذه الوثائق كلها - مع وجود بعض الاختلافات من حيث وصف الطوفان ونتائجه ومسبباته - ترجع الى اصل واحد تناقلته الاجيال وتحدثت به افواه الناس. الى ان تعلموا الكتابة فسجلوه في اكثر من وثيقة. وانتهى حديث العلماء الى تحديد تاريخ حدوث الطوفان في القرن الاربعين قبل الميلاد. والغريب ان الأبحاث العلمية التي جرت في اكثر من مكان في بلاد العراق القديمة - كما يقول الدكتور عبدالمنعم ابو بكر - قد وصلت الى ظواهر تؤكد ثبوت حدوث فيضان كاسح حوالي منتصف القرن العشرين قبل الميلاد.

عقائد السومريين

كان السومريون الذين تقع اراضيهم في الجنوب من الاقليم الواقع بين بغداد والخليج والذي يضم: اكاد في الشمال هم اول من تتبعهم التاريخ من اصحاب حضارات ما بين النهرين. وكان المجتمع السوري ينقسم الى دويلات ومقاطعات ومدن.. وكانت المدينة تكون في المجتمع خلية كاملة تحوي كل ما تحويه الدولة بالمعنى المتعارف عليه.. فمن حولها الاراضي المزروعة وفي وسطها معبدها الذي تتركز فيه الحياة الدينية الخاصة بعبادة اله المدينة المسيطر على كل ما فيها حيث يعتبر المعبد المركز الحيوي لكل مظاهر الحضارة في المدينة تتجمع من حوله كل اوجه النشاط. وكان الإله يعتبر سيد المدينة الحقيقي وعليه ان يختار وكيلا يسمونه «ايشاكو» يتولى الحكم وتعهد اليه باسم الإله رعاية شئون الاهالي وهكذا جمع الحاكم مهمة تعريف الامور الى مهمته الدينية في الوقت نفسه بتولي الأعمال الكهنوتية بصفته الكاهن الاكبر للاله.

وكشفت النصوص التي عثر عليها بين اطلال معبد مدينة «العبيد» عن

كهنة الهة المدينة وهي الالهة «نين- هرساج» والقابها: «ام الالهة والبشر، التي ترعى امراء المستقبل» وكانت تمثل على هيئة بقرة لم تلبث ان اختارت لها زوجاً هو «نانار» اله «اور» الذي مثل على هيئة الثور القوي والذي يرمز به الى القمر.

اما اله مدينة «لجش» فكان يدعى «نين جيرسو» ويصور على هيئة نسر كبير له رأس اسد ويقبض على حيوانين. وقد استمر هذا الاسلوب في تصوير الالهة على هيئة حيوان يتكون من اكثر من عنصر منتشراً في العصر السومري وانتقل منه الى العصر البابلي.

وقد اعتقد السومريون في حياة خالق الموت. وكان الحاكم يدفن في تابوت يوضع في قبو بني من الحجر ويحاط بعدد من رجالاته وخدمه. وحرص اهل سومير على تزويد الميت بحاجياته الشخصية سواء بلفها مع الجثة او وضعها بجواره داخل التابوت. وكانوا يضعون خارج التابوت قارباً صغيراً مملوءاً بأواني فخارية مختلفة الاحجام تحوي انواعاً كثيرة من القرابين.. فقد اعتقدوا بأن الميت سوف يضطر في رحلته الى العالم السفلي الى استخدام قارب مزود بأنواع المآكل والمشارب. ولقد اثبتت الحفائر ان الناس كانوا يدفنون مع ملوكهم عدداً كبيراً من الحاشية يقتلون في نفس اليوم وتوضع جثثهم في الحفرة للقيام على خدمة حاكمهم.. وكان ذلك حوالي عام ٣٠٠٠ ق. م. في مدينة اور..

عقائد الاكاديين:

في الشمال من دولة سومير تقع دولة اكاد حيث قامت الاسس الدينية فيها على نفس العقائد التي كانت سائدة عند السومريين. فقد اعتقدوا ان العالم في بدء امره كان ينكون من عنصر واحد هو الماء.. يحوي عنصرين ازليين هما المياه العذبة ابسو والمياه المالحة تيامات كما جاء في اسطورة الخلق والطوفان.. وبتزاوجهما انبثقت الخليقة.. الآلهة والبشر. وكانت الآلهة عندهم مخلوقات سماوية يمتازون عن البشر بحياة ابدية وان كانت تسود بينهم

وتربط بين الواحد منهم والآخر نفس الاحاسيس البشرية. والآلهة جميعاً محبون للخير، اما البشر فكانت هناك مخلوقات تمثله ليسوا ببشر كما انهم لا يرقون الى مصاف الآلهة. وبينا عبد الناس الآلهة وقدموا لها القرابين. وحاولوا الاتصال بمخلوقات الشر عن طريق السحر فقط رغبة في ابعاد اذاها عن انفسهم.

وكان العالم ينقسم عندهم إلى ثلاثة أقسام:

- السماء ويسيطر عليها الاله «آدوم» أو «انو»
- الهواء والأرض ويسيطر عليها الإله «انليل»
- البحار والمحيطات ويسيطر عليها الإله «انكي»

وكانت هناك عدا هؤلاء مجموعة كبيرة من الآلهة تمثل قوة الطبيعة والعناصر المهمة في بيئتهم. اما الناس فقد خلقوا من طينة الأرض وشكلوا حتى يشبهوا الآلهة وما خلقوا الا ليكونوا خداماً مطيعين لهم. ولذلك اعتبر الناس انفسهم ملزمين امام الآلهة بأمرين: اولهما خشية الإله.. وثانيهما العبادة وتقديم القرابين.

ويبدو ان فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلد لم تكن قد استقرت في عقولهم بعد. وعلى ذلك ففكرتهم في القيام بالصلاة وتقديم القرابين لم تكن للحصول على الحياة الخالدة بل طمعاً في النعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا. وعقيدتهم في ذلك هي أن الإنسان ما دام يعمل صالحاً فقد استحق رضى الإله وعاش متمتعاً بالسعادة. اما إذا اذنب بقصد او بدون قصد فان الإله حاميه يتخلى عنه فتتلقفه مخلوقات الشر ويتردى في عالم الرذيلة. واذا اراد الإنسان ان ينجو من عالم الرذيلة فعليه ان يلجأ الى السحر ويتمتم بتعاويذ التي علمها الإله «انكي» للناس فحفظوها عن ظهر قلب. وكان الفرد الذي يتعلمها يصبح كاهناً لا عمل له إلا مساعدة الناس للتخلص من ايدي مخلوقات الشر والعودة الى حظيرةالآلهة.

العقائد البابلية:

في حوالي عام ٢١٠٥ ق. م. ظهرت اسرة سامية اسسها رجل اسمه سمو آبوم بدأ كفاحه بالقضاء على امراء الدويلات الجنوبية ثم اعلن نفسه ملكاً على بابل بعد ان بسط نفوذه على سومير واكاد وبذلك حقق نهائياً وحدة البلدين تحت صولجان واحد. وعندما جاء حمورابي بعد ذلك بعدة سنوات استمر في توسعه نحو الشمال والجنوب ووصل شمالاً الى اعالي نهر دجلة وضم بلاد الأشوريين اليه.. كما وصل بحدوده الى الخليج الفارسي.

ولقد بقيت العقائد الدينية في عهد امبراطورية بابل على ما كانت عليه في العصور السابقة. واستمر عدد الآلهة بعددهم الوافر الذي لا يقل عن خمسة وستين الف إله.. ولا غرابة في ذلك لانه كان لكل مدينة اله يحميها ثم لكل قرية ولكل جماعة ولكل اسرة واخيراً لكل فرد إله يحميه.. هذا غير الآلهة الكبرى التي تمثل قوى الطبيعة والتي كان الجميع يتعبدون لها.

وعندما استقر الامر لحمورابي جعل من الإله «مردوك» معبود مدينة بابل المحلي «الإله الأعظم للامبراطورية وسيد الآلهة اجمعين». واستجاب الكهان لرغبة حمورابي فأسرعوا بتأليف القصص ونسجوا حول الإله الجديد كثيراً من الروايات.. وكان اهمها وابرزها قصة الخلق البابلية التي تتحدث عن بدء الخليقة وكيف استطاع مردوك ان يصبح سيد المجتمع.

واما عن الدنيا الثانية فقد آمن البابليون ان الناس بعد موتهم يذهبون كلهم.. العبقري منهم والابله.. القديس والمذنب.. الى مكان مظلم في جوف الارض سموه «ارالو» هو بمثابة دار العقاب.. حيث تقيد فيه ايدي وارجل الموتى ابد الدهر وحيث ترتجف اجسادهم من البرد، واذا لم يتفضل ابناء الموتى واقرباؤهم بوضع الطعام لهم على مقابرهم في اوقات معينة فسوف يجوعون ويظمأون. وكانت اكثر اجسام الموتى تدفن في قباب ونادرا ما كانت الجثة تحرق وتوضع بقاياها في قدر. وكانوا يعتقدون ان

الميت الذي لم يعنى بدفن جثته على احسن وجه سوف يسبب العذاب للاحياء.

ومن الغريب ان التمسك بأهداب الدين البابلي لم يكن يتعدى تقديم القرابين للآلهة.. وما دام البابلي قد قام بما حق عليه نحو آلهة من تقديم القرابين - وهي تذهب بالتالي الى الكهنة - فقد اصبح في حل بعد ذلك من ان يفقأ عين عدوه المهزوم ويقطع ايدي الاسرى وارجلهم ويشوى ما بقي من اجسامهم وهم احياء.. دون ان يؤذي بذلك آلهته..

العقائد الآشورية

اما عند الاشوريين فقد بقيت الاصول الدينية البابلية ايضاً في جوهرها تهيمن عليهم كما يقول.د. عبدالمنعم ابو بكر في دراسة حضارة الشرق القديم.. اللهم إلا ان الدين لم يكن له من السلطان على اصحاب الحكم بقدر ما كان له في بابل.. وقد كيفوا الدين بحيث يصبح ملائماً للميول الحربية والطابع العسكري الذي تميز به الأشوريون.

وكان «اشور» هو الهم القومي. وملك الآلهة جميعاً، فهو خالق البشرية، كما انه كان الهاً حربياً لا يشفق بأعدائه. وكانت زوجته «عشتار» المحاربة، تحتل المكانة الثانية في مجمع الآلهة الاشورية الذي يشمل الآلهة: «سن» و«شمس» و«اداد» و«بعل» و«نابو» و«نرجال» و«نسكو».

وتتكون الطقوس الاشورية الدينية من ادعية وصلوات مصحوبة بتقدمات مختلفة، والنقوش الملكية مليئة بالدعوات مثل:

« فلترض عني الآلهة عندما ارفع يدي اليها. ولتمنح حكمي امطاراً غزيرة واعواماً كثيرة مليئة بالثروة والرخاء. ولتعاونني على الخروج من الحروب سالماً آمناً. ولتخضع لي كل الاقاليم المعادية وكل الملوك والامراء الذين اعلنوا الخصومة ضدي. ولتسبغ بركاتها علي وعلى نسلي.».

اما العقائد الاشورية الخاصة بدنيا الموت. فكانت مثلها عند البابليين. لا تعطي الفرصة لمن عمل صالحاً ان يتمتع فيها بشيء. فلم يبذل الأشوري أي جهد ليقيم لنفسه مأوى يمضي فيه حياته الثانية هانئاً سعيداً.. بل كان همه ان يرضي الآلهة لتمنحه السعادة والرخاء في الحياة الاولى. ولعل اوضح مثل لذلك ما قاله الملك اشور بني بعل للآلهة التي رمم معابدها: «امنحوني- انا الذي اخشى معبوداتي العظيمة- حياة تمتد اياماً طويلة وسرور القلب».

ابرز الآلهة:

● إله السماء.. اونو.. يمثل مركز الصدارة بين المعبودات في قوائم الآلهة في العراق القديم. وكان يعتبر ابا للآلهة.. وكما ان الآلهة كالناس والدول تنهار فقد انهار حين ضاع نفوذ سومر واكاد.. واختلس منه وظائفه «مردوك» البابلي حين بزغت شمس بابل.. ثم اختلس وظائف الاثنين «أشور» حين اصبحت لدولة اشور السيادة.

واونو هو اب السموات وملكها، وعرشه على قمة قبة السماء.. ويحكم اونو مجموعتين من الآلهة هما «الاجيجي» في السماء و«الانوناكي» في الأرض. وهم الذين يقتسمون التصرف في شئون العالم باشرافه.

● اله الأرض «انليل» كان سيدا للمجمع السومري للآلهة.. ومعنى اسمه «سيد الريح والروح» ثم اخذ بعد ذلك لقب «سيد الأرض». وكسيد للأرض يحكمها كان يحكم البشر. وكانت له شبكة يعيد بها العصاة. وله مظهر الجندي المغوار الذي تهز قوته السموات والارض. وكان «سن» اله القمر يسمى أحيانا «ثوير انليل القوي» وكان يعتبر ابنا له يتناوب اخذ الشبكة من ابيه.

● إله الماء.. «انكي» او «ايا» كان ثالث افراد الثالوث الرئيسي. وكان يمكن التمييز بين ثلاثة انواع من الأرض.. الارض العليا حيث يحكم

انليل.. والارض السفلى حيث يحكم نرجال.. والأرض الوسطى ما بين الاثنين حيث مملكة «ايا» او «انكي» سيد الماء المقدس.

وكان إله الماء إلهاً للسحر ولعل ذلك يرجع إلى استخدام الماء العذب في طقوس التطهير. وهو الذي يتلو الرقي للآلهة.. ولهذا أتى مردك إليه في محنته ليعرف الطريق الذي يسلكه. وكان انكي كذلك إلّها للحكمة التي ترجع إلى أصل إلهي فهو رب العقل والذكاء. أذنه كبيرة مفتوحة. وكإلّه للعلم ورب للفنون والصناعات يستلهمه الصناع والفنانون. وقد تمت عملية خلق البشر على يده فهو الذي شكل الإنسان من الطمي ونفخ فيه نسمة الحياة.. وهو الذي استنجد به مرودك عندما خلق الإنسان الأول.. ولهذا فرض على البشر عبادة الآلهة على الأرض.

● اله العالم السفلي.. نرجال.. وهو اصلاً إله الوباء المنوط به تعمير العالم السفلي والذي يعاقب بالحديد والنار من يعتدي على الشريعة. وكوكب نرجال هو المريخ، وقد استطاع بقوته ان يسيطر على الأراللو. وزوجته هي ارشكيجال سيدة الارض العظمى. وقد نشأ نرجال الهاً شمسياً وهو يشارك اونو وانليل وايا في ملك العالم. وهو منفذ الأمور الكبرى وهو من يعهد اليه اونو بمعاقبة المدن التي تثور ضد السماء بما فيها بابل. ورمزه الاسد واحياناً ثور او تنين او غراب. ويقولون ان امرء لا يستطيع ان يقاومه فالبشر اسرى القدر ولا يستطيع ان يفلت منه واحد منهم بل هم يستسلمون في نهاية الامر.

● إله الشمس.. شمس.. واكثر صوره دائرة بأربعة اشعة تخرج بينها اشعة مجعدة تمثل المعبود الشمسي. ورمز الطيران الشمس من الشرق الى الغرب تصور الكرة الشمسية ذات اجنحة وذيل طائر. وحين تترك الشمس عرشها لتعبر الفلك تمتطي حصاناً. اما صفات الإله فهو ضوء العالم.. ضوء الأعالي والأعماق.. ضوء السموات والأرض.. ضوء الآلهة.. يعيد الظلمات ويقصر الأيام ويطيل الليالي وتتوقف عليه حياة البشر.. وهو مانح الحياة

ومحيي الموتى.. وهو الذي يقود العالم كله.. الآلهة والبشر.. وكظافر منتصر على الليل والموت يعتبر بطلا.. وبصفته كذلك كصاحب للاشعة التي تخترق الظلمة التي يعمل فيها الاشرار.. والفجر عدو للشر.

● إله القمر.. سن.. قال له مجمع الارباب منذ بداية العالم.. منذ بداية الشهر ستلتمع بقرون تحدد ستة ايام. وهكذا ظهر الإله الصغير «كثوير قوي قرونه شديدة، وهو سيد التاج».. يعين الملك ويمنح الصولجان.. او ينزعه. وحين ينحدر الشهر يتحول إله القمر الى شيخ مسن له لحية من لازورد ينفذ بحكمته واقواله الرصينة قرارات الآلهة وعدد اقدار البشر. وهو يباشر تنفيذ العدالة مع شمس في الليل وفي النهار وزوجته هي «بننجال» اي السيدة العظمى وقد ولد لهما شمس اله الشمس وعشتار ربة الزهرة.

● الهة الزهرة.. عشتار.. احدى بنات سن اله القمر.. وهي ذكر في الصباح يشرف على الحروب والمذابح.. وانثى في المساء ترعى الحب والشهوة. فهي ربة هلوك تسعى وراء اللذة والاغواء. ورمزها نجم تخرج منه ثمانية من الاشعة او ستة عشر داخل دائرة. وقد دعا اونو الآلهة ليمنحوها لقب «عشتار النجوم» لانها اكثر اشعاعاً بينها ولهذا فهي التي تقود النجوم. وكوكب الزهرة.. نجم الفجر.. هي المرحلة بين مملكة الظلام عرش اختها ارشيجال ومملكة الضوء عرش اخيها شمس. وهي في شجاعة اخيها وقوته وفتوته وسيدة المعارك تقضي على من تناول القانون بالتحوير او التغيير. وهي في نفس الوقت ربة العشق التي تحب المتعة والفرح وترتبط عبادتها بالعاهرات المقدسات وقد استطاعت ان تطغى على اختصاصات غيرها من المعبودات وكانت زوجة وعشيقة لكبار الآلهة.. اونو وانليل واشور.. وهي بذلك «رفيقة كبار الآلهة» وهي التي تحدد مصائر البشر.

● الاله مردوك.. الإله الوطني الذي لعب دوراً رئيسياً في مصير بابل. وهو الابن البكر «لانكي» او «ايا» إله الماء. ورث عن ابيه العلم والسحر

وهو الذي يتلو الرقي والتعاويذ للآلهة ولمردوك اربعة عيون واربعة آذان فهو «اعقل العقلاء بين الآلهة» تسلم منهم القوة التي استطاع عن طريقها ان يدير شئون السماء والارض. وقد تركزت فيه صفات الآلهة جميعاً وكلمته تخلق الخلق او تمحوهم. وفي السماء كوكبه «المشتري». ويصور مردوك احياناً في عجلته الحربية كإلّه للعناصر التي اطلقت من عقالها. وهو في السلم الإله الخير الذي يرعى الاقوات والشراب ويشرف على الاعمال العمرانية. وهو لا يستخدم اسلحة الحرب الا للدفاع عن الوطن.

وقد انتشرت عبادة مردوك من العاصمة بابل الى الامبراطورية وكانت توضع في المدائن الاخرى تماثيله الى جانب المعبودات المحلية.

الإله اشور.. وتاريخه مرتبط بتاريخ مدينة «اشور» ويشغل في مجمع الآلهة الاشورية وقائمتهم المكان الأول ويشار اليه كصاحب اعلى المراكز بين المعبودات وتاريخه في تصاعد مستمر اذ كبر مع مدينته ثم زاد نموا مع بلاده واغتصب اختصاصات غيره من المعبودات وكسف زملاءه ومنافسيه فكان اباً للالهة بدلا من اونو والهاً للارض بدلا من انليل.. بل غدا خالقاً للآلهة جميعاً.. سيدهم وملكاً عليهم. وهو الذي يمنح التاج والصولجان للملك.. ويمتدح الناس قوته ويترنمون بعظمته وجلاله وهو يرأس مجمع الآلهة الاشورية ليحدد مصائر البشر. ولهذا تقدم له الصلوات والقرابين.. ويقف الناس كل صباح متوجهين اليه بالدعوات...

الا ليهدأ الغضب في قلب مولاي..
الا ليهدأ قلب إلّهي..
انا لا اعرف الاثم الذي ارتكبت
سوءاتي اجهلها
فليذكر إلّهي اسما طيبا
لبذكر الإله المعروف انني اكلت حطاماً طاهراً
وشربت شراباً طهوراً

لقد اكلت يا إلهي ما ليس بطاهر سهواً
أي ربي.. ان آثامي كثيرة وتعدياتي كبيرة..
الإله في غضب قلبه تطلع الي
الإله في هياج قلبه حاصرني
سعيت وراء العون ولكن احدا لم يأخذ بيدي
بكيت ولكن واحدا لم يأت الى جانبي
لقد غلبت على امري وانا مليء بالحزن
الا فليهدأ الغضب في قلب الهي.

عقيدة
الهندوس

عقائد الهند

القسم الثاني

«تتعلق بي..
كما تتعلق مجموعة من الخرزات بخيط..
أنا من الماء طعمه العذب،
وأنا من القمر فضته ومن الشمس ذهبها..
أنا موضع العبادة في الفيدا،
والهزة التي تشق أجواز الأثير،
والقوة التي تكمن في نطفة الرجل..
أنا الرائحة الطيبة الحلوة،
التي تعبق من الأرض المبتلة،
وأنا من النار وهجها الأحمر،
وأنا الهواء باعث الحياة.
أنا القدسية فيما هو مقدس من الأرواح..
أنا حكمة الحكيم وذكاء العليم، وعظمة العظيم
وفخامة الفخيم.
إن من يرى الأشياء رؤية الحكيم،
يرى أن براهما المقدس،
والبقرة، والفيل، والكلب النجس،
والمنبوذ وهو يلتهم لحم الكلب..
كلها كائن واحد.

«اليوبانشاد»

من جسم « مانو »

خلق البشر

هو ذا يعيش وحده بعيداً جداً.. في اللانهاية.. حيث الفضاء رائع، غريب، عملاق. يطل أمامه إلى حيث يستلقي كل العالم الذي لا يضيق بشيء، ولا يتسع لشيء، ولا يحده شيء على الإطلاق.

لكأنما في أعماقه وهو يلقي بنظرته البعيدة هدير صاخب يقول:

« أنا أقوى من السماء وأعظم من الأرض. وأرفع من كل هذه الأجرام والكواكب حولى. أنا أعلى من جميع هذه الأشياء. أنا الكل في الكل. أفعل ما أريد. وأخلق كل ما يخطر لي. أنا جوهر هذا العالم الواحد الشامل. لست بالذكر ولا بالأنثى. إنما أنا روح غير مشخص في صفاته. أحتوي كل شيء. وأكمن في كل شيء. لا تدركني الحواس. لأني أنا حقيقة الحقيقة. أنا.. براهما ».

قصة الخلق

غير أنه مع كل ذلك لم يكن يحس سروراً قط. فلقد طالما كره تلك الوحدة التي تحتويه في ذلك المحيط اللانهائي. ولعله لم يبلغ به الضيق ذلك الحد قبل هذه اللحظات التي بدا له فيها أن الأمر أصبح يتطلب شيئاً ثانياً.. شيئاً يستطيع أن يملأ بوجوده ذلك الفراغ الهائل الكبير.

وكان ما لا بد أن يكون..



وبأطراف أنامله صنع براهما شيئاً هائلا كبير الحجم. ليكاد يعدل جسمه عملاقا وعملاقة تعانقاً. ونفخ الخلاق في الجسد العملاق فإذا به ينشق نصفين.. نصفاً لرجل.. ونصفاً لإمرأة.

وعلى سطح الأرض، نشأ في العالم أول زوج، وأول زوجة،



واجتمع الزوجان.. فكان أول نسلهما البشر.

وأطلت المرأة إلى رجلها. كان فيه شيء لم تفهمه، وسر لم تدر كنهه. وفي الأعماق منها تساءلت: «كيف استطاع ذلك العملاق أن يخرجني من نفسه، ثم يخرج مني كل هذه الكائنات. أنه لشيء رهيب، خارق. شيء يجعلني ابتعد عنه وأختفي عن ناظريه!!»

وعندما غدا نهار بعد ليل.. كانت الزوجة قد اختفت في صورة بقرة. ولكن الزوج كان في إمكانه أن يصنع نفس الشيء.. فانقلب ثورا. وزاوجها. وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية.

وامتلأت الزوجة رعشة جديدة. ومن أجل أن تختفي عملت على أن تتخذ لنفسها هيئة الفرس. ولكنه لم يمهلها بل انقلب هو الآخر في هيئة جواد.

وحولت المرأة نفسها لتكون حمارة. فحول هو الآخر نفسه ليكون حماراً من أجل أن تولد لهما ذوات الحوافر.

وانقلبت الزوجة عنزة. فانقلب لها تيساً. وتحولت إلى نعجة فتحول كبشاً، لتكون لهما الماعز والخراف.

وعلى وجه الأرض راحت كائنات جديدة تنطلق في كل مكان. تنوعت بينها الذكور والأناث. حتى بلغ وجودها في التدرج إلى حيث النمل.

ومن قمة اللانهائية، أطل براهما وقد أدرك تلك الحقيقة. أنه هو هذا الخلق نفسه.. لأنه أخرجه من نفسه!

ومن هنا بدأت قصة الخلق كما يراها الهندوس. قصة الخلق التي قام بها «روح العالم، عندما خلق «مانو» أول البشر.

ومن أول البشر خلقت البشرية.

★ ★ ★

الطوائف عند الهندوس

على أن الحياة عندما أطلت على كل البشر، وجدتهم غير متساوين على الإطلاق برغم أنهم جاءوا جميعا من «مانو» أول البشر.

فالذي حدث تماماً أن أربعة أنواع من البشر جاءوا من مانو.

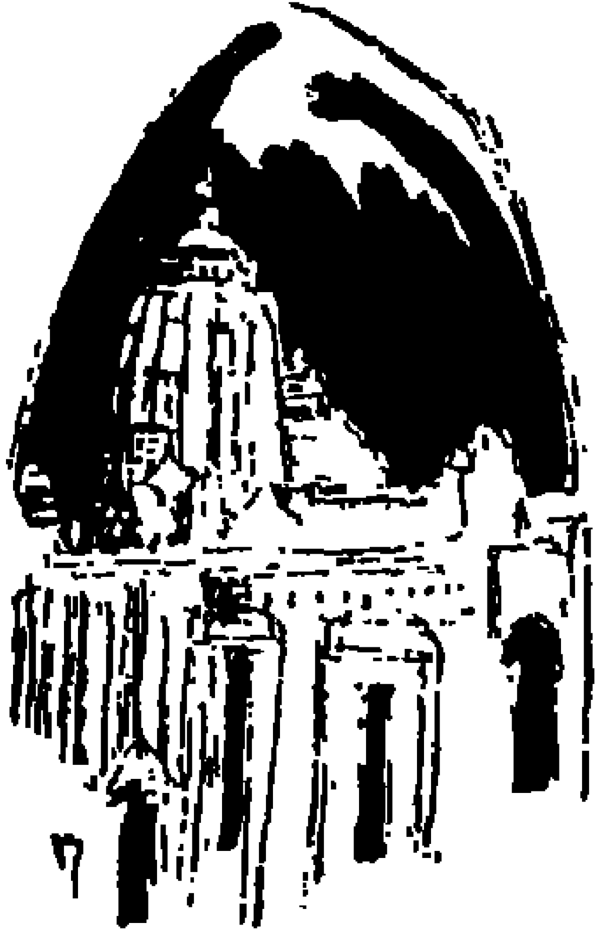
فمن رأسه جاء أفضل الناس وأعظمهم قدسية.. وهم الكهنة البراهمة ومن ذراعه جاء من يليهم في الأفضلية وهم الملوك والمحاربون.. ويسمون بالاكشترية.

ومن فخذيه جاء أرباب المهن في العالم بين زراع وتجار ممن يوفرون مسائل العيش للكهان والملوك والمحاربين.. وهؤلاء هم الفيشية.

ومن قدميه جاء بقية الناس الذين ينتمون إلى الطبقة السفلى، وليس لهم من مهمة سوى خدمة الطوائف الثلاث السابقة في أخص حاجاتها.. وهؤلاء هم الذي يسمون بالشودرا.. أو المنبوذين.



ومضت الطوائف الأربع منطلقة في الأرض، لكل منها واجب ومهمة. البراهمة لدراسة أسفار الفيدا المقدسة وهي الكتب بقوانينها وشرائعها وتعاليمها وتقريب القربان وإدارة الصحايا ولهم الأخذ والعطاء. والملوك والمحاربون لحماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الإنهاك في الشهوات. والتجار والزراع لتربية المواشي وإيتاء العطاء والتضحية ودراسة الكتب المقدسة والبيع والشراء وحرث الأرض. أما المنبوذون فليس



عليهم سوى أن يضعوا أنفسهم تحت أقدام كل فرد من الطبقات الثلاث الأخريات..!

وقال الكهنة أنه هكذا جعل براهما الخلاق أربعة أنواع مختلفة من الناس في طبقات بعضهم أفضل من بعض، وبعضهم أسوأ من بعض. أما البراهمة فهم على رأس كل الطبقات.. حتى الملوك عليهم أن يحذروا فرض ضريبة على برهمي حتى ولو نضبت كل موارد المال الأخرى، لأن البرهمي إذا ما ثار غضبه يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً بتلاوة لعنات ونصوص مسحورة. فكل ما هو كائن في الوجود هو ملك للبراهمة. والسخاء في العطاء للبرهمي من أسمى الواجبات الدينية.. حتى أنه يستطيع إذا لم يجد ترحيباً كريماً في أحد البيوت أن يذهب عن صاحب البيت كل ما كان يستحقه من جزاء على ما سبق من حسنات. أما إذا اقترف البرهمي ما شاء من الجرائم، فليس يحق عليه القتل. ولكن من حلول أن يضرب البرهمي فلزام عليه أن يصلي عذاب النار مائة عام. فإذا ضربه بالفعل فقد حقت عليه الجحيم ألف عام.

المنبوذون

أما الشودري المنبوذ، فالإمتثال المطلق لأوامر البراهمة هو أقصى ما عليه من الواجبات. إن خدمة الشودري للبراهمة هي أفضل عمل يحمد عليه. ولا يجوز له أن يجمع ثروة أيا كانت ولو كان على ذلك من القادرين. لأنه إذا جمع المال فسيتيح له ذلك أن يطاول البراهمة بوقاحته. وهو إذا علا فوق من هو أعلى منه بيده أو عصاه قطعت يده. وهو إذا نادى من هو أعلى منه باسمه أو اسم طائفته متكلماً فعقابه أن يدخل في فمه خنجر محمى مثلث النصل طوله عشرة قراريط. ويأمر الملك بصب زيت حار في فمه وفي أذنيه إذا بلغ من الوقاحة ما يبدي به رأيا للبراهمة في أمور وظائفهم.

وقد يحدث أن يعتدي رجل من الشودري على عفاف زوجة برهمي، فإذا حدث هذا صودر كل ما يملكه وأنزل به عقاب يجعله لا هو بالذكر ولا

بالأنثى. وإذا قتل زميلا له كان عليه أن يكفر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة، أما إذا قتل أحدا من الفيشية فكفارته للبراهمة مائة بقرة، وإذا قتل أحدا من الكشاترية ارتفعت الكفارة إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة. أما إذا قتل برهميا فلا بد من قتله. لأن العقاب بالقتل لا يكون إلا لقتل برهمى.!

الطوائف العليا والسفلى

وقال الكهنة البرهميون: هكذا كلما ارتفعت الطائفة التي يولد فيها المرء زادت امتيازاته في الحياة. فالذين من الطائفة العليا هم وحدهم الذين يمكن أن يصبحوا كهنة ومعلمي عقيدة. أما الذين يولدون في الطائفة السفلى فلا يمكن أن يصبحوا كهنة ولا حكاماً، أو أن تكون لهم مراكز هامة من أي نوع.

وتساءل بعض القوم:

- أما من سبيل لإنسان من طبقة دنيا بلغ من الطيبة والصلاح أقصى الحدود وأصبح غاية في الشجاعة والذكاء، أن يستمتع بنفس الامتيازات في الحياة كواحد من الطوائف الأعلى!؟

- كلا. إذا ولد إنسان في طائفة فليس له أبدا أن يستمتع بامتيازات الطائفة التي تعلوه.

وتهامس بعض الناس:

- إذن فلا جدوى في أن يكون المرء صالحا؟

ثواب الحياة الأخرى

وهنا أجاب الكهنة: بل هناك جدوى. فإنك إذا كنت صالحا في هذه الحياة فستجازى عن صلاحك في الحياة الأخرى...!

وتساءل القوم: أية حياة؟



وأجاب الكهنة: لكل كائن حي روح. وهذه الروح تأتي من براهما روح العالم. وبراهما لا يموت قط. وهكذا فإن روح الكائنات الحية التي تأتي من روح العالم لا تموت قط.

وتساءلوا من جديد: إذن ما الذي يحدث للروح عندما يموت الإنسان؟

وكان الجواب: عندما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده وتدخل على الفور جسد طفل ولد لتوه. فإذا كان الإنسان ممن يحيون حياة طيبة صالحة ولد في طائفة أعلى. بينما يولد في طائفة أدنى إذا كان يحيا حياة فاسدة مليئة بالشر..

وسأل بعض الناس: وما الذي يحدث للإنسان إذا هو استمر يحيا حياة فاسدة بعد حياة أخرى أكثر فساداً!؟

وأجاب الكهنة: «مثل هذا الإنسان يظل يولد في طائفة أدنى من طائفته مرة بعد أخرى. وقد يولد عليلا ليظل يشقى طوال حياته عقابا له على ما أساء.. بل وما من بأس في أن يولد حيواناً أعجم. وقد يولد الإنسان الذي هو غاية في السوء فيلا. وإذا صار فيلا شريراً فإنه بعد موته يولد مرة أخرى كلباً. فإذا كان كلباً فاسداً ظل ينحدر كلما ولد حتى يولد برغوثاً أو بعوضة..!

قانون الحياة

وأراد القوم أن يعرفوا السر الذي يجعل أرواح الصالحين من الناس تتجسد في طوائف أعلى. بينما يجعل أرواح السيئين تتجسد أجساما من الطوائف الدنيا أو الحيوانات.

وقال الكهنة: هناك قانون للحياة يقول «جزاء الخير خير مثله. وعقاب الشر شر مثله. وهذا القانون اسمه الكارما»

ورأى الناس بالفعل أن هذا هو ما يجب أن يكون. فالعمل الصالح

يجب أن يثاب عليه. والعمل السيء يجب أن يعاقب عليه المرء. وبدأ صوابا لديهم أن يكون في الحياة مثل هذا القانون.

النيرفانا

وظهر سؤال: ولكن ما الذي يحدث للمرء إذا هو استمر يحيا حياة صالحة بعد حياة صالحة أخرى؟

وأجاب الكهنة: إذن يثاب. فإذا كان رجل من طائفة غاية في الإنحطاط يحيا حياة طيبة فإنه يولد في المرة التالية في طائفة أعلى.

- وإذا ظل مواظبا على الصلاح.؟

- يظل يرتفع مرة بعد مرة حتى يصبح كاهنا برهمياً.

- وماذا يحدث لو أن الكاهن ظل صالحاً. فبأي صورة يولد من جديد؟

- عندئذ لا يولد مرة أخرى. فهنا تنتهي دورة الحياة.

- ولكن ما مصير تلك الروح التي تظل خيرة مع مجرى الزمن؟

- إن أرواح الكائنات تأتي من براها روح العالم.. فعندما تنتهي الروح من دورة الحياة تعود إلى روح العالم وتتحد مع براها.. وهذا هو ما يسمى بالنيرفانا.. وتلك أعظم سعادة يمكن أن تتمناها روح.. ومن هنا كان على كل الناس أن يحيوا حياة صالحة.. وألا يفعلوا الشر حتى يمكن في النهاية أن يتحدوا مع روح العالم. وأن يدخلوا النيرفانا؟

نظرية التناسخ

من هنا بالذات.. جاء تناسخ الأرواح كما يؤمن به الهندوس.. فالروح تتقمص عديداً من الاجساد خلال رحلتها في الفضاء الخارجي حتى تصل إلى هدافها النهائي.. وتنطبق نظرية التناسخ على كل الكائنات سواء كانت



تمثـال للالـه الخالـق براهما.. روح العالم.. غير المشخـــص في صفاتــه والمحتوي لكــــل شيء والكامن في كل شيء.. والذي لا تدركه الحواس.



لوحة من « الرامايانا » الهندية من سلسلة لوحات تمثل اسطورة راما .. ويبدو الملك جاناك وهو يحتفل بزواج ابنته سيتا إلى الأمير راما ابن داشار إذا .. والذي أصبح بعد ذلك أحد رموز الاله ..



الإله ساراسفاتي.. واحد من آلاف الآلهة الهندية.. وهم آلهة يتميزون بكثرة أعضائهم الجسدية التي يمثلون بها قدرتهم الخارقة في العلم والنشاط والقوة.



لاكشمي زوجة ڤشنو.. ربة الحظ السعيد. وزوجها إله الحب الذي كثيراً ما انقلب إنساناً ليتقدم بالعون إلى البشر. ويقال أنه هبط إلى جهنم ثم صعد إلى السماء على أن يعود في اليوم الآخر ليحاسب الناس.



حتى الموتى قبل أن ينتقلوا إلى الدار الآخرة.. لا بد من تطهيرهم في مياه نهر الجنجز المقدس.

بشرية أو حيوانية أو حشرية أو نباتية.. فكلها يحكمها قانون واحد.. ولا تختلف روح عن روح إلا بقدر ما يقوم صاحبها به من أعمال.



* * *

وعرف الهندوس الآلهة..

كيف عرفوها.. وما هي مهمتهم في السماء؟

الواقع أن أقدم ديانة في الهند كانت عبادة طوطمية لأرواح كثيرة تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجاري الماء والجبال والنجوم.. وكانت الثعابين والأفاعي مقدسة.. أما أقوى الآلهة فهي قوى الطبيعة نفسها وعناصرها: السماء والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء والجنس..

كل هذه الأعداد من الآلهة خلقها الهندوس لأنفسهم معتمدين على العناصر الطبيعية. فجعلوا السماء أباً وسموه «فارونا».. وجعلوا الأرض أماً وأطلقوا عليها اسم «برينيفي». وكان المطر عندهم هو الإله «بارجانيا» والنار هي «أجنى».. والريح هي «فايو» أما العاصفة فهي «أندرا» والفجر «أوشاس» ومجرى الممرات في الحقل هو الإله «سيتا» والشمس هي الاله «سوريا» أو «مترا» أو «فشنو». بينما النبات المقدس الذي يسكر عصيره كل الناس وكل الآلهة هو الإله «سوما».

ومع الزمن تمثل الناس هذه الآلهة في صورة أشخاص راحوا يعبدونهم.. وأصبحت الشمس التي تهب الحياة إلهاً جديداً اسمه «سافيتار» وأما ضوؤها فإله آخر اسمه «فيفاسفات».. ثم أصبحت الشمس التي تولد الحي من الحي إلهاً عظيماً جديداً اسمه «براجاباتي» هي رب كل الأحياء..

وإذا كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة جديدة.. هي: «أي هؤلاء الآلهة خلق العالم؟»

وقال البعض إنه «آجني» إله النار.. وقال آخرون بل «اندرا» إله

العاصفة.. وقالت طائفة أنه «سوما» إله النبات.. بينما قال الباقون أنه «براجاباتي» إله الشمس خالق كل شيء ورب كل الأحياء.. وظل هذا الرب يرتفع ويعلو حتى صار ذات يوم يعبد على أنه الإله الواحد.. ثم صار هو «براهما» الذي يفنى في نفسه كل شيء..والذي ابتلع براجاباتي ذاته داخل جوفه الكبير.

براهما الخالق

فماذا يكون براهما هذا.. ذلك الإله الذي انتسبت إليه طائفة البرهمية.. ومن يكون؟

لقد حاول الهندي الوصول إلى سر هذا العالم في خلال سنوات التفكير الطويلة التي عز عليه خلالها أن يفهم: من أين جئنا؟ وأين نقيم؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟.. من ذا الذي أمر بنا فإذا نحن على الأرض أحياء؟ أهو الزمان أم الطبيعة أم الضرورة أم المصادفة أم عناصر الجو.. ذلك الذي كان سبباً في هذا الوجود؟ أيكون السبب حقاً هو ذلك الشيء الذي يسمى «بالروح الأعلى»!!

أجابت على هذه الأسئلة «أسفار اليوبانشاد» وهي إحدى الكتب المقدسة للهندوس إذ تقول:



«إن جوهر النفس ليس هو الجسم ولا العقل ولا الذات الفردية. ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له، والكامن في دخيلة أنفسنا... واسمه: أتمان».

أما جوهر العالم الواحد الشامل الذي لا هو بالذكر ولا بالأنثى. أي روح العالم غير المشخص في صفاته والمحتوي لكل شيء والكامن في كل شيء والذي لا تدركه الحواس.. فاسمه «براهما».

واتمان وبراهما ما هما إلا حقيقة الحقيقة.. روح الأرواح.. إن هما إلا

إله واحد بعينه، لأن الروح اللافردية وهي القوة الكائنة في الإنسان هي بعينها روح العالم.

من هنا يكون اتمان وبراهما حقيقة واحدة.. هما أساس العقيدة بالوحدة المثالية.. وحدة الوجود ووحدة الإله.. وهما معاً القوة الروحانية المسيطرة على هذا العالم..

ومن خلال تلك القوة الروحانية الهائلة.. بدأت قصة جديدة رائعة وكانت القصة الرائعة الجديدة.. هي خلق الأرض..

خلق الأرض

ولولا التضحية.. لما كانت هذه الأرض.. ولما كان هذا العالم.

فمن جسد رجل عظيم خلقت الأرض. وكان هو رجلا هائلا ضخما.. ضحى بجسده على مذبح الآلهة.. ورضيت الآلهة عنه فحوّلت جسده إلى ذرات صغيرة عادت لتلتئم من جديد وتتحد جزئياتها.. ومن هذا الاتحاد تكونت الأرض وكل ما يحيط بها من يابس وماء..

من أجل ذلك لم تكن الأرض سوى جزء واحد من هذا الكون.. قسم واحد من بين واحد وعشرين قسماً ينقسم إليها هذا الكون ذو الشكل البيضاوي الذي يسمى «بيضة براهما».

أما الأرض التي عاش عليها مانو وأبناؤه من البشر.. فقد قامت في الطبقة السابعة من بيضة براهما.. من فوقها ترتفع ست سماوات، ومن تحتها سبع أراض تعيش عليها أرواح الثعابين والحيوانات.. وهي خالية من البشر الذين لا يستطيعون الحياة فيها لأنها مليئة بالسحر والغموض، بكل ما تحتويه من كنوز مخبأة وثروات.. أما أسفل هذه الطبقات السبع.. فتقع سبع طبقات أخرى، تسمى «نراكا» كل منها تعتبر جهنم تصلى نيرانها كل المخلوقات التي تعيش في الطبقات السبع الوسطى، حيث تتعذب لتكفر عن الذنوب التي ارتكبتها..

هذه الطبقات الواحدة والعشرون وحدات كونية تدور كل منها حول بعضها ثم تدور كلها في فلك معين.. أما الدورة الرئيسية فهي دورة « الكلبا » أي يوم البراهما الذي استمر ٤٢٠٠ مليون من السنين..

★ ★ ★

ولكن إلى متى يظل العالم يعيش؟

إن هذا العالم ليس مخلداً.. فسيجيء يوم ينهار فيه كله بسبب النار والفيضان.. وعندئذٍ سيتدخل الإله فشنو ويحول دون احتراق العالم وغرقه.. وبدلا من أن ينتهي العالم إلى الفناء فإنه ينتقل إلى عصره الذهبي..

وهذا هو أحد الأدوار الخطيرة التي يقوم بها الإله فشنو..

ثالوث الآلهة

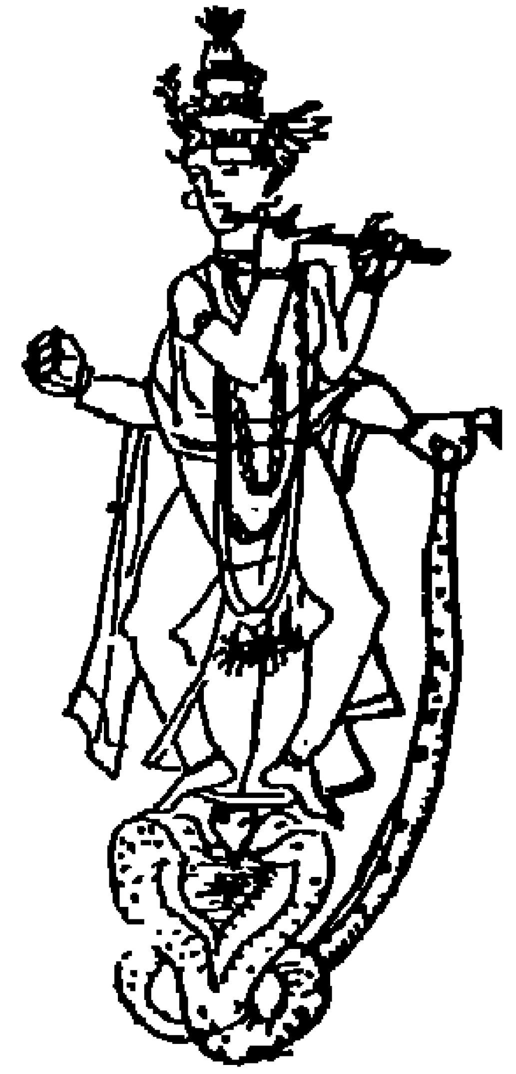
وهذا الإله واحد من ثلاثة آلهة يسمون « الثلاثة في واحد » يسيطرون على الكون هم:

براهما الخالق..

وفشنو الحافظ..

وشيفا المدمر..

أما براهما فسيد جميع الآلهة رغم أنه مهمل في شعائر العبادة الفعلية. وكان له من الشهامة ما أبعده عن الميل مع الهوى.. وهو القوة الخالقة في الطبيعة..



وأما فشنو فهو إله الحب الذي ما أكثر ما ينقلب إنساناً ليتقدم بالعون إلى البشر.. وأعظم ما يتجسد فيه فشنو هو شخصية « كرشنا ».. وهو في صورته الكرشنية، مولود في سجن، يأتي بكثير من أعاجيب البطولة ومغامرات الغرام، يشفي الصم والعمى ويعاون المصابين بداء البرص، ويذود عن الفقراء ويبعث الموتى من القبور.

وكان لكرشنا تلميذ محبب إلى نفسه هو « أرجونا ».. الذي تبدلت أمامه خلقة فشنو.. وتقول أسطورة حياته أنه مات مطعوناً بسهم، وتقول أسطورة أخرى أنه قتل مصلوباً على شجرة، ثم هبط إلى جهنم ومنها إلى السماء، على أن يعود في اليوم الآخر ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم.. وهو- مثل الإله شيفا- تتبعه الأكثرية الكبرى من سواد الشعب الذي يكرم الآلهة.. والذي يرسم الواحد منهم على جبهته كل صباح بالطين الأحمر علامة الفشنو.. وهي شوكة ذات أسنان ثلاث.. بينما الشيفي المخلص لعقيدته يرسم ثلاثة خطوط أفقية على جبهته برماد من روث البقر، أو يلبس « اللنجا » ويربطه إلى ذراعه أو يعلقه حول عنقه. أما أتباعه فيقدسونه على أنه هو الذي خلق الكون كله، وأنه بعد أن قام من النوم أمر البراهما أن يخلق الأرض، ثم اتخذ له مكاناً في « الفيكونتا » وهي السماء التي كان هو نفسه إلهاً لها. وهناك يجلس فشنو على العرش بجانب زوجته والالهتين لاكشمي وسرى إلهتي الحظ السعيد والبركة الطيبة.. وفشنو ينتابه القلق أحياناً بسبب هذا العالم.. فهو يهبط بين حين وآخر من عليائه يتفقد شؤون البشر.

وأما شيفا فعبادته من أقدم وأعمق وأبشع العناصر التي تتألف منها العقيدة الهندوكية. وكلمة شيفا لفظ أريد به التخفيف من بشاعة هذا الإله، ومعناها الحرفي « العطوف »، مع أنه في حقيقة الأمر إله القسوة والتدمير قبل كل شيء آخر. وهو تجسيد لتلك القوة الكونية التي تعمل واحدة بعد أخرى على تخريب جميع الصور التي تتبدى فيها حقيقة الكون.

وشيفا لا يظهر عادة إلا في ميادين القتال والمعارك الضخمة والمنازعات الطاحنة.. وفي كل هذه الميادين تحل بركته، وهي دائماً بركة قاتلة.. أما تماثيله المنحوتة في الصخر فهي تمثله وهو يضع فوق رأسه عدداً من الجماجم وتحيط به أرواح الشر حيث يمارس رقصة العبوس والضراوة.. تلك الرقصة التي تنتهي بتحطيم العالم.. وهكذا يمكن القول بأنه يمثل الدمار ويضع نهاية لكل شيء..

الالهة كالي

وإلى جانب كل ذلك فإن شيفا يعتبر الدفعة الجارفة نحو التناسل الذي يتغلب على موت الفرد باستمرار الجنس. وهذه الحيوية الخلاقة الناسلة تمثلها الالهة «شاكتي» زوجة شيفا.. وتسمى في بعض الأوقات «كالي» وهي تعبر أكثر أهمية من لاكشمى زوجة فشنو.. ويقول أتباعها أن قوة الآلهة تحولت لكي تتجسد في جسدها، فأصبح لها قوة منفردة.. وبينما الإله الذكر ليس في حاجة إلى أن يعبد، إذ أن عبادته ليست عملية محبوبة في هذا العالم، فإن كالي تصبح مصدر القدسية، والعظمة لكل المخلوقات. وعندما تكون كالي غاضبة فإنها ترقص في وحشية وترتعش فوق شيطان، وتصب نقمتها على المجرمين المذنبين..

أما عندما تكون كالي راضية فهي في هذه الحالة تبدو سيدة جميلة شابة، تمنح الحب والتسامح والكرم، ويستطيع المتعبدون التقرب إليها بتقديم التضحيات ونحر الذبائح أمام معابدها. وهذه التضحيات كانت في أول الأمر بشرية غير أنها اكتفت بعدئذٍ بضحايا الماعز والالهة كالي عند



بعض الناس شبح أسود بفم فاغر ولسان متدل، تزداد بالأفاعي، وترقص على جثة ميتة. وأقراطها رجال موتى، وعقدها سلسلة من جماجم، ووجهها وطدياها تلطخها الدماء.. ومن أيديها الأربعة يدان تحملان سيفاً ورأساً مبتوراً، وأما اليدان الأخريان فممدودتان رحمة وحماية. ذلك أنها أيضاً إلهة الأمومة إلى جانب أنها رمز الدمار والموت.. وفي وسعها أن تبتسم كما أن في مقدورها أن تقتل. ويقال أنها هي وزوجها أتخذا أبشع صورة ممكنة لكي يلقيا الرعب في نفوس الرعاديد فيحتشموا، أو قد تكون هذه البشاعة كلها أريد بها أن تلقي الرعب في نفوس العباد فيجودوا بالعطاء للكهنة..!

عبادة الفيلة والقردة والأفاعي

هذه هي الآلهة الرئيسية، وإن كان هناك أيضاً بضعة آلاف من الآلهة الصغيرة.. هناك مثلا إله آخر هو ابن شيفا واسمه جانيش.. هذا الإله هو الفيل الذي تتجسد فيه الطبيعة الحيوانية للإنسان، وتتخذ صورته في الوقت نفسه طلسما يقي حامله من الحظ السيء..

وإلى جانب هؤلاء الآلهة هناك القردة والأفاعي.. وهي مصادر الرعب التي ترمز لطبيعة الآلهة.. ولعل أخطر هذه الأفاعي المقدسة أفعى تسمى «ناجا» لها عند الهندوس منزلة خاصة، فعضة واحدة منها تؤدي إلى موت سريع.. ولهذا فهم يقيمون لها حفلا دينياً كل عام تقدم لها فيها هي وزملائها من الأفاعي قرابين من اللبن والموز توضع عند مداخل جحورها.

وأكبر مراكز عبادة الأفاعي في شرقي ميسور.. فهناك.. في معابد هذا الإقليم تسكن جموع زاخرة من الأفاعي حيث يقوم الكهنة على إطعامها والاهتمام بها..

وإذا كانت القردة والأفاعي لها هذه القدسية عند الهندوس.. فهناك من الحيوانات الأخرى ما يتمتع هو الآخر بمثل هذه القدسية مثل التماسيح التمور والطولويس والببغاوات بل والفيران أيضاً.. فالهندوسي لا يرى فارقاً بين الحيوان والإنسان.. لأن لكل منهما روح.. والأرواح تمضي متنقلة دائماً بين الحيوان والإنسان.. ولهذا فهي صنوف إلهية نسجت خيوطها في شبكة واحدة لا نهاية لها.

تقديس البقرة

والبقرة أكثر الحيوان قدسية عند الهندوسي.. فلها تماثيل في كل معبد ومنزل وميدان.. وهي تتمتع بحرية مطلقة في ارتياد الطرقات كيف شاءت.. ولا يجوز للهندوسي تحت أي ظرف من الظروف أن يأكل لحمها أو

يستغل جلدها في أي صناعة من الصناعات.. وهي إذا ماتت وجب دفنها بجلال مع أعظم طقوس الدين.

من كل هذه الألوان تتضح حقيقة الإيمان عند الهندوس.. آلهة من كل نوع.. بعضها يثير الرعب.. وبعضها يقتل ويدمر.. ولكنها كلها تؤكد للناس أنها مصادر قوة ضخمة ترمز جيداً إلى القوة الكبرى التي تسيطر على هذا العالم الكبير.



البوذية

طوبى للذي يتغلب على ذاته،
وطوبى لمن ينتظر السلام،
وطوبى للذي وجد الحقيقة.
الحقيقة نبيلة جميلة،
لأنها تنقذك من الشرور.
وما من مخلص في العالم يعد لها أو يساويها.
لنثق بالحقيقة.
وإن كنت غير قادر على إدراكها.
فتظن حلاوتها مرارة وتهرب منها.
ثق بالحقيقة لأنها أجمل مما هي.
وما من أحد يستطيع السيطرة عليها.
إن إدراكها لا يكون إلا بالإيمان.
فآمن بها.. وأحي فيها.
الذات حمى خداعة.
نتراءى حلماً جميلا ثم يضمحل.
أما الحقيقة فتجلب الصحة والطمأنينة.
الحقيقة بلسم.. الحقيقة سرمدية..
ولا خلود إلا فيها..
لأنها هي وحدها تبقى أبدا.

« بوذا »

من الخير يأتي الخير
ومن الشر يأتي الشر

كانت الملكة مايا ترتعش وهي تحكي لزوجها الملك سودهوادانا قصة الحلم الغريب الذي رأته تلك الليلة من ليالي صيف عام ٥٦٨ قبل الميلاد..

فبينما هي مستلقية على الفراش إذ بأربعة من الملائكة في ثياب بيض يتقدمون منها ويحملونها بكل محتويات حجرة نومها، ويطيرون بها إلى أعلى قمة في جبال الهيمالايا حيث تقوم شجرة باسقة خضراء، ويضعونها تحت ظلها.. ولا تكاد الملكة تطل حولها حتى تقترب منها أربع ملكات يدخلنها الحمام ويلبسنها ثياباً جميلة ويعطرنها بعطور رائعة الرائحة، ثم يحملنها إلى منزل آخر مصنوع كله من الفضة، وتضعها الملكات على فراش آخر مقدس.. وهناك.. يهبط فيل أبيض من فوق جبل ذهبي ويتقدم منها، وفي خرطومه غصن من نبات البشنين. ويدور الفيل حول الفراش دورات ثلاثاً.. ثم يمس جانب الملكة الأيمن ويدخل في رحمها..



واضطرب الملك وهو ينصت إلى زوجته.. ولم تكد الملكة تنتهي من قصة الحلم حتى أرسل الملك يستدعي أربعة وستين حكيماً من حكماء قبيلته «الساكيا» التي تعيش في سهول نهر الجنجز، عند سفوح جبال الهيملايا بالهند. وانطلق الحكماء إلى القصر الملكي في كابيلا فيستا، حيث راحوا يستمعون إلى قصة حلم الملكة.. وقال الحكماء:

– لا يشغلن بالك شيء أيها الملك السعيد.. ولكن أبشر.. فالملكة قد

حملت بغلام سيصبح ملكاً على كل البلاد لو هو استقر في بيته.. أما إذا كانت الثانية وغادر داره هائماً على وجهه في الأرض.. فعندئذ سيصبح هو البوذا، كاشف نقاب الجهل عن وجه هذا العالم..

ولم تمض أيام حتى تحقق ما قاله الحكماء.. وأحست الملكة بحقيقة الحمل..

وكان هناك شيء عجيب..

مولد بوذا

فقد كان الجنين يبدو واضحاً وهو جالس القرفصاء في رحم أمه.. وظل على هذه الصورة حتى اقترب موعد الوضع.. وفي ذلك اليوم طلبت الملكة مايا من الملك أن تسافر إلى أهلها لتضع مولودها هناك، وإذ هي في الطريق فوجئت بالمخاض وهي تحت شجرة سال في بستان يسمى «لومبيني».

وتحت الشجرة الوارفة الظلال جلست الملكة القرفصاء.. بعد أن حجبها الخدم عن الأنظار بستار خاص، ولما أرادت النهوض مدت يدها إلى غصن الشجرة فانحنى من تلقاء نفسه حتى قارب كفها.. ولم تكد تنهض حتى كان تحتها طفل تلقفته أيدي أربعة من البراهمة في شبكة نسجت خيوطها من أسلاك الذهب.

ووقف المولود فجأة، وتقدم إلى الأمام سبع خطوات، ثم صاح في صوت عذب:

- أنا سيد هذا العالم.. وهذه الحياة هي آخر حياة لي..

وفي نفس اللحظة.. ظهرت اثنتان وثلاثون علامة في السماء والأرض.. فحدث زلزال شديد، وانتشر النور في كل مكان، وسقط مطر خفيف على غير ميعاد، وتفتحت براعم الزهور وأكمام الثمار، وانتشرت ريح زكية طيبة عمت كل الأرجاء، واستعاد الأعمى البصر.. واسترد الأصم السمع.. وعاد الأبكم ينطق ويغني..

وانطلقت أنباء مولد الأمير لتعم كل مملكة « الساكيا ».. ومن كل مكان جاءت الأفواج لتهنئة الملك.. مشاة وعلى ظهور الخيل والفيلة.. إلى القصر حاملين الهدايا لأميرهم الوليد.

نبوءة أسيتا

ومن بين زوار القصر العديدين كان هناك زاهد عملاق، عمت شهرته الآفاق اسمه «أسيتا».. وكان الزاهد قد شهد من فوق صومعته بجبال الهيالايا حفلا أقامته ملائكة السماء، عرف أنه بمناسبة مولد بوذا بين قبائل الساكيا.. وهبط الزاهد من مكانه وراح يسعى إلى حيث يدله النور حتى بلغ باب قصر الملك.. وهناك قادوه إلى الوليد الصغير، فلم يكد يراه حتى هتف في قوة وفرح:

– هنيئاً أيها الملك.. إن هذا المولود لم تجيء بمثله امرأة من قبل.. ولن تجيء بمثله امرأة بعد..

وعاد الزاهد يطل إلى عيني الأمير الصغير ويبكي.. واضطرب الملك وراح يسأله عن سر هذا البكاء.. وأجاب الرجل:

– هذا الطفل أيها الملك سيصل إلى درجة التنوير السامية.. إنه سيدخل النيرفانا.. ويهدى العالم إلى طريق الحق والصواب.. على أن ما يبكيني إنما هو أسفي على نفسي إذ لن يطول بي العمر حتى أرى مبادىء بوذا السامية تنتشر على الأرض فتمحو منها الشقاء.. وتكشف الغم والبلاء..



وكان لابد للملك أن يفرح..

وكان لابد للملك أن يأمر بمزيد من القرابين تقدم للآلهة.. وبالمزيد من الإحسان يقدم للفقراء.. وبعظيم من الحفلات تقام في القصر لأيام سبعة جديدة..

★ ★ ★

وكبر الصبي..

وراح أعمامه يعلمونه كل شيء.. واحد يعلمه كيف يسوس الفيلة، وآخر يعلمه كيف يطلق السهم من القوس. أما أبوه.. فقد راح يعلمه كيف يسيطر على الجياد الجامحة..

وكان الأمير- وقد سموه سيدهاتا- يقضي جل وقته بين أبناء عمه الذين يقاربونه في السن.. وكان أقرب هؤلاء إليه الأمير ناندا الذي لم يكن يستطيع أن يفضل صحبة سواه.. بعكس ما كان يحسه إزاء ابن عمه الآخر ديفاداتا.. فقد كان يكره أن يصاحبه، لغرور قاتل فيه، وغش في اللعب لا مزيد عليه..

وكان هذا هو ما حدث ذات يوم.. عندما خرج الأمير سيدهاتا إلى الغابات مع ابن عمه ديفاداتا.. وكان مع كل منهما قسي وسهام..

وقال ديفاداتا:

- دعنا نرى أينا يستطيع إصابة الهدف في الصميم..

وغرس الغلامان عصا من البوص الأبيض في الأرض أمام شجرة داكنة اللون.. وابتعدا عنها عشرين خطوة إلى الوراء..

وقال سيدهاتا: والآن دعنا نرى أينا يستطيع أن يفلق هذه البوصة فلقتين.

وصاح ديفاداتا: أنا أستطيع.

قال سيدهاتا: إذن فاطلق سهمك أولا.

وشد ديفاداتا سهمه على قوسه ثم أطلقه.. ولم يصب السهم العصا، بل وقع على مقربة منه.

وقال ديفاداتا في فرحة: لقد كدت أصيبها.

غير أن سيدهاتا تذكر قول عمه عندما كان يعلمه الرماية ويقول له أنه لا يكفي المرء أن يقترب من النجاح بل عليه أن يصل إلى النجاح.. وتحداه ديفاداتا قائلا: دعنا إذن ننظر أتفعل ما هو خير مما فعلت.

ورفع الأمير الصغير قوسه وجذب سهمه في منتصف القوس المشدود.. وحدد نظرته وأطلق السهم.. ورن السهم في الهواء ونفذ من عصا البوص في وسطها تماماً.

وتجهم وجه ابن العم العبوس وقال: أستطيع أن أفعل خيراً من هذا.. بل أنني أستطيع أن أطلق سهماً يفلق سهمك قسمين.

ورفع قوسه على الفور.. وبدلا من أن يصيب سهمه سهم سيدهاتا، ارتفع إلى أغصان الشجرة وأصاب جناح حمامة عابرة..

وسقط الطائر على الأرض وقد أذهلته المفاجأة.. وجرى سيدهاتا ليلتقط الحمامة من الأرض فأبهجه أن يرى أن الإصابة لم تكن شديدة، وحنى الفتى على الحمامة وراح يدفئها ويهدئها بيديه.. وعندما أحس بأنها هدأت تماماً.. رفعها في كفه إلى أعلا.. ثم أطلقها في الهواء..

وصاح ديفاداتا غاضباً: هذا طائري ولم يكن لك حق إطلاقه.. إنه طائري وليس طائرك.. فقد كنت أنا الذي أصبته لا أنت..

ورد سيدهاتا: لقد كدت تقتله ولكني أنقذته، ولهذا فهو لي وليس لك..

وطال نزاع الصبيين حول أيها صاحب الحق في الطائر، وأصر الأمير سيدهاتا على أن من قتل مخلوقاً بريئاً يفقد كل حق له فيه.. بينا الذي ينقذه من الموت يكون وحده صاحب الحق في ملكيته والتصرف فيه.

ومضى ديفاداتا غاضباً، وظل عدة أيام بعد ذلك وهو يذكر النزاع.. ولم يغفر أبداً للأمير سيدهاتا إطلاقه الحمامة المجروحة..

* * *

ومضت الأيام..

تعميد بوذا

وبلغ الأمير سيدهاتا الثانية عشرة من العمر.. وأقيم احتفال كبير في القصر الملكي دعى إليه عدد كبير من الضيوف لأن الأمير في هذه السن

كان عليه، وهو ابن لرجل هندوسي طيب، أن يضع الخيط المقدس حول عنقه، وهو ما يفعله كل فتى عندما يصل إلى سن التعميد.

وأما الضيوف، وكما يفعل جميع الغلمان في مثل سنه أثناء وضعهم الخيط المقدس.. أقسم سيدهاتا أن يكون دارساً متحمساً للكتب المقدسة طبقاً لعقيدة أبيه.. عقيدة الهندوس.

والذي كان يعتقده الهندوس أنه عندما يضع الغلام الخيط المقدس، ويقسم على الإخلاص لعقيدته، يصبح مولوداً من جديد ويوصف منذ ذلك الوقت بأنه هندوسي مولود مرتين.

وكان هذا هو ما حدث لسيدهاتا.. فحالما أصبح مولوداً مرتين، وهو ابن ملك، أرسل به إلى أشهر الكهنة في مملكة ساكيا، وأكثرهم علماً، ليتلقى عنهم حقيقة المعرفة..

وفي تلك الأيام لم يكن الأطفال يتعلمون الجغرافيا والتاريخ والجبر والهندسة.. بل كان الموضوع الوحيد الذي يتعلمونه هو العقيدة..

وكانت الكتب التي يدرسونها هي «الفيداس» وهي الكتب المقدسة في عقيدتهم.. وكانت تلك الكتب طويلة صيغت كلها شعراً، وإلى جانب الفيداس كانت هناك عدة كتب ضخمة تفسر الكتب المقدسة.. وكان بعض هذه الكتب عسيراً جداً على الفهم..

وكان على الأمير سيدهاتا أن يتعلم لغة جديدة قبل أن يبدأ دراسة كل هذه الكتب.. فكل الكتب المقدسة عند الهندوس مكتوبة بلغة غير اللغة التي يتكلمونها.. لغة قديمة جداً اسمها السنسكريتية..

وحالما تعلم الأمير سيدهاتا قراءة اللغة السنسكريتية وفهمها، بدأ الكهنة يعلمونه الكتب المقدسة التي تشرح تعاليم «البراهمية» عقيدة الهندوس.

وكانت كل هذه التعاليم تدور حول العالم وكيف خلقه براهما وكيف نسلت البشرية من مانو أول الكائنات، والطوائف وتجسد الروح والكارما

والنيرفانا، كما كانت الكتب المقدسة تحمل أيضاً أسماء كل آلهة الهندوس وجميع التراتيل التي يجب أن ترتل في محرابها.. وتفسيرات هذه التعاليم التي تقول للناس كيف يجب أن يعيشوا الحياة الصالحة للهندوسي المتدين.



وظل الأمير سيدهاتا أربعة أعوام مع معلميه يدرس معهم.. وعندما عاد إلى القصر الملكي وهو في سن السادسة عشرة، كان قد تعلم من العقيدة الهندوسية ما تعلمه أي رجل في مملكة الساكيا..

★ ★ ★

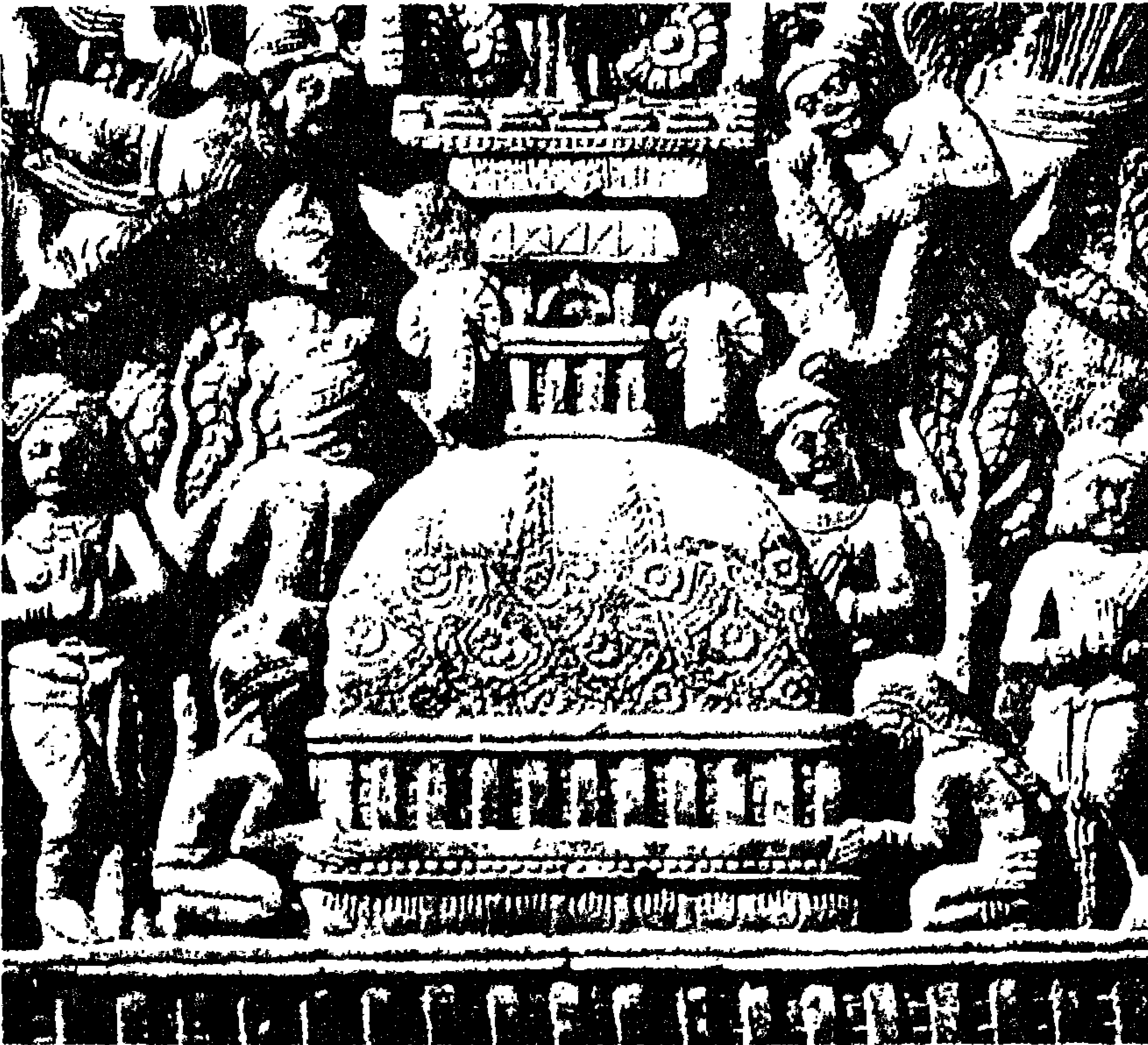
في نفس اليوم الذي ولد فيه سيدهاتا.. ولدت أيضاً المرأة التي سيتزوجها، كما ولد فيله وحصانه وسائق عربته.. ونبتت الشجرة التي تكشفت له وهو تحتها.. أسرار الحياة..

طفولة مشرفة

ومنذ ذلك اليوم عاش الأمير حياة مترفة في قصر أبيه.. وصفها هو نفسه في بعض كتبه المقدسة حين قال: «لقد كنت مترفاً أيها النساك.. مترفاً كل الترف.. لقد حفرت في قصر أبي البرك المغطاة بالبشين.. غطيت واحدة منها بالبشنين الأزرق، والثانية بالبشنين الأحمر، والثالثة بالبشنين الأبيض.. وكلها حفرت لمتعتي وإسعادي.. ولم أكن أستعمل سوى خشب الصندل من إنتاج بنارس.. وكانت ملابسي من القماش المصنوع فيها.. وكذا قماش أقمصتي ومعاطفي، وكانت تظللني على الدوام مظلة بيضاء حتى لا أتعرض لبرودة الجو أو حرارة الشمس، بل ولا للغبار أو الأعشاب أو الندى.. وكانت لي قصور ثلاثة: واحد منها لفصل الشتاء والثاني لفصل الصيف، والثالث للفصل المطير.. وكنت أقضي في القصر المخصص للفصل المطير أربعة أشهر تحف بي فيها القيان والجواري.. فلا أغادره حتى تأتي شهور الصيف»..



الزاهد أسيتا.. يتنبأ للطفل الوليد بمستقبله.. فإما أن يصير ملكاً يرث عرش أبيه أو يجوب الأرض ويصبح هو البوذا



نقوش على أحد المعابد البوذية تمثل ولادة جاوتاما بوذا «المستنير» وحوله الملائكة يتلقونه من أمه.

تمثال ضخم لبوذا اثناء اعداده لادخاله أحد المعابد البوذية.. بعد أن تحول من حكيم إلى اله.





تمثال بوذا.. يجلس متربعاً على عرش اللوتس..
وكفاه وأصابعه في وضع يبدو فيه وهو يلقي تعاليمه على
الناس..



رأس تمثال بوذا .. كان يقوم في سارنات، الهند.. من القرن الخامس قبل الميلاد.. وجد الآن في المتحف الوطني بنيودلهي..

والحق أن خوف الملك من إحدى السوءتين اللتين تنبأ بها العرافون عند مولد الأمير، كان هو السبب لتلك المبالغة في الترف التي أرادها الملك لولده. فقد قال العرافون الحكماء أن سيدهاتا إما أن يستقر في بيت أبيه وعندئذ يصير ملكا على البلاد.. وإما أن يغادر داره ويهيم على وجهه في الأرض ليصبح هو البوذا.. ولم يكن الأب ليرضى لولده أن يشقى ويجوع وهو يهيم بعيداً عن الدار.. بل كان يتمنى أن يرثه ولده ويجلس بعده على العرش.. من أجل ذلك أبى ألا أن يبعد عن ولده وجه الحياة العابس وصورها الحزينة، حتى لا يسوقه مرآها إلى الهواجس التي تدفعه إلى العزلة. وتجعله ينقاد إلى المصير الذي يجعله يهيم في أحراش الغابات وبين شعاب الجبال.. وهكذا عمل الملك على أن يمهد لولده عيشة الأمراء المنعمين المدللين.. وحال بينه وبين معرفة أي شيء من مظاهر البؤس والفقر والألم المنتشرة خارج أسوار القصور، خاصة بعد أن قال له العارفون أن ولده لا بد بالغ مصيره المحتوم إذا رأى على التوالى كهلا.. فمريضاً.. فميتاً.. فزاهداً..

وقرر الأب أن يشغل ولده بحياة زوجية رائعة، ويحيطه بمئات الحسان ليحبب الحياة إليه، وليبعده عن النهاية التي لا يرضاها له.

ووقع اختيار الأمير على الأميرة يوسودهارا ابنة عمه ملك كولى لتكون زوجته. وكانت هي نفسها الفتاة التي ولدت معه في نفس يوم مولده، وقد أصبحت وهي في السادسة عشرة رائعة الحسن بالغة الجمال..

وخلال عشر سنوات عاش الأمير وزوجته حياة جديدة سعيدة في قصر رائع آية في الجمال والأبهة.. وكان الملك قد قصد أن يدخل في قلب الأمير كل ألوان البهجة والسرور حتى يبعد عنه صور الأحزان والآلام والتعاسة والشقاء.. على أن الأمير كان تواقاً لأن يرى العالم حوله.. فسأل أباه يوماً أن يأذن له بالخروج بعض الوقت في جولات قصيرة داخل المدينة حتى لا يكون كمثل الفيل المقيد بسلاسل طويلة على



أرض وعرة، وسمح الأب لولده بالخروج في صحبة حارسه «تشاناه» الذي كان يعلم جيداً أنه لا يملك أن يجيب الأمير على أي سؤال يمكن أن يقرب له صور التعاسة.

ومضى الأمير بعربته في طرقات المدينة..

وإذ هو في الطريق، وقع بصره على كهل ينحط على جانبه.

وقد رسم الحزن والجهد على وجهه أثر الشقاء وبلايا الأيام، وانحنى منه الظهر انحناءة القوس، وارتعدت يداه كأنهما سعف النخيل في يوم عاصف الريح.. وأطل الأمير إلى حارسه يسأله:



«ما خطب هذا الرجل؟ وما بال رأسه قد اشتعل شيباً وتجعدت تقاسيم وجهه وغارت عيناه وانحطت قواه حتى لا يكاد يقوى على النهوض».

وارتبك تشاناه، ولكنه عجز عن الكذب على أميره، فقال له:

«إنها علامات الشيخوخة، على أنه كان في مطلع شبابه حسن القوام قوي البنية سليم النظر، أما الآن فقد أنهكته هموم الحياة وذهبت السنون بجماله وشبابه».

وشعر الأمير بانقباض رهيب يأخذ بخناقه.. غير أنه استمر في طريقه حتى أطل من جديد فإذا بمريض ملقى على الطريق يتوجع ويئن.. وسأل الأمير حارسه:

«وما بال هذا الرجل.. هل هي الشيخوخة أيضاً!؟»

وأجاب الفتى: «كلا ولكنه المرض.. ذلك الذي جعل عناصر جسمه الأربعة يختل نظامها.. وكل الناس عرضة لذلك.. لا فرق بين غني وفقير، حكيم وجاهل.. لأنه يستطيع أن يصيب كل حي على السواء»..

ووجم سيدهاتا، غير أن وجومه ازداد حين التقيا مرة أخرى في الطريق بأربعة أشخاص يحملون جثة ومن ورائهم موكب جنائزي.. وأجاب الحارس على سؤال أميره:

«هذا رجل ميت.. حملوا جثته إلى حيث يحرقوها.. وهذه السيدة التي تسير وراءه هي أرملته وأطفاله يبكون فراقه.. وذلك هو مصير كل إنسان.. فكل حي مصيره إلى الفناء.. وكل من بدأ الحياة عليه أن ينهيها إذ لا مفر من الموت».

وعندما عاد الأمير إلى القصر ذلك اليوم كانت زوجته قد أعدت مهرجانا فاخراً في قاعة التسلية حيث كانت كثيرات من الفتيات المدربات سيرقصن ويغنين ويعزفن على آلات الموسيقى.. ولكن الأمير كان حزيناً إلى درجة حالت دون استطاعته حضور الحفل.. ومضى إلى غرفته وقد ملأت المشاهد التي رآها رأسه.. فقد عاش قرابة ثلاثين عاما في القصور ودرس الكثير من كتب المعرفة.. ولكنه ما كان يعرف سوى القليل عن الحياة والناس.. لقد قضى عمره في التسلية والصيد في البر والبحر والاستمتاع بالحفلات يوما بعد يوم، ولكنه الآن رأى بعينيه ما هو المرض وما هي الشيخوخة ما هو الموت..

وطال به التفكير.. وازدادت به الشقوة..

البحث عن الحقيقة

لا بد أن بالحياة عيباً حتى يكون فيها المرض والشيخوخة والموت.. وتساءل، من أين يأتي الفناء؟ لقد درس عدة كتب مقدسة ولكنه لم يجد فيها تفسيراً لهذا السر.. وعاد يتساءل من جديد: لماذا لا يكون كل أولئك الناس في مملكته سعداء مثله هو وأسرته!؟

وعندما فكر في جميع الناس في بلاده بدأ يتبين كيف أن حياة الفقراء لا بد أن تكون قاسية تعسة.. وانتبه إلى أن أغلب الفقراء الغارقين في الفقر ينتمون إلى الطائفة المنبوذة.. وأن أشد الناس فقراً يعتبرون غاية في الضعة إلى حد عدم السماح لهم بدخول المعبد أو قراءة كتب الفيداس المقدسة أو الاقتراب ممن ينتمون إلى الطوائف الأعلى.. وبدأ الأمير

سيدهاتا يتبين للمرة الأولى في حياته كيف كانت حياة هؤلاء المنبوذين حافلة بالعناء..



وتساءل: لماذا قسم براهما الخالق، الناس إلى مثل هذا العدد الكبير من الطوائف.!؟ إن ذلك ليبدو ظلماً.. وأنه ليجعله يحس بأن كل ما تعلمه في الكتب المقدسة والتراتيل الدينية غريباً باطلاً..

وإذ هو جالس في غرفته يفكر.. ملأ سمعه صوت موسيقي وغناء يأتي من قاعة التسلية.. وزاد ذلك من شعور الأمير بالشفاء.. وبدا له قسوة أن يكون لدى رجل واحد كل هذا الثراء وكل هذا النعيم، بينما هناك آلاف المنكودين الذين يعانون المرض والفقر والشقاء..

وجاء الصباح

وخرج الأمير مع «تشاناه» من جديد.. ولكنه في هذه المرة لم يذهب إلى الغابات للصيد، ولكنه انطلق إلى السوق حيث يتجمع الناس..

وهناك.. رأى الأمير بين التجار راهباً يرتدي ثوباً أصفر خشناً يسأل الناس طعاماً.. وبرغم أن الراهب كان يبدو عجوزاً رث الثياب وهو يلتمس من الناس الطعام، إلا أن وجهه كان هادئاً ينطق بالسعادة..

وكان هذا الراهب واحداً من آلاف الناس في الهند.. هجروا عائلاتهم وبيوتهم وخرجوا إلى الجبال ينفردون بأنفسهم حيث يمكن أن يفكروا في عقيدتهم دون أن يشغلهم شاغل.. وكانوا يأتون من وقت لآخر إلى المدن يستجدون الطعام..

وفكر الأمير سيدهاتا.. «لو أني عشت كما يعيش واحد من هؤلاء الرهبان.. وقضيت كل وقتي في التفكير.. أليس من المحتمل أن أصل إلى حقيقة مصدر هذه الآلام؟ وأن أدرك كيف يجب أن يحيا الناس لكي تكون حياتهم صالحة؟

وإذا كان الأمر كذلك.. فما الذي يجعلني أنتظر.. ولماذا أظل شقياً في انتظار الوصول إلى الحقيقة؟»

وفي تلك اللحظة.. قرر الأمير أن يهجر قصره وعائلته وثراءه.. وأن يخرج إلى الغابات.. وأن يحيا كواحد من هؤلاء الرهبان الفقراء..

* * *

الراهب المتسول

عندما أعلن الأمير سيدهاتا أنه سيهجر بيته ويصبح راهباً متسولا كان هذا الإعلان صدمة عنيفة لأبيه.. فقد كان الملك سودهادانا يأمل أن يكون ولده وريث عرشه في بلاد الساكيا.. من أجل ذلك حاول بكل جهده أن يثنيه عن عزمه ولكن سيدهاتا كان قد اتخذ قراره الذي لا رجعة فيه..

وفي ذلك اليوم وضعت الأميرة يوسودهارا غلاماً..

وحدث الملك نفسه وهو يقول: «الآن لن يبرح ابني بيته.. فإن حبه لولده سيقوى رابطته بالبيت وسيحول دون أن يصبح راهباً متسولا».

ولكن الملك سودهادانا كان مخطئاً..

فقد كانت ولادة الطفل دافعاً جديداً للأمير على أن يسرع بالهرب من البيت قبل أن يشتد به الحب لولده ويمنعه من الوصول إلى أصل الحقيقة وحكمة الحياة..

وفي نفس الليلة، دعا الأمير إليه صاحبه «تشاناه» وأمره بأن يعد خير جياده لرحلة طويلة شاقة..

وسأله تشاناه وقد أدهشه أن يبدأ سيده رحلته من بعد منتصف الليل:

«تقول الآن.. للفور؟»

وأجاب سيدهاتا:

«نعم للفور.. وأريدك أن تصحبني».

وعندما خرج تشاناه لينفذ أوامر سيده دخل الأمير غرفة الأميرة يوسودهارا.. ورآها وقتئذ نائمة وكفها على رأس الطفل النائم بجوارها.. ونظر الأمير إليها في حب كبير ولكنه لم يوقظها، فقد كان يخشى أن يضعف قلبه أمام توسلات زوجته وبكاء طفله..

وبارح الأمير القصر مع تشاناه.. وانطلقا معاً نحو مملكة موجاداه.. وعندما قطعا مسافة طويلة من كابيلافيستا.. توقفا وترجلا عن جواديهما.. وحلق سيدهاتا شعر رأسه ولحيته بمساعدة تشاناه..

وأطل تشاناه إلى سيده وهو يرتعش.. لقد بدا له تماماً كواحد من الرهبان المتسولين..

وبكى..

وقال له الأمير:

- والآن يا تشاناه.. إن عليك أن تعود إلى القصر.. أما أنا فسأبدأ رحلتي من هنا أسأل الناس طعامي حتى أستطيع الوصول إلى حقيقة الحياة..

وقال الفتى: سمعا وطاعة يا مولاي الأمير..

وهز الأمير رأسه وهو يقول:

- لم أعد أميرك يا تشاناه.. فلست أريد أن أكون ذات يوم حاكماً على الناس.. أريد أن أكون كواحد من كل الناس العاديين حتى أستطيع أن أفهم حياتهم وأكتشف كيف يجب أن يعيشوا لتكون حياتهم صالحة سعيدة..

وقال تشاناه باكياً: سمعا وطاعة يا مولاي الأمير..

وعاد تشاناه ببطء نحو القصر في كابيلافيستا.. ومضى سيدهاتا ماشياً على قدميه في الطريق المغطى بالتراب..

وفي الطريق قابل شحاذا..

وقال الأمير للشحاذ: تعال نتبادل ثيابنا..

وأعطى الأمير ثيابه الجميلة للشحاذ وارتدى هو ثيابه..

ومشى الأمير من جديد.. متسولا.. يبحث عن حكمة العالم التي قد تفسر له كل الحياة..

وظل الناس يذكرون تلك الليلة التي بارح فيها الأمير سيدهاتا جاوتاما بيته ليصبح راهباً متسولا وهو في سن التاسعة والعشرين.. على أنها ليلة التنازل الكبير..

* * *

أخذ سيدهاتا يضرب في الأرض سبع سنوات، ينتقل من مكان إلى آخر باحثاً عن الحكمة.. وكان صوته رقيقاً وحديثه بسيطاً حكيماً.. وأصبح جميع الناس الذين قابلهم أصدقاء له..

وذات مرة.. إذ هو جالس في خميلة يتكلم مع رهبان آخرين.. دخل عليهم بمبيسارا ملك موجاداه وأنصت إليه.. وعندما انتهى سيدهاتا من حديثه قال له الملك:

« إن كلماتك مليئة بالحكمة أيها الراهب.. ألا تأتي معي إلى القصر لتصبح كبيراً للمستشارين ».

وأجاب سيدهاتا:



«لو أن ما أبحث عنه هو المجد والثراء.. لأصبحت ملكاً على مملكة في حوض نهر الجنجز.. ولكن بحثي هو عن أشياء لا يمكن للمجد أو الثراء أن يشتريها.. ذلك أني أبحث عن المعرفة الحقيقية للحياة.. ».

وقال الملك: « إذن عدني أنك عندما تجد تلك الحكمة، ستجد طريقك إلي وتعلمني إياها ».

ووعده سدهاتا.. ثم ترك الخميلة، ومضى يواصل تجواله حتى بلغ مكان المعلم العظيم « آلارا ».

وقال سيدهاتا لآلارا: «علمني حكمة العالم.. »

وأجاب آلارا « أدرس الفيداس.. وفيها ستجد حكمة العالم.. »

ومضى سيدهاتا يضرب في الأرض حتى جاء إلى المعلم العظيم « أوداكا » وطلب إليه هو الآخر أن يعلمه حكمة العالم. وأجاب أوداكا « أدرس الفيداس ففيها جميع الحكمة الكامنة ».

ولكن سيدهاتا كان قد قضى عدة أعوام يدرس الكتب المقدسة فلم يجد

فيها ما يمسر السبب الذي جعل براهما يترك الناس يعانون المرض والشيخوخة والموت..

وعندما بارح سيدهاتا المعلم أوداكا التقى بخمسة رهبان آخرين كانوا يتجولون بحثاً عن الحكمة..

وقال الكهنة الخمسة: «مكتوب.. لكي نحصل على الحكمة يجب أن نطهر نفوسنا.. ولنظهر نفوسنا يجب أن نعذب أجسامنا وأن نجوع.. فبتعذيب الجسد وتجويعه تتطهر النفس.. هذه هي تعاليم براهما».

وقال سيدهاتا: «إذا كانت هذه هي الطريق لكسب الحكمة فسأحاول اتباعها».

ومضى هو والكهنة الخمسة معه إلى داخل غابة.. وهناك ظلوا أياما يجوعون معاً حتى اضمحلت أجسامهم وأصبحت كالهياكل العظمية، وضعفت قواهم حتى ما عادوا يستطيعون حركة على الاطلاق..

وذات يوم انهار سيدهاتا من أثر الجوع حتى ظن أصدقاؤه أنه قد مات.. ولكنه انتعش فجأة، وحالما استعاد قدرته على الكلام قال لهم:

«أيها الإخوان، منذ هذه اللحظة سأكف عن تجويع نفسي»

وعندما سمع الرهبان الآخرون هذا القول قال بعضهم لبعض:

«من المؤكد أن سيدهاتا قد تخلى عن الحياة الصالحة لرجل الدين الحق»..

وتركوه ومضوا..

من أجل حياة صالحة

وأخذ سيدهاتا يأكل ويشرب، وراح يحاول استعادة قواه التي خارت.. وكلما ازداد قوة زادت أفكاره وضوحاً، ورأى سيدهاتا «أن تلك التعاليم التي تأمر الناس بتجويع انفسهم ليحيوا حياة صالحة ويكسبوا الحكمة عن ذلك الطريق.. لابد أنها بعيدة عن الصواب.. لأني كلما ازددت قوة زاد وضح تفكيري في العالم وفي الدين».

ولكنه لم يعد يعرف بعد من أين يأتي الهناء وكيف يجب أن يحيا الناس الحياة الصالحة.

وأخذ يتجول في الغابات والمدن يوما بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر.. يعيش على التوت البري والفاكهة التي يعثر عليها والأرز الذي يقدمه له أهل المدن..

وكان أحياناً يساوره شعور بالتعب من طريقه في الحياة.. واشتاق إلى رؤية زوجته وولده الصغير.. وغالباً ما عقد العزم على أن يهجر حياته كمتسول ويعود إلى القصر.. ولكنه كان يعرف أنه لن يسعد ثانية في القصر حتى يتعلم كيف يمكن أن يكون الناس الآخرون أيضاً سعداء..

وجلس ذات مرة تحت شجرة يئن..

وقال لنفسه: «هنا سأجلس وأفكر في كل ما تعلمت.. وفي كل ما رأيت في حياتي.. ومن كل هذا سأكسب الحكمة»..

تجربة الشيطان

قال ذلك لأنه في ذلك الوقت بالذات كان قد تبين أن الحكمة والفلسفة اللتين كان يبحث عنهما لم يكونا خارج نفسه، ولم يكونا سراً غامضاً كبيراً مخبوءاً في مكان ما عند طرف قوس قزح.. وتبين أنه لن يستطيع الحصول على تلك الحكمة بدراسة الفيداس ولا بتجويع نفسه ولا بالجلوس على المسامير والحجارة الخشنة والزجاج المكسور كما يفعل الآخرون من الرهبان.. بل أصبح الآن يعتقد أن الحقيقة والحكمة اللتين يبحث عنهما المرء يمكن أن يجدهما في أعماق نفسه.. ورأى أن الحكمة والمعرفة اللتين يبحث عنهما الإنسان هما في روحه. وفيها يجب أن يبحث عنهما.. وعندئذ أقسم سيدهاتا «فليجف جلدى وتضمر عضلاتي ويهن العظم مني كما يشاء، ولكني سوف لا أبرح مكاني هذا قبل أن تتكشف لي الحقيقة وأحيط بأسرار الحياة».

وظل سيدهاتا جالساً تحت الشجرة ساعات وساعات يتأمل ويفكر في جميع تعاليم دينه وجميع تجاربه في الحياة، غير أن القسم الذي أقسمه بعث الحزن والضيق في نفس «مارا» روح الشر وإله الرغائب الخمس وعدو الحقيقة.. فجاء بيناته الثلاث المجرمات وضيفه الشيطان الرجيم وقصد إلى المكان الذي جلس فيه الرجل الصالح.. ولكن هذا لم يلتفت إليه ولم يأبه لخداعه..

وأحدث مارا عاصفة هوجاء أظلم لها الجو وطغت مياه البحار وزمجرت أمواج المحيطات.. ولكن سيدهاتا ظل في مكانه تحت ظلال شجرة الحكمة والمعرفة مطمئنا لا يخاف قط وهو يعلم أن شيئاً لن يستطيع إسقاطه من اجتياز التجربة.. وراحت بنات مارا يحاولن إغراءه إلا أنهن فشلن ولم تقوين عليه.. وراح مارا يجرب فيه كل أرواح الشر التي تجمعت في محاولة لاستدراجه إلى العالم وشهواته، غير أن الرجل الصالح ظل في مكانه ثابتاً صلداً حتى لم يجد مارا آخر الأمر إلا أن يهرب بشياطينه وبناته من أمام الحكيم العظيم.

واستمر سيدهاتا منقطعاً إلى حياة التأمل والتفكير والبحث عن الحقيقة. وفجأة تألق وجهه ابتهاجاً وهو يقول:

قانون الحياة

«أخيراً وجدت مفتاح الحكمة.. أنه أول قانون للحياة.. من الخير يجب أن يأتي الخير.. ومن الشر يجب أن يأتي الشر».

وتعجب سيدهاتا كيف لم يسبق له أن فكر في ذلك من قبل.. فقد ظل طول حياته يعرف قانون الحياة وهو لا يدري.. وقد كان هذا القانون من أهم تعاليم البراهمة عن طريق قانون الأعمال..ولكنه الآن يراه على ضوء جديد.. فقد تبين الآن فيه بداية حكمة الحياة وحقيقتها.. مما ظل يبحث عنه منذ أن بارح بيته ومملكة أبيه..

وظل سيدهاتا طول ليلته كالساً هناك يفكر.. ووجد أنه باتخاذ القانون الأول للحياة مفتاحاً للحكمة.. يستطيع أن يجيب على جميع الأسئلة التي أزعجته منذ أن أصبح راهباً..

وفي الصباح.. تبين سيدهاتا أنه أوشك على نهاية بحثه الطويل عن الحكمة.. وأنه الآن أصبح البوذا.. المستنير.

وهكذا كان..

البوذا المستنير

وأصبحت تلك الليلة التي بلغ فيها الأمير سيدهاتا جاوتاما من مملكة الساكيا مرتبة «البوذا» أي «المستنير».. أصبحت تلك الليلة تسمى عند أتباعه «الليلة المقدسة».. أما الشجرة التي جلس تحتها طوال تلك الليلة فأصبحت تسمى شجرة «بو» أي شجرة الحكمة..



ظل بوذا بعد الليلة المقدسة جالساً سبعة أيام أخر تحت شجرة بو، يفكر في القانون الأول للحياة. وعندما أحس أن كل أفكاره قد أصبحت واضحة أمام عينيه بحيث يصبح مستعداً للرد على أي سؤال.. قرر أن يخرج إلى العالم.. ويلتقي بالناس..

وفي أول الطريق عند بنارس التقى من جديد بالرهبان الخمسة الذين هجروه من قبل عندما وجدوه يأكل ويشرب.. بدل أن يموت..

وعندما رآه الرهبان قال بعضهم للبعض:

- ها هو سيدهاتا الذي لم يستطع أن يحيا حياة الراهب الصالح.. دعونا نتجاهله.

ولكن بوذا اقترب منهم.. فحيوه.. وقدموا له مقعدا..

وسأله الرهبان.

- هل وجدت الحكمة التي تنشدها؟

وأجاب بوذا. نعم وجدتها.

وسأله الرهبان: ما هي حكمة العالم؟

وأجاب بوذا: من الخير يجب أن يأتي الخير.. ومن الشر لابد أن يأتي الشر.

وأطل الرهبان بعضهم إلى بعض.. وقالوا له: ولكن هذا ليس جديداً.. فهو جزء مما تعلمناه في قانون الأعمال.

قال بوذا: هذا حق.. ولكن أحدا لم يعمل به.. وإذا كنتم مقتنعين معي بأن هذا القانون صحيح.. فإذن كل القرابين التي نقدمها لآلهتنا العديدة وكل صلواتنا لها حمق وهراء..

وسأل الرهبان: كيف؟

قال بوذا: أن الماء يتدفق دائماً من فوق التل، والنار ساخنة دائماً، ومهما قدمنا من الصلوات لجميع آلهة الهند فهي لن تستطيع أن تجعل الماء يصعد التل.. ولن تملك أن تجعل النار باردة. ذلك لأن في الحياة قوانين تجعل هذه الأشياء كائنة على ما هي عليه.. فما يتم حدوثه لا يمكن إلغاء حدوثه.. ولو قدمنا القرابين لكل أنواع الآلهة.

وأطل الرهبان بعضهم إلى بعض وهم يهزون رؤوسهم ويقولون:

- إنه قول صحيح بغير شك..

لا وثنية

قال بوذا: إذن فلا سلطان لكل هذه الأصنام على تغيير شيء في هذا العالم.. فلماذا نصلي لها ونعبدها؟ وإذا كان العمل الصالح يأتي بنتائج طيبة، وإذا كان الشر يأتي بالشر دائماً.. فهل تستطيع هذه الأصنام كلها أن تغير هذه النتائج؟



وهز الرهبان رؤوسهم وقالوا: يبدو أن هذا القول صحيح.

واستمر بوذا: إذا كان هذا صحيحاً.. فعبادة الأصنام خطأ وحمق.. وإذا كانت كتب الفيداس تأمر الناس بالصلاة وتقديم

القرابين وعبادة الأصنام.. فهي لست مقدسة لأن الكتب المقدسة لا تعلم الناس ما ليس حقا وما هو شر..

ونظر الرهبان إلى بوذا في دهشة.. فقد كانت هذه أول مرة يجرؤ فيها شخص في الهند على أن يقول أن كتب الفيداس ليست مقدسة.

وعاد بوذا يتكلم: أن الفيداس تعلمنا أن نؤمن بأن براهما خلق الناس طوائف.. ولكن هذا ليس صحيحاً طبقاً للقانون الأول للحياة.. فالناس لا ينقسمون إلا إلى فريق صالح وفريق شرير.. فالصالحون صالحون والشريرون شريرون.. ولا تأثير للأسرة التي يولدون فيها.

وسأل الرهبان في عجب: إذن أنت لا تصدق أن براهما قسم الناس إلى طوائف!؟

وأجاب بوذا: لا أصدق أن براهما خلق شيئاً.. ولا أنه خلق هذا العالم.. فالعالم سيبقى إلى الأبد ولن ينتهي.. وكل ما ليست له نهاية ليست له بداية..

وصمت الرهبان برهة وهم يفكرون فيما قال بوذا.. فقد كان أمراً يختلف اختلافاً بيناً عن كل التعاليم التي درسوها وآمنوا بها من قبل.

وفجأة.. وجه بوذا خطابه إلى الرهبان: هناك طريقان أيها الرهبان يجب الإبتعاد عنهما.. أحدهما حياة المتعة وهي حياة أنانية دنيئة، والآخر حياة تعذيب النفس وهي الأخرى غير جديرة بأن يحياها المرء.. فلا نسلكوا أحد هذين الطريقين لأنهما لا يؤديان إلى الحياة الصالحة..

الطريق الوسط

وسأله الرهبان: إذن ما هو الطريق الذي يجب على المرء أن يسلكه؟

قال بوذا: اتبعوا الطريق الوسط.

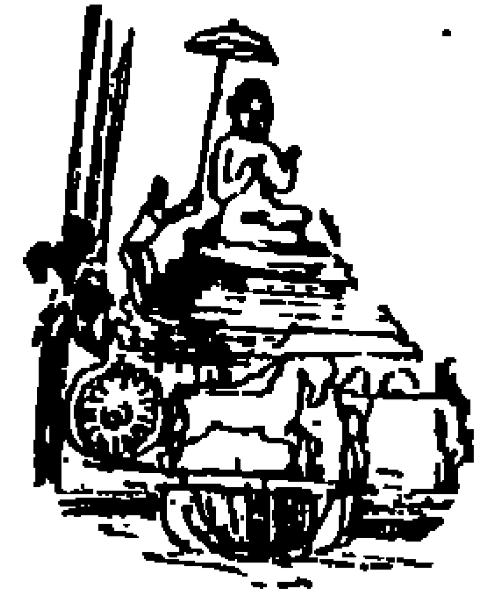
قال الرهبان: وكيف يستطيع المرء أن يجد الطريق الوسط؟

أجاب بوذا: باتباع الطريق ذي الثماني شعب التي تعلم القواعد الثماني للحياة وهي:

- الإيمان بالحق.. وهو الإيمان بأن الحقيقة هي الهادي للإنسان.
- القرار الحق.. بأن يكون المرء هادئاً دائماً لا يفعل أذى بأي مخلوق.
- الكلام الحق.. بالبعد عن الكذب والنميمة وعدم استخدام اللفظ الخشن.
- السلوك الحق.. بعدم السرقة والقتل وفعل شيء يأسف له المرء فيما بعد أو يخجل منه..
- العمل الحق.. بالبعد عن العمل السيء مثل التزييف وتناول السلع المسروقة وعدم اغتصاب المرء لما ليس له.
- الجهد الحق.. بالسعي دائماً إلى كل ما هو خير والابتعاد عما هو شر.
- التأمل الحق.. بالهدوء دائماً وعدم الاستسلام للفرح أو الحزن.
- التركيز الحق.. وهذا لا يكون إلا باتباع القواعد السابقة وبلوغ المرء مرحلة السلام الكامل.

وعندما انتهى بوذا من تفسيره قال الرهبان بعضهم لبعض:

«لا شك أن هذه الحكمة.. ومن المؤكد أن سيدهاتا جوتاما قد أصبح المستنير.. أو البوذا.. لأنه حرك عجلة القانون الحق للحياة.. ذلك القانون الذي يعلم البشرية أن العالم تحكمه العدالة».



وانحنى الرهبان لبوذا.. وأقسموا أن يتبعوه.. وأن يحافظوا على وصاياه وأن ينشروها في جميع الأنحاء..

وكانت هذه هي أول تعاليم البوذية..

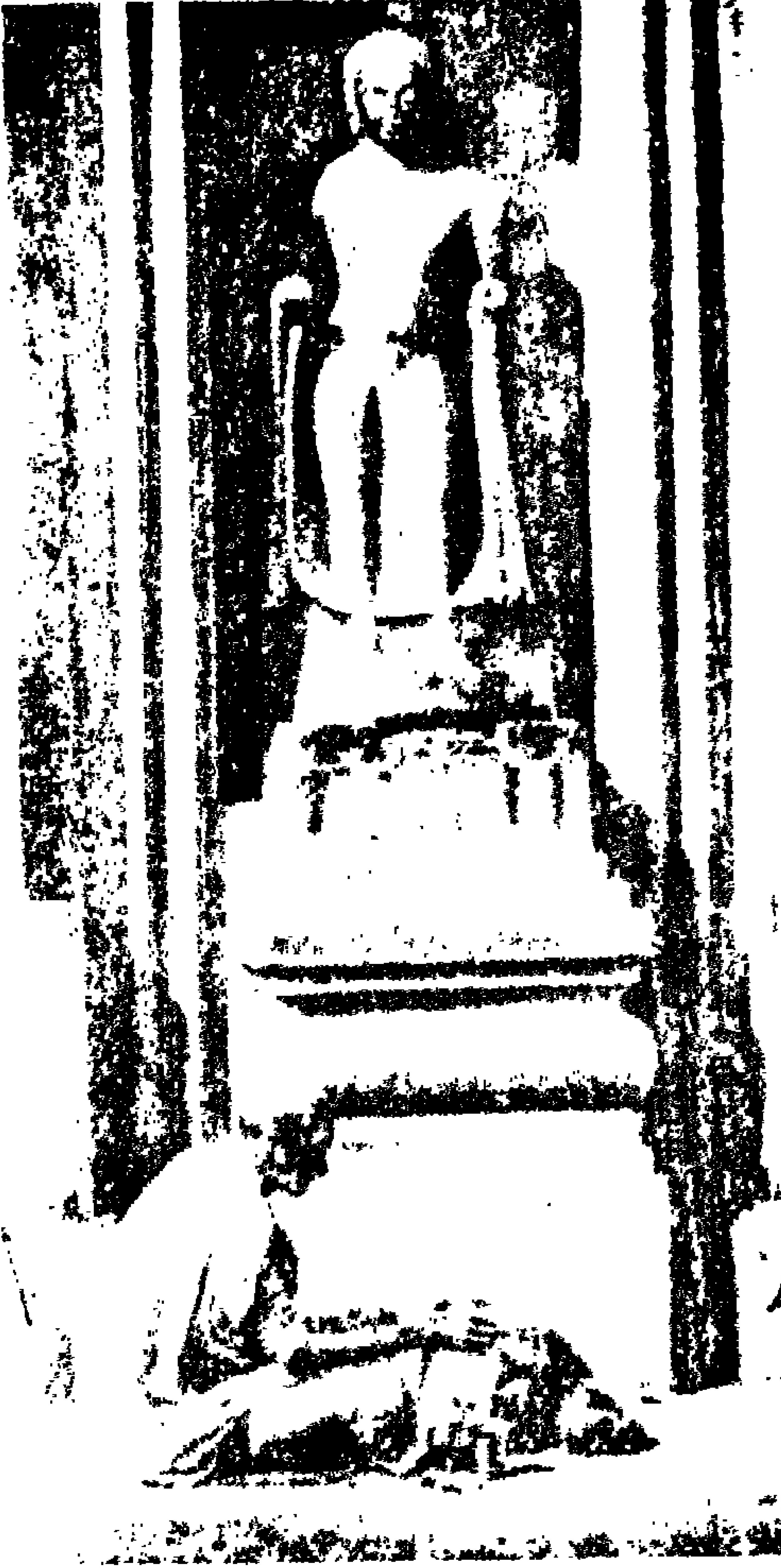
وانطلق بوذا.. وانطلق رهبانه..

ولم يمض وقت طويل حتى كان لبوذا آلاف من الأتباع.. ومضت شهرته متنقلة من مملكة إلى مملكة.. حتى بلغت بلاد الساكيا.

★ ★ ★



تمثال بوذا وهو في شبابه.. في أحد المعابد البوذية.. حيث تقدم له القرابين بعد أن صار البوذيون يعتبرونه إلهاً يصلون له ويتعبدون.

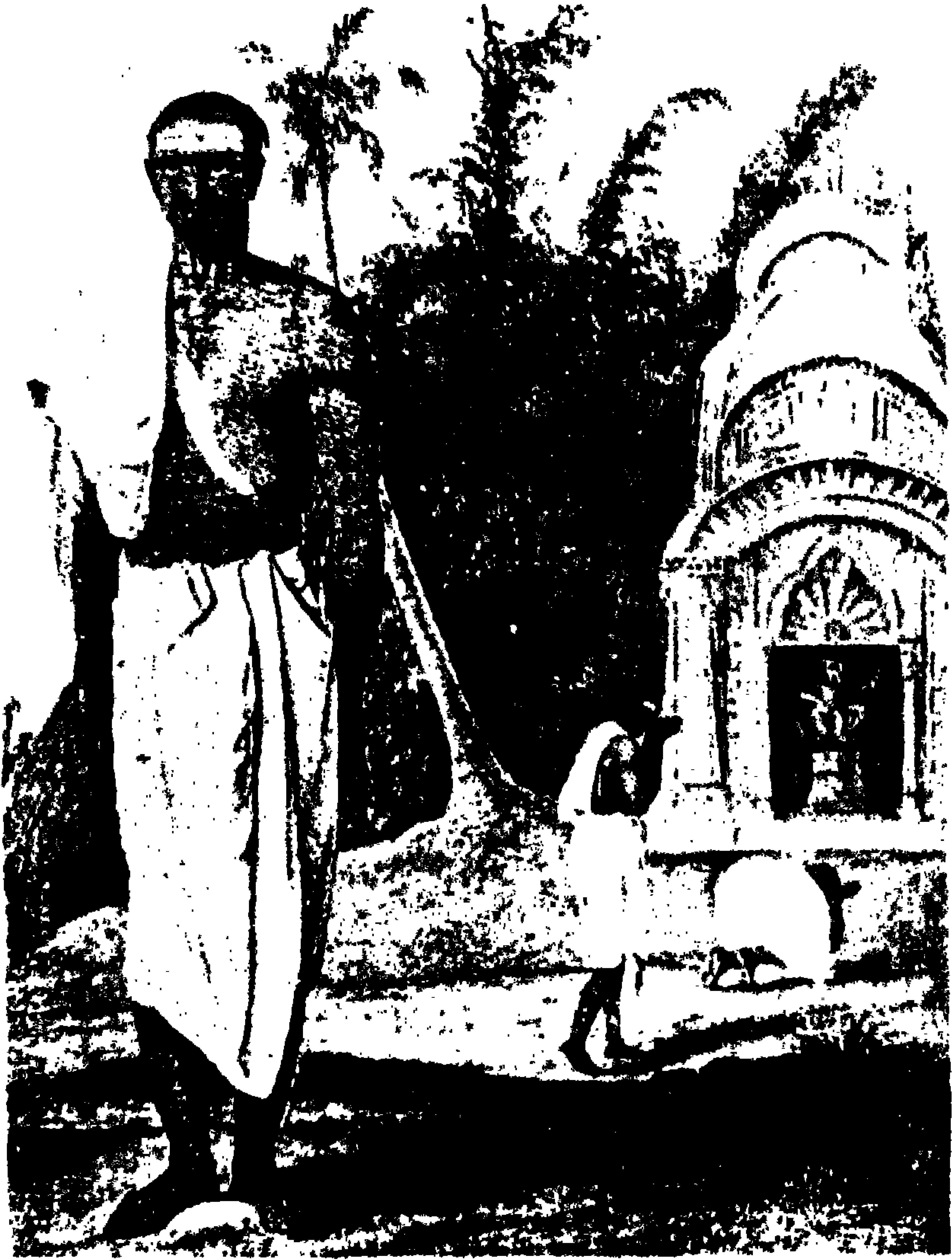


أحـد الكهنـة البوذيـين يقدم القربان في الصباح إلى بوذا.. بعد أن تحول إلى إله معبود.



الإله شيفا وزوجته الإلهة « شاكـــتي ».. وعبادتها من أقدم وأعمق وأبشع العناصر الـتي تتألـف منهـا العقيـدة الهندوكية.

تمثـال في متحـف الفن « تنا جور ».



أتباع شيفا.. يصلون أمام تمثاله باعتباره إله الآلة العطوف.. رغم انه في حقيقة الأمر إله القوة والتدمير..



تمثال «زحل» رمز الطالع الحسن. وقد اعتقد الهندوس ان الكواكب السيارة سبعة.. هي رافي «الشمس»، وشاندرا «القمر»، ومانجالا «مارس»، وبودا «عطارد»، وبراهسباتي «جوبيتر»، وسوكرا «فينوس»، وساني «زحل»، وراهو «رأس التنين»، وكيتو «لايل التنين»..

الطائر الحكيم

هل كان حقاً ذلك الذي تحدث به أتباع بوذا من أنه عاش قبل أن يصبح المستنير.. خمسمائة وثلاثين نوعاً من الحياة.. فعاش إلهاً اثنتين وأربعين مرة، وملكا خمسا وثمانين مرة، وأميراً أربعاً وعشرين مرة، وعالماً اثنتين وعشرين مرة، كما عاش لصاً مرتين، وعبداً مرة واحدة، ومقامراً مرة واحدة، تماماً كما عاش عدة مرات في أجساد أسد فغزال فجواد فنسر فثور فثعبان فضفدعة..؟ وهل صحيح أن بوديستا - وهو اسم بوذا قبل أن يصبح المستنير- كان مختلفاً عن كل الملوك والعبيد والحيوانات الأخرى التي عاش حياتها وهو يمر بكل تلك الصور.. فكان دائماً أكثر الجميع حكمة..؟

لقد آمن كل أتباع بوذا بهذه الحقيقة.. وراحوا يتحدثون عن قصة بارزة حدثت في حياة بوديستا.. قبل أن يصبح المستنير..

في ذلك الوقت.. كان بوديستا يعيش في صورة طائر..

وفي أعماق الغابة، كان لذلك الطائر.. بوديستا.. سلطان على كل أسراب الطيور التي تعيش على مقربة من شجرة عالية ذات فروع تمتد إلى كل اتجاه بحيث لا يشملها البصر كلها.. وذات صباح فوجئت الطيور جميعاً بأكواب من التراب والغبار تتساقط من فروع الشجرة.. التي كانت فروعها كلها تتحرك وتحتك بعضها بالبعض الآخر.. وأخذ الدخان يتصاعد عالياً.. وبدأ الرعب والفزع يسيطران على كل الطيور.. وتأمل بوديستا الموقف ملياً.. وبدأ يفكر:

«لا شك أن الفروع إذا استمرت في احتكاكها كل منها بالآخر، فلابد أن يؤدي الاحتكاك إلى وجود شرر. وإذا وجد الشرر فسيتطاير وتشتعل النيران فتحرق الأوراق الجافة المتساقطة.. وإذا اشتعلت النيران في الأوراق فسرعان ما تحترق الشجرة العظيمة نفسها. وإذن فعلينا إذا أردنا الحياة أن نبتعد من هنا.. وأن نرحل على الفور إلى مكان آخر.

وراح الطائر.. بوديستا.. يغرد لتسمعه بقية الطيور..

« إن الشجرة بنت الأرض..

وهي التي نعتمد عليها نحن أبناء الهواء..

هذه الشجرة نفسها بدأت تشتعل بالنار

فاهربي أيتها الطيور.. بعيداً في السموات..

فموطننا هو نفسه..

بدأ يسبب لنا الأخطار.. والموت »



وأنصتت الطيور إلى صوت بوديستا.. وكان بعضها من الحكمة بحيث استمعوا للنصيحة، وطاروا معه بعيداً في الهواء.. أما الآخرون الذين لم يسمعوا العظة ولا اهتموا لها.. فقد كانوا من الحمق بحيث بقوا في مكانهم وراحوا يقولون:

« إن بوديستا يرى التماسيح دائماً في قطرة الماء.. »

ولم تمض لحظات.. حتى اشتعلت النيران بالفعل.. بنفس الطريقة التي تنبأ بها بوديستا. واحترقت الشجرة عن آخرها وتصاعد منها اللهيب والدخان.. وعميت عيون الطيور التي ظلت هناك.. فعجزت عن الهرب. وسقطت في أعماق اللهيب..

وكانت هذه القصة في الواقع.. بعض ما يحدث على وجه الأرض..

وبمثل هذه الألوان من الحكمة كان كل الناس في مملكة « الساكيا » حيث قصر أبيه الملك.. يتحدثون عن بوذا المستنير.. ابن الملك الذي عاش حياة الفقراء من أجل أن يصل إلى حكمة الحياة.

وانطلق الرسل من مملكة الساكيا يبحثون عن بوذا..

حكيم الساكيا

وبينما بوذا جالس يعظ الناس ذات يوم إذ وصل رسُل قادمون من مملكة أبيه.. ليقولوا له أن الملك سودهودانا يطلب منه السفر إلى الساكيا لزيارته ورؤية أفراد أسرته..

ومضى بوذا مع رسل الملك ومن خلفه آلاف من المعجبين.. وانطلق إلى القصر الذي هرب منه ذات ليلة مظلمة منذ أكثر من ثمانية أعوام ليبحث عن الحكمة..

وحالما وصل إلى القصر أخذ بوذا يعظ أسرته ويفسر تعاليمه.

وقالت الملكة باجاباتي: إن البراهيمة وهي عقيدة بلادنا لا تسمح للنساء بالاشتراك في الأعمال الدينية.. ولكنك تقول أن تعالبمك هي لجميع الطبقات ولجميع الطوائف.. فهل هي للنساء كما للرجال؟

قال بوذا: إنها كما تقولين.

قالت الملكة: إذن يجب أن تكون هناك أخوات راهبات كما يوجد رهبان..

ووافقها بوذا..

ومنذ ذلك اليوم نظم بوذا قواعد للراهبات.. وأقامت الملكة باجاباتي أول منظمة للأخوات الراهبات البوذيات.. وكانت الأميرة يوسودهارا زوجة بوذا أول امرأة تلتحق بالرهبنة.

وانتشرت تعاليم بوذا في جمع أنحاء مملكة أبيه، واعتنقها أهل المملكة، وأطلقوا على بوذا اسم «حكيم الساكيا».

وعندما بلغت شهرة بوذا الآفاق.. انضم ابن عمه وغريمه السابق ديفاداتا إلى العقيدة البوذية..

غير أن ديفاداتا الذي تظاهر بالصلاح.. كان في الواقع شديد الغيرة من الشهرة التي بلغها بوذا.. فراح يتآمر ضده، وحلول خيانته مع الملوك الذين كان بوذا يجوب ممالكهم.. ولكن مؤامرات ابن العم لقتل غريمه باءت بالفشل.. وانكشف أمره أمام بوذا وأتباعه.. وحل عليه العار والخزي والخسران..

وحينما حل بوذا كان الناس ينطلقون إليه زرافات يستمعون إلى عظاته..

وجاءته امرأة ذات يوم باكية وقالت له:

- أيها المستنير.. لقد مات إبني الوحيد.. وذهبت إلى كل مكان أسأل «هل هناك من طريق لإعادة إبني إلى الحياة» فكان الناس يقولون: «إذهبي إلى المستنير فقد يستطيع معاونتك» فهل تستطيع أيها السيد أن ترد إبني إلى الحياة؟

ونظر بوذا إليها في عطف ثم قال:



- إذا جئتني ببذر خردل من بيت لم يمت فيه والدان أو طفل أو أقارب أو خادم.. فسأرد لك حياة ولدك.

وذهبت المرأة تبحث عن بذر خردل من بيت ينطبق عليه وصف بوذا. وقضت شهوراً طويلة تنتقل من بيت إلى آخر وهي تبحث.. ثم عادت إلى بوذا آخر الأمر فقال لها:

- هل جئت يا ابنتي ببذر الخردل الذي طلبته؟

فقالت المرأة:

- كلا.. وقد قال لي الناس أن الاحياء قليلون والموتى كثيرون.

قال بوذا:

- هذه هي الحياة يا إبنتي.. كلها آلام.. والطريق الصحيح إلى الحياة الصالحة هي الوصايا الخمس للاستقامة.. لا تقتل كائناً حياً.. لا تسرق أو تأخذ ما لم يعط لك.. لا تقل كذباً قط.. لا تقم على دنس.. لا تسكر أو تخدر نفسك في أي وقت..

وآمنت المرأة بتعاليم بوذا.. وأصبحت واحدة من الأخوات

الراهبات.. المؤمنات بحكمة المستنير.. وعقيدته من أجل الحياة الصالحة لكل الناس.

واستمر بوذا يواصل نشر تعاليمه في الناس..

عقيدة عالمية

وفي خلال تجواله الجديد التقى بالملك بمبيسارا ملك موجاده وقال له الملك: «إذا أحسنت فهمك فأنت لا تبشر بعقيدة جديدة.. ولكنك تضع تغييرات كبيرة في العقيدة القديمة.. وهي البراهمية.. وتجعل منها عقيدة عالمية..»

وكان هذا هو بالفعل ما يتحدث به الناس.. فالبراهمية كانت عقيدة قومية.. هي عقيدة الهندوس ولا أحد سواهم قط. بل إن كل العقائد الأخرى التي كانت قائمة في العالم أيام بوذا، كانت هي الأخرى عقائد قومية فحسب.. لا تسمح حتى للشعوب الأخرى باعتناقها.. ومن هنا كانت الهندوكية، أي البراهمية، قاصرة على من يولدون هندوكيين.. أما الذي لا يولد هندوكياً، فهو لن يدخل في عقيدة البراهمية حتى ولو آمن بكل ما يؤمن به الهندوكيون، ولو عبد كل الآلهة التي يعبدون..

ثم جاء بوذا.. وعندما تحدث عن عقيدته قال إن كل إنسان يستطيع أن يلتحق بسلك الرهبنة دون اعتبار قط للجنس أو اللون أو الأمة التي يتبعها.. ما دام المؤمن يرغب في اتباع الطريق ذي الثماني شعب.. وهكذا صارت البوذية عقيدة تستطيع أن تجد أتباعاً بين جميع شعوب العالم.

ومضى بوذا ورهبانه أعواماً عديدة يطوفون كل أنحاء العالم يعلمون الناس الطريق ذا الثماني شعب.. ويساعدون الفقراء كلما استطاعوا.. ويقولون للجميع: من الخير يجب أن يأتي الخير.. ومن الشر لا بد أن يأتي الشر..

وراح بوذا يقول لأتباعه من الرهبان: «مبارك كل من كانت فيه

الحقيقة والاستقامة.. اذهبوا.. وعلموا كل واحد في كل مكان كيف يجب أن يحيا الإنسان حياة صالحة »..

وفاة بوذا

ومضت الأيام تسير..

وبلغ بوذا الثمانين.. ومرض فجأة.. وعرف أن النهاية قد دنت.. وأخذ رهبانه يبكون ويقولون:



- إن سيدنا سيتركنا..

والتفت إليهم بوذا وهو يقول:

- عندما أموت ولا أصبح بينكم.. فلا تظنوا أن بوذا قد ترككم أو أنه لم يعد موجوداً بينكم.. فلديكم كلماتي وتعاليمي من أجل الحقيقة.. ولكن دليلكم تلك التعاليم التي علمتكم..

وبعد أن قال ذلك.. مات.. وكان ذلك عام ٤٧٠ قبل الميلاد.. أي منذ أكثر من ٢٤٠٠ سنة مضت..

★ ★ ★

عقيدة حب

مضى بوذا.. ولكن تعاليمه ظلت تجد الآلاف والملايين من الأتباع.. كلهم يؤمنون بحكمة الرجل الذي قال: « على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة، وأن يزيل الشر بالخير. إن النصر يولد المقت لأن المهزوم في شقاء. وإن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها.. إنما تزول الكراهية بالحب ».

ومن أجل ذلك الحب.. عاش الملايين من أتباع بوذا يحبون بعضهم بعضاً كما يحبون كل من يتحدثون إليهم بعبارة جميلة تقول: « السلام على

جميع الكائنات » ذلك أن العقيدة التي تعلموها كانت تقول أنه لا يجوز لهم أن يقتلوا كائناً حياً ، ولا أن يأخذوا شيئاً لم يعطوه ، وأن عليهم أن يجتنبوا الكذب والنميمة ، وأن يصلحوا ما بين الناس من خصومة ويشجعوهم على الوفاق ، وأنه حتم عليهم أن يظهروا الرحمة دائماً بالناس جميعاً والحيوان معاً .. وأن يتجنبوا كل لذائذ الحس والجسد ، فيتجنبوا الموسيقى والرقص والملاهي والألعاب وأسباب الترف واللغو في الحديث والنقاش والتنبؤ بالغيب ، على أن يصونوا عفتهم وأن يجانبوا النساء ويعيشوا في طهر كامل حتى الموت ..

ألوهية بوذا

ومضت عشرات ومئات من السنين ..

وخلال السنوات الطويلة التي راحت تمر .. بدأ الأتباع ينسون أن فكرة بوذا عن الدين كانت خلقية خالصة .. وأن كل ما كان يعنيه هو سلوك الناس .. أما الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت فكلها عنده لا تستحق النظر ..

نسى الأتباع كل هذا .. وراحوا يؤلهون بوذا نفسه .. وبدأت القصص في كتبهم المقدسة تتحدث عن الإله بوذا .. وتصف كيف تقدم له القرابين .. وبعد أن كان بوذا يعظ ضد الأصنام .. أقام له أتباعه التماثيل في كل معبد وجعلوا منه هو نفسه إلها معبوداً ..

واستمرت السنون تمضي .. والخلافات تستفحل بين الأتباع الذين حولوا البوذية إلى دين كامل .. وراحوا يختلفون في تفسير التعاليم .

وأصبح للبوذية كهنة .. ولكن الكثيرين منهم لم يفهموا ماذا علم بوذا . وعندما لا يستطيع الكهنة فهم التعاليم الكبرى لأساتذتهم يحاولون تفسيرها بطرقهم الخاصة . وعندئذ يقولون إن تفسيراتهم هي وحدها الصحيحة وما عداها باطل .. وغالباً ما تتناقض تفسيراتهم مع ما علمه أساتذتهم ..

وكان هذا هو ما حدث بالفعل...

فقد اتسعت شقة الخلافات حول ما الذي كان يقصده بوذا وما الذي لم يكن بعنيه. وبدأت هذه الخلافات تتيح الفرصة لكثير من تعاليم الديانات الأخرى التي تعيش في الهند مثل الفيدية والبراهمية تتسرب إلى البوذية بالرغم من حرص المخلصين من التلاميذ على مقاومة تأثر عقيدتهم بغيرها من الديانات.

انقسام البوذيين

وانقسم الأتباع قسمين.. واتضح انقسامهم في مؤتمر عقدوه في مدينة فيسالي بحثوا فيه النقط العشر التي اختلفوا عليها، وكانت هذه النقط هي:

- هل مسموح لأتباع العقيدة أن يحفظوا الملح في إناء من دون بقية المأكولات؟
- هل مسموح للبوذي أن يتناول وجبته اليومية عندما يكون عرض ظل الشمس حوالي أصبعين.. أي بعد الظهيرة بمدة قصيرة؟
- هل يجوز للمؤمن أن يتناول أكثر من وجبة واحدة من الطعام في اليوم؟
- هل يجوز عقد اجتماعات دورية متعددة داخل منطقة واحدة؟
- هل يجوز عقد اجتماعات لتقرير أمر يخص الجماعة دون استكمال عدد الأعضاء؟.
- هل يجوز للطالب أو المريد أن يحاكي مرشده في عاداته وسلوكه ويقلده في مختلف أفعاله معتقداً أن هذه المحاكاة يمكن أن تجعله يختصر عدد الولادات المستقبلة وتقربه من بلوغ النيرفانا؟
- هل يكون آثماً من يتناول اللبن الآخذ في التخمر دون أن يخض؟
- هل يجوز شرب السوائل الآخذة في التخمر؟
- هل يأثم من يجلس على قطعة من القماش المزركش أو المذهب؟

● هل يجوز للمؤمن امتلاك الذهب والفضة؟

وشجعت الديانات الأخرى هذه الانقسامات وأخذت تدس تعاليمها في ثنايا البوذية حتى تضاربت فيها الآراء..

وبدأت البوذية تنفذ أتباعها شيئاً فشيئاً.

وبعد مضي ألف ومائتي سنة كانت الديانات الأخرى قد عملت على القضاء على البوذية في الهند بأن صهرت التعاليم البوذية في بوتقة الهندوسية وجعلت من بوذا واحداً من آلهة الهندوس. وأقبل الناس على الهندوسية لأنها دين الدولة الرسمي التي في يدها مقاليد السلطان والقوة، ولأنها تؤمن بإله يعبد وتعتقد بوجود روح الإنسان.. ولم يكد القرن السابع الميلادي يهل حتى كان الكهنة الهندوس لا يسمحون بأن يكون للبوذية أي نوع من النفوذ في البلاد.

– ولم يعد يوجد في الهند من أتباع بوذا سوى عدد قليل يعيش في بلاد ما وراء الهيالايا.

على أن تعاليم بوذا وإن كانت قد فقدت سلطانها في الهند إلا أنها ذهبت شرقاً إلى نيبال وتركستان الشرقية والصين واليابان وجنوباً إلى بورما وسيام وسيلان.. وإن كانت في ذهابها إلى كل من هذه البلدان قد اتخذت ألوانا مختلفة من المذاهب التي انقسمت إليها البوذية..



وكانت هذه الألوان غاية في الاختلاف.

فأتباع البوذية في جنوب الهند وجزيرة سيلان، استمسكوا حينا بمذهب صاحب العقيدة في بساطته وصفائه. فعبدوا بوذا باعتباره معلماً عظيماً.. وليس إلها. وكان كتابهم المقدس هو الذي يبسط العقيدة في صورتها القديمة.

والبوذية التي سادت في التبت ومنغوليا والصين واليابان إلى جانب ما بقي منها في الأرجاء الشمالية للهند، أعلنت ألوهية بوذا. وأحاطته

بالملائكة والقديسين، واصطنعت تقشف « اليوجا »، كما أعلنت تعاليم أقرب إلى نفوس الناس من الصورة السوداء المتشائمة المتزمتة القديمة.. وصور ذلك القسم من البوذية جنة فيها بوذون كثيرون.. وهذه الجنة وجهنم التي تقابلها كانت ثوابا أو عقابا لما يأتيه الناس على الأرض من خير أو شر.. وازدهرت في هذه البوذية الجديدة، قدسية الآثار الباقية من السلف واستخدام الماء المقدس والشموع والبخور والمسبحة والثياب الكهنوتية والرهبان والراهبات وقص الشعر والصيام أيام معينة وتدشين القديسين والتطهير والصلاة والدعاء للموتى.

وهكذا أصبح لبوذا في جميع أنحاء آسيا معابد.. بناها أتباعه ووضعوا له في كل معبد تمثالا.. وأصبح الأتباع يأتون إلى هذه التماثيل بالأزهار يضعونها عند قدمي التمثال ويحرقون البخور أمامه ويكرمون ذكراه..

ومضت أعوام تزيد على ألفين وربعمائة سنة منذ مات بوذا..

وبرغم كل تلك الأعوام.. فلا تزال تعاليمه حية في قلوب بضعة ملايين من الرجال والنساء.. كلهم يؤمنون برغم اختلافاتهم بالطريق ذي الشعب الثماني التي يجب على الناس أن يتخذوها من أجل الحياة الصالحة.. وبأن لا فرق بين شخص وآخر إلا بالجهد الصالح الذي يبذله في سبيل بلوغ النيرفانا.. تماماً كما يؤمنون بأنه من الخير يجب أن يأتي الخير ومن الشر لا بد أن يأتي الشر..

الجانتية

في داخل نفوسكم الخلاص..
فليس بالصلاة ولا بالقرابين..
ولا بعبادة الأصنام والأوثان..
يمكن للمرء أن يجد الغفران..
أو يصل إلى طريق الحياة الصالحة.
ولكن بالعمل الطيب،
يمكن أن تبلغ النيرفانا.
لا تقتل الحيوان لتتخذ منه طعاماً،
ولا تصد براً أو بحراً،
ولا تقتل أدنى المخلوقات في أي وقت..
لا تقتل البعوضة التي تعضك،
ولا النملة التي تلسعك.
لا تذهب إلى الحرب،
ولا تقاتل من يهاجمك.
ولا تدس دودة على الطريق..
فحتى الدودة لها روح.

« ماهافيرا »

نعمة الحياة..

أن تجوع لتموت

الصمت.. هو أقدس المقدسات عند الهنود، أشد قدسية من الموت نفسه.. الموت الذي لا يكون مقدساً بحق إلا إذا تم عن طريق الجوع الكامل.. وهو غاية التدين والإخلاص لآلهة السماء.

وكان الصمت.. والموت المقدس.. هما كل ما يتحدث عنه الناس في فيسالى.. عاصمة مملكة موجادة بشمالي الهند.. في ذلك الوقت من عام ٥٧٢ قبل الميلاد..

فذات يوم استيقظ الناس على نبأ موت الملك سرياما وملكته تريسالا. بعد أن قررا أن ينعما بالموت المقدس.. عن طريق الجوع..

ولم يحزن الناس كما كان المفروض أن يحدث، بل إن الفرحة كانت تغمر الجميع وهم يتمنون على الآلهة أن تتاح لهم الفرصة ليموتوا ذلك الموت المقدس كما مات الملكان الحبيبان..

غير أن واحداً من بين الجميع كان يبكي.. وكان هو الفتى فيرادامانا.. الابن الثاني للملك الراحل.. والشقيق الأصغر للملك الجديد..

واستلقى الفتى على صدر أخيه والحزن يكاد يقتله وقال له:

– أخي.. إن الحزن ليعصف بي لفقد أبوينا.. وإني لأجد رغبة تقهرني تريدني أن أقسم على أن أظل اثني عشر عاماً مهملا جسدي.. لأعاني كل ما يمكن أن يحل بي من المصائب التي تنزلها بي قوى السماء أو البشر أو الحيوان..

وراح الملك يهدىء أخاه ويقول له:

- يا فيرا.. أيكون من المعقول أن تتركني وحدي على هذا العرش والبلاد كما ترى.. وموت أبوينا العزيزين لا يزال ماثلا في أذهان الجميع؟.. ألا ترى أن تركك إياي في مثل هذا الموقف يزيد أحزاني وآلامي.

ولم يكن بد من أن يرضخ الأمير فيرادامانا لرجاء أخيه.. واضطر أن يعده بالبقاء معه لعامين فحسب.. على أن يترك القصر.. وفيسالى كلها بعد انقضائهما لينفذ القسم الذي قرر أن يقسمه..

وكان هذا هو الذي حدث بالفعل..

القسم

فلم يكد يمضي عامان حتى انطلق الأمير فيرادامانا مودعا قصر أخيه.. وما كاد يغادر باب القصر حتى التقى في إحدى ضواحي المدينة.. بواحد من آلاف الرهبان المتسولين الذين يملأون الشوارع والطرقات.. فبدل معه ثيابه.. ثم أقسم وهو في ثياب الرهبان قسماً آخر..

«من اليوم.. ولمدة اثني عشر عاماً.. أقسم أن أصوم عن الكلام.. وألا أنطق كلمة واحدة خلالها ما حييت».

وبدأ فيرا تجوله في البلاد.. كواحد من آلاف الرهبان في الهند.

مضى الراهب المتسول الجديد في طريقه صامتاً يستعرض أيام حياته.. وما سبقها من تنبؤات..

وفي مثل هذه اللحظات التي يفكر خلالها في ماضيه، كان فيرا يتذكر تلك الأحلام التي رأتها أمه قبيل مولده. وهذه النبوءة التي تنبأ بها العرافون.



فقبل ذلك الوقت بثلاثين عاماً.. بينما أمه الملكة تريسالا ترقد في القصر، إذ بها ترى عدة أحلام تتابع كل منها وراء الآخر.. حتى بلغت الأحلام في تلك الليلة خمسة عشر حلما. وكان ما رأته في خلال



أحلامها أشياء غريبة لم تفكر فيها من قبل قط.. فقد رأت في حلمها الأول فيلا أبيض.. كما رأت في الثاني ثوراً أبيض.. وفي الثالث أسداً أبيض يستلقي على الأرض.. وفي الرابع رأت الإلهة سرى ربة الثراء..

وتتابعت بعد ذلك الرؤى.. فقد استنشقت عبير زهور ما ندر المقدسة.. ثم رأت البدر كاملا يرسل أشعته الفضية لتغمر كل وجه في العالم.. ثم شهدت الشمس ساطعة مضيئة ولكن في لون قرمزي. وبعدها رأت سمكتين هما رمزا السعادة.. ثم جرتين مليئتين بالماء المقدس.. ثم بحيرة مليئة بزهور اللوتس.. يليها محيط مليء باللبن. ووجدت تريسالا نفسها في الحلم الثاني عشر تعيش في قصر سماوي ومن حولها ملكات الموسيقى.. وعندما جاء الحلم الثالث عشر رأت زهرية ضخمة مليئة بالأحجار الكريمة.. يبلغ حجمها مثل الجبل.. وملأت عينيها بعدها شعلة مضيئة رائعة تبهر البصر.. ثم كان الحلم الأخير.. حيث وجدت تريسالا نفسها وأمامها عرش رائع مرصع بالماس والياقوت.. ومن فوقه جلس ملك لم تستطع أن تبصره جيداً.. ولكنه كان يحكم من فوق العرش كل مكان في العالم الأرضي.

وفزعت الملكة تريسالا من كل ما رأته في أحلامها.. وانطلقت إلى الملك الذي دعا الحكماء إلى القصر.. حيث أعلنو جميعاً أن كل هذه العلامات تنبيء بمولد واحد من اثنين.. إما حاكم وإما قديس.

المزيد

وفرح الملك. ولكنه لم يفعل عندما جاء المولود كما فعل أبو بوذا من قبل عندما حرم ولده من مغادرة القصر حتى لا يرى مآسي الحياة.. بل أن ملك موجادة قرر أن يدع ولده وشأنه وألا يتدخل في المصير الذي كتب له..

وفي اليوم الثاني عشر لمولد الطفل، وعند تعميده.. أطلق الملك عليه

اسم فيرادامانا.. ومعناه «المزيد» فقد زادت منذ يوم مولده ثروة عائلته سواء في الذهب أو الفضة أو القمح أو الجواهر أو الياقوت..

ومضت السنوات تتابع والطفل يكبر ويتعلم ويتدرب على أيدي معلمين مهرة.. يعلمه أحدهم استخدام القوس والسهم.. ويعلمه آخر كيف يسيطر على الجياد الجامحة.. بينما يعلمه ثالث الطريقة التي يستطيع بها أن يسوس الفيلة..

ماهافيرا

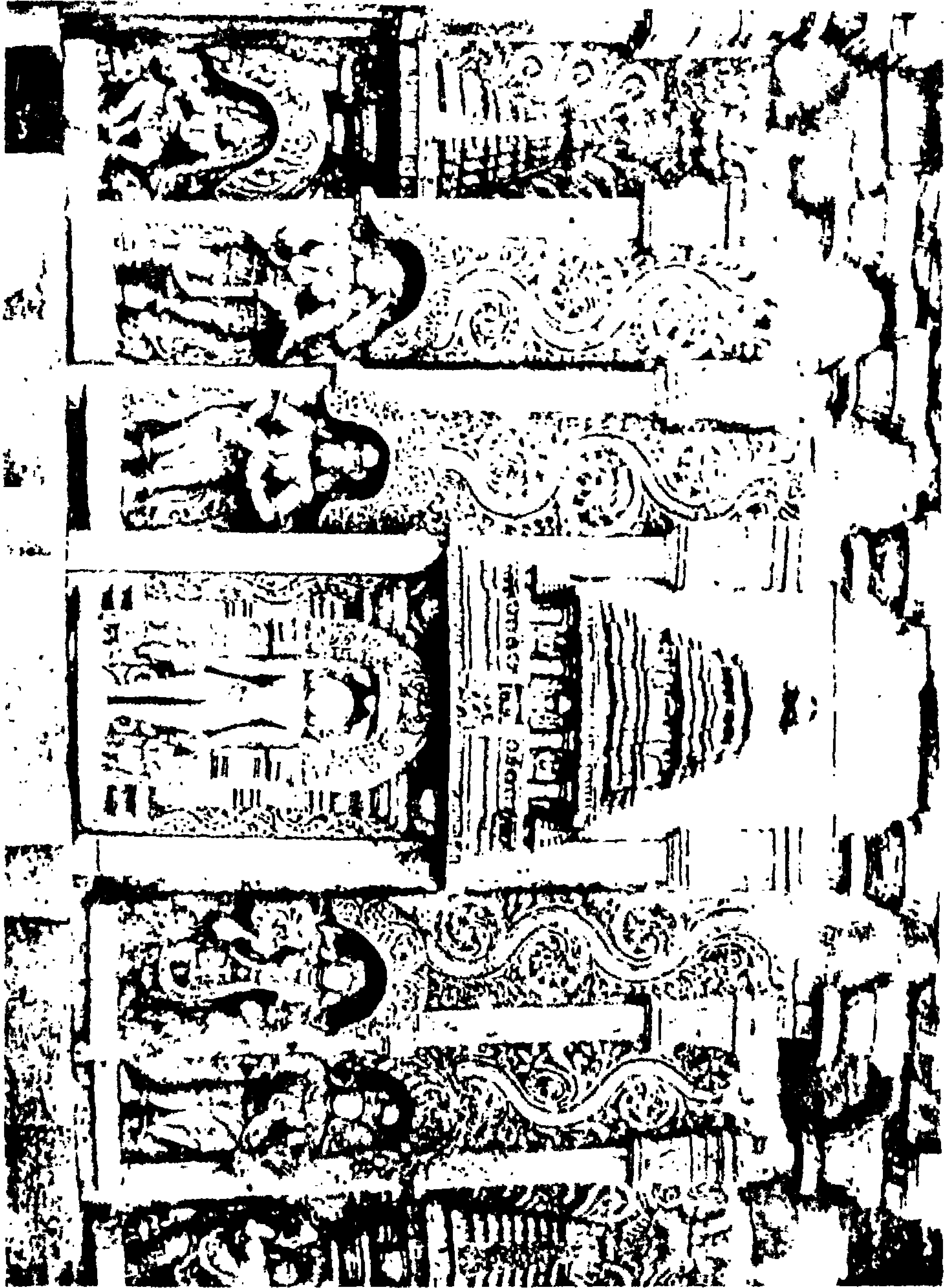
وذات يوم.. كان الأمير فيرادامانا يلعب في حدائق القصر مع أبناء وزراء أبيه، وكان مستغرقاً في اللعب مع رفاقه إلى حد أنهم لم يسمعوا ذلك الصوت الهائل الذي راح يندفع نحوهم آتياً عبر الحديقة. وعندما اقترب الصوت تطلعوا جميعاً إليه.. فرأوا فيلا هائلا يتقدم نحوهم وهو يهز خرطومه في جنون.. وأسرع الأولاد يتفرقون فزعين في كل اتجاه.. عدا الأمير الصغير.. فقد ثبت في مكانه ساكن الحركة.. حتى إذا ما اندفع الفيل نحوه وكاد يدوسه بأقدامه.. انقض الأمير فجأة وأمسك بخرطوم الفيل بطريقة غريبة كان قد تعلمها من مدرب حيوانات القصر، ثم ارتقى رأس الفيل.. وراح يهدئه في بساطة حتى هدأ، ثم راح يقوده عائداً به إلى حظيرته حيث أسرع السائسون بالسلاسل ليقيدوا الفيل.

ولم يذكر الأمير شيئاً لأبويه عما حدث.. ولكن مدربي الحيوانات أسرعوا إلى القصر ليقصوا قصة شجاعة الأمير.. ومن داخل القصر انطلق النبأ ليتحدث الناس بعد عن قدرة الأمير وشجاعته الفائقة..



وفي ذلك اليوم أطلق الناس على الأمير اسم- ماهافيرا- أي البطل العظيم..





مدخل أحد المعابد الجانتية الفخمة، وقد حفرت التماثيل على أوجهته المصنوعة من الرخام.. وهو في مدينة ميسور.



الملكة تريسالا أم ماهافيرا.. وترى وهي تتزين وحولها وصيفاتها يقدمن لها الفاكهة والأزهار بعد مولد طفلها الصغير.



تمثال من البرونز لإحـــدى ربـــات الجانتية.



تمثـــال منحوت في الصخر للقديس الجيـــني جوتامشفـــارا بميسور.



ملك الناجا.. من أتباع ماهافيرا الفاتح.. في الرداء الديني الرسمي.



لوحة لماهافيرا الفاتح مرسومة على القماش



بلغ الأمير ماهافيرا الثانية عشرة، ووضع الخيط المقدس وأقسم على الاستمساك بعقيدة آبائه.. ثم أرسل به إلى الكهنة لعدة أعوام ليدرس على أيديهم أسرار العقيدة الهندوكية..

وبقدر ما أحب الأمير دراسته بقدر ما كره معلميه. فقد وجد هؤلاء المعلمين من الكهنة والبراهمة يظنون أنفسهم خير الناس في العالم حتى أنهم يفضلون الملوك.. وأحسن أن أغلبهم تافهون.. ولكنهم مع هذا لم يعترفوا بأفضلية أحد عليهم على الإطلاق..

على أن الأمير عندما شب وبلغ التاسعة عشرة، نسى كراهيته للكهنة والبراهمة.. فقد امتلأ قلبه بحب كبير.. وراح يهتم بالأميرة الحسناء يوسادها، حتى تزوج منها.. واستقرا في القصر الملكي مع بقية أفراد أسرة أبيه. وعاش الأمير وأسرته ما يقرب من عشرة أعوام، ينعمون بالسعادة في داخل القصر الملكي بفيسالى عاصمة مملكة موجادة..

القسم الأعظم

ثم بلغ الأمير الثامنة والعشرين. وفي ذلك العام ماتت أمه وأبوه موتها المقدس، ليتركاه نهباً للحزن.. الذي جعله يقسم ذلك القسم العظيم بإهمال جسده إثني عشر عاماً.. والصمت المطلق ما بقي حياً خلالها..

وانطلق ماهافيرا في صمته يخترق المدن والقرى وفي يده وعاء يمده للرحماء من الناس ليضعوا فيه بعض الطعام. فإذا صادفته غابة وضع الوعاء جانباً، وراح يأكل من الفاكهة البرية.. والتوت..

ومضت الأيام بماهافيرا وهو يقضي كل وقته في الغابات وعلى الجبال.. جالساً وحيداً يفكر في تعاليم عقيدته..

وخلال الأعوام الإثني عشر لم ينطق ماهافيرا كلمة واحدة.. ولكنه وإن ظل صائماً عن الكلام طوال تلك السنوات، إلا أنه ظل خلالها يفكر

ويطيل التفكير في عقيدة البراهمة. ومع كل تعمق في التفكير كان ماهافيرا يتبين أن الكثير من تعاليم العقيدة بعيد عن الصواب.. وأنها في حاجة إلى التحسين والإصلاح.

وذات يوم.. التقى ماهافيرا براع يرعى غنمه في الوادي الفسيح.. خارج القرية..

وقال الراعي لماهافيرا: إذا رعيت غنمي حتى أذهب إلى القرية وأعود ببعض الطعام فإني أعطيك بعضه لتأكله.

وأومأ ماهافيرا برأسه موافقاً.. ومضى الراعي..

ولم تمض لحظات حتى تسلل ذئب من الغابة.. وقبل أن ينتبه إليه الراهب كان الذئب قد اختطف حملا ومضى به مسرعاً يختفي بين الأشجار وعندما عاد الراعي ووجد أن أحد حملانه قد اختفى جن جنونه وراح يطلب من ماهافيرا تفسيراً لما حدث.. ولكن ماهافيرا ظل صامتاً.. وصاح الراعي «ألا تريد أن تقول لي ماذا حدث لحملي؟ تكلم أيها اللص».

ورفع الراعي عصاه وانهال بها على رأس الراهب..

وكان في استطاعة ماهافيرا أن يفسر للراعي سر اختفاء الحمل؟ ولكنه لم يشأن أن ينتهك قسمه على الصمت. وكان أقوى بنياناً من الراعي حتى ليستطيع أن يدافع عن نفسه ويكيل له بقدر ما كال له.. ولكنه كان قد أقسم ألا يحمي نفسه من أي شر أو عدوان، يحل به..



واستمرأ الراعي سكوت الراهب فراح يضربه حتى بدأ الدم ينزف من كل مكان في جسده. وعندئذ توقف الراعي فجأة عن الضرب، ونظر إلى الراهب الدامي نظرة كلها الخوف والرهبة.. وقال بصوت مرتعش «إنك أول رجل ألقاه يأبى أن يحمي نفسه أو يهرب.. لابد أنك رجل مقدس»..

ولم يجب ماهافيرا، بل جمع نفسه ونهض وانطلق لشأنه..

وجرى الراعي خلفه وراح يلتمس منه الغفران. وأومأ ماهافيرا برأسه دلالة على الصفح.. ثم مضى..

وراح الراعي يرقب الراهب وهو يختفي على التل.. وتمتم قائلا «لقد علمني هذا الراهب درساً عظيماً.. هو أن الصمت أقوى من الكلام».

أما ماهافيرا فقد مضى في تجواله مفكراً يقول في أعماقه:

«لقد علمني هذا الحادث درساً عظيماً.. هو أن التواضع خير من الكبرياء، والسلام أقوى من الغضب..»

★ ★ ★

المتحدث العظيم

ومضت الأعوام.. ولكن ماهافيرا عندها انتهت أعوام الصوم لم يعد إلى بيته أو إلى أسرته.. بل قرر أن يظل راهباً. يمضي في طول البلاد وعرضها ينشر آراءه التي طلع بها خلال أعوام التفكير الطويلة الصامتة..

وراح ينتقل من مكان إلى آخر يعظ كل من يقبل الإنصات إليه.

وكان الكثير من أرائه غير غريب على الناس.. إذ كان جزءاً من عقيدتهم بالفعل.. وكان البراهمة أو المصلحون الآخرون قبل ماهافيرا قد بشروا به من قبل..

ولكن بعض آراء ماهافيرا كانت جديدة جداً..

وقال الناس بعضهم لبعض «إن ماهافيرا متحدث عظيم.. إنه يقول الحق».

وأصبح كثيرون من الناس أتباعا لماهافيرا.. وراحوا يمضون خلفه وينظمون أخوة وأخوات في الرهبنة..

وكانت تفاسير ماهافيرا تقول:

«حياة الإنسان كلها عناء.. فالميلاد عناء، والمرض عناء، والموت عناء، والسعي إلى ما يريد المرء عناء»

وسأل البعض ماهافيرا: «ومن أين يأتي عناء العالم؟»

وأجاب ماهافيرا: «يأتي عناء العالم من الرغبة.. فالناس يعانون وهم تعساء، لأنهم يريدون عدداً كبيراً جداً من الأشياء.. ومهما حسل المرء على الكثير من الطعام أو الثراء أو الشهرة فإنه يطلب المزيد دائماً.. فالرغبة إذن هي سبب كل عناء».

قال الناس «وكيف نقضي على العناء؟».

أجاب ماهافيرا: «بالتخلي عن جميع الرغبات.. فعندما يتخلى الإنسان عن جميع الرغبات يستطيع أن يعد نفسه لأعظم سعادة روحية.. وهي النيرفانا».

الطريق إلى النيرفانا

وأراد الناس أن يعرفوا: «ما هو الطريق إلى النيرفانا؟»

وقال ماهافيرا «الطريق إلى النيرفانا هو طريق جواهر النفس الثلاث، وهي الاعتقاد الصحيح والمعرفة الحقيقية والسلوك السليم.. والسلوك السليم يأتي أولا.. وهو باتباع الوصايا الخمس للنفس:

- لا تقتل أي كائن حي أو تؤذه بالكلام أو التفكير أو العمل.
- لا تسرق.
- لا تكذب.
- لا تحي حياة الفجور أو تخدر نفسك.
- لا ترغب في شيء على الإطلاق..



وقال ماهافيرا أنه لا يؤمن بالطوائف.. ولا بالأصنام وعبادتها.. وأنه يؤمن بأن الصلاة لا قيمة لها ولا تفيد أحداً قط..

وسأل الناس ماهافيرا:

«إذا لم تكن تؤمن بقدسية الطوائف، وإذا لم تؤمن بأن براهما خلق العالم، وبأن عبادة الأصنام أو تقديم القرابين للآلهة والصلاة لها

يمكن أن تفيد الإنسان.. فأين إذن يمكن للمرء أن ينشد الغفران عن آثامه حتى يمكن أن يدخل النيرفانا؟ »

أجاب ماهافيرا:

«لا بالصلاة ولا بالقرابين ولا بعبادة الأصنام يمكن أن تجدوا الغفران والطريق إلى الحياة الصالحة.. ولكن بالعمل الطيب يمكن أن تبلغوا النيرفانا.. في داخل نفوسكم الخلاص».

★ ★ ★

بين بوذا وماهافيرا

إن قصة حياة ماهافيرا لا تختلف في كثير عن قصة حياة بوذا.. فقد كان كلاهما أميراً هندوكياً، وكان كلاهما في صباه غاية في الشجاعة، وكلاهما درس عقيدته بحماس، وكلاهما تزوج وكان سعيداً في زواجه، وكلاهما هجر بيته ليصبح راهباً متسولاً، وكلاهما وجد عدة عيوب في تعاليم عقيدته، وكلاهما عاد بعد عدة أيام من التفكير ليبشر بتعاليم جديدة لشعبه الكبير..

وتكاد تعاليمهما تتشابه إلى حد أنها تبدو لأول وهلة تعاليم رجل واحد.

ومع ذلك فقد أقاما عقيدتين مختلفتين كل الاختلاف.. فبرغم أن الرجلين كانا يتبعان طريق البرهمية بما فيها الكارما والتجسد والنيرفانا.. إلا أنهما عندما يصلان إلى قدسية الطوائف، والخلاص بالصلاة وتقديم القرابين، والحديث عن الحقيقة المطلقة في كتاب الفيداس البرهمي المقدس.. عندئذ ينأى كل من بوذا وماهافيرا بجانبه بعيداً عن البرهمية..

وبرغم أن كلا من الرجلين كان يعتقد أن على المرء أن يعتمد على معونة الآلهة، ويعيش طبقاً للاعتقاد الصحيح والمعرفة الحقيقية.. إلا أن ماهافيرا أو بوذا لا يكادان يبدآن في تقرير ما هو السلوك الحق للرجل الصالح حتى يترك كل منهما الآخر ويبدو الاختلاف بينهما واضحاً كبيراً..

فبوذا يمضي قدماً في الطريق الوسط.. طريق الاعتدال الذي يؤمن بأن التطرف شر..

أما ماهافيرا فيمضي في طريق تعذيب النفس المسمى بالنسك.. وهو يؤمن بأن التجويع وتعذيب النفس يساعدان الإنسان على الوصول إلى الحياة الصالحة..

وثمة شيء آخر يختلف فيه الحكيمان العظيمان اختلافا خطيراً يفرق تماماً بين كل من العقيدتين.. هو أن ماهافيرا- برغم اعتقاده مثل بوذا بأن لكل الأحياء روحاً- إلا أنه قال أيضاً أنه حتى الأشجار والماء والنار والخضر لها هي الأخرى أرواح.. وليس كل هذا فحسب.. بل أن ماهافيرا قال أيضاً إنه إذا عاش الإنسان حياة غير صالحة.. فإنه لا يولد بعد وفاته من جديد في جسم خنزير أو ثعبان أو ضفدعة فحسب.. بل قد يولد ثانية فيجد نفسه جزرة أو بصلة أو حتى بنجرة..

ولم يكن هذا وحده هو أسوأ ما هناك..

الجنة والنار

فقد قال ماهافيرا إن هناك في الأعماق تحت سطح الأرض.. جحيما من سبع طباق، كل طابق منها دون الآخر وأشد هولا.. وكلما كانت الروح أشد شراً وجدت نفسها ملقاة في أسفل درك في الجحيم..

ويبدو أن ماهافيرا كان يؤمن بأن لأرواح الأحياء وزنا.. فعندما تخطىء الروح تصبح ثقيلة وتغوص إلى أسفل.. فإذا كانت خطيئتها بالغة الضخامة ظلت تغوص وتغوص حتى تصل إلى الجحيم السابع الرهيب..



أما الروح الصالحة النقية.. فترتفع وترتفع إلى إحدى الجنات الست والعشرين التي ترتفع كل منها فوق الأخرى. وعندما تصبح الروح غاية في

الصلاح وغاية في النقاء، تظل تزداد خفة حتى تصل إلى الجنة السادسة والعشرين.. وعندئذ تدخل النيرفانا..

على أن ماهافيرا كره الأصنام كما فعل بوذا من قبل.. ولهذا فقد ظل يجوب أنحاء الهند ثلاثين عاما يبشر ضد عبادة الأصنام وضد الطائفية ويشرح معتقداته في الجنة والنار.. ونظم خلال ذلك طائفة من رجاله في سلك رهبان عزاب.. وطائفة أخرى من النساء في سلك الراهبات العانسات..

وعندما بلغ السبعين عن عمره جاء ماهافيرا إلى مكان يدعى- بافا- .. وهنا كان المرض الثقيل قد حل به.. وأحس أنه لن يستطيع المضي بعد..

وعندما حدث هذا.. دعا ماهافيرا إليه أتباعه وألقى عظته الأخيرة..

وقال أحد الأتباع:

«ما هي أهم تعاليمك الأولى بالاتباع؟»

أجاب ماهافيرا:

«لا تقتل الحيوان لتتخذ منه طعاماً، ولا تصد برا أو بحراً، ولا تقتل أدنى المخلوقات في أي وقت، ولا تقتل البعوضة التي تعضك أو النملة التي تلسعك.. ولا تذهب إلى الحرب. ولا تقاتل من يهاجمك، ولا تدس دودة على الطريق.. فحتى الدولة لها روح.»

وفي الصباح التالي مات ماهافيرا..

ثم حرق جثمانه في- بافا- .. بإقليم بيهار بالهند.. حيث لا تزال حتى اليوم هي الكعبة المقدسة لأتباعه.. الجينيين.

* * *

ساعات الموت

عندما رقد ماهافيرا على فراش الموت، اجتمع حوله كل ملوك هذا العالم وحكامه. وراح ماهافيرا طوال أيام ستة يتحدث إلى الملوك والحكام

ويلقي فيهم عظاته.. واستمر على ذلك الحال حتى كانت الليلة السابعة لاحتضاره.. وفي تلك الليلة.. تحرك ماهافيرا في بطء شديد.. ونهض ليصعد على عرش من ماس كان يتوسط قاعة رائعة بالغة الفخامة.. تشع جوانبها كلها بأضواء متألقة غريبة لا يبدو لها مصدر قط.. وجلس ماهافيرا على العرش.. ثم عاد يتكلم من جديد..

واستمر ماهافيرا يلقي عظاته في الملوك والحكام.. حتى بدأ الفجر يقترب.. وفي تلك اللحظة غشى النوم أبصار كل من في القاعة.. بينما ودع ماهافيرا الحياة واختفى دون أن يراه أحد قط.

ومضت لحظات.. ثم فتح الجميع عيونهم من جديد وكأنهم يستيقظون من سبات عميق.. وعندما أطلوا حولهم لم يروا شيئاً على الإطلاق.. فقد كانت القاعة كلها غارقة في ظلام رهيب.. تماماً كما أحاطت الظلمة بكل أنحاء العالم الفسيح.

ومن أجل أن يرى الحكام والملوك بعضهم بعضا.. أمروا بإشعال المشاعل في كل مكان.. وظلت المشاعل منذ ذلك اليوم الذي اختفى فيه ماهافيرا هي الوسيلة الوحيدة للناس عندما يجيء الليل ويسيطر الظلام على كل أنحاء الكون..

ومضى ماهافيرا..

غير أنه عندما مضى كان عدد رهبانه يتجاوز أربعة عشر ألفاً من أبناء الهند.. وتابع الرهبان أداء المهمة التي بدأها أستاذهم.. وراحوا يتنقلون من مكان إلى آخر يعلمون الناس حكمة الجانتية، بعد أن جمعوها في كتب سميت « أجاماس » ومعناها « الوصايا » أصبحت هي الكتب المقدسة عند جميع الأتباع..



مؤسسو الجانتية

يقول الجانتيون أن ماهافيرا لم يكون وحده هو مؤسس عقيدتهم.. بل لقد آمنوا بأن هذه العقيدة أسسها في الحقيقة أربعة وعشرون «جينا» أي أربعة وعشرون فاتحاً.. ظهروا على فترات دورية ليبشروا الناس ويهدوا شعب الهند إلى الطريق المستقيم..

وأول فاتح عندهم هو الإله «أديناث» الذي ظهر قبل ذلك بأكثر من بليون مليون سنة.. وآخر فاتح عندهم هو ماهافيرا الذي توفي حوالي سنة ٤٨٠ قبل الميلاد..

وبدأ كهنة الجانتية يبشرون بعقيدتهم للعالم بهذا الاعتقاد.. وهو أن هذه العقيدة يرجع تاريخها إلى بلايين ملايين من السنين.. وقالوا للناس أن دينهم أزلي لا بداية له ولا نهاية لوجوده.. ولم يكن لمؤسيسه فضل إلا أنهم رفعوا عنه الحجب.. وأطلعوا أتباعهم على أسراره.. قال الرهبان:

«عندما علم ماهافيرا.. لم يفهمه البشر وحدهم فحسب.. بل فهمته المخلوقات التي تزحف، والطيور التي تطير، وأرواح الخضر والأشجار.. فهمته كلها لأنه كان يُعلِّم عقيدة تقول أن لكل شيء روحا.. وهي نعمة لجميع المخلوقات على وجه الأرض».

وتساءل بعض الناس: «وما هي الطريق المؤدية إلى الخلاص والنجاة؟»

طريق الخلاص

أجاب الرهبان: «طريق الخلاص توبة تقشفية وامتناع عن إيذاء أي كائن مهما كانت ضآلته.. ونبذ للاستمتاع بكل لذة خارجية.. لأن اللذة الحسية خطيئة دائماً..»

وسأل البعض: «وما هو المثل الأعلى للجيني؟»

أجاب الرهبان: «ألا يأبه للذة أو ألم»

وقال بعض الناس: «كيف نستطيع أن نتفادى إيذاء كل الكائنات مهما بلغ قدرها من الضآلة؟»

قال الرهبان:

- لا تزرع.. لأنك عندما تزرع تمزق التربة وتسحق الديدان.

- لا تأكل العسل لأنه حياة النحل.

- عليك بتصفية الماء قبل شربه حتى لا تقتل ما عسى أن يكون كامناً فيه من كائنات..

- محرم عليك أن تغلى الماء مخافة قتل الحشرات التي لا تقع عليها العين.



- لا تقطع الأشجار أو تقم بأي عمل يتطلب استخدام المواقد حتى لا تحرق الذباب والبعوض.

- عليك أن تغطي فمك بشبه كمامة حتى لا تستنشق مع الهواء أحياء عالقة فيه فتقتلها بتنفسك.

- عليك أن تكنس الأرض أمامك وأنت تمشي خوفاً من أن تدوس بقدمك الحافية كائناً حياً فترديه.

- لا يجوز لك أن تأكل لحم الحيوان أو تذبحه أو تضحي به.

- إذاً كنت جانتياً مخلصاً فعليك أن تقيم المستشفيات والمصحات للحيوانات التي هرمت أو أصابها أذى..

وآمن الناس بكل ذلك.. واستطاع الأتباع أن يسيطروا على أنفسهم ويرغموها على اتباع الطريق الجانتي للحياة.. وعرفوا أن عليهم فوق ذلك أن يتبعوا وسائل أخرى تقربهم من النجاة والخلاص.. هي أن يقمعوا الشهوات ويتجنبوا الشعور بالآلام أو المضايقات.

وقال لهم الرهبان:

الألم يحسه الناس في اثنتين وعشرين حالة يجب اجتنابها.. منها الشعور بالجوع أو العطش، والشعور بالبرودة أو الحرارة، والشعور بضيق الصدر

من لدغة بعوضة أو نملة، والشعور بالخزي أو الخجل عند العري، وعدم الهدوء عند رؤية امرأة جميلة، والأسف لعدم وجود فراش ينام عليه المرء إذ محرم أن ينام الإنسان على فراش، والشعور بالغضب أو عدم الرضا بالحال، والتألم من المرض، والتوجع من جروح القدم إذا مشى الإنسان على الشوك.. والمسامير.

طهارة الروح

فمن أجل الفوز بسعادة الحياتين على الجيني أن يتحلى بصفات تتضح في المبادىء السبعة الرئيسية لطهارة الروح:

المبدأ الأول هو أخذ العهود والمواثيق، وهو ذو أثر بالغ في اقتلاع الأخلاق السيئة والتمسك بالزهد والتقى.

والمبدأ الثاني في المحافظة على الورع وتجنب الأذى والضرر لأي كائن مهما كان حقيراً ضئيلا..

والمبدأ الثالث في التقليل من الحركات البدنية، وفي الكلام والتفكير في الأمور الدنيوية والجسمانية خوفاً من ضياع الأوقات النفيسة والأنفاس الثمينة في الأمور الثانوية وسفاسف الحياة وتوافهها.

والمبدأ الرابع في التحلي بعشر خصال هي أمهات الفضائل وهي العفو والصدق والاستقامة والتواضع والنظافة وضبط النفس والتقشف الظاهري والباطني والتزهد والإيثار والاعتزال عن النساء.

والمبدأ الخامس في التفكير في الحقائق الأساسية عن الكون والنفس.

والمبدأ السادس في السيطرة على متاعب الحياة وهمومها وعدم الاهتمام بها.

والمبدأ السابع في القناعة الكاملة والطمأنينة والخلق الحسن والطهارة الظاهرية والباطنية.

وكل هذه المبادىء قررها ماهافيرا قبل أن يموت.. وقال لأتباعه ومريديه:

الانتحار نعمة

«إذا التزم الجيني بهذه الرياضات النفسية في دقة وصرامة اثني عشر عاماً.. يسمح له بنعمة الانتحار.. والاستمتاع بسعادة الموت جوعا..!؟

وهذا هو في الواقع ما يؤكده جميع الأتباع حتى اليوم.

فالجانتية تجيز الانتحار ولا تقيم في سبيله العقبات، وخاصة إذا تم عن طريق الجوع.. فإن ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء.. ولأن في موت الإنسان انقطاعاً لأعماله التي في كل منها مظنة إلحاق الغدر بكائن من الكائنات المزودة بالأرواح واحتمال سوء التأثير في طريقة تناسخ روحه. فالموت جوعا منزلة سامية تدل على أن الجانتي قد وصل إلى أسمى درجات الزهد والتقشف وتؤدي إلى تحرير روحه تحريراً تاماً، وإنقاذه من هذه الحياة وعدم اضطراره إلى أن يحيا فيها في المستقبل مرة أخرى.



ولا توضح الجينية هذا الإنقاذ بشكل سهل، فكل ما يمكن فهمه من ذلك أن الأرواح الجزئية لا تتصل بالأرواح الكلية ولا تندمج فيها، ولكنها ترحل إلى عالم الخلود في مكان يشبه الجزيرة. وهذا المعنى يتضح بعض الشيء من عقيدة الجينيين الثنائية في العالم.. وهي تقول أن العالم كله يتكون من كائنين أوعنصرين هما «جيفا» أي الشعور، و«أجيفا» وهو اللاشعور. فجيفا هو الروح وله من الذكاء والهدوء والإيمان حظ كبير لا حد له، ومع ذلك فهو يفقد هذه الصفات إذا اتصل بالمادة حيث يحد نشاطه. ويختلف الجيفا الذي يحل بالإنسان في حجمه باختلاف أجسام الناس التي تحتلها في الحجم.. أي أنه يساير الجسم، فينكمش في الجسم الصغير ويكبر في الجسم الكبير. أما

العنصر الثاني وهو «الأجيفا» فهو مادة في صور مختلفة منها الزمان والمكان.. فهذان ماديان ومن صفات المادة الحركة والسكون. وبذلك تكون عناصر الكون على وجه التفصيل ستة.. هي الوح والمادة والزمان والمكان والحركة والسكون.

الآلهة والشياطين

فبرغم أن الجينيين لا يؤمنون بكائن أسمى في السماء، ولا حتى بحقيقة خلود العالم.. إلا أنهم يؤمنون بكل الآلهة، والحكماء، وأنصاف الآلهة والشياطين والجن المعروفة في البرهمية، أما الآلهة فمختلفون عن البشر، ولكنها ليست قادرة على كل شيء ولا بالغة الفضيلة.. فللآلهة سقطاتهم الدنيوية، وبرغم أنهم يتمتعون بقوى معينة، تزيد عما يتمتع به البشر عادة، إلا أنهم ليسوا أكثر قيمة بشكل قاطع عنهم.

فالإله مثل لا يستطيع أن ينال الخلاص أو النجاة إذا لم يمر بمرحلة الولادة البشرية.. فالخلاص لا يتمتع به إلا البشر. وإن كان بعض الآلهة يستحقون في بعض الأوقات التقديس.. كما يستحق قليل منهم أن يعبدوا - بغير شك - حسب العقيدة الهندوكية.

وإذا كانت الجينية لا تهتم بضرورة الوصول إلى الخلاص إلا أنها لا تجد حاجة إلى اليأس التام.. فالشيطان لا يستحق اللعنة دائماً لأن الشياطين تعمل أيضاً من أجل الوصول إلى النجاة.. كما ينتظرها ما ينتظر البشر من الجنة إلى الجحيم..

فالعالم في نظر الجينيين ينقسم إلى ثلاثة أقسام.. الطبقة العليا.. والطبقة الوسطى والطبقة السفلى.. ويتمثل الجينيون العالم كما يتمثلون جسم الإنسان.. فوسط الإنسان يمثل الطبقة الوسطى.. والأقدام تمثل الطبقة السفلى.. أما الجذع فيمثل الطبقة العليا.

فأما أسفل الطبقات فتنقسم إلى سبعة أقسام كل منها جهنم من نوع يختلف عن الآخرين.. وأدنى هذه الأقسام هي أكثرها ظلاما.. وهي التي تقع إلى يمين قدم.. ولكن الجحيم الأعلى.. وهو أول الطبقات فيسمى الجوهرة.. والثاني الذي يليه يسمى السكر.. والثالث يسمى الرمل.. والرابع هو الطين.. والخامس الدخان.. والسادس الظلام.. والسابع هو الظلام الأعظم.

وهذه الطبقات.. من الجحيم جميعاً مكونة من غرف الرعب.. وأدنى الآلهة هم الذين ينشغلون دائماً في تعذيب الأرواح الشريرة في هذه الحجرات..

وآلهة الرعب الذين يعيشون في الجحيم لتعذيب ضحاياهم يضمهم خمسة عشر نوعاً.. النوع الأول ويسمى «أمبا» مهمته تحطيم أعصاب ضحاياهم.. والنوع الثاني «أسباراسا» مهمته سلخ لحم الضحايا عن العظام.. والثالث وهو «الساما» مهمته هي الضرب.. و«السابلا» لتمزيق اللحم وتقطيعه.. و«الرودرا» تتولى التعذيب بواسطة الرماح.. و«الماهادورار» لفرم اللحم.. و«الكالا» لشي الضحايا و«الماهاكالا» لتمزيقهم بالكلاليب.. و«الانبالا» هم حملة السيوف ليقوموا بتقطيع الضحايا بسيوفهم.. و«الدهانو» حملة السهام لأصطياد الضحايا بسهامهم.. و«الكومبها» يعذبونهم بمساحيق حامية.. «والغالو» يغرسون الضحايا في الرمال المحرقة.. و«الفيتاراني» يقذفونهم بقوة وسط الصخور. و«الكاراسفارا» ترغم الأرواح على الجلوس فوق الخوازيق.. و«الماهاجوث» لحبسهم في الجحور المظلمة الرهيبة..

وفي نفس مستوى الجحيم ولكن في الجانب الآخر.. أي على يسار القدم الهائل. توجد الباتالا أي الجنة وسكانها خليط من الآلهة الصغار..

والشياطين. وينقسم الآلهة الصغار إلى عشرة أنواع. أما الشياطين فتنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين كل منها تنقسم أقساماً أخرى عديدة.

طبقات الأرض

هذا هو ما يملأ الطبقة السفلى من الجسد الأعظم.. أما الطبقة الوسطى فهي المساحة الأرضية الضخمة التي نعيش عليها.. وتنقسم هذه الأرض إلى ثماني قارات.. كل منها ينفصل عن الآخر بواسطة محيط هائل من الماء.. وفي وسط هذه الأرض يقع جبل ميرو المقدس.. حيث يمكن عن طريق صعوده وحده الوصول إلى الخلاص.

أما الطبقة العليا فتنقسم قسمين.. الكالبا.. والكباشينا. وكل منهما ينقسم إلى ستة عشر قسماً أو سماء. وهذه الطبقة تقع فوق الطبقة الوسطى تماماً.

وفوق هذه الطبقة تعيش أحسن طبقات الآلهة.. وإن كان هؤلاء الآلهة ليسوا تماماً بقوة واحدة متشابهة.. بل لقد انقسموا بشكل واسع إلى آلهة أرضية وسماوية.. وهذه الآلهة تأكل كالبشر.. وتشرب مثلهم، وتغني وكما في العقيدة الهندوكية فإن أندرا هو كبير الآلهة.

أما الطبقة الأخرى فتعيش فيها بقية الأرواح الخيرة.. وعلى رأسها مبشرو الجانتية الأربعة والعشرون!

* * *

ومع كل ذلك فقد لقيت الجانتية صعوبة كبيرة في الانتشار الكبير السريع.. خاصة بسبب تقشفها الشديد وعنايتها بالاهتمام بكل الأرواح مهما بلغت ضآلتها..

وقد تساءل عدد كبير من الناس:

ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن كل أهل الأرض أصبحوا جانتيين؟

والجواب يقول: لو حدث هذا لما استطاع أحد أن يزرع الفاكهة والخضر. ولما استطاع أحد أن يصنع خبزاً ليأكله. ولما استطاع الناس أن يصنعوا ثيابهم أو يدفئوا بيوتهم أو ينتقلوا إلى أي مكان، ويفعلوا شيئاً على الإطلاق. وما كان يمضي وقت حتى يموت الجميع من جوع أو عطش أو برد شديد.

وإذا كان أهل هذه العقيدة قد كتبوا في كتبهم المقدسة أن عقيدتهم قصد بها «أن تكون نعمة لجميع مخلوقات العالم..» فإنها لم تتجاوز حدود الهند ولم تستطع أن تصبح عقيدة عامة.. وإن كانت قد اكتسبت في الهند عدة آلاف من الأتباع.

ذلك أن هذا التطرف في الزهد قد حال دون إقبال الناس عليها حتى في الهند. فمنذ ظهور الجانتية والجانتيون صفوة مختارة، وعلى الرغم من أنهم صاروا عديدي النفر أقوياء في القرن السابع، إلا أنهم كانوا عندئذ في أوج حياتهم التي سلكت طريقها في هدوء.

انقسام الجانتية

ولكن حدث في عام ٧٩ ميلادية أن انشق الجانتيون فريقين تفصلهما هوة سحيقة من اختلاف الرأي على موضوع العرى. ومنذ ذلك الحين أصبح الجانتي إما منتسبا إلى طائفة «شوتيا مبارا» أي طائفة ذوي الأردية البيض، وإما أن يكون منتسباً إلى طائفة «ديجامبارا» أي المتزملين بالسماء ذوي الأجساد العارية.

على أن الطائفتين أصبحتا تلبسان اليوم الثياب العادية كما يقضي المكان والزمان.. وإن كان قديسوهم وحدهم الذين لا يزالون يجوبون الطرقات عراة الأجسام.

ويبلغ عدد أتباع الطائفتين الآن مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة من سكان الهند البالغ عددهم ثلاثمائة وثمانين مليون نسمة.. وهؤلاء الأتباع يعيشون على الأغلب في أعالي الهند على طول نهر الجنجز وفي كلكتا.

هكذا عاش الجانتيون إذن حياة تقشف كاملة وإذا كانوا في أول الأمر لم يعرفوا المعابد لأن معلمهم لم يكن يؤمن بالصلاة أو الآلهة.. إلا أنهم بمضي الزمن بنوا عدة معابد ووضعوا فيها تماثيل حجرية لماهافيرا، ولغيره من المبشرين الثلاثة والعشرين الذين يؤمنون بأنهم سبقوا ماهافيرا في العقيدة وعلموها للبشر.

وإذا كانت هذه التماثيل لم تعتبر مقدسة في أول الأمر بصفتها آلهة.. إلا أن الناس أخذوا أخيراً يعبدون هذه التماثيل.

ومنذ حوالي خمسمائة عام خرج جماعة من الرهبان على هذه العقيدة وكونوا مذهباً جديداً لا توجد في معابده صور ولا تماثيل.

ولكن الجميع مع ذلك- وبرغم قلة عددهم- صار لهم نفوذ عظيم في الهند. فمع أنهم ابتعدوا عن الاشتغال بالزراعة خوفا من إلحاق الضرر بالكائنات الحية، كما ابتعدوا عن أن يصبحوا جنوداً أو معلمين أو صناعاً.. فقد شقوا طريقهم في الحياة بتناول أعمال أخرى كالأعمال التجارية وبخاصة إقراض النقود وأعمال المصارف، إذ يقل فيها احتمال الإعتداء على الأحياء إلى أقصى حد.. وكان اشتغالهم بهذه الأعمال سبباً في ثرائهم الكبير واحتلالهم منزلة رفيعة بين أبناء جنسهم الكبير.

على أن الثراء الذي وصلوا إليه لا يضيع عبثاً. فقد كان لهم الفضل في النهوض بفن المعمار.. إذ يحب أثرياؤهم صرف الأموال على بناء المعابد لأبناء عقيدتهم.. حتى أصبح في الهند الآن ما يقرب من أربعين ألف معبد بعضها غاية في الروعة والجمال، ويعتبر معبدهم فوق جبل «آبو» من عجائب الهند السبع.

وهم لا يكتفون ببناء المعابد والصرف عليها.. بل يخصصون البيوت القديمة للأبقار ويجعلون منها مستشفيات للحيوانات المريضة.. كما يجعلون من بعض غرفها عنابر للطيور المصابة والحشرات التي تحتاج إلى اهتمام.

وإذا كانت هذه العقيدة عجيبة لمن هم خارج الهند، إلا أن الدين يعشون بين أتباعها يجدونهم قوماً غاية في الرحمة والعطف والنقاء.

فالإيمان بعقيدتهم عميق صارخ.. يكيف تصرفاتهم في كل ما يفعلونه.. حتى أن الجيني يضع في أول واجبات كل يوم أن يحسن ولكن دون أن يفكر في أن ما يفعله إحسان.. وإنما هو واجب إعطاء المحتاج كل ما يمكن أن يعطيه إياه.. وعندما يذهب الجيني إلى المعابد، حيث يصلي أمام تماثيل سادته الأربعة والعشرين، فإنه يدعو بالسلام والإبتهاج لجميع المخلوقات قبل أن يطلب أي فضل لنفسه.. وليس ما يطلبه لنفسه الثراء أو المجد، بل هبة النيرفانا. وغالباً ما يبدأون صلاتهم قائلين:

إلى السيد جيناندرا شرى شانتى
المعبود من جميع العالم
واهب السلام والبهجة..
أحني رأسي المتواضع الحقير
لكي يمنح السلام الدائم
لجميع الكائنات على الأرض.
وكل ما أتمناه أن أحصل بفضله على أسمى هبة في الوجود
وهي النيرفانا.. آمين.

المصلحون الدينيون

عزلة الكلب، وتأمل الكركي..
ترتيل الحمار، واستحمام الضفدعة.
كيف تكون أحسن حالا..
إذا لطخت جسمك بالرماد؟
عليك أن تركز فكرك في الله وحده،
أما عن بقية ما تصنعه..
فالحمار يستطيع التمرغ في الوحل كما تفعل.
أيمكن لتلطيخ الجسم بالرماد الأبيض،
أن يذهب برائحة وعاء الخمر؟
أيمكن لحبل تلفه حول عنقك،
أن يجعل منك إنساناً جديداً؟
لماذا نرى واجبا علينا،
أن نسيء إلى طبقة المنبوذين؟
أليس المنبوذ مثلنا في لحمه ودمه؟
ومن أي طبقة عسى أن يكون الإله،
الذي يحل جسد منبوذ؟
إن من يقول «إني لا أعلم شيئاً»
هو أبلغ الناس وأكثرهم حكمة.

فيماتا الشاعر

على رأس شيفا..

فأر يقرض الأرز!

إذا كان بوذا وماهافيرا قد أقاما عقيدتين جديدتين، إلا أنهما نجحا بغير شك في المهمة التي بدآها وهي إصلاح وتحسين الهندوكية عقيدة الهندوس. وعندما رأى البراهمة كيف أصبح الكثيرون من الناس أتباعاً لبوذا وماهافيرا، خشوا أن يهجر جميع المؤمنين والهندوكية عقيدتهم القديمة إلى العقائد الجديدة.. فعمل الكهنة على إبقاء الهندوس محافظين على الهندوكية بأن قبلوا بعض تعاليم البوذية والجانتية وضموها إلى عقيدتهم البرهمية..

ولكن حدث منذ ثمانمائة عام أن وصل الإسلام إلى الهند.. وكان الفاتحون العرب يؤمنون بأن دينهم للبشر كافة.. وثار بالهندوس الرعب وحاولوا طرد العرب المسلمين.. ولكن هؤلاء استقروا ونشروا دينهم. ولم ينقض وقت طويل حتى أصبح للإسلام عدد كبير جداً من الأتباع والأنصار..

وبدلا من أن يبشر المصلحون الهندوكيون ضد عبادة الأصنام، بدأوا يدرسون الإسلام، ووجدوا فيه اعتقاداً يحبونه كثيراً وهو الاعتقاد بوجود إله واحد. وأرضى هذا الاعتقاد المصلحين الهندوكيين واستهواهم، وحاولوا أن يدخلوا التوحيد في عقيدتهم القديمة البرهمية.. ومن هنا ظهرت المذاهب الجديدة التي خرج بها المصلحون أمثال «كبير» و«ناناك» و«ديانندا»..

★ ★ ★

عقيدة كبير

وقفت الأم حائرة لا تدري ما تصنع بالولد الصغير بين يديها.. فما تصورت من قبل قط أن سيأتي يوم تواجه فيه الحياة بغير مال ولا زوج.. عدا ذلك الغلام اللطيف الذي فقد أباه قبل ذلك بأيام.. على أن حيرة الأرملة الشابة لم تكن لتدوم طويلا.. فما أسرع ما انحنت لتضعه في . سلة.. وتضع السلة فوق سطح ماء تلك البركة الصغيرة التي يغمر وجهها زهور اللوتس البيضاء.. ثم تمضي وكأن شيئاً لم يكن بين يديها قط..



ومضت الساعات والسلة تروح وتجيء قرب الشاطىء.. لا يدري بها أحد حتى انتصف النهار أو كاد.. وعندئذ مر بجوار البركة نساج مسلم اسمه «نيرو» ومعه زوجته المسماة «نيما». وسمع الزوجان تلك الصرخات الرقيقة التي تصدر من داخل السلة.. وامتلأ قلبها عطفاً على الصغير الذي يسبح بسلة في الماء غير مدرك لشيء.. وأطل كل منهما إلى الآخر وكأنه يخشى أن يصارح صاحبه بما يريد. غير أن الرجل فهم ترحيب زوجته التي لم تنجب أطفالا من قبل.. فألقى بنفسه في ماء البركة.. ثم راح يسبح حتى بلغ السلة الصغيرة فسحبها.. ثم انطلق بها نحو الشاطئ..

ولم تكد السلة تفتح حتى فوجئ الزوجان بطفل صغير كأنه البدر يرضع إصبعه.. وأطلت الزوجة إلى رجلها وهي تقول:

– ماذا نحن فاعلان به يا نيرو؟

أجاب نيرو: سنأخذه إلى بيتنا.

واحتجت نيما قائلة:

– كيف نستطيع أن نفعل ذلك؟ وما الذي يمكن أن نقوله عندما نذهب إلى البيت ويأتي الجيران إلينا ليسألونا «من هي أم هذا الطفل الجميل الذي تشبه عيناه زهرة اللوتس؟» لماذا تجيب على هذا السؤال..؟

قال نيرو:

- ليكن هذا صحيحاً.. ولكن كيف نرضي لأنفسنا أن نترك مثل هذا الطفل نهباً للجوع وشبح الموت.. إننا إذا تركناه هنا فسيموت..

وهكذا كان.. واصطحبت نيما وزوجها، الطفل الصغير إلى بيتهما وسمياه «كبير».. وقاما بتربيته كأحسن ما يربى الإبن..

ومضت بضع سنين. وأرسل النساج «طفلهما» إلى أفضل المعلمين. في بنارس. وأحب كبير دراسته.. حتى إذا ما بلغ السادسة عشرة كان قد تعلم الكثير من أصول الإسلام والبرهمية.. ولكن أهم ما أثار اهتمامه كانت تعاليم شاعر اسمه «راماناند».

وكان راماناند يبشر بأنه ليس هناك سوى إله واحد، وأن هذه الحقيقة هي أكبر صديق للبشر، وأن الحياة البسيطة هي الطريق إلى النيرفانا.

ودرس كبير تعاليم راماناند وكتب عنها أشعاراً كثيرة، في نفس الوقت الذي كان أبوه لا يزال يعلمه كيف يصبح نساجاً، ويمهد له الزواج من فتاة كان قد أحبها وهما لا يزالان صغيرين بعد..

وأصبح كبير نساجاً بارعاً، وعالماً حاذقاً، وأبا صالحاً أيضاً. ولم ينس وهو في غمرة عمله اليومي أن ينظم أشعاراً يضمنها أفكاره وآراءه فيما يجب أن يؤمن به الناس ويصنعوه من أجل حياة أفضل..

وملأت شهرة كبيرة جميع الآفاق كشاعر عظيم.. ولكنه ظل يعمل نساجا بسيطا يكسب قوته بنسجه..

وذات يوم ذهب كبير إلى نهر الجنجز حيث يستحم آلاف الهندوكيين من أجل أن يغسلوا الآثام ويتطهروا من الرذائل. وعلى شاطىء النهر وقف يتأمل الآثمين.. وهم يتطهرون. واقترب منه كاهنان برهميان وراحا يتحدثان معه عن تعاليم راماناندا وفكرته في الإله الواحد.. وقال أحد الكاهنين:

«لقد وجدنا آباءنا وأجدادنا منذ أجيال طويلة يعبدون عدة آلهة.. فكيف يمكن أن نتصور وجود إله واحد فحسب..؟»



وأجاب كبير وهو يبتسم: «إذا غابت الشمس تلألأت النجوم».

وسأله الكاهنان: «ما الذي تعنيه بذلك؟»

قال كبير: «أعني أنه طالما أن الناس يجهلون المعرفة الحقة لإله واحد. فهم يجدون أنفسهم مرغمين على عبادة عدة آلهة صغيرة. فإذا كنتم تعبدون بضعة آلهة من الحجارة، فكل الحجارة جاءت من الجبل.. ولهذا سأعبد الجبل..»

قال الكهنة: وكيف نستطيع أن نطعن في آلهة أجدادنا؟»

أجاب كبير: «إن حجارة الطاحون التي يطحن بها الناس غلاتهم لخير من كل معبودات أجدادنا المصنوعة من حجر»

وطال الجدل والنقاش، وظمئ خلاله أحد الكاهنين، فتناول كبير فنجانه وأغطسه في النهر وقدمه للكاهن ليشربه. غير أن الكاهن أبي أن يمد يده إلى الفنجان.. لأن كبير كان من طائفة أدنى من طائفته. وبراهمة الهند يعتقدون أنه محرم على من كان من طائفة عليا أن يأكل أو يشرب من وعاء لمسه أحد أفراد الطبقة السفلى..

وسأله كبير: «إذا كان ماء نهر الجنجز لا يستطيع أن يطهر فنجاني فكيف أصدق أنه يستطيع تطهير آثامكم؟ إنكم تظنون أيها البراهمة أن لمسكم الآخرين يصيبكم بالقذارة.. لهذا فأنتم مغرورون متكبرون.. ولن تجديكم كبرياؤكم أبداً..»

واستدار كبير.. وانطلق بعيداً عن البرهميين.. وقد وضع في رأسه أن يبذل كل ما يستطيع ليؤكد للناس جميعاً أنهم أخوة.. لا فرق بين برهمي وكاهن وتاجر ومنبوذ..

وعلى أساس هذه الدعوة الجديدة.. أحاط الناس بكبير.. وأصبح له عدد كبير من المريدين والأتباع.. وذاع صيته وانتشرت أسفاره التي نظمها

حاملة عقيدته الكاملة. ولكنه برغم ذلك كله ظل يكسب قوته من عمله كنساج.. وظل يقول للناس أنه حتى الرهبان والكهنة عليهم أن يعملوا لكسب القوت، لا أن ينتظروا ويتسولوا حتى يعولهم الآخرون..

وعرف الناس حقيقة العقيدة التي يبشر بها كبير.. لقد كان أساس ما يدعو له هو أن يتخلى الناس عن الزهو والكبرياء.. وأن ينبذوا نظام الطائفية.. وأن يهجروا الأصنام وعبادتها.. وأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له.

ومضت السنون. ومات كبير فجأة وهو في ماجهار.. وقد بلغ التاسعة والسبعين.

وعندما مات.. قال البراهمة إنه منهم لأنه ولد برهميا.. بينما قال المسلمون إنه منهم لأنه نشأ نشأة إسلامية.. وعندما خلعوا الغطاء عن جسده قبل الدفن- كما تقول الأسطورة- وجدوه مغطى بأكليل من الزهور..

والحق لقد ترك كبير وراءه أكليلا من الزهور.. هي تعاليمه ووصاياه التي ضمنها أشعاره..

وجمع مريدوه حكمه وأشعاره في كتاب سموه «بيجاك» وسموا أنفسهم، أتباع طريقة كبير ويبلغ عددهم الآن مليونا من الهنود.

* * *

عقيدة السيخ

منذ أربعمائة وثمانين عاماً.. وعندما كان كبير لا يزال في الثلاثين.. أنجب هندوكي نبيل وزوجته الصالحة في مدينة تالوندي بإقليم لاهور بالهند.. ولداً اسمه ناناك..

وكما حدث مع كبير من قبل.. اهتم ناناك بدراسة الدين.. ولكنه كان يكره أن يقوم بأي عمل.. حتى أن أباه عجز عن أن يجعله يعمل من أجل

أن يكسب القوت.. وقالت أمه لأبيه: «لعله إذا تزوج وأصبحت له أسرة يعولها، يجد نفسه مرغماً على العمل».

واقتنع أبوه بالفعل.. فزوجه. ولكن الفتى ظل كارهاً للعمل حتى برغم أن أباه وجد له عملاً كموظف حكومي.. فإن الفتى بدلا من أن يذهب إلى عمله كل صباح.. كان ينطلق إلى الغابات يحلم أحلام يقظته، ويفكر في عقيدة شعبه، ويقرأ أشعار رامانانند وكبير..

وذات يوم بينما هو في الثلاثين.. عاد ناناك من الغابة ليدخل بيته ويعلن أنه قذ أصبح «الجورو».

وسألته زوجته: «ولكن.. ما هو الجورو؟»

قال لها ناناك: «الجورو هو معلم العقيدة الجديدة»

وسأله أبوه: «وما هي هذه العقيدة الجديدة التي تعلمها؟»

أجاب ناناك: «لبس هناك هندوكية ولا إسلام»

وقالت أم ناناك: «كيف تستطيع أن تقول مثل هذا القول؟ ألا ترى أن في بلادنا ملايين من الهندوكيين وملايين من المسلمين؟»

أجاب ناناك في ضيق: «إن ما أقصده هو أن تعاليم البرهمية خطأ.. وأن تعاليم الإسلام خطأ أيضاً».

وسأله أبوه «فمن هو صاحب التعاليم التي هي على صواب؟»

وبدأ ناناك يشرح تعاليمه الخاصة بالإله الواحد.. وبأنه لا توجد هناك طوائف.. وبأنه من الإثم أن يعبد الناس الأصنام.

وقال أبوه: «لست أرى فارقا بين تعاليمك وتعاليم كبير»

أجاب ناناك: «إن كبير يعلم الناس أن عليهم ألا يأكلوا اللحم.. ولكني أعلم أنه من الممكن أن يأكله الناس بشرط أن يذبح الحيوان الذي يؤكل لحمه بضربة واحدة من سيف. ثم إني أعلم أيضاً أنه لكي يعبد الناس الإله الواحد الحق لابد لهم من إمام هو الجورو.. وأنا أول جورو في عقيدتي الجديدة.. وسأخرج في البلاد وأبشر بها بين الناس».

وانطلق ناناك بالفعل- ومعه تابعه موردانا- يتجول في جميع الأنحاء.. وكلما دخلا سوقا أو التقيا بجماعة كبيرة من الناس في أي مكان، وقف ناناك وانطلق موردانا يغني ويرتل، حتى إذا أحاط الناس بهما نهض ناناك يتحدث إليهم ويبشر بعقيدته التي تقوم على التوحيد والمساواة كالمسلمين كما تقول بالتناسخ كالهندوس.

وراح ناناك يجوب بلاد الهند من سيلان في أقصى الجنوب إلى كشمير في أقصى الشمال.. وبلاد العرب في الغرب.

وفي السبعين مات.

وخلفه في إمامة العقيدة «انجاد» الذي أصبح الجورو الثاني.

ولما مات انجاد خلفه ثالث معلما لأتباع ناناك..

وجمع الجورو الخامس- وهو الجورو أرجان- أقوال ناناك وعظاته وأشعار رامانانند وكبير في كتاب واحد سماه «صاحب المواهب» أصبح هو الكتاب المقدس لأتباع ناناك.. الذين سموا أنفسهم بالسيخ.. أي المريدين.



وحاول جورو أرجان أن ينشر العقيدة التي بشر بها ناناك.. ولكن زعماء العقائد الأخرى لم يحبذوا تعاليم السيخ واعترضوا على عمل أرجان التبشيري..

وراحت زعامة الشيخ تنتقل من واحد إلى آخر حتى تولاها كروكنبدر سنج، الذي صرفه همه الديني إلى تدريب أتباعه عسكريا، ومكث بهم عشرين سنة في جبال الهيملايا ليتعودوا حياة الخشونة والحروب.. ثم نزل بهم إلى البنجاب لتدور بينه وبين حاكمها المسلم حروب طويلة امتدت اثني عشر عاما وهلك فيها آلاف من زهرة أتباعه السيخ.. وبعد فترة من الهدوء عاد القتال من جديد حيث دارت معركة رهيبة عند حصن «لوكره» انهزم فيها السيخ وخمدت ثورتهم، وأنزل بهم الحاكم انتقاماً رهيباً كان هو السبب في ازدياد العداء وتمكنه في قلوب السيخ للمعلمين.

ولا يزال السيخ حتى الآن- ويبلغ عددهم عشرة ملايين- فخورين بتاريخهم كمقاتلين. ومن السهل تمييزهم عن الهندوكيين بخمسة أشياء يعتبرونها من شعائر عقيدتهم:

● الشعر الطويل إذ أنهم يطلقون شعورهم ولا يعتدون على أية شعرة في جسمهم، حتى أنهم يلفون شعر رؤوسهم تحت عمامة يتميزون بها حتى الأطفال في المدارس..

● المشط الخشبي الطويل في شعرهم.

● السوار المعدني الخفيف حول المعصم على أساس أنه يذكرهم بالله.

● الخنجر القصير ذو الحدين الذي يحملونه دائماً.

● السراويل البيضاء القصيرة تحت الملابس بخلاف عامة أهل الهند الذين لا يلبسونها ويكتفون يلبس السراويل الطويلة البيضاء.

والسيخي عادة يمشط شعره مرتين كل يوم، ويستحم كثيراً ويقرأ كتابه المقدس يومياً، كما أنه يحرم الدخان على نفسه، بل ويضيق برائحته. ويترك مكانه إذا دخن أحد بجواره..

والمدينة المقدسة للسيخ هي «امرتسار» حيث أقيم فيها معبد اسمه «المعبد الذهبي في بركة الخلود» وهو من أجمل معابد الهند ومن أروع المباني في العالم. ويأتي السيخ إلى هذا المعبد لتقديم الصلوات «لصاحب المواهب» المقدس.. وكتابه الموضوع في تقديس فوق المذبح الكبير.

* * *

عقيدة النبلاء

ظهر بعد ذلك عدة مصلحون آخرون في الهند.. أهمهم رجل ولد منذ مائة وعشرين عاماً فقط هو ابن هندوكي من أعلى الطوائف.. واسمه «دياننداا».

وعندما بلغ دياننداً سن التكليف ووضع الخيط المقدس، أرسل إلى خيرة المعلمين الذين راح يدرس على أيديهم أصول اللغة والدين طوال ستة أعوام، عاد بعدها إلى بيته ليفخر أبوه بما حصل عليه ولده من العلم والمعرفة.

وفي ذلك العام أراد له أبوه أن يصوم صيام «شيفاراتي» ولم يكن الطفل يجهل أصول هذا الصيام.. فهو يعلم أن جميع الهندوكيين ممن يعبدون الاله شيفا يصومون صيام شيفاراتي.

وانطلق دياننداً وأبوه ليلة الصوم الأولى إلى المعبد.. ووضعا الأرز والزهور فوق تمثال شيفا.. ثم جلسا بين المتعبدين الآخرين للاشتراك في الترتيل.

وارتفع صوت المرتلين في قوة ووضوح.. ثم تتابعت أصوات أخرى بعد ساعات تردد ألحانا من «الفيداس المقدس».

واقترب الليل من منتصفه، وبدأ التعب يسيطر على بعض المتعبدين، وغلب النعاس البعض الآخر، وراح الجميع يتثاءبون وأصبحوا يجدون صعوبة كبيرة في الإبقاء على عيونهم مفتوحة. وتحول الترتيل همهمة كنسمة تهب ليلا بين شجيرات صغيرة.



ولاحظ دياننداً رأس أحد المتعبدين وهو يهوي على صدره من أثر النعاس. ونام متعبد آخر بجواره، وتبعه ثالث ورابع. وتلفت ديانند حواليه فرأى الكثيرين وقد راحوا في سبات عميق.. حتى أبوه كان قد نام هو الآخر.. ولم يعد هناك سوى همهمة خفيفة أقرب ما تكون إلى السكون.

وفجأة سمع دياننداً صوت قرض يشبه قرض الفأر..

والتفت الفتى بسرعة إلى مصدر الصوت، واتسعت عيناه دهشة.. فهناك، فوق رأس الاله شيفا نفسه.. جلس فأر صغير يقرض الأرز الذي كان المتعبدون قد قدموه قرباناً للاله..

قال ديانندا: «إذا كان شيفا إلها حقاً.. أليس في قدرته حتى أن يطرد فأراً عن رأسه؟»

وأجاب أبوه وهو ينتفض: «لا تسأل مثل هذه الأسئلة فالكافر فقط هو الذي يسأل.»

ولكن ديانندا لم يقتنع بهذا الجواب.. فقد أثبت الفأر الصغير له أن شيفا لم يكن أكثر من حجر لا قدرة له على أي عمل على الإطلاق..

وهمس ديانندا وهو ينهض: «أبداً.. لن أعبد هذه الأصنام بعد الآن».

وغاد إلى البيت.. وأفطر.. ثم نام..

ومنذ ذلك اليوم بدأ ديانندا دراسة العقائد المختلفة الأخرى ليبحث فيها عن حقيقة ما يؤمن به الناس..

وقالت أمه: إذا تزوج ديانندا وأصبحت له أسرة يعولها، فلن يجد وقتاً لدراسة كتب العقائد الأخرى..

ووافق أبوه. واختاروا له عروساً جميلة. ولكن ديانندا لم يوافق على الزواج، وظل يؤجله أسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر.

غير أن أباه أكرهه آخر الأمر على تحديد تاريخ للزواج، وأعدت له معدات الزفاف..

ولكن حدث قبل الموعد المحدد للزواج بأيام، أن اختفى ديانندا، ولم يره أحد من أهله قط..

وهناك بعيداً.. كان ديانندا ينطلق في رداء راهب متسول.. باحثاً عن معلم يمكن أن يهديه إلى حقيقة الدين. وأخذ ديانندا يجوب أنحاء الهند لعدة أعوام يدرس مع علماء عديدين، ولكن لم يجد في تعاليم واحد منهم ما يرضيه. ولم يجد بداً آخر الأمر أن يذهب إلى شاطىء نهر الجنجز ليدرس مع الرجال المقدسين المتجمعين حول أقدس الأنهار.. فهو يعلم أن أحداً

منهم لن يستطيع أن يكذب.. لأن من يضع في يده بضع قطرات من ماء النهر لا يمكن أن يكذب قط.

ومضى دياننـدا إلى شاطىء الجنجز. ووجد بين المعلمين الدينيين رجلا يكره الأصنام مثله.. فارتاح إليه وقرر أن يدرس معه الحقيقة..

وقال المعلم لدياننـدا: «هل سمعت بجماعة ألن؟»

أجاب دياننـدا: «نعم.. هي تلك الجمعية التي نظمها الراجا راموهان روى في نفس السنة التي ولدت فيها».

قال المعلم: «هذا صحيح.. ففي السنة التي ولدت فيها لم يكن راموهان راضياً عن جميع تعاليم البرهمية. ولقد كان عالماً عظيماً درس اللغة العربية والفارسية والسنسكريتية والعبرية، كما درس الإنجيل المقدس لدى المبشرين المسيحيين الذين جاءوا إلى بلادنا لنشر عقيدتهم. ووجد في ذلك الكتاب بعض التعاليم التي رضى عنها كثيراً وحاول أن يدمج هذه التعاليم في عقيدتنا».

وقال دياننـ[illegible]ذن [illegible]. أدرس إنجيل المسيحيين».

وظل عامين يدرس إنجيل المسيحيين وتعاليم راجا راموهان. واقتنع بعد دراسة العامين بأنه يجب على المرء ألا يؤمن بآلهة متعددة بل باله واحد فحسب.. وبأنه ليست هناك طوائف بالميلاد، بل أن هناك من يولدون أكثر شقاء من الآخرين. كما آمن أيضاً بأن من يندم ويتوب فإن الله يغفر له خطاياه، ولكنه إلى جانب ذلك كله ظل مؤمناً بنظرية التجسد والنيرفانا كما بشرت بها البرهمية عقيدة الهندوس..

وانطلق دياننـدا بعد أن اتضحت في ذهنه كل هذه الآراء – انطلق في جميع أنحاء البلاد يعلم وينظم من تبعوه في طائفة سماها «آرياساماج» ومعناها «جمعية النبلاء». وبرغم أن دياننـدا لم يعش بعد ذلك سوى ثمانية أعوام.. إلا أن أتباعه حملوا الرسالة من بعده.. وانتشر أمر جمعيتهم في

جميع أنحاء الهند حتى بلغ عدد أتباعها اليوم ما يقرب من سبعين مليونا من الرجال والنساء.

* * *

أرض الديانات

وهكذا أصبح في الهند الآن عدة عقائد وعدة طوائف دينية. هناك مض اليهود وكثير من المسيحيين. وهناك ملايين من المسلمين، وبوذيون وجانتيون وسيخ واتباع كبير، وهناك أيضاً أعضاء جمعية النبلاء وطائفة البرهمية.. كما أن هناك في المناطق الجبلية عبدة الأشجار والأنهار والأرواح.. وقليلا من أتباع زرادشت..

ولكن أكبر عدد من الهندوكيين الآن- أي ما يزيد على ٢٥٠ مليونا- لا يزالون يدينون بعقيدتهم القديمة.. البرهمية.. بأشكالها المتعددة. ولا يزالون يؤمنون بقدسية الطوائف. وبعد أن كانوا يؤمنون بأن عدد هذه الطوائف لا يتجاوز الأربعة.. أصبح عددها الآن ١٩ ألف طائفة. أما الآلهة.. فبعد أن كانوا في الزمن القديم يعبدون ٣٣ إلها فقط هي آلهة الطبيعة، أصبح لديهم عدة مئات من الآلهة.. حتى أن بعضهم لا يزال يؤمن حتى اليوم بعبادة الثعابين.. كما أن بعضهم يؤمن بآلهة وأصنام متعددة الرؤوس متعددة الأقدام متعددة الأيدي.. ومعبودات أخرى لها رأس الفيل أو رأس النسر.. كما أن هناك كثيرين يعبدون الأبقار والثيران كما يعبد آخرون القردة..

على أن الصورة الأخيرة للهندوكية لم تعد تشبه كثيراً تلك التي كانت تعيش في الماضي.. فما أكثر الطقوس القديمة التي اختفت. بل إن الواقع أنها اختفت كلها فيما عدا طقوس الزواج والوفاة. أما علاقة الإنسان الهندوكي بالحيوانات فقد اختفت كثيراً عن ذي قبل.. وإن كان لا يزال هناك عدد من العائلات الهندوكية تقدس الأبقار إلى الآن.. حتى أن آلافا بل ملايين

من الأبقار المقدسة لا تزال تسير في شوارع المدن الرئيسية تأكل كما تشاء دون أن يتعرض لها أحد. كما أنه من بين الأشياء الأخرى التي لا تزال باقية أن الحجاج الهندوس لا يزالون يذهبون بالآلاف كل عام إلى النهر المقدس.. الجنجز.. ليتطهروا من الذنوب والآثام.

وبرغم ذلك فالروح الجديدة التي بدأت تظهر في الهند خلال الأعوام المائة الماضية تؤكد أن الهندوكية الحديثة تختلف كثيراً عن القديمة.. فكثير من المظاهر التقليدية بدأت تخبو وتتلاشى.. كما أن المنبوذين الذين لم يكونوا يجرؤون على لمس أحد ولم يكن أحد يجرؤ على لمسهم، فقد أصبحوا يتمتعون بكثير من الآدمية.

وقد كان غاندي من أحسن المعلمين الذي اثروا في الثقافة والعقيدة الهندوكية. فقد كان يؤمن بأنه لكي تحصل على حقك يجب أن تلجأ إلى الوسائل السلمية وأن تبتعد عن العنف.. وتلك هي أساس نظريته التي آمن بها بعد أن تعمق في أغوار كل معتقدات بلاده ثم خرج منها بتعاليمه الجديدة التي أصبحت ترضي الجميع وتلائم بين كل الاتجاهات وخلقت عقيدة جديدة في الهند تقوم على المفهوم الإنساني واحترام حقوق الإنسان.



فقــير هنـدي يمارس عملية التعذيب النفسي فيقف رافعاً ذراعه بهذا الشكــل فــلا يخفضــه أبداً...!



رقصـــة مقدسة.. لإرضـاء آلهة الخير. في بنارس.



تمثال من الخشب للإلهة كوان- بن

الكونفوشيوية

عقائد الصين واليابان

القسم الثالث

● إذا عرفت شيئاً،
فتمسك بأنك تعرفه.
وإذا لم تعرفه فأقر بأنك لا تعرفه،
إن ذلك في حد ذاته معرفة.
● إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس،
فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم؟
● إذا كنت لا تعرف الحياة،
فكيف يتسنى لك..
أن تعرف شيئاً عن الموت؟
● إذا حرصت على أداء واجبك،
وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية،
مع احترامك إياها،
أمكن ان تسمى هذه حكمة.
● استمل الصالحين المستقيمين،
وانبذ المعوجين..
وبهذه الطريقة يستقيم المعوج.

« كونفوشيوس »

من الخير يأتي الخير
ومن الشر يأتي الشر

يعتقد الصينيون أنه قبل خلق العالم، لم يكن هناك شيء.. لا شيء على الإطلاق..

واستمر ذلك وقتاً طويلاً.. ثم ظهر شيء.. ومن هذا الشيء خلق «بان‌كو».

ولم يذكر لنا تاريخ الصين كم عاش «بان‌كو». ولكن قيل أنه كان غاية في القوة، له رأس تنين، وجسد أفعى، وأنه استطاع أن يشكل العالم حوالي عام ٢,٢٢٩,٠٠٠ قبل الميلاد، بعد أن ظل يكدح في عمله هذا ثمانية عشر ألف عام. وعندما مات تجمعت أنفاسه فصارت ريحاً وسحباً، وأضحت أناته الأخيرة الرعد، وأصبح الدم في عروقه الأنهار، وعرقه الأمطار، وعظامه الصخور، وأسنانه المعادن، وشعره الغابات والأشجار، ولحمه الأرض، ورأسه الجبال.. وأصبحت عينه اليسرى الشمس، وعينه اليمنى القمر.. أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين..

انقاذ العالم

وهكذا تمت قصة الخلق.. ثم تعاقب على الأرض ملوك سماويون حكم كل منهم أكثر من مائة عام.. جاهدوا أشد الجهاد ليجعلوا من «قمل» بان‌كو خلائق متحضرين، بعد أن كانوا كالوحوش الضارية يلبسون الجلود، ويقتاتون باللحم النيء، ويعرفون أمهاتهم ولكن لا يعرفون لهم آباء..

ومن بين هؤلاء الملوك السماويين «فوشى» الذي عاش حوالي عام ٢٨٣٨ قبل الميلاد.. ويعتبر في بعض قصص الصينيين هو خالق البشر- قمل بان كو- ومعلمهم الأول.



وكانت لفوشى أخت سماوية هي نوكواشى.. لها جسم ثعبان ورأس آدمي.. يعتبرها الصينيون منقذة هذا العالم.. فقد حدث أن «رب العقاب» المسمى هونج كنج قد بالغ في القسوة والطمع حتى دخل في صراع دموي مع رب الغابات حيث تغلب عليه.. ثم استمر في عدوانه حتى اصطدم بشوشنج أحد مساعدي هوانج تي الذي أصبح فيما بعد إله النار. وفي هذه المعركة الجديدة هزم رب العقاب.. فثار غضبه، وضرب الجبل برأسه فانشق.. ولم يكد ينهار حتى تساقطت أعمدة السماء وانهدمت اركان العالم.

وهنا نهضت نوكوا فأذابت أحجار خمسة من ألوان قوس قزح، وأعادت إصلاح أعمدة السماء، وقطعت أقدام السلاحف لتلصق بصمغها أركان الأرض.. وجمعت رماد الهدم وكدسته لتوقف به فيض الماء..

وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض..

* * *

عبادة الطبيعة

والحق.. لقد كان الصينيون الذين عاشوا منذ عدة آلاف من السنين عبدة للطبيعة تماماً كأغلب الشعوب القديمة.. وأهم عناصر تلك العبادة الخوف من خوارق الطبيعة، وعبادة الأرواح الكامنة في جميع الأنحاء، وتقديس ما على الأرض من صور رهيبة وما لديها من قدرة على الإنتاج والتوالد، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة. بل لقد كان الصينيون يعدون الشمس والمطر من عناصر الوئام والارتباط بين ما فوق الأرض من حياة وما في السماء من قوى خفية

قادرة.. ومن هنا عبدوا الريح والرعد والأشجار والجبال والأفاعي.. وآمنوا بأن لكل من هذه المقدسات روحاً يجب أن تعبد.. وأصبحت أعظم أعيادهم هي الأعياد التي تقام لمعجزة «النماء».. حيث يحتفل الشبان والفتيات بأيام الربيع فيرقصون ويتضاجعون في الحقول وفي الخلاء، ليضربوا المثل لأمهم الأرض في الإخصاب والإنتاج..

وكان الصينيون يحملون الحقائق الواقعية المادية بخوارق الطبيعة. فكانوا يحسون أن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم في الهواء المحيط بهم، وفوق الأرض التي تحت أقدامهم. وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية، وأن يستعينوا عليها بالأدعية والرقى السحرية. فراحوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن المستقبل باستخدام أصداف السلاحف وتأمل حركات النجوم، كما أستاجروا السحرة ليوجهوا منازلهم نحو الريح والماء، وتعاملوا مع العرافين ليتنزلوا لهم نور الشمس وماء المطر. بل لقد بلغ بهم الأمر حد أنهم كانوا يعرضون للموت من يولدون من الأطفال في أيام النحس، أما البنات، فكن إذا توقدن حماساً وغيرة يقتلن ليجلبن الخير أو الشر لآبائهن..

شانج تي والإله الأعظم:

على أنه برغم ذلك كله آمن أهل الصين القدماء بوجود حاكم أعلى واحد فوق كل الأرواح وفوق كل الناس.. اسمه شانج تي.. هو القوة العليا المسيطرة على العالم.. وقالوا أنه عادل لدرجة أنه مهما صلى له الأشقياء فلن يقبل العفو عنهم أبداً..

ولكن شانج تي- مع كل ذلك- لم يكن الإله الأعلى والأعظم في اعتقاد الصينيين.. فالإله الأعلى.. سيد كل الآلهة..إله اسمه تيان.. هو السماء..

وكانت الطريقة التي عرف بها الصينيون تيان إله الآلهة غاية في البساطة.. والتسلسل المنطقي.

فالمطر الذي تشتد حاجتهم إليه لري حقول الأرز.. ينزل من السماء.



والسحب التي تحمل المطر الذي تشتد حاجتهم إليه.. تأتي هي الأخرى من السماء..

والريح التي تدفع السحب التي تحمل المطر الذي تشتد حاجتهم إليه.. تهب أيضاً من السماء..

والرعد والبرق اللذان يفتحان السحب التي تدفعها الريح ليتساقط المطر.. موجودان في السماء..

وحتى قوس قزح الذي يظهر بعد سقوط المطر والذي يستطيع الجميع ان يروه دون أن يلمسوه.. يبدو هو الآخر في السماء..

إذن فمن المؤكد أن تيان رب الأرباب موجود هو الآخر في السماء..

وما دام الأمر واضحاً بهذا الشكل فلماذا لا يعبد الناس ذلك الرب الأعلى الذي يعيش في السماء وهو غاية في العدل، إلى جانب عبادتهم لأرواح الشمس والقمر والمطر والنار والرعد والجبال والأنهار..؟

عبادة الأسلاف:

ولكن.. هل اكتفى الصينيون القدماء بكل هذه العبادات؟ بل.. لقد عبدوا أرواح أسلافهم أيضاً..

فإذا مات رجل عبد أبناؤه روحه كما عبده أحفاده.. وحتى أبناء احفاده وأحفاد أحفاده عليهم أن يعبدوا ذكراه..

ولم يكتف الناس بعبادة أرواح آبائهم وأرواح أجدادهم وأرواح أباء أجدادهم وأرواح أجداد أجدادهم فحسب.. بل عبدوا كذلك أرواح كبار الحكماء والأبطال الوطنيين.. وعبدوا بصفة خاصة أباطرتهم الذين كانوا يعتبرون دائماً مقدسين..

★ ★ ★

على أن واحداً من أكبر الحكماء ظهر بعد ذلك ليكون أعظم هؤلاء القديسين..

وكان ذلك منذ ألفين وخمسمائة سنة عندما كان يعيش في إقليم لو بمنطقة تشو على مقربة من نهر هوانجهوا.. رجل اسمه شوليانج هيه.. من أسرة جونج.

وكان تشوليانج هيه من سلالة ملكية. وكانت له القيادة على منطقة شو بالقرب من النهر الأصفر غير بعيد من البحر الأصفر..

وتحدث الناس عن القائد نشوليانج هيه. وكان من بين ما تحدثوا به عنه ما حدث عندما كان يتولى القيادة وحاصر بجيشه قلعة أحد أعدائه.

فقد حدث أن ترك تشو مدخل القلعة مفتوحاً، واندفع الكثيرون من رجاله في ذلك المدخل. وعندما أصبحوا داخل القلعة لجأ العدو على الفور إلى إنزال الأبواب ليحصر جنود شو داخل القلعة. وعندئذ اندفع البطل تشوليانج نحو الأبواب الضخمة الهائلة ودفعها بيديه وظل يرفعها حتى مر جميع رجاله عائدين ناجين من الفخ الرهيب..

وكان مثل هذا الرجل القوي يصبح في العادة محل إعجاب عظيم في الصين في تلك الأيام، فقد كانت الإمبراطورية الصينية وقتئذ مقسمة إلى ولايات صغيرة يحكم كلا منها أمير أو شريف.. وكان كل منهم لا يرعى إلا مصالحه الخاصة. وكانت تلك الأيام سيئة في تاريخ الصين. وكان كل رجل قوي شجاع يستطيع أن يساعد أميره، ينال التقدير والإعجاب ويشتد الطلب عليه..

من أجل هذا كان تشوليانج هيه يستطيع أن يكون رجلاً سعيداً جداً.. ولكنه لم يكن كذلك.

فقد كان تشو متزوجاً وله تسع بنات.. والبنات عندما يكبرن يتزوجن

ويعبدن أسلاف أزواجهن كما تقضي التقاليد. وكان تشو يريد - كما يريد كل فرد من أبناء شعبه - أن يكون له ولد يعبد روحه بعد مماته. ولهذا لم يكن تشوليانج هيه سعيداً قط. ولكنه عندما بلغ السبعين من العمر أهدته زوجته الجديدة الصغيرة «تشينج تساي» ولداً سماه تشيمو. وكان ذلك في عام ٥٥١ قبل الميلاد.

وعندما بلغ تشيمو الثالثة من العمر، مات أبوه تشوليانج هيه..

وأصبح تشيمو يتيماً وهو في سن الثالثة.. يعيش في إقليم تشو بولاية لو.. التي تسمى الآن شانتونج بجوار البحر الأصفر المقدس..

أمين مخازن الحبوب

برغم أن شوليانج هيه كان حاكماً لإقليم تشو.. إلا أنه عندما مات ترك زوجته ضحية لفقر مدقع. ومع ذلك فقد استطاعت الأرملة أن تدبر أمر تعليم ابنها الوحيد تعليماً طيباً. وعندما أثنى معلموه على اهتمامه بالدراسة وفهمه للأشياء التي كان الكبار أنفسهم يجدون صعوبة في فهمها امتلأت نفسها سعادة وفرحة..

واستمر تشيمو كونج يواصل دراسته.. ويواصل معها نموه العقلي وحكمته التي راحت تتزايد وتشتهر في جميع أنحاء الإقليم الذي يعيش فيه، حتى بدأ الناس يتوافدون من كل مكان ليتبادلوا معه الحديث وينصتوا إلى ما يقول.

وإذ بلغ التاسعة عشرة تزوج.. وأنشأ بيتاً.. في نفس الوقت الذي منح فيه وظيفة أمين مخازن الحبوب.

وبالرغم من أنه كان صغيراً جداً عندما أسندت إليه تلك الوظيفة.. إلا أنه أدخل عليها الكثير من التحسينات، إلى حد أن رقاه حاكم المقاطعة إلى وظيفة المشرف العام على الحقول.

وكان المنصب الجديد بالغ الأهمية بالنسبة لشاب في العشرين.. ومع

ذلك فقد تمنى أن يتخلى عنها لكي يكرس كل نفسه وجهده لدراسة الشعر والموسيقى.. غير أنه عجز عن تحقيق الأمنية لأن زوجه وضعت في ذلك الوقت مولوداً جعله يقرر الاحتفاظ بمركزه ليعول الأسرة التي بدأت تنمو وتكبر..

ولكن كل ذلك لم يشغله عن الأهتمام بالأمنية التي أرادها.. فبرغم الواجبات اليومية الكثيرة للمشرف على الحقول التي كانت تشغل كل وقته، إلا أنه كان يقضي جزءاً كبيراً من وقت الفراغ الذي يبقى له، في دراسة التاريخ والموسيقى والشعر. وزادت معرفته يوماً بعد يوم، وذاع صيته في طول لـو وعرضها..

وعندئذ قرر الاشتغال بالتعليم..

المعلم:

وعندما قرر ذلك لم يجد سوى بيته ليكون المدرسة التي يلقي فيها الدروس على مريديه.. وليكون بعد ذلك ملتقى لأهل العلم في كل المنطقة، فصبح البيت لا يخلو أي أمسية من أناس من مختلف الأعمار يأتون إلى



كونج يستفسرون ويسألونه وينتقون منه الصواب في كل الأمور. وما كان أكثر سعادته وهو يحس أنه يعلم ما يعرفه لأولئك الذين في حاجة إلى العلم.. ولو كان ذلك بغير مقابل.. ولو كان ما يدفعه التلاميذ عادة في الصالة والقبة مهما كان عددهم.

وكان الكثيرون من الناس الذين يأتون إلى بيت المشرف الشاب يسمونه كونج - فو - تشي.. أي كونج الفيلسوف.. ومن هنا بدأ تحريف الإسم ليطلق عليه الناس بعد ذلك كونفوشيوس..



وسارت الأمور سيرها الطبيعي مع الحكيم كونفوشيوس حتى بلغ الثالثة والعشرين.. ثم حدثت المفأجاة.

فقد ماتت أمه تشينج نساي..

وكان موتها سبباً في كثير من التغيرات التي طرأت على حياته منذ ذلك اليوم..

وكانت أول هذه التغيرات ان استقال كونفوشيوس من منصبه كمشرف على الحقول..

ومنذ تمت استقالته لم يصنع شيئاً قط سوى أن يندب أمه.. وبلغ به الحزن حد أن أهمل زوجته إهمالاً كاملاً.. أدى بعد ذلك إلى الأنفصال.

وهنا بدأ كونفوشيوس يتطور من جديد.. وراح يكرس كل وقته لدراسة تاريخ شعبه وشعر ذلك العشب وفلسفته. ولكنه لم يكن ينسى في كل تلك الأوقاف أمه الراحلة.. بل راح يقضي الشهور الطويلة إلى جانب قبرها يتأمل الحياة كما يتأمل الموت..

وعندما انتهت ايام الحداد التي كتبها على نفسه وحددها بثلاث سنوات لم يعد إلى وظيفته الحكومية. بل مضى في دراسته وبدأ يعلم التلاميذ هذه المرة كوسيلة لكسب العيش..

وانتشرت شهرة كونفوشيوس كمعلم عظيم، إلى حد أن التلاميذ أصبحوا يجيئون إليه من جميع أنحاء إقليم- لو- ومن الأقاليم البعيدة عنه. وأخذ عدد تلاميذه ينمو ويزداد يوماً بعد يوم، حتى إذا بلغ الرابعة والثلاثين من عمره أصبح له أكثر من ثلاثة آلاف تلميذ ، ريد.

في ذلك الوقت مرض رئيس وزراء إقليم «لو» مرضاً شديداً.. وعرف أنه قد قارب الوفاة. واستدعى أكبر أبنائه إليه.. وقال له:

«يا بني.. لقد كان حظي من التعليم في أيام شبابي ضيئلاً.. وظللت طول حياتي آسفاً لهذه الحقيقة.. وأنا أريد منك أن تجد في الدرس والتحصيل وتصبح متعلماً تعلياً كافياً على يد خير المعلمين».

وأجابه ولده: «سمعاً وطاعة يا أبي».

قال الأب: «لقد سمعت بعلم اسمه كونفوشيوس لا نظير لحكمته في بلادنا.. اذهب إليه يا بني وتعلم على يديه..».

ووعده ولده..

وعندما مات الأب بر الابن بوعده، وانطلق لبتعلم على يدي كونفوشيوس. وعن طريق ابن رئيس الوزراء أصبح أمير «لو» صديقاً للحكيم.. مما زاد في انتشار سمعته وشهرته في جميع الأنحاء..

وحدث أن نشبت حرب أهلية في إقليم «لو».. واضطر الأمير الى الهرب من وطنه لينجو بحياته. واضطر كونفوشيوس للهرب هو الآخر إلى إقليم «تسي» المجاور. غير أن الحكيم ضاق بالعيش خارج وطنه.. فلم تكد الحرب تنتهي حتى عاد إلى «لو» وواصل تعليمه.

في ذلك الوقت كان «لي» ابن كونفوشبوس قد كبر.. ولكنه جاء مخيباً لآمال أبيه..

فذات يوم جاء الابن إلى أبيه وهو وحده بالبهو. فأطل إليه الأب وقال: «هل تدرس الشعر يا لي؟»..

أجاب الفتى في خجل: «كلا».

وقال أبوه في حزم: «إن الذي لا يدرس الشعر إنما يكون كمن يدير وجهه للحائط.. فهل الذي يدير وجهه للحائط يرى شيئاً جميلاً؟».

عندئذ أشاح كونفوشيوس بوجهه حزيناً آسفاً..

غير أن أمله إذا كان قد خاب في ولده.. إلا أن عزاءه كان في التلاميذ الذين أحبهم حباً كبيراً.. وتنبأ لهم بمستقبل عظيم..

ومضت السنوات.

الحكيم:

وعندما بلغ كونفوشيوس الثانية والخمسين.. كان قد قام بدور كبير جداً في تعليم أبناء الصين.

ولكنه عندما كان يقوم بدور المعلم.. لم يكن يفعل ذلك كواحد من الأنبياء أو القديسين، الذين تتجلى لهم الرؤى أو تهتف بهم الهواتف

السماوية، لتأمرهم بدعوة الناس إلى الحق وسلوك الطريق المستقيم.. بل كان حكيماً من الحكماء، اطلع على كتب الأولين واستخلص ما فيها، وأراد أن يقدم للناس خلاصة سهلة مفهومة لما تحويه هذه الكتب وما استطاع بحكمته وتأملاته أن يخرج به من الحياة.

وكان تعليم كونفوشيوس كتعليم سقراط.. شفهياً لا يلجأ فيه إلى الكتابة. وجرت عادته على التنقل من مكان إلى مكان، وفي صحبته نفر من التلاميذ والمريدين، يستوحون آراءه. ومن هنا كانت الحوادث التي تصادفهم عرضاً في الطريق هي التي توحى بموضوع الحديث..

من بين ذلك ما حدث عندما التقى كونفوشيوس في طريقه بامرأة تصرخ وتستغيث، فلما سألها عن سبب بكائها وعويلها في هذه الصحراء الجرداء أجابته:

- إن نمراً مفترساً قتل والد زوجي في هذا المكان. كما افترس نفس النمر زوجي ثم تبعه بولدي الصغير.

وسألها كونفوشيوس: لماذا تبقين في هذا المكان القفر بما فيه من نمور؟

أجابت المرأة: لأنه لا يوجد هنا حاكم ظالم.

وعندما سمع كونفوشيوس تلك الإجابة استدار نحو تلاميذه وقال لهم: «اكتبوا عندكم أيها التلاميذ.. إن الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس».

وكان كونفوشيوس يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة والانتباه. وكان يقول:

«إذا لم يكن من عادة المرء أن يسأل نفسه: ماذا أرى في هذا الشيء؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً».

وقال لتلاميذه ذات يوم:

«ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم، دون أن



يجهد عقله في شيء.. لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذ عنه غيره، ثم يعيش إلى أرذل العمر.. إن هذا الإنسان وباء».

على أن كونفوشيوس جهد أن يستبعد من برامجه الدراسية الموضوعات التصلة بتمجيد البطولة الجسمانية، والأعاجيب والثورات وخوارق الطبيعة، كما كان يتحاشى الدخول في مناقشات تتصل بالكائنات غير المنظورة.

وكان شديد العطف على الحيوان، حتى أنه كان لا يتخذ إلا الملابس المصنوعة من الكتان على الرغم من انتشار الأقمشة الحريرية. وعندما سأله أحد تلاميذه في ذلك قال: «أنا لا استبيح لنفسي أن أقتل دودة القز لأستولي على نسجها وأصنع منه ردائي».

وسأله تلاميذه: «لماذا لا تشرب اللبن؟».

فأجاب: «لأن اللبن من حق الرضيع من البهائم والسائمة».

وقال لتلاميذه ذات يوم: «أنا أفخر بأني لم أستعمل قط شبكة لصيد السمك، ولم أرم طائراً بسهم.. إلا إذا كان هذا الطائر محلقاً في الفضاء، حتى تكون لديه فرصة الهرب أو النجاة».

وكان كونفوشيوس معلماً من الطراز الأول يعتقد أن التنائي عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم. وكان شديد المراعاة للمراسم. وكذلك قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه. وكان يبذل ما في وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعيدته المتزمتة الصارمة. وقال مرة: «قد أكون في الأدب مساوياً لغيري من الناس.. ولكن خلق الرجل الأسمى الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد».

أما تلاميذه فكانوا يقولون عنه: «كان المعلم مبرأ من أربعة عيوب.. كان لا يجادل وفي عقله سابق رأى.. ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائده.. ولم يكن عنيداً.. ولم يكن أنانياً..».

* * *

قاضي القضاة:

كان كل شيء في مدينة « جونج دو » غارقاً في الفساد والجريمة.. الناس لا يأمن واحد منهم على بيته ولا امرأته.. الشر هو صاحب السلطان الأول، والخيانة هي الطريق الذي يرتاده كل إنسان، والسرقة هي أساس التعامل بين كل السكان..

وكان لا بد لعلاج الأمر أن يحدث شيء خارق. وأطل كل الناس حولهم فلم يجدوا ما يمكن أن يأتي بالمعجزة. ولكن فجأة.. خطر لأحدهم خاطر: لماذا لا نسأل ذلك الحكيم الذي يتحدث عنه الناس ليهدينا إلى المعجزة..!؟

ووافقه جمع كبير.. وانطلقت الجماعة كلها تبحث عن كونفوشيوس..

وهناك.. بعيداً، التقوا برجل ذي رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة.. في وجهه جد ورهبة يزيدهما قبحا شفتان كبيرتان كشفتي الثور، وفم واسع كالبحر.. وجبهة عريضة فوق عينين واسعين تبعثان الرعب.. وبدا للجميع رهيباً بقامته الطويلة التي لا تقل عن تسعة أقدام، وظهره المقوس الشبيه بظهر سلحفاة.. ومنظره الكئيب وكأنه الكلب الضال.

وعرفوا في العملاق الواقف أمامهم.. الحكيم كونفوشيوس. وتقدم أهالي المدينة من الحكيم وقالوا له:

« قد سمعنا بحكمتك الغالية يا كونفوشيوس.. ومدينتنا في أشد الحاجة إلى وجودك لإنقاذها من فنون الشر التي تجتاحها.. فهل ترضى أن تجيء معنا لتكون قاضياً للقضاة.؟ ».



وكان مركز قاضي القضاة شبيهاً بمركز العمدة..

وفكر كونفوشيوس طويلاً قبل أن يرد بالإيجاب.. وعندما قبل أحاطت به الجماهير، وانطلق الموكب يدخل المدينة دخول الفاتحين..

ومضت شهور قليلة..

وكان الذي يدخل المدينة بعد ذلك يجد عجباً. فبعد أن كان الشر

هو كل شيء.. اجتاحت المدينة موجة جارفة من الشرف والأمانة.. واستحت الخيانة والفساد أن يطلا برأسيهما فاختفيا، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال.. وأصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء.. وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى، وأصبح كونفوشيوس معبود الشعب..

وزير الجريمة:

وسمع أمير «لو» بهذا الذي حدث في إحدى مدن ولايته. فأرسل يستدعي الرجل الذي اعتبره صاحب المعجزة.. وقال الأمير:

– لقد سمعت أنك منذ أصبحت قاضياً لقضاة جونج دو قلبت نظامها كله رأساً على عقب..

أجاب الحكيم: إن ما سمعته هو النبأ الصحيح أيها الأمير.

قال الأمير: ولقد قيل لي أنك منذ شغلت هذا المركز أصبح أهل مدينتك سعداء مخلصين.. فكيف وصلت إلى ذلك في مثل هذا الوقت القصير...؟

قال الحكيم: كنت أكافيء الصالحين وأعاقب الأشرار. ورأى الناس أنه من الخير أن يكونوا صالحين فيكافئوا، عن أن يكونوا أشراراً فيعاقبوا.. وهكذا تحولوا جميعاً إلى قوم صالحين. والصالحون يخلص بعضهم لبعض وللحكومة.

وسأل الأمير: ولكن كيف جعلتهم سعداء؟

قال كونفوشيوس: أخذت الحكماء لتعليمهم والعناية بهم كما لو كانوا أطفالاً.. وإذا كان من الصعب أحياناً أن تجعل الناس يفهمون، فإنه من السهل دائماً أن تجعلهم يتبعون المثل.. وعندما يتبعون مثل الطيب الحكيم يصبحون سعداء.

وسأل الأمير: هل يستطيع المرء أن يحكم إقليماً كاملاً بنفس الطريقة التي حكمت بها مدينتك؟

أجاب الحكيم: بل وامبراطورية كاملة.

وعندئذ، هز الأمير رأسه.. ثم طلب إلى الحكيم أن يصبح وزير الجرائم في كل إقليم «لو».

ولم يكد كونفوشيوس يتولى منصبه حتى أخذ يدرس حال السجون في الإقليم، ونوع الناس الذين يملأون تلك السجون في جميع أنحاء البلاد.. ولم يكد يمر وقت، حتى دعا كونفوشيوس كل القضاة والمحامين وحراس السجون وقال للجميع:

- لقد درست سجوننا وتبينت أن أغلب المسجونين عندنا من الفقراء أو أبناء الفقراء.. وتبينت أيضاً أن أغلب هؤلاء المسجونين جهلة أو أبناء جهلة. ويبدو لي أن الفقر والجهل يدفعان الناس الى ارتكاب الجرائم والخروج على القوانين. فإذا قضينا على الفقر والجهل لما وقعت في بلادنا جريمة.

وسأله أحد القضاة: وكيف نقضي على الفقر والجهل؟

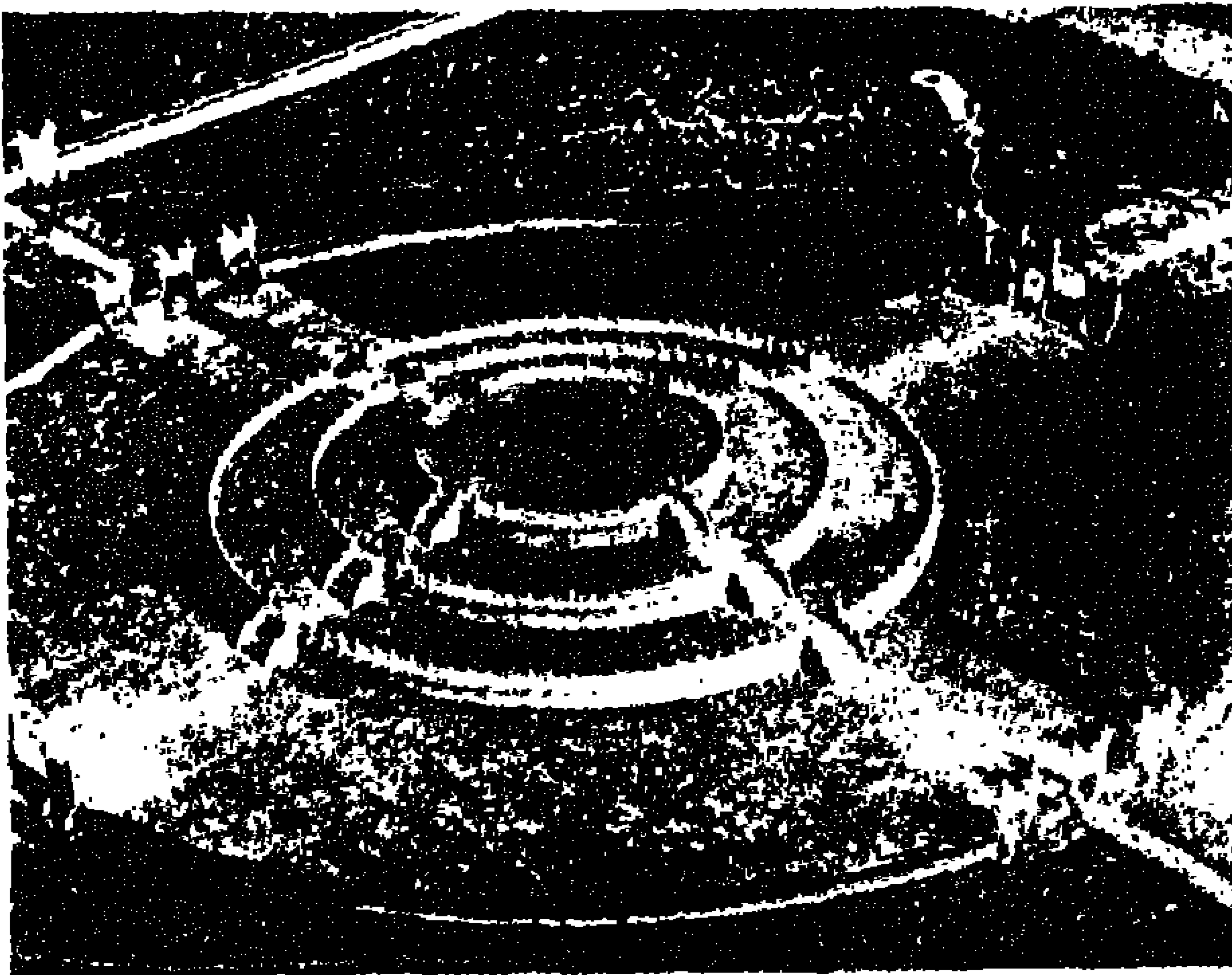
أجاب كونفوشيوس: طريق القضاء على الجهل هو طريق التعليم. فإذا علمنا جميع الناس في إقليمنا قضينا على الجهل. ونستطيع القضاء على الفقر بتعليم الناس الصناعات والحرف بحيث يمكن أن يكسبوا عيشهم بشرف.

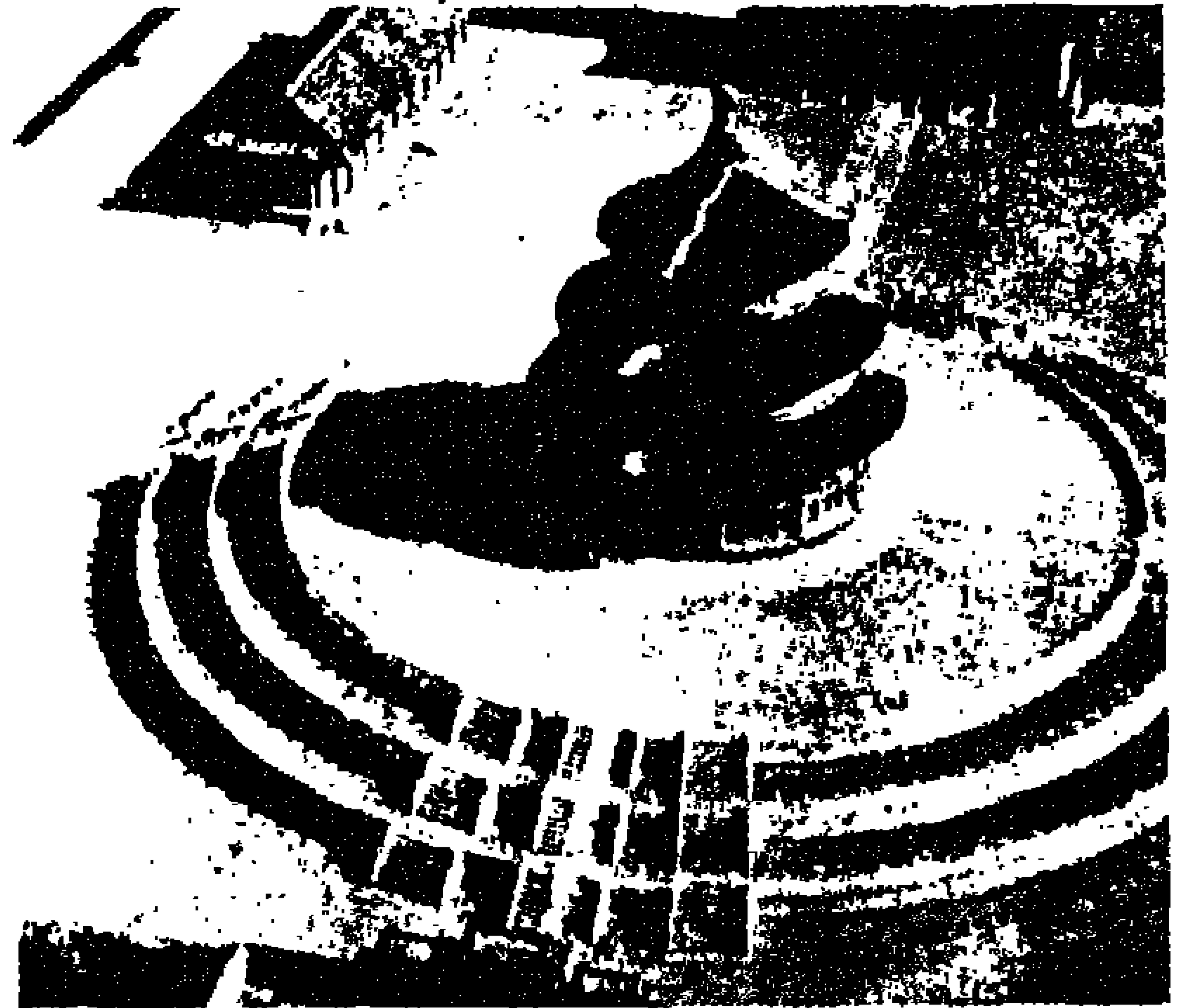
وسأله قاض آخر: وكيف نبدأ هذا التغييرات؟

أجاب الحكيم: أنتم حكامهم. ومن واجبكم أن تكونوا قدوة صالحين. فالناس في حاجة إلى حكام يستطيعون أن يتبعوهم. فإذا كان الحكام فاسدين أصبح الناس هم الآخرون فاسدين. ولكن إذا كان الحكام صالحين فسيحذو الناس حذوهم ويصبحون صالحين. فأول قاعدة للصلاح هي ألا تفعل للآخرين ما لا تحب أن يفعلوه لك.



كونفوشيوس.. حكيم لو





معبد السماء في بكين.. حيث يقدم أباطرة الصين القرابين للآلهة



الإلهة نوكواشي منقذة الأرض التي أقامت أعمدة السماء..

كونفوشيوس... يلقي دروسه على تلاميذه وأتباعه في الخلاء.





روح الخير التي تخلى الطريق
إلى السماء..

الحكـــيم كونفوشيوس.. في
أواخر أيام حياته..





الثالوث الداوي المقدس:
يو- شنج وشانج شنج وتاي شنج



أقدس القديسين..

وما انقضى عامان من حكم كونفوشيوس كوزير للجريمة حتى خلت السجون والمحاكم جميعاً في إقليم لو.. لم يعد للقضاة شيء يفعلونه.. ولا للمحامين شيء يقومون به.. ولا لحراس السجون شيء يؤدونه.. لأنه لم يعد في إقليم لو شيء اسمه مجرمون.

في ذلك الوقت.. كان الذي يحكم إقليم «لو» أمير شاب اسمه تينج. وكان النجاح الذي أحرزه كونفوشيوس دافعاً للأمير الشاب على أن يجعله مستشاره في جميع شئون الحكومة.. وكانت استشاراته غاية في الدقة حتى أن الإقليم أصبح أكثر الأقاليم غنى وأعظمها قوة..

المؤامرة:

وكان لا بد أن يدب الحسد في نفوس الأمراء والوزراء بالأقاليم المجاورة التي خشيت على نفسها من قوة «لو» الناهضة. وقال بعضهم للبعض الآخر:

- إن إقليم لو، وكونفوشيوس على رأس حكومته، سيصبح أغنى وأقوى أقاليم الإمبراطورية.. أما من سبيل لوقف هذا الانتشار؟

وقال أحد الوزراء:

- إذا استطعنا أن نغري الأمير بعدم الإنصات إلى مشورة كونفوشيوس.. فعندئذ سيعود الأمير فقيراً سيئاً كما كان من قبل.

وسأل وزير آخر:

- ولكن كيف نستطيع أن نجعل الأمير الشاب يكف عن الإنصات لمشورته؟

وفكروا في الأمر طويلاً.. واستطاع وزير ماكر من وزراء تشي ان يعثر أخيراً على المكيدة التي يفرق بها بين أمير لو وكونفوشيوس.. فأشار بأن يبعث أمير تشي إلى تنج بسرب من حسان الفتيات المغنيات، وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالاً.

ولم يكد الأمير تنج يتلقى هذه الهدايا حتى راح يقضي كل وقته يشهد السباق والحسان يحطن به.. وأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالاً معيباً. وتبين كونفوشيوس أنه كلما جاء إلى القصر ليذكر الأمير بواجباته وما يجب أن يؤديه من أعمال قيل له أن الأمير غائب أو لا يريد أن يلقاه..!

ولم يمض قصير حتى تحول إقليم لو المزدهر ليصبح فقيراً من جديد.. وامتلأت السجون التي طالما خلت من نزلائها بالمسجونين مرة أخرى.

ورأى كونفوشيوس أن كل عمله الطيب قد انهار.. فملأه الحزن، وقرر أن يبرح موطنه الذي لم يعد له مكان فيه.. وقال وهو يمضي لأتباعه: إذا وجدت حاكماً يصغي لي سنة واحدة لتحقق حلمي عن دولة يكون كل الناس فيها خيرين سعداء..

* * *

بين تسي لو وتشانج جو

خرج كونفوشيوس وقليل من مريديه المخلصين مغضوباً عليه من وطنه.. وانطلق مع صحبه يبحث من جديد عن حاكم عادل يريد أن يتعلم كيف يجعل قومه صالحين سعداء... وخلال تجواله من إقليم لإقليم، لقي كونفوشيوس ألواناً من المجاملة والترحاب.. تماماً كما لقي صنوفاً من الحرمان والأذى. وهاجمه وصحبه الرعاع مرتين. وكادوا في يوم من الأيام يموتون جوعاً. وبرح بهم ألم الجوع حتى شرع «تسي لو» نفسه يتدمر ويقول إن حالهم لم يعد يليق بالإنسان الراقي.

وذات يوم.. وصل كونفوشيوس وأتباعه إلى مكان نهر أرادوا ان يعبروه. وقال كونفوشيوس لتسي لو: اذهب إلى ذلك الشيخ الذي يفلح الحقل هنا واساله أين يمكن أن نجد قاربا نعبر به هذا النهر.. فقد يعرف ويدلنا..

وعندما مضى تسي لو واقترب من الجرل.. عرف فيه تشانج جو.. أحد النساك الذين عافت نفوسهم مفاسد ذلك العهد واعتزلوا الشئون العامة وآثروا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة المدينة. وعرف الناس من يكون تسي لو.. وقبل أن يسأله تسي لو عما يريد بدأه الناسك قائلاً:



- إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف.. فهذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذا الحال؟ أليس خير لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله فتصبحوا نساكا، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج بكم متنقلاً من إقليم إلى آخر؟

ومضى الناسك يواصل عمله في الحقل، وسكت تسي لو عن أن يسأله عن القارب الذي يريد أن يعبر به النهر.. وعاد الى كونفوشيوس الذي قال بعد أن فكر طويلا في هذا الكلام:

- إن شانج جو مخطىء فيما يقول.. فإنه ليس بالهرب من الشر يستطيع المرء أن يغيره الى الأحسن.. وإذا كان الناس جميعاً خيرين سعداء لما كانت بي حاجة الى تقويمهم. إنه من واجب كل إنسان ان يحاول الهرب من حيث توجد المتاعب.. بل إنه من الجبن ان يرى الإنسان ما هو صواب ولا يحاول أن يفعله..

وتبين أتباع كونفوشيوس كم كانت طريقته أكثر حكمة من طريقة ذلك الناسك.

* * *

تعاليم كونفوشيوس:

مضى الحكيم ومريدوه في الطريق خمسة عشر عاماً جديدة باحثين عن حاكم يبحث عن الخير والسعادة لشعبه فلم يجدوا واحداً.. وعندما عاد كونفوشيوس مرة اخرى إلى موطنه بعد أن تولى حكم لو حاكم جديد.. كان الحكيم قد أصبح كهلاً في التاسعة والستين.

وطلب الأمير الجديد من كونفوشيوس أن يصبح كبير مستشاريه، غير أن الحكيم كان قد قرر أن يقضي سنوات عمره الباقية في عزلة أدبية منصرفاً إلى كتابة الشعر ونشر روائع الكتب الصينية القديمة وكتابة تاريخ الصينيين. وكان كونفوشيوس يرجو أن يستطيع عن طريق كتبه أن تنتقل أراؤه إلى جميع أنحاء الصين وأن يعمل أتباعه ومريدوه على نشر تعاليمه.

وكان اهم ما يحب كونفوشيوس بحثه ومناقشته هو أهمية التعليم، إذ كان يعتقد أن المعرفة هي أهم شيء في العالم.. وكان يقول:

«كنت في الخامسة عشرة من عمري منكباً على العلم. وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع. وفي الأربعين زالت عني شكوكي. وفي الخمسين عرفت أوامر السماء. وفي الستين كانت أذني عضواً طيعاً لتلك الحقيقة. وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق العدل والصواب».

سأله أحد تلاميذه يوماً: هل من الصواب أن يكون المرء محبوباً من جميع جيرانه؟

قال الحكيم: كلا..

فسئل: هل من الصواب إذن أن يكون المرء مكروهاً من جميع جيرانه؟..

قال كونفوشيوس: كلا.. ولكن الأفضل أن يحبه الخيرون من جيرانه.. وأن يكرهه الشريرون ممن هم في جواره.



وسأله تابع: هل من الصواب الرد على الإساءة بالأخرى؟

أجاب بحدة: وبأي شيء إذن تجزي الإحسان؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة.. وليكن الإحساس جزاء الإحسان.

وقيل له: وما هي الفضيلة الكاملة؟

أجاب كونفوشيوس: الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك.

والحق لقد كان كونفوشيوس مستعداً دائماً للرد على أية أسئلة تتعلق بكيفية الحياة، وماذا يجب أن يفعله الناس فيها، وكيف يمكن للمرء أن يصبح إنساناً صالحاً. ولكنه في نفس الوقت كان يرفض الرد على أسئلة تتعلق بالإله أو السماء أو الحياة الأخرى.

وعندما سئل هل يظن أن هناك حياة أخرى بعد الموت أجاب: إذا كنا لا نعرف شيئاً عن الحياة فكيف نعرف شيئاً عن الموت وما بعد الموت؟

ولكن.. كما كانت هناك أشياء لا يحب أن يتكلم فيها.. فقد كانت هناك أشياء كثيرة يتوق إلى مناقشتها. وكان يستمتع بأي حديث عن طرق الصلاح وعن الشعر والموسيقى.

سأله أحد أتباعه: ما هو الحب؟

أجاب: حبك للبشر هو الحب.

فسئل: ولكن ما هو؟

قال كونفوشيوس: الاعتزاز بالجهد اكثر من الاعتزاز بالثمرة يمكن أن يسمى بالحب. إنه مجرد استمتاع بعمل شيء دون نظر إلى ثمرة هذا العمل التي يمكن الحصول عليها في النهاية.. هذا هو الحب.. وعمل الخير دون نظر إلى مكافأة عنه في هذه الحياة أو في حياة أخرى مستقبلة.. ولكن لمجرد الاستمتاع بعمل الخير.. هذا هو الحب.. فالحب ثمرة نفسه، والحب يجعل الأشياء تبدو جميلة.. والحب يخلق السلام..

وفكر كونفوشيوس برهة ثم قال: «إن القلب الذي يعمر بالحب لا يخطىء».

* * *

وفاة الحكيم:

شاخ كونفوشيوس. وإذا كان قد بذل قصارى جهده في الكتب التي كان يجمعها ويؤلفها، فإن فكرة الفقر والشقاء المنتشرين في جميع أنحاء الصين كانت تثير حزنه.

وبينما كونفوشيوس في السبعين، إذ مات ابنه «لي» تاركاً ولداً اسمه «كيغ» يشبه جده إلى حد كبير. وعاش الحفيد مع الجد وتلقى العلم على يديه.. وكان مثار متعة وسعادة كبرى للفيلسوف الشيخ.

وذات يوم، بينما كونفوشيوس في الغرفة وحده يعمل في كتاب عن التاريخ اسمه «الخريف والربيع»، إذ دخل كيغ الغرفة بهدوء. وعندما شهد جده غارقاً في العمل سكت، وظل على سكوته حتى كف جده عن العمل وتنهد بجهد. وجلس الحكيم في هدوء وقال يخاطب حفيده الذي أجلسه بجانبه:

- في كل مدينة رجال لهم من الفهم مثل ما لي. ولكنني عندما أتلقى سؤالاً عن نفسي أتعمقه حتى أفهمه. وهناك كثير من الرجال يماثلونني حكمة ولكن القليلين هم الذين يحبون أن يتعلموا.

وسكت الحكيم فسأله حفيده:

- لديّ سؤال.. كيف يسير المرء نحو حياة صالحة؟

قال كونفوشيوس: ابغ الصواب. واستمسك بالكسب الصالح. واسترح في الحب. وتحرك في الفن.. هذه هي طرق الحياة الصالحة.

وساد سكون. ثم عاد كونفوشيوس يعمل.. ليموت بعد ذلك بهدوء. وكان العام هو ٤٧٨ قبل الميلاد..

وعندما ذاع نبأ موته عم الحزن لوفاته في جميع انحاء الصين.. حتى الحكام الذين أهملوه حياً احتفلوا بإحياء ذكراه..

وأعلن تلاميذه وأتباعه الحداد على موته ثلاثة أعوام كما لو كان أباهم..

بل بني بعضهم أكواخاً صغيرة على مقربة من قبره ظلوا فيها طوال أيام حزنهم يدرسون تعاليمه ويحيون ذكراه.

* * *

واستمرت الكونفوشوسية تخترق طريقها..

مذهب إنساني:

على أنه إذا كان البعض لا يعتبرها أكثر من منهج خلقي أو أسلوب من أساليب الحياة، إلا أنه ما من شك في أنها استطاعت أن تقوم تماماً بالدور الذي يمكن أن يقوم به أي دين سماوي. فقد استطاعت أن تؤدي جميع الوظائف التي يرجى أن يؤديها أي دين من الأديان..

والواقع أن كونفوشيوس نفسه كان رجل دين تمثلت فيه جميع العقائد الصينية القديمة. وكان أتباعه ومريدوه رجال الدين بكل ما في هذه الكلمة من معنى، برغم ابتعاد تعاليمه عن ذكر كل ما يتعلق بالسماء والطقوس والآلهة. وهو إذا كان قد تجاهل هذه الأسس التي يفترض أنها أسس كل دين ومظاهره الرئيسية، فهو لم يفعل ذلك عن استخفاف، ولكنه كان يرى أنها ليست من جوهر الدين في شيء.

فالعقيدة التي جاء بها كونفوشيوس وعمل على نشرها وتطبيقها تدخل بالفعل تحت ما يسمى بالمذهب الإنساني. فهو أول إنساني ظهر في العالم وأساس تعاليمه ألا يعتمد الإنسان على أي كائن علوي أو أية قوة غير منظورة يطلب منها العون والتوفيق في حياته. بل على المرء أن يصل إلى ما يتمناه من مراتب التقدم والسعادة عن طريق ذاته فحسب، ويكون ذلك بتثقيف نفسه وتهذيبها، لأن المعرفة الصحيحة هي وسيلة الحياة السعيدة الهائنة. والمعرفة الصحيحة هي التي تخلق الرجل السعيد الموفق، وهي التي تخرج العائلة الصالحة والحكومة العادلة، وهي التي تؤدي بوجه عام إلى خلق عالم تسوده العدالة والمحبة والسلام.

وكان يقول: «إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الإمبراطورية، بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم. ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدأوا بتنظيم أسرهم. ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدأوا بتطهير قلوبهم. ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم. ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع.. وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن الحقيقة».

ثم يتسأنف كونفوشيوس:

«فلما أن بحث هؤلاء عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً. ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم. فلما خلصت أفكارهم. تطهرت قلوبهم. ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم. ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم. ولما انتظمت شئون اسرهم صلح حكم ولاياتهم. ولما صلح حكم ولاياتهم أصبحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة».



تلك هي أسس العقيدة الكونفوشيوسية، وهي أكمل مرشد للحياة الإنسانية. وفي نفس المعاني يقول كونفوشيوس.

«إن العالم في حرب لأن الدول التي يتألف منها فاسدة الحكم. والسبب في فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعي الطبيعي الذي تهيئه الأسرة والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعي الطبيعي لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوموا أنفسهم.. وهم يعجزون عن تقويم نفوسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم، أي أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة. وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين في تفكيرهم لا يقدرون الحقائق ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها. وهم لا يخلصون في تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على

توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع ببحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء.

* * *

الحكيم منشيس:

بعد انقضاء مائة عام على وفاة كونفوشيوس.. ولد في إقليم «لو» طفل اسمه مانج كو.. بذلت أمه من أجل تربيته ونشأته جهداً ضخماً.. حتى أنها بدلت مسكنها ثلاث مرات من أجله.. بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة فبدأ الصبي يسلك مسلك دافني الأموات.. وبدلته في المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبح. فبدأ الغلام يجيد تقليد أصوات الحيوانات المذبوحة، ثم بدلته في المرة الثالثة لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق فشرع الصبي يسلك مسلك التجار.. ثم وجدت آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها.

وكانت أمه مثالية حقاً.. كانت إذا أهمل الغلام دروسه قطعت الخيط المقدس.. لتقول له عندما يسألها أنها تتلف الخيط تماماً كما يفعل هو نفسه بإهماله وعدم مثابرته على الدرس.. وكان ذلك التصرف يخجل الصبي، فاضطر إلى الجد في طلب العلم.. وظل على ذلك الجد حتى كبر وتزوج، ثم افتتح مدرسة لتعليم الفلسفة أحاط به فيها جمع من الطلاب آمنوا بآرائه وتعاليمه، وكانوا نواة للعدد الضخم من المريدين الذين أحاطوا به بعد، خاصة عندما انتشرت تعاليمه التي هاجم فيها الأمراء والوزراء وحكام الصين الظالمين، الذين لم يفكروا قط في شيء اكثر من مصالحهم الشخصية مهما كان ذلك ضد مصلحة المحكومين.

وكانت تعاليمه استمراراً لتعاليم كونفوشيوس..

وأطلق عليه تلاميذه اسم مانج- دزي أي مانج الفيلسوف.. وهو نفس اللفظ الذي تحول بعد ذلك ليكون منشيس.

وأرسل إليه الأمراء من مختلف الفطاعات يدعونه ليناقشوه في نظرياته عن الحكم.. وكان أول من انطلق إليه هو الأمير شوان حاكم مقاطعة تشي.. حيث طلب إليه أن يحكم البلاد طبقاً لتعاليم كونفوشيوس، ظناً منه أن الأمير على استعداد للتقويم ما دام يحب الفلسفة. ومن أجل محاولة إصلاح الأمير قبل منشيس أن يتولى منصباً فخرياً في القصر، ولكن دون أن يحصل على مرتب له. غير أن المحاولة لم تجد قط. ووجد الحكيم أن الأمير لا يعني بالفلسفة أبداً.. فلم يكن بد من أن يجمع الحكيم أتباعه ويمضي منطلقاً إلى إمارة تانج الصغيرة، حيث وجد في حاكمها تلميذاً مخلصاً وإن يكن عاجزاً ضعيفاً. ولم يجد الحكيم سبيلاً لإصلاح الأمير.. فعاد مرة أخرى إلى تشي حيث قبل في هذه المرة منصباً ذا مرتب كبير عرضه عليه الأمير شوان.. بعد أن اقتنع الحكيم أنه لن يستطيع تنفيذ آرائه إلا بوجوده في ذلك المنصب ذي النفوذ والسلطان.



على أن الأمر لم يطل كثيراً.. فسرعان ما اختلف الحكيم مع الأمير عندما تورط حرب أراد بها التوسع والغزو بينما أشار الحكيم عليه بالدعوة إلى السلام. وعندئذ انطلق منشيس من جديد بعيداً عن تشي، ليواصل التجوال في جميع أنحاء الإمبراطورية بحثاً عن حاكم عادل يرغب في أن يحكم شعبه طبقاً لتعاليم كونفوشيوس..

الفضائل الخمس:

وحيثما حل منشيس كان يقابل باحترام عظيم لانتشار شهرته كفيلسوف.. وكان الأمراء يسألونه: ما هو الحكم العادل الحكيم الذي تبشر به؟

وكان يجيب: ليس ما أعظ به بالشيء الجديد فقد سبقني إليه أستاذي كونفوشيوس.. ذلك أن الحاكم العادل يحكم شعبه طبقاً للفضائل الثابتة الخمس.

ويسأله الأمراء: ما هي هذه الفضائل؟.

ويقول منشيس: فعل الخير.. وهو الرغبة في العمل لصالح الشعب. والاستقامة وهي ألا تفعل للآخرين ما لا تحب ان يفعلوه لك. واللياقة وهي أن تسلك مع الشعب الذي تحكمه سلوكاً يتسم بالحياء. والحكمة وهي أن تسترشد بالمعرفة والفهم. والإخلاص وهو أن تكون مخلصاً في كل ما تفعله.. لأنه بدون الإخلاص لا يمكن للعالم أن يبقى كما يقول الأستاذ كونفوشيوس.

وكان الذي يهم منشيس هو أن يرسم طريقه للحياة الصالحة وتولى خيار الناس مقاليد الحكم.. وكان يرى أن أصل المشاكل الإجتماعية ليس في طبيعة الناس بل هو في فساد الحكومات. من أجل ذلك لا بد أن يصبح الفلاسفة ملوكاً.. وأن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة. وكان منشيس يرى أن الحاكم الصالح لا يشن الحرب على البلاد الخارجية بل يشنها ضد العدو المشترك.. وهو الفقر.. لأن الفقر والجهل هما أصل الجرائم وسبب اضطراب كل نظام. وكان يعتبر أن معاقبة من لم تتح لهم فرصة العمل على ما يرتكبونه من الجرائم ظلم وقسوة.. لأن على الحكومة أن توفر اسباب الرفاهية لرعاياها. وأن عليها أن تضع الخطط الاقتصادية من أجل تحقيق تلك الغاية. وكان يطالب الحكومات بأن تفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ما تغله أو ما يقام عليها من مشنآت.. كما يطالب بإلغاء العوائد الجمركية وجعل التعليم عاماً وإجبارياً.

الملوك والشعوب:

ولكن هل كانت هذه الآراء يمكن أن تلاقي قبولاً من الحكام المفسدين؟ الحق أن الحكيم وجد صعوبة كبيرة في ذلك.. فقد كان الأمراء والحكام ينصتون إليه، ولكن أحداً منهم لم يأخذ بنصحه، رغم السنوات العشرين التي قضاها متنقلا من إقليم إلى إقليم.. أما الذين أعجبوا به واتبعوه.. فهم جماهير الشعب.. الجماهير التي أعجبها اعتراف منشيس بحق الشعوب في الثورة وتنديده بالحرب التي كان يراها جريمة.. ونقده اللاذع لترف حاشية

الملوك.. وتوجيهه أشد اللوم للملك الذي يطعم كلابه وخنازيره ويترك الناس يموتون جوعاً..

وكان أخطر ما قرره منشيس.. هو أن الحاكم الذي يستثير عداوة الشعب يفقد حقه الإلهي في الحكم، ويصبح من حق الشعب أن يخلعه. وما أكثر ما ناقش منشيس الملوك في هذا الرأي. قال له أحد الملوك مرة أنه لا يستطيع منع المجاعة فأجابه منشيس: إذن ينبغي عليك أن تعتزل الملك. وقال مرة للأمير شوان: إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة وجب على الوزراء العظام أن يعارضوه، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة، وجب عليهم أن يخلعوه.



وسأله تلاميذه عن رأيه في العلاقة بين الحاكم والمحكومين.. فأجاب منشس: إن الناس أهم عنصر من عناصر الأمة.. وإن الملك أقل هذه العناصر شأناً.. ومن حق الناس أن يخلعوا حكامهم، بل إن من حقهم أن يتخلصوا منهم في بعض الأحايين..

ومن هنا أحبته الجماهير وكرهه الحكام.. وكان من أبرز ألوان تلك الكراهية أن هونج دو مؤسس أسرة منج أمر أن يمحي اسم منشيس من مكانه في هيكل كونفوشيوس.. ولكن اللوحة أعيدت بعد ذلك إلى مكانها.. فقد آمن الناس كلهم في الصين بأن منشيس كان حكيماً عظيماً.. وظلت الملايين منذ موته قبل ٢٣٠٠ سنة يعبدون ذكراه حتى اليوم على اعتبار أنه حكيم الصين الثاني بعد كونفوشيوس..

* * *

الأمبراطور الأول

ومع كل ذلك.. فهل آمن الحكام بالعدالة وحقوط الشعب؟؟ الواقع أن الحكام والأمراء ازدادوا أنانية وظلماً في جميع أنحاء الصين مع مر الأيام.

ثم حدث شيء جديد في تاريخ الصين.

فبعد مرور مائتين وخمسين عاماً من وفاة كونفوشيوس جلس على عرش الصين إمبراطور جديد.. يقول المؤرخون أنه كان من أصل وضيع.. وأنه كان إبناً غير شرعي للملكة مقاطعة «تشين» من وزيرها «لو». واستطاع الصبي أن يرغم والده على الانتحار وأن يضطهد والدته ليجلس بعدهما على كرسي الإمارة وهو جعد في الثانية عشرة من العمر. ولم يكد يبلغ الخامسة والعشرين حتى بدأ يغزو المقاطعات المجاورة، ويضم الدويلات التي كانت الصين منقسمة إليها.. ولم تكد تمر سنوات قليلة حتى خضعت كل الصين في يد رجل واحد هو ذلك الفاتح الذي سمي نفسه تشين هونج تي.. وأعلن نفسه «الإمبراطور الأول».

والواقع أن الصين حكمها قبل ذلك أباطرة كثيرون، ولكن شي هونج نادى بنفسه الإمبراطور الأول ليبين للشعب أنه أراد منه أن ينسى كل الحكام الذين سبقوه..

إحراق كتب الحكماء:

وأتم تشين هونج انتصاراته على جميع أولئك الذين ثاروا ضده.. ثم أمر بإقامة الاحتفالات الكبرى في القصر.. ودعا إليها جميع الوزراء وعظماء البلاد.

وراح الجميع يتبادلون إلقاء الخطب يثنون فيها على الإمبراطور ويتمنون له حياة طويلة رائعة.

ونهض المشرف على الألعاب وقال:

- سعيدة هي الصين تحت حكم جلالتكم أيها الإمبراطور العظيم. لقد كانت الإمبراطورية قبل عهدكم ضعيفة ممزقة، ولكنكم بقوتكم وحكمتكم وحدتم الأمبراطورية وجعلتموها قوية.. وكانت الإمبراطورية قبلكم صغيرة ولكنها الآن بفضل حكمتكم بلغت من العظمة بحيث أنه حيثما أشرقت الشمس وتلألأ القمر انحنى الناس لسلطانكم. وهذه الإمبراطورية السعيدة

التي نظمتموها جلالتكم ستدوم سعيدة عشرة آلاف جيل.. فلم يسبق أن جلس على عرش هذه البلاد إمبراطور بلغ من العظمة والقوة ما بلغتم.

وسر هذا الخطاب الإمبراطور.. ولكن العالم العظيم شون- ونهض بعد ذلك يقول:

- لقد أظهر المشرف على الألعاب كم هو منافق متملق.. لهذا فهو وزير غير أمين.. لأنه من أجل أن يرضي جلالتكم جرح ذكرى اسلافنا العظماء أجمعين.

وارتفعت همهمة الجميع من حول كل الموائد.. يستنكرون جرأة العالم العظيم. ونهض وزير آخر فقال:

- إن ما فعلمتوه جلالتكم اكثر من أن يفهمه مجرد عالم.. فهؤلاء العلماء لا يفهمون ما نفعله اليوم، بل هم لا يتحدثون إلا عما فعله الحكام في الماضي القريب وفي الماضي البعيد.. ولكن ما فعلتموه جلالتكم لجعل إمبراطوريتنا عظيمة رائعة، جعل العلماء يحقدون عليك ويشجعون الناس على اختراع التهم الباطلة ضدك.. وخير طريقة لإبعاد هؤلاء العلماء عن الإضرار بجلالتكم هي ان تأمروا بحرق كتبهم وكتب من سبقوهم من أمثالهم.. ثم أن تأمروا بإعدام جميع العلماء الذين يحفظون ما في هذه الكتب ويعلمونها للناس.

وأعجب الإمبراطور باقتراح وزيره.. وأرسل ضباطه في جميع أنحاء البلاد يجمعون كتب الأساتذة العظام وخاصة كتب كونفوشيوس وحفيده كيغ وتلميذه منشيس. وأمرهم أن يحرقوها جميعاً حتى ينسى الناس ذكرى أولئك الحكماء والعلماء..!

ولم تكن الكتب في الصين في تلك الأيام تكتب على ورق كما يحدث الآن.. بل كانت تكتب على شرائح من الخيزران يشد بعضها إلى بعض بمشابك متحركة، ويبلغ اتساعها حوالي بوصة وطولها قدمين. وجمع ضباط الإمبراطور هذه الشرائح وربطوها كلها بخيوط من حرير تمر في ثقوب

أعدوها في كل شريحة.. بعد أن جمعوها من المكتبات الإمبراطورية ومن بيوت الافراد.. ووضعوها كلها على مقربة من قصر الإمبراطور لإحراقها.

وبرغم أن بعض العلماء والضباط أيضاً تمكنوا من سرقة بعض أعمال الأساتذة والحكماء، وأخفوا نسخاً منها وبنوا حولها الجدران حتى يعجز الإمبراطور عن العثور عليها.. إلا أن اغلب الكتب احرقت.. وظلت النيران تتأجج ثلاثة شهور على مقربة من القصر. وراح اللهب يتصاعد في النهار وفي الليل من شرائح الخيزران.. وتجمع الناس من جميع أنحاء البلاد حول النار الهائلة، يرقبون اللهب وهو يلقي ظلالا ضخمة على القصر الإمبراطوري.

وعلم الامبراطور أن بعض العلماء والضباط أخفوا نسخاً من الكتب فأمر بالقبض عليهم وأرسل بعضهم للعمل في بناء السور الكبير الذي كان يجري بناؤه في ذلك الوقت.. بينما أمر بالبعض الآخر وهم حوالي أربعمائة وستين عالماً فأعدموا جميعاً في نفس المكان..

وبعد عدة سنوات مات الإمبراطور الذي عاش منذ أحرق كل آثار العلماء في رعب هائل رهيب.. ولم يكد يموت حتى أخرج الناس الكتب التي أخفوها من قبل وأقاموا عيداً كبيراً احتفالاً بذكرى كونفوشيوس وأتباعه وبالكتب المقدسة التي تم إنقاذها..



ومنذ ذلك الوقت. أصبح اسم كونفوشيوس الذي أراد له الإمبراطور أن يندثر.. أصبح أعز على الناس مما كان من قبل.. وأصبحت ذكرى الإمبراطور نفسه هي الكريهة المحتقرة في كل مكان..

لقد أراد الإمبراطور تشين الذي سميت بلاده بعده باسم «الصين» أن يذكره شعبه على أنه أفضل إمبراطور في عشرة آلاف جيل..

ولكن شعب الصين ظل يذكره منذ اليوم على أنه أخطر مجرم في عشرة آلاف جيل.

* * *

والحق.. أن حذر الإمبراطور تشين لم يحل دون أن يقتله بعض الناس، رغم أنه عمد الى مغنطة باب الحصن الذي يقيم فيه بحيث إذا عبره شخص مسلح انجذب إلى الباب بشدة وافتضح امره.. وبرغم أنه كان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه.. وبرغم أنه لم يسمح لأحد بأن يعرف في أية حجرة من حجرات قصوره الكثيرة ينام ليله..

ولم يكد الطاغية يزول حتى اعتلى عرش الصين أباطرة من أسرة هان، زاد انتعاش البلاد في عهدهم وازدهرت، وأخذ الأباطرة الجدد يناصرون كل ما من شأنه توطيد الأمن والسلام وإحياء التقاليد والشعائر القديمة.. وكان في طليعة الهيئات التي نالت تأييد هؤلاء وتشجيعهم، المدرسة التي أنشأها كونفوشيوس في مقاطعة «لو».

ومن جديد.. عاد مذهب كونفوشيوس إلى الازدهار.

أقدس القديسين:

وفي عام ١٩٤ قبل الميلاد، زار أول إمبراطور من الأسرة الجديدة قبر كونفوشيوس في شوفو. وفي عام ٧٢ للميلاد كرمت هذه الأسرة اثنين وسبعين من كبار أتباع الكونفوشيوسية. وبعد ذلك بمائتي عام صدر مرسوم بوجوب تقديم القرابين العظيمة لكونفوشيوس أربع مرات كل عام وقام أهل بلدة كونفوشيوس ببناء معبد تمجيداً لذكراه. وفي عام ٥٥٥ صدر مرسوم يقضي بإقامة معبد لكونفوشيوس في جميع المدن الكبرى من كل ولاية من الولايات..

وفي عام ٦٦٥ خلع على كونفوشيوس لقب «أنبل الأساتذة» ثم لقب «ملك» في عام ٧٣٩ ثم خلق عليه عام ١٠١٣ لقب «أقدس القديسين».

وعندما جاء أباطرة بيت «مانشو» كانوا ينحنون أمام تمثاله إجلالا واحتراماً. ثم أطلقوا عليه عام ١٦٥٧ اسم «أحكم الأساتذة الأقدمين». ومنذ ذلك الوقت صارت الكونفوشيوسية عقيدة كاملة.. وذخراً ضخماً يعتز به كل شعب الصين.

من أجل حياة صالحة

ومضت عقيدة الكونفوشيوسية في طريقها..

على أنه إذا كانت العقيدة البوذية قد استطاعت أن تجد لها مكاناً عندما قدمت بعد ذلك إلى الصين.. لأنها فسرت لشعبها الأشياء التي كان يريد أن يعرفها عن الموت وعن السماء. إلا أن الناس مع ذلك ظلوا متمسكين بالكونفوشيوسية.. لأنه لم يكن من الممكن أن يقضوا كل وقتهم في التفكير فيما يحدث لأرواحهم بعد الموت. فالناس يأكلون أيضاً ويصربون وينامون. وهم يقضون وقتهم يصنعون الأحذية والقبعات والثياب ليرتدوها. وهم يبنون البيوت ليسكنوا فيها. وهم لا يستطيعون أن يعيشوا كالقردة فوق الأشجار. وهم يعدون طعامهم ليأكلوه. وهم يغنون الأغاني ويعزفون على العود عندما يبتهجون. وهم يؤلفون الكتب ويرسمون الصور. وهم يحكون الحكايات ويقومون بالرحلات. وهم يشترون ويبيعون. وهم يستحمون ويسبحون ويلعبون الألعاب. وهم يفعلون عدة أشياء أخرى لا تمت بصلة إلى التفكير في الموت، أو فيما يكون بعد الموت.

فإذا كان كونفوشيوس لم يقل للناس شيئاً عن الله والسماء، إلا أنه قال لهم الكثير عما يجب أن يفعلوه ليعيشوا حياة صالحة سعيدة..

ولكن كونفوشيوس وهو يُعلِّم شعبه كيف يكون سعيداً وصالحاً، لم يقض على معتقدات ذلك الشعب في الأشياء التي ظل الصينيون يحبونها قروناً عديدة.

وكان أهم ما فعله كونفوشيوس هو تشجيعه لعبادة الأسلاف.

ولم يشغله كثيراً ما شغل الداويين فيما بعد من تحويل الحديد إلى ذهب، لأنه كان يعرف أن هذا لن يسعد الناس، ولأنه كان يرى أن تحويل كل ما في العالم من حديد إلى ذهب يجعل الذهب رخيصاً والحديد غالياً.. وما كان الناس ليصبحوا عندئذ أكثر سعادة مما هم عليه الآن..

وفضلا عن ذلك فإن تحويل الحديد إلى ذهب أمر مستحيل. وما هو مستحيل لم يكن يهم كونفوشيوس قط. فكل ما يريده هو أن يجعل الناس سعداء بطرق لبست مستحيلة..

وهكذا قال كونفوشيوس: إن أول ما يجب على الناس أن يعرفوه هو أن أي إنسان لا يستطيع أن يعيش وحده ويصبح سعيداً.

وقال كذلك: من الإمبراطور فنازلا.. لا بد أن يكون للجميع أصدقاء.

فلا بد أن يكون لدينا طعام لنأكله وثياب لنرتديها وبيوت لنقيم فيها. ولا يستطيع إنسان أن يصنع كل هذا وحده، وأن يعيش وحده ويصبح سعيداً. ولكن عندما يعيش الناس معاً فإن بعضهم سيصنع الأحذية، وبعضهم سيصنع الخبز، وبعضهم سيعد الطعام، وبعضهم سيبني البيوت وعندئذ يتقاسمون ما يمتلكون. فالخباز يخبز الخبز ويعطيه لجميع الناس. وهم يعطونه في مقابله الأحذية والثياب والبيت.. كما يمكن أن يعطوه المال الذي يستطيع أن يشتري به ما يحتاج إليه..

وعندما يعيش الناس معاً بتلك الطريقة يجب أيضاً أن تكون لهم حكومة لترى أن كل واحد يقوم بعمل نافع مقابل ما يحصل عليه.. وأنه لا يسمح لأحد بأن يأخذ شيئاً لم يكسبه.

ولقد علم كونفوشيوس الناس إن كل أسرة يجب أن تكون كالحكومة الصغيرة.. فالوالدان يعنيان بأبنائها ويقدمان لهم التعليم المفيد، والأبناء يحترمون الوالدين ويعطونها ويفعلون كل ما يستطيعون ليكونا سعيدين..

وواجب الأبناء نحو الآباء من أهم تعاليم كونفوشيوس.. وهو يقول

« أكرم أباك وأمك وافعل كل ما تستطيعه لجعلهما سعيدين.. واعبد ذكراهما ما حييت ».

وكان كونفوشيوس يلقي تعاليمه ببساطة أخاذة بحيث يستطيع كل إنسان أن يفهمها.. وتبع مريدوه نفس الطريق كما جعلوا مؤلفاته والكتب التي جمعها كتباً مقدسة.. أصبحت من بعد أول ما يجب ان يتعلمه التلميذ.. بل لقد أصبح الموظف الحكومي لا يعين في وظيفته إلا بعد ان يجتاز امتحاناً في الكتب المقدسة التسعة.. أما حكمه فقد نقشت على لوحات معلقة على جدران الفصول الدراسية في جميع المدارس ليتعلمها الأطفال حالما يستطيعون الإلمام بالقراءة.

ويحب شعب الصين ذكرى كونفوشيوس ويقدسها حتى اليوم.. وبرغم أنه لا يعبد كإله كما يعبد بوذا.. إلا أنه يعتبر في نظر الناس أعظم حكيم وطني صيني عاش على أرض الصين..

وقديماً.. عندما كان كونفوشيوس في الرابعة والثلاثين كان له أكثر من ثلاثة آلاف تابع.. والآن.. وبعد انقضاء حوالي ألفين وستمائة سنة.. فإن في الصين وحدها أكثر من مائتين وخمسين مليوناً من المعجبين بكونفوشيوس..

وبينما يتغنى حكماء البلاد بكونفوشيوس ويثنون عليه قائلين: « عظيم أنت أيها الحكيم الكامل.. فضيلتك كاملة وتعاليمك كاملة.. وبين جميع البشر لم يخلق مثيل لك.. » فإن عامة الناس الذين لا يجدون كلمات عظيمة بالقدر الكافي للثناء عليه.. لا يستطيعون إلا أن يقولوا « كونفوشيوس.. كونفوشيوس. كم أنت عظيم يا كونفوشيوس ».

الداوية

إذا لم تقاتل الناس،
فإن أحداً على ظهر الأرض،
لن يستطيع أن يقاتلك.
قابل الإساءة بالإحسان.
فأنا طيب مع الطيبين،
وطيب أيضاً مع غير الطيبين،
فبذلك يصير الناس كلهم طيبين.
وأنا مخلص للمخلصين،
ومخلص أيضاً لغير المخلصين،
فبذلك يصير الناس كلهم مخلصين.
إن ألين الأشياء في العالم،
تصدم أصلبها وتتغلب عليها.
وليس في العالم شيء،
ألين ولا أضعف من الماء.
ولكن لا شيء أقوى من الماء،
في مغالبة كل ما هو صلب قوي.

«لاو- تسي»

كل شيء يعبَد...

حتى الفيران والثعابين

في الصين بضعة ملايين من البيوت، لا يستطيع المرء أن يدخلها إلا إذا مر في ممرات ملتوية متعرجة، قبل أن يجد أول حجرة من حجرات البيت، أو إلا إذا التقى في واجهة البيت بغابة كثيفة الأشجار.. قائمة.. حتى ولو كانت مرسومة على لوحة عريضة.. لينحدر بعدها في الممرات الجانبية للبيت...

وأصحاب هذه البيوت يسمون بالداويين.. وهم أصحاب العقيدة الداوية التي وضع أساسها الأول حكيم عاش في نفس أيام كونفوشيوس ولكنه كان يكبره ببضع من السنين..

والذي يعرفون سر الأشجار والرسوم والممرات المتعرجة يقولون أنها هي التي تصد الشياطين والجن والمردة وأرواح الشر عن دخول البيت.. فالداويون يؤمنون بكل هذه الألوان من أمثلة الشر.. تماما كما كانوا يؤمنون بوجود مصاصي الدماء والغيلان والتنانين.. حتى أنهم عندما يأكلون أو يشربون.. وقبل وُن يمشي الواحد منهم أو يستريح.. لا بد أن يهمس ببضع كلمات هي بمثابة تمائم تبعد كل هذه الألوان من ألوان الشرور.. وإذا مشى في غابة فهو إما يغني أو يصفر، لأنه يعتقد أن الموسيقى تبقى الشياطين بعيدة عنه فلا تقترب منه. وشياطين الغابة تكره الموسيقى كما يكره البعوض الدخان..

وكل ذلك هو السر في تلك الممرات الملتوية في بيوت الدوايين.. فالدواي يؤمن بأن في الإمكان منع الروح الشريرة إذا اندفعت داخله إلى البيت، وذلك إذا وجدت في وجهها جداراً يصدها.. فهي تفاجأ بالجدار أثناء اندفاعها السريع فتصطدم به.. وتموت.

ومن أجل ذلك أيضاً أقام الداويون الأشجار الكثيفة أمام مداخل بيوتهم.. فإذا لم يكن لديهم القدرة على ذلك رسموا مناظر الغابات والأشجار الكثيفة على لوحات في مداخل البيت.. وهم لا يقصدون من وراء ذلك أن تبدو البيوت جميلة.. ولكنهم فعلوا ذلك حتى إذا ما جاءت الأرواح الشريرة محاولة دخول البيت من مدخله.. اندفعت داخل الغابات المقامة أو المرسومة.. فلا يسمع بها بعد ذلك أبداً.

هكذا آمن الداويون بأرواح الشر.. وعرفوها.. وحاولوا تجنبها.. ولكنهم عندما فعلوا ذلك لم يفعلوه خلال تلك الأيام التي عاش فيها لاو- تسي صاحب عقيدتهم.. بل فعلوها بعده بمئات من السنين.. لأنه هو نفسه لم يقل ذلك قط.. ولا كان يؤمن به.



فقد كانت له آراء أخرى غير تلك التي آمن بها أتباعه بعد ذلك سنوات..

وبدت أفكاره واضحة صريحة خلال ذلك النقاش الطويل الذي دار بينه وبين كونفوشيوس.. وعندما التقيا معاً لأول مرة.

حدث هذا ذات يوم منذ أكثر من ألفين وخمسمائة من السنين..

بين لاو تسي وكونفوشيوس

في ذلك اليوم بدا النقاش، وكأنه يتحول إلى خلاف حاد. وقلب الحكيم لاو- تسي شفتيه في شبه احتقار وهو يطل إلى كونفوشيوس الشاب الجالس أمامه على حصير قاعة مكتبة المحفوظات في مدينة لو- يانج، وراح وهو يبدي تأففه يردد الكلمتين اللتين سمعهما من كونفوشيوس عن الإنسانية

والعدالة.. وبعد أن أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا توقف فجأة وقال لكونفوشيوس:

« إنك تتكلم عن الإنسانية والعدالة.. لتغير طبائع الناس.. فهل تستحم الحمامة طول يومها لكي تصبح بيضاء؟ كلا بالطبع.. بل هي لا تفعل شيئاً من ذلك أبداً.. لأنها بطبيعتها بيضاء. وهكذا شأن الناس.. إذا كانوا خيرين وعادلين في أعماقهم فلست في حاجة لأن تعلمهم العدالة.. »

وسكت كونفوشيوس.. فقد كان يتوقع مدى الغرابة في الحديث الذي سيدور بينه وبين لاو- تسي، منذ فكر أن يلتقي بالحكيم الذي يتردد اسمه على شفاه عدد كبير من الناس في مدينة لو- يانج حيث يعمل أميناً للمحفوظات في المكتبة الإمبراطورية.

وكان كونفوشيوس عندما دخل قاعة المكتبة قد أرسل مذكرة إلى لاو- تسي يقول له فيها أنه يتمنى أن يلقاه. وعندما مضى الرسول بالمذكرة جلس الشاب على حصير القاعة وبدأ يقرأ إحدى المخطوطات التي كتبت على الخيزران. ولم ينتبه إلا عندما سمع وقع أقدام تقترب منه، ودخل شيخ أصلع الرأس طويل اللحية، لم يكد يتقدم منه حتى نهض كونفوشيوس ليعرب عن احترامه وتقديره للحكيم الشيخ.

على أن كونفوشيوس لم يتصور أن نقاشهما سيبدأ بهذا الشكل الحاد بسبب قراءته لكتاب « التغيرات » الذي كان يضعه بين يديه، فقد كان يعرف ان كل الحكماء القدامى قد درسوا هذا الكتاب وتعلموا منه الإنسانية والعدالة. لهذا فوجىء كونفوشيوس وهو ينصت إلى سخرية للاو- تسي بما تحمله هاتين الكلمتين.. فسكت اول الأمر، ثم راح يواصل مناقشة الحكيم العجوز الذي كان له النصيب الأكبر في الحديث.. وفي السؤال وقال لاو- تسي يخاطب كونفوشيوس:

- لماذا تدرس كثيراً تلك الأشياء التي درست في الأيام الخالية؟ وما هي الأهمية او الفائدة التي تجنيها من وراء ذلك؟

وأجاب كونفوشيوس:

- اعتقد أن الناس ولدوا أخياراً. وأن التعليم والمعرفة يبقيانهم أخياراً. ولكن قبل أن نحصل على المعرفة الجديدة يجب أولاً أن نقف على المعرفة القديمة، وهذا هو السبب في أني أرى وجوب دراسة حكمة الآباء الأولين بعناية واهتمام، فأغضب ذلك الرد لاو- تسي.. وقال للفتى:



- إن الناس الذين تتحدث عنهم قد استحالوا هم وعظامهم إلى تراب ولم تبق سوى كلماتهم. وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة. أما قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام في سبيل كل من يحاوله. ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته ويعمل عمل من لا يملك شيئاً على الإطلاق. فدعك من غرورك ومن برامجك الكبرى لتعليم العدالة للعالم، فكل ذلك لن يجديك فتيلاً، وهذا هو ما أحببت أن أقوله لك.

وعندما انتهى لاو- تسي من كلامه أدار ظهره لكونفوشيوس وغادر القاعة. وعاد كونفوشيوس بعد ذلك إلى أتباعه فسألوه جميعاً عن لقائه مع لاو- تسي وعن رأيه فيه. وفكر الحكيم قليلاً ثم قال:

- إنني أعرف كيف يطير الطير، وكيف يسبح السمك، وكيف تجري الحيوانات. ولكن الذي يجري على الأرض قد يقع في فخ، والذي يسبح في الماء قد يصيبه السهم. غير أن هناك تنيناً مهولاً.. ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويخترق به السحاب، ويعلو في أجواز الفضاء. لقد قابلت اليوم لاو- تسي، ولست أستطيع أن أجد له مثيلاً غير التنين...

وفهم أتباع كونفوشيوس من هذا الرد أن أستاذهم قد تأثر كثيراً بلاو- تسي الذي لم يفهمه كما لم يفهم التنين وكيف يصعد الى السماء.. وإن كانت فلسفته قد تركت في نفسه أثراً مؤلماً بالغ الحنق.

فمن يكون ذلك الذي استحق هذا الاحترام المختلط بالحنق.. ذلك الشيخ الغاضب.. لاو- تسي.. وما هي تعاليمه؟

حياة لاو تسي

في قرية كيوه- جنى بمنطقة لي بإقليم تشو ، كان يعش رجل شديد الفقر إسمه لي- لي. وبرغم شدة فقره إلا أنه لم يجد صعوبة في أن يتزوج. وفي السنة الثانية من عهد الإمبراطور الحادي والعشرين من أسرة شو ، أي منذ حوالي ٢٥٥٠ سنة ، رزق الفقير من زوجته ولداً سماه « لي- ييه- يانج ».

ولا يعرف أحد عن حياة لي ييه يانج سوى القليل.. كل ما يعرفه التاريخ أنه أصبح في بواكير شبابه أميناً للمحفوظات الإمبراطورية بمدينة لو- يانج ، وأنه ظل يشغل هذا المركز أعواماً عديدة.

وقد أتاح ذلك العمل للفتى فرصة الدراسة والبحث. وعندما بدأ فيما بعد يعبر عن أرائه في الفلسفة والدين نال إعجاب الكثيرين الذين أطلقوا عليه إسمه الذي عرف به وهو « لاو- تسي » ومعناها الفيلسوف العجوز.

ولكن الشهرة لم تغير من حياة لاو- تسي. ومضت السنوات تتابع وهو لا يزال كما هو أميناً للمحفوظات. وكان من المحتمل أن يظل في المكتبة حتى نهاية عمره الطويل ، لولا أن حكام الولاية ازدياد بهم السوء واستشرى فيهم الفساد ، واشتدت عليهم الأنانية ، وبعد بهم السفه عن الشرف. فعافت نفس الفيلسوف سفالة السياسيين ومل عمله في أمانة المكتبة ، وشعر أنه من المهين له أن يعيش تحت حكم السفهاء. وقرر أن يبرح المكان الذي قضى فيه معظم حياته. وبرغم أنه كان وقتئذ في التسعين من عمره إلا أنه صمم على مغادرة المكتبة الإمبراطورية والهجرة بعيداً عن لو- يانج.. بعيداً جداً.. ليعيش في الريف بمعزل عن الناس.

وهكذا سافر لاو- تسي..

وعندما بلغ حدود الإقليم عرفه حارس الحدود ولم يسمح له بالمرور. وسأله لاو- تسي: لماذا تمنعني من المرور؟

وأجابه الحارس: أنت فيلسوف عظيم يا أستاذي. وقد عمت شهرتك الآفاق دون أن تسجل تعاليمك. فإذا أنت بارحتنا الآن فلن يكون لدينا أي سجل لهذه التعاليم.

وسأله الحكيم. وهل إذا سجلت تعاليمي تدعني أمر؟

أجاب الحارس: نعم يا أستاذي.

كتاب العقل والفضيلة:

وهكذا جلس لاو- تسي ليكتب الأجزاء الهامة من تعاليمه، ويسجلها في كتاب صغير يضم حوالي خمس وعشرين صفحة سماه «داو- تيه- كينج» ويمكن ترجمتها إلى «كتاب العقل والفضيلة».

وعندما أعطى الحكيم هذا الكتاب الصغير لحارس الحدود، سمح له هذا بالخروج من الإقليم. ومنذ ذلك الوقت لم يسمع به أحد بعد ذلك قط.

هذا هو كل ما نعرفه عن الحكيم القديم لاو- تسي..

وإذا كان البعض يشك في وجود هذا الحكيم.. إلا أن الدليل الوحيد على وجوده هو ذلك الكتاب الصغير الذي كتبه في سن التسعين قبل اختفائه.. فما الذي كان يعلمه هذا الحكيم القديم حتى يبقى كتابه الصغير كل هذه القرون العديدة؟ وحتى يكون ذلك الكتاب هو أهم النصوص الخاصة بالعقيدة الداوية، التي يقول العلماء الصينيون أنها وجدت حتى قبل لاو- تسي بزمن طويل، والتي كان لها من بعده أنصار من الطراز الأول، والتي صارت فيما بعد ديناً يعتنقه أقلية كبيرة من الصينيين حتى وقتنا الحالي؟

الواقع أن هذا الكتاب الصغير حافل بالأفكار وبعض هذه الأفكار سهل الفهم، بينما البعض الآخر عسير الفهم، بل ومن المستحيل فهم أي شيء منه.

حقيقة الداو:

يمول لاو- تسي أن «داو» هو البداية العظمى لجميع الأشياء في العالم، وأن الناس الدين يريدون أن يحبوا حياة صالحة يجب أن يتبعوا «داو».

ويبدو أن المعنى الصحيح لهذه الكلمة في الأصل هو «طريقة التفكير» أو الامتناع عن التفكير. ذلك أن الداويين يرون أن التفكير امر عادي سطحي لا خير فيه للجدل او النقاش، يضر الحياة أكثر مما ينفعها. أما الطريقة الطبيعية فيمكن الوصول اليها بنبذ العقل وجميع مشاغله والالتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادىء في الطبيعة. وليس العلم في رأي صاحب الكتاب فضيلة، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم. وليس العلم هو الحكمة، ذلك أنه لا شيء أبعد عن الرجل الحكيم من صاحب العقل. وشر أنواع الحكومات التي يمكن تصورها حكومة الفلاسفة، إذ أنهم يقحمون النظريات في كل نظام طبيعي.

على أن لاو- تسي نفسه يقول إننا لن نعرف شيئاً عن «الداو» وقد كتب يقول في كتابه:

«إن الذين يعرفون لن يقولوا.. والذين يقولون لا يعرفون. والذين يعرفون يقفلون أفواههم ويسدون أبواب خياشيمهم».

وهكذا تتضح الحقيقة.. فبينما كونفوشيوس لا يدعى معرفة شيء عن الله في سمائه ولكنه يعلم الناس أنهم يجب أن يحاولوا أن يكونوا صالحين وأن الله يمكن أن يعنى بنفسه. بينما يحدث هذا، يقول لاو-تسي نقيض ذلك تماماً.. فهو يعلم أن أول واجب للناس الذين نريدون أن يحيوا حياة فاضلة صالحة هو الإيمان بداو.. أي طريق الله، وأن الدنيا هي التي ستعنى بنفسها بعد ذلك.



وبينما يعلم كونفوشيوس الناس أنهم يولدون أخياراً، وهو نفس ما يقوله لاو- تسي، إلا أن كونفوشيوس وهو يقول ذلك يذكر أن

الناس يمكن أن يظلوا أخياراً عن طريق تعليمهم التعليم الصحيح.

بينما يؤمن لاو- تسي من الضروري أن يتعلم الناس شيئاً، من أجل ان يعرفوا طريق الله.

ومعنى ذلك أنه من واجب الصالحين أن يكونوا جهلة.. ولا يمكن بالطبع أن يكون هذا تماماً هو ما كان الحكيم يعينه تماماً. بل لقد كان الذي يعنيه في الحقيقة بمثل هذه الأقوال أمر من الصعب معرفته، بل إن أحداً لا يعرفه قط.

ولكن إلى جانب تلك الأقوال غير الواضحة، ففي كتاب لاو- تسي آراء اخرى واضحة كل الوضوح.. منها رأى ضد الحرب يقول:

«إن الهدف العظيم للرجل الصالح هو المحافظة على السلام. وهو لا يجد لذة في كسب المعارك وفي قتل رفاقه في البشرية».

فلاو- تسي ليس ضد قتل الناس في الحرب فحسب، بل هو أيضاً ضد قتل المجرمين عقاباً لهم على جرائمهم. وقد قال إن الناس بقتلهم. المجرمين لن يكونوا أحسن حالاً ولن يقضوا على الجريمة. والطريقة الوحيدة لجعل الناس خيرين صالحين هي بمعاملتهم بالرفق كل وقت. وهو يقول:

«إذا لم تقاتل الناس فإن أحد على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك: قابل الإساءة بالإحسان. فأنا طيب مع أولئك الذين ليسوا طيبين معي، وهكذا لا بد أن يصبح الجميع طيبين. لأولئك المخلصين أنا مخلص، ومخلص أيضاً لأولئك الذين لا يخلصون، لهذا سيصبح الجميع مخلصين. وألين الأشياء في العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها. فليس في العالم شيء لين وضعيف مثل الماء.. ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية».

وكتب بعد ذلك يقول:

الرجل الصالح حقاً يحب جميع الناس ولا يكره أحداً قط ».

أساس العقيدة:

وهكذا يبدو واضحاً أن لاو- تسي يميل إلى السكون والهدوء والاستسلام، وهو أساس العقيدة الداوية في إيمانها بالطبيعة، والدعوة للعودة اليها، لتكون مرشداً وهادياً للناس.

ويتضح هذا الإيمان فيما يقوله لاو- تسي:

« أن كثرة النواهي والمحرمات في المملكة تزيد من فقر الأهلين. وكلما زاد عدد الأدوات التي تضاعف من كسبهم، زاد نظام الدولة والعشيرة اضطراباً. وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحذق زاد عدد ما يلجأون إليه من حيل غريبة. وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق. ولهذا قال أحد الحكماء: لن أفعل شيئاً، فيتبدل الناس من تلقاء انفسهم، وسأولع بأن أبقى ساكناً فيندملح الناس من تلقاء أنفسهم، ولن أشغل بالي بأمور الناس فيثرى الناس من تلقاء انفسهم، ولن أظهر شيئاً من المطامع فيصل الناس من تلقاء انفسهم الى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية، وسأنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل، وسأجعل الناس فيها- وان نظروا إلى الموت على أنه شيء محزن مؤسف له- لا يخرجون منها، ومع أن لهم سفناً وعربات فإنهم لا يرون ما يدعو إلى ركوبها، ومع أن لهم ثياباً منتفخة واسعة وأسلحة حادة فإنهم لا يجدون ما يدعو إلى لبس الأولى او استخدام الثانية. وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة، وعندئذ سيرون أن طعامهم الخشن وملابسهم البسيطة جميلة، ومساكنهم الحقيرة أمكنة للراحة، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة ».

الداوية والطبيعة:

وهكذا ترى الداوية أن الطبيعة هي النشاط التلقائي، وانسياب الحياة العادية المألوفة، وهي النظام العظيم الذي تتبعه الفصول وتتبعه السماء.. وهي نفسها «الداو» أو الطريقة الممثلة المجسمة في كل مجرى وكل صخرة وكل نجم. وهي قانون الأشياء العادل..

ويقول لاو- تسي أن الطبيعة جعلت حياة الناس في الأيام السابقة بسيطة آمنة. فكان العالم كله هنيئاً سعيداً، ثم حصل الناس على المعرفة فعقدوا الحياة بالمخترعات، وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية. وانتقلوا من الحقول الى المدن، وشرعوا يؤلفون الكتب، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء. وجرت من أجل ذلك دموع الحكماء. فالعاقل إذن هو من يبتعد عن هذا التعقيد الحضاري وهذا التيه المفسد الموهن، ويختفي بين أحضان الطبيعة بعيداً عن المدن والكتب والموظفين والمرتشين والمصلحين والمخترعين. فسر الحكمة كلها وسر الصناعة كلها هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة، ونبذ أساليب الخداع وأفانين العقل، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز».

على أنه إذا كانت بعض تعاليم لاو- تسي واضحة بهذا الشكل.. فإن جزءاً كبيراً مما جاء في كتابه الصغير ظل مخبوءاً في الظلال.. ونادراً ما نعرف ما يعنيه.. وماذا يريد أن نفهمه مما يقول..

وكان امر الناس عجيباً في تعاليم لاو- تسي..

فبعد بضع عشرات من السنين.. نسي الناس كل ما كتبه لاو- تسي، وبدأوا يفسرون تعاليمه تفسيرات جديدة.. وقالوا أن من يستطيع أن نفهم كتاب «داو- تيه- كنج» ويصدق في الإيمان به.. فإنه لن يجد صعوبة في تحويل الحديد الزهر إلى ذهب وفضة.. وبذلك يصبح الداوي الحقيقي أغنى أغنياء الوجود..

* * *

تحول خطير:

بعد موت لاو- تسي بسنوات تحولت الداوية من عقيدة فلسفية لا يعرف الناس عنها إلا القليل.. إلى عقيدة تؤمن بمعبودات لم يذكرها صاحب العقيدة أيام حياته قط. وراح أتباعه يعبدون كل أنواع التنين.. والفيران.. وبنات آوى.. والثعابين.

ولم يكتف الداويون بكل هذه العبادات فقد راحوا يعتقدون في أشياء أخرى غريبة. فآمنوا بأن هناك رماداً معيناً ونوعاً آخر من الحجارة والكتابة لها قوة أكثر من السحر.. إذا حملها المرء فإن الرصاص لا ينفذ فيه ولا يستطيع ان يقضي على حياته.. بل إن حامله لا يمكن أن يغرق في الماء قط.. كما لا تستطيع النار أن تحرقه.

وبمضي الزمن زاد اعتقادهم في الشياطين والمردة والجن ومصاصي الدماء والغيلان وكل أرواح الشر.

واعتقد الداويون أن أسوأ الأرواح الشريرة موجودة في الجبال. وأن لجميع الجبال أرواحها الشريرة، وكلما زاد حجم الجبل زادت قوة روح الشر فية.

وبدأ الداويون يحكون آلاف القصص عن الشياطين في الجبال.. وبدأوا يقصون كيف يتمكن بعض المؤمنين من قتل مردة الشياطين في هذه الجبال..

ومن بين هذه القصص التي تناقلوها هذه القصة:

على سفح جبل لي- بو، كان المسافرون يقفون لدى مرورهم عند فندق صغير يستريحون فيه. ولكن أحداً لم يجرؤ قط على المبيت فيه. إذ كان كل الناس يتحدثون عن الروح الشريرة التي تهبط من الجبل ومعها خمسون شيطاناً في زي رجال ونساء، يقتلون كل من قضى في الفندق ليلته.



لاو- تسي صاحب العقيدة
الداوية...



الأم الملكية هسي وانج مو..
إحدى الربات التي يقدسها
الداويون..



شانج تاو لنج مكتشف اكسير الحياة



تونـج كنج.. أحد أنبياء الداوية

لوحة جانبية في أحد المعابد الدوية.. ويرى شيانغ تاو يهزم ون شنج



وذات يوم، نزل بالفندق ساحر اسمه «بيه- هي» أقسم إلا أن يبيت فيه ليلته، برغم كل ما عرفه عن روح الجبل وشياطينه.

وكان «بيه- هي» قد وصل بعد ظهر ذلك اليوم واستراح. وعندما أظلم الليل أشعل شمعة وأخذ يقرأ بعض القراءات التي تبعد كل أرواح الشر عنه.

وظل بيه- هي يقرأ على ضوء الشمعة. ومرت ساعة تبعتها أخرى. وأخذت الشمعة تذوب شيئاً فشيئاً ويتناقص حجمها ويقل منها الضوء.

ولم يكد الليل ينتصف حتى انفتح الباب فجأة واندفع عشرة رجال طوال القامة يرتدون ملابس قاتمة السواد. وجلسوا جميعاً على مقربة من بيه- هي.. ودون أن يقولوا كلمة واحدة راحوا يلعبون القمار.

وتظاهر الساحر بأنه لا يراهم. ولكنه أخرج من جيبه مرآة سحرية صغيرة وأطل فيها. وعندما شهد ما عكسته صفحة المرآة اصطكت اسنانه بشدة، فقد كشفت له المرآة عشرة كلاب رهيبة تجلس على مقربة من بعضها البعض.. يثير مرآها الخوف والرعب. على أن الساحر ما أسرع ما استعاد هدوءه.. ونظر أمامه من وراء المرآة فإذا العشرة لا يزالون في جلستهم يلعبون القمار.. وإن لدوا أمامه في المرآة السحرية التي تكشف الحقيقة كلاباً رهيبة.

عندئذ عرف الساحر من هم هؤلاء المغامرون، ومن أجل أن يزداد تاكداً.. التقط شمعة وأخذ يروح ويجيء في الغرفة متظاهراً بالقراءة، وراح وهو يسير يقترب قليلاً قليلاً من الجالسين القرفصاء.. وعندما أصبح قريباً جداً.. دفع شمعته فجأة نحو واحد منهم.. وفي لحظة ارتفعت صيحة ذعر رهيبة وانتشرت رائحة شعر يحترق.

ولم يكد يحدث ذلك.. حتى أخرج الساحر على الفور سكيناً وألقاها على المقامر.. وقفز بقية المقامرين وهم يهرولون مسرعين، بينما تركوا صاحبهم الذي طعنه بيه- هي بسكينه ملقى على الأرض لا يتحرك.

وعندما انحنى الساحر ليرى ما إذا كان قد قتل المقامر حقاً. رأى أمامه كلباً مهولاً ميتاً.. لا حراك به قط.!

* * *

غموض الداوية:

ولكن.. كيف حدثت كل هذه التغيرات في العقيدة الداوية؟!

الواقع ان السر يكمن في الكتاب الذي يضم تعاليم لاو- تسي، والغموض الذي يكمن في فقراته الكثيرة. فالفقرات اليسيرة الفهم ليست كثيرة في كتاب لاو- تسي بينما أغلب ما جاء في الكتاب عسير ليس واضحاً كل الوضوح.



من أجل ذلك فإننا إذا وضعنا تعاليم كونفوشيوس جنباً إلى جنب مع تعاليم لاو- تسي، لاستطعنا أن نقارنها بتمثالين في متحف قديم.

فتعاليم كونفوشيوس في الضوء، ونستطيع فهمها بسهولة بالغة، فهو يقول في تعاليمه:

«لا حاجة بالناس أن يشغلوا أنفسهم بالله في سمائه أو بالحياة الأخرى».

«إن الناس قد ولدوا صالحين ويجب أن يبقوا صالحين ما داموا أحياء».

«إن الطريق إلى البقاء صالحين.. طريق الحياة الصالحة، هو طريق المعرفة وعبادة الأسلاف ووفاء الأبناء والآباء ووفاء المواطنين لحكامهم وقبل كل شيء للعدالة».

ولكن تعاليم الفيلسوف لاو- تسي مخبوءة في الظلال، ونادراً ما نعرف تماماً ما يعنيه وما الذي يريد منا أن نفهمه.

ولعل هذا الغموض هو سر التحول الكبير الذي تحولت إليه عقيدة الداوية، والتغيرات التي طرأت عليها بين أيام لاو- تسي وأيام من جاءوا بعده يحملون عبء العقيدة والدعوة إليها.

ويبدو كل ذلك واضحاً في مثال صغير..

فإذا فرضنا أن الناس وجدوا كتاباً وفتحوه ليقرأوا فيه: «قابل الإساءة بالإحسان والشر بالخير.. وإذا صعبت السيطرة على الناس فذلك لأنهم بالغوا الحكمة» كل ذلك جنباً إلى جنب مع كلمات أخرى تقول «أبرا كاد أبرا» لا يمكن أن يفهم لها معنى قط..

إذا حدث هذا فإن المرء يظن لأول وهلة بغير شك أن الناس عندما يجدون مثل هذا الكتاب فسيقرأون منه الأجزاء الواضحة ويتذكرونها ولكنهم سينسون إلى جانب ذلك تلك الأجزاء التي لا معنى لها قط.

وقد يظن المرء من هنا أن أتباع لاو- تسي لا بد وأن يكونوا استخرجوا الأجزاء الجميلة الجيدة من كتابه «داو- تيه- كنج» ونسوا كل ما عداها.

ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن ما فعلوه.. بل فعلوا نقيضه بالضبط.

فكل ما هو جيد واضح جميل في كتابه نسيه الناس.. أما تلك الأجزاء التي لا معنى لها تقريباً فقد حفظوها.. ولعلهم إذ لم يستطيعوا فهمها أقبلوا عليها ووضعوا كتباً مطولة يشرحون فيها معنى تلك الأجزاء التي لا معنى لها.. ثم جاء بعدهم آخرون ووضعوا كتباً يفسرون بها تلك التفسيرات، وجاء اتباعهم يضعون تفسيرات التفسيرات لتفسيرات «داو- تيه- كنج» حتى لم يعد أتباع الداوية بعد مائتي سنة او ثلاثمائة يدرسون أعمال لاو- تسي، بل أصبحوا يقضون وقتاً طويلاً ويبذلون جهداً طائلاً في دراسة التفسيرات التي تفسر تفسيرات الذين فسروا التفسير الأول الكتاب لاو-تسي!!

وكان أغلب هذه التفسيرات التي تبعث على الدوار، يفسر أشياء لم يفكر لاو- تسي قط فيها ولم يحلم بها، ولم يكتبها في كتابه على الإطلاق.

ومن هنا جاءت الأمثلة الكثيرة للتغيير الكبير في عقيدة الداويين.. وهناك مثل آخر غريب، فقد جاء في كتاب لاو- تسي أن هناك جزيرة في البحر رائعة، عجيبة في روعتها إلى حد أن من يطأها بقدمه يعيش فيها إلى الأبد. وفي تلك الجزيرة نهر يعيش كل من يستحم فيه أبد الدهر.

وإذ عجز الداويون عن العثور على الجزيرة العجيبة، فسروا ذلك بوجود مواد من حبوب أو دواء يمكن أن يجعل المرء يعيش إلى الأبد وأن يصير شبابه خالداً لا ينتهي.

ومن قبل.. عرف الناس كيف أن تعاليم العظماء غالباً ما يساء فهمها ويفسرها الأتباع بعكس ما كان يقصد بها. فالأمير جاوتاما بوذا علم أتباعه الا يؤمنوا بالمعبودات، ولكنهم عمدوا بعد موته إلى عبادته هو نفسه.. وماهافيرا علم أتباعه أنه ليس هناك إله على الناس أن يعبدوه، فجعل منه هؤلاء الأتباع هو نفسه إلهاً مع ثلاثة وعشرين إلهاً آخرين!.

ولكن لم يحدث أن أسيء فهم معلم عظيم من المعلمين القدماء أو أسيء تفسير أقواله مثلما حدث للحكيم القديم لاو- تسي.

فقد علم لاو- تسي الناس في الجزء الواضح من كتابه أن يعيشوا ببساطة وأن يتجنبوا الحرب وأن يتبعوا الطريق الطبيعي.. ولكن أتباعه فسروا آراءه على أنها تعني شيئاً خفياً يوجب عليهم أن يتعلموا كيف يصبحون شباباً وأن يعمروا إلى الأبد.

وبعد انقضاء خمسمائة سنة من وضع الكتاب. قيل أن أحد الداويين واسمه تشانج- تاو- لينج قد أكتشف شراباً يجعل الناس يحيون حياة الخلود وسمي هذا الشراب «أكسير الحياة». وكان في صورة شراب شاع بينهم وأسرفوا في استعماله إسرافاً يقال إنه أودى بحياة بضع عشرات من أباطرة الصين المدمنين.

وبدأ الداويون على الفور يعبدون الرجل الذي اخترع « أكسير الحياة » حتى أن سلالته لا تزال تعبد حتى اليوم.. ويسمى زعيمهم وحفيد « تشانج- تاو- لينج » باسم الإمبراطور اللؤلؤى الذي يعيش في جبال. التنين ويحكم أتباعه بسلطة ملك.

كل ذلك حدث بعد وفاة لاو- تسي بأعوام.. ولم يكن قد مضى على ذهابه مائة عام حين وضع أحد الداويين كتاباً جديداً قال فيه:

« إن المرور من المعدن الجامد أو الصخر الصلد والمشي من خلال النار أو على سطح الماء.. كل هذه الأشياء ممكنة لمن هو على وفاق مع داو ».

ثم ظهر في عام ١٤٨ ميلادية معلم من رجال الدين كان يعرض على الناس أن يشفيهم من الأمراض كلها بطلسم بسيط يعطيه لهم مقابل خمس حفنات من الأرز. وبدا لبعض الناس أنهم قد شفوا من أمراضهم بفضل هذه الأعمال السحرية، وقيل لمن لم يثمر فيهم الطلسم أن إخفاقه لم يكن له سبب إلا ضعف إيمانهم..!

وازدادت هذه التعاليم عن السحر سوءاً على سوء بمرور الزمن. وبدأ ملايين الجهلة من الصينيين يؤمنون بهذه الأشياء.. وأصبحوا يخافون السحرة والكهان الذين أدعوا أن لهم سلطاناً على الأرواح الشريرة. ومع ذلك زاد عدد أتباع الداوية بسرعة كبيرة.. وأقبل الناس على ذلك الدين زرافات ووحداناً، وشادوا له الهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم ومزجوا به جزءاً من قصصهم الشعبي الذي لا ينضب له معين.



وليس من الصعب فهم سبب اعتناق الكثيرين لعقيدة الداوية والإيمان بتعاليم لاو- تسي الذي كان يعطي للطبيعة كل شيء.. كما كان يضع في أساس عقيدته أنه إذا كانت الدولة مضطربة مختلة النظام فخير ما يفعل بها ألا يحاول الإنسان إصلاح أمورها، بل أن يجعل حياته نفسها أداء منظماً للواجب الذي عليه أن يؤديه. وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح أو يقاتل أو يحارب.. بل أن يتروى في سكون وأن يكسب ما

يريد أن يكسبه- إذا كان لا بد من الكسب- بالخضوع والصبر. ذلك أن المرء ينال من الفوز والنصر بالصبر والسكون أكثر مما يناله بالجهد والعمل. وفي ذلك يقول لاو- تسي:

« إن كل ما في الطبيعة من أشياء تعمل وهي صامتة. وهي توجد وليس في حوزتها شيء. تؤدي واجبها دون أن تكون لها مطالب. وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتخمد. وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها إلى أصلها. وعودة الأشياء إلى أصولها معناه راحتها وأداؤها ما قدر لها أن تؤديه. وتلك العودة قانون أزلي. ومعرفة هذا القانون هو الحكمة ».

ومن هنا لم يكن من الصعب بالفعل فهم سبب اعتناق الملايين من الصينيين لعقيدة الداوية والإيمان بها.

الخير والشر:

فمنذ وقت ممعن في القدم كان الصينيون يعبدون الطبيعة. وفي تلك الأيام كانوا يعتقدون أن كل شيء في الطبيعة له روح. وقسموا أرواح الطبيعة إلى مجموعتين: أرواح خيرة، تفعل الأشياء الطيبة للناس وتسمى « شين » وأرواح شريرة اسمها « كوى ».

ولم ينس الصينيون عقيدتهم القديمة والتي لا يزال بعض أجزائها موجوداً حتى اليوم، فلا زال هناك من يعتقد أن « شين » تعمل الخير للناس وأن الشر مصدر الأرواح الشريرة المسماة « كوى ».

ولكن شين الخيرة قد تكف أحياناً عن فعل الخير. فالروح الخيرة للمطر مثلا قد لا تعطي المطر أحياناً عندما يكون الناس في أمس الحاجة إليه. واعتقد الصينيون أن سبب ذلك يرجع إلى أن الروح الخيرة للمطر قد نامت. ومن أجل إيقاظها راح الناس يصنعون تنيناً ضخماً من الورق والخشب.. يزينونه بالألوان المتألقة وجعلوا هذا التنين ممثلاً للروح الخيرة. للمطر.. يحملونه عبر الشوارع ويغنون بصوت عال لإيقاظه وتنبيهه إلى القيام بواجبه!

أما إذا لم يستيقظ روح الخير في المطر فإن الناس يكفون عن حمل التنين ويهددونه بالضرب!

فإذا لم يسقط المطر بعد ذلك فإنهم يضربون التنين الخشبي بالفعل ويمزقونه.. وإن كانوا في بعض الأوقات يحاولون إغراءه بالرشوة.. فيقدمون له الوعود بمنحه أرضاً كبيرة.. ولا بد من البر بالوعد إذا سقط المطر بعد ذلك.!



وعندما بدأت الداوية تقول للناس أن هناك أرواحاً شريرة تعلمهم السحر.. كان الناس الذين لا يزالون يذكرون معتقداتهم القديمة في عدة أرواح.. مستعدين للإصغاء للسحرة وقصص العجائب التي تحكي أساطير الإمبراطور اللؤلؤي.

ثم فجأة.. تحول الناس ليعبدوا لاو- تسي نفسه.. وجعلوا منه إلهاً.. وقالوا إن أمه حملت فيه حملاً سماوياً، واعتقد المؤمنون الصالحون أنه ولد كامل العقل طاعناً في السن. لأنه أقام في بطن ثمانين عاماً.

ولم يقف الناس في هذا الموقف عند حد.. بل لقد ملأوا الأرض بالشياطين والآلهة الجديدة. وكانوا يخيفون الأولى بصواريخ نارية تنفجر في أفنية الهياكل، وتبهج بانفجارها من يجتمع حولها من الناس.. كما كانوا يوقظون الثانية من سباتها بنواقيس ضخمة قوية الصوت لتستمع إلى دعوات عبادها ومطالبها الملحة.

* * *

واستمرت الأعوام تواصل سيرها الطويل.

البوذية في الصين:

وخلال سيرها الطويل كان الصينيون بين مؤمنين بالكونفوشيوسية ومؤمنين بالداوية.. وظلت العقيدتان معاً زهاء خمسمائة عام من بعد وفاة كونفوشيوس عقيدتي كل أهل الصين.

وعندما أمرَ الإمبراطور تسيني بحرق كتب كونفوشيوس وأتباعه، سمح بإبقاء تعاليم الداويين. وكان الإمبراطور تسيني نفسه يرجو أن يجد حبة السحر التي تجعله يخلد في الحياة ويحكم الصين إلى الأبد. وكان ذلك من الأسباب التي شجعت تعاليم الداوية خلال أيام حكمه.. ولكن اتباع كونفوشيوس بعد وفاة الإمبراطور أصبحوا أقوى قوة في الصين.

وفي خلال ذلك عاد التجار للصينيون من رحلاتهم في نيبال والهند ومعهم قصص رائعة عن أمير أسمه جاوتاما بوذا.

وكلما مرت الأعوام ازدادت القصص العجيبة التي يرويها هؤلاء التجار الصينيون عن الأمير جاوتاما وتعاليمه. وانتشرت القصص التي رواها التجار في جميع أنحا الصين ورددها الناس في إعجاب كبير بذلك الأمير البعيد.

وإذا كان الصينيون قد عبدوا الأسلاف دائماً. وكان الميت عندهم حقيقياً كالحي تماماً.. إلا أنهم كانوا بالطبع يريدون أن يعرفوا ما حدث لأسلافهم بعد الوفاة.

ولم تكن الداوية ولا الكنفوشيوسية لترد على الأسئلة الخاصة بالحياة بعد الموت، ولهذا عندما سمع الصينيون بعقيدة تفسر الحياة بعد الموت وتفسر النيرفانا، أرادوا أن يزدادوا بها علماً.

وهكذا سرعان ما انتشرت تعاليم بوذا في جميع انحاء الصين بعد أن غيّرها اتباع بوذا تغييراً كبيراً.

وبعد وفاة كونفوشيوس بخمسمائة عام أصبح الإمبراطور مينج بوذياً وأمر بترجمة المترياتاكي، كتاب البوذيين المقدس إلى اللغة الصينية، وتعليمه للشعب.

وقد حارب أتباع الكونفوشيوسية- وكانوا كثيرين في الصين- تلك العقيدة الوافدة عليهم حرباً شديدة. ولكن البوذية انتصرت بعد أعوام من الكفاح وانتشرت في جميع أنحاء البلاد، وتعمقت جذورها في الأرض كأنها شجرة السنط الضخمة. فلقد أراد الصينيون عقيدة تفسر لهم الأشياء التي

لم تفسرها الداوية أو الكنفوشيوسية.. فجاءت البوذية لتكون تلك العقيدة.

ولم يكن الشعب الصيني عندما اعتنق البوذية قد تخلى عن الداوية او الكونفوشيوسية. بل أضاف عقيدة جديدة إلى العقيدتين القائمتين.

ويوصف الصينيون الآن بأنهم الشعب. الذي يعتنق ثلاث.عقائد هي الكونفوشيوسية والداوية والبوذية.. وقد يعتنق صيني واحد هذه العقائد الثلاث معاً.



ويفوق عدد أتباع البوذية عدد أتباع كلتا العقيدتين الآخرين، وإن كان تأثير البوذية على شعب الصين ليس كتأثير الكونفوشيوسية على ذلك الشعب الكبير.

الشنتو

الحياة شبيهة برحلة طويلة ،
يحمل فيها الراحل حملاً ثقيلاً .
فاجعل خطاك وئيدة ثابتة ،
حتى لا تتعثر .
واقنع نفسك بأن النقص والتعب ،
هما نسيج الحياة الطبيعي ،
عند من تفنى حياته .
ولن يكون في حياتك ما يمد
لك في سبيل السخط
فإذا نزت بقلبك نزوات الطموح .
فتذكر أيام الشقاء الرهيب .
التي اجتزتها في ماضي حياتك ،
فالصبر هو أس السكينة .
انظر إلى السخط نظرتك الى عدوك ،
فإذا اقتصر علمك ..
على كيف تهزم الناس ،
ولم تعلم كيف تنهزم ،
فالويل لك ..
ويا سوء سبيلك في الحياة .
فاكشف عن الخطأ في نفسك ،
قبل أن تكشف عنه في غيرك .

« أيياسو »

من ثقب في السماء..

سقط على الأرض كل شيء حي

منذ أكثر من ألفين من السنين، كان اليابانيون يرون أن العالم مكان صغير جداً.. وأنهم وحدهم أهل هذه الدنيا، وأن مملكتهم التي كانوا يسمونها بلاد الجزر الثماني العظيمة هي كل العالم بما يحيط بها من الماء والجزر.

وحتى السماء ظنوها قريبة جداً منهم.. قريبة إلى درجة أن سهماً طويلاً جداً سبق أن أطلق من الأرض منذ زمن ممعن في القدم، فنفذ السهم من السماء وصنع فيها ثقباً.. ومن ذلك الثقب هبطت على الأرض آلاف الأشجار والنباتات والأعشاب وجميع الكائنات الحية.. حتى أن كل ما فوق الأرض لم يأت إليها إلا عن هذا الطريق.. السقوط من ثقب السماء!!!

ولما كان كل ما على الأرض قد جاء من السماء.. فإن المرء يستطيع أن يستنتج أن تلك السماء مليئة بآلاف أخرى كثيرة من كل هذه الأشياء..

وكان ذلك هو تماماً ما اعتقده اليابانيون الأقدمون..

واعتقدوا إلى جانب ذلك أن الحياة في السماء لا تختلف كثيراً عن تلك الحياة التي على الأرض.. وإن كانت اكثر منها جمالاً..

أما تحت الأرض.. فقد كان هناك عالم آخر.. فيه حياة وفيه ناس كما هو الحال فوق الأرض.. إلا أنها ليست لطيفة على أية حال..



وكان لا بد أن يكون هناك باب يؤدي إلى العالم السفلي.. وقد كان.. واعتقد اليابانيون القدماء أن هذا الباب كان مفتوحاً، وكان الناس يستطيعون الوصول إليه وزيارته..

ولكن زلزالاً هائلاً حدث ذات يوم فأغلق المدخل بحجر كبير..

ومنذ وقت طويل أيضاً كان هناك جسر بين السماء والأرض.. وكان الناس يستطيعون الصعود إلى السماء لزيارتها.. ولكن ذلك الجسر انكسر ذات يوم ولم يصلحه أحد بعد ذلك أبداً..!

عقيدة بسيطة:

وكانت عقيدة اليابانيين في تلك الأيام بسيطة جداً. فهي لم تكن بحاجة إلى تفصيل مذهبي أو طقوس معقدة أو تشريع خلقي، ولم تذهب إلى ما يبعث العزاء في نفوس الناس من الخلود والفردوس، ولم يكن لدى أصحابها صور أو تماثيل أو كتب مقدسة أو وصايا أو كهنة.. كل الذي آمنوا به هو أن النجوم والقمر والشمس والجبال والأنهار والرعد والمطر لها أرواح يمكن أن تنفع وأن تضر إذا أريد منها ذلك، وأن الناس إذا عبدوها هدتهم إلى العمل الصالح..

لهذا عبد اليابانيون القدامى كل هذه الأشياء.

فإذا أرادوا المطر ذهبوا إلى النهر ودعوه أن يعطيهم المطر.. وإذا أرادوا من المطر أن يكف وأن تشرق الشمس خرجوا وصلوا للشمس..!

والحق أنه ليس بين جميع العقائد الأولى في العالم عقيدة بمثل بساطة تلك العقيدة التي تسمى «الشنتو».. وهي عقيدة كان يطلق عليها اسم «كامي نو- ميشي» ثم عرفت باسمها الصيني «شنتو».. وكان الأصل في تلك التسمية أن الصينيين الأوائل كانوا يؤمنون بالأرواح الخيرة والأرواح الشريرة، وكانت الأرواح الخيرة تسمى «شن». وكانت تعاليم الفيلسوف القديم لاو- تسي تسمى «تاو» بمعنى الطريق. وهكذا أصبحت «شن تاو» تعني باللغة الصينية «الطريق إلى الأرواح الخيرة»!

فالأرواح هي أساس العقيدة اليابانية الأولى.. وهي تسري في كل شيء.. ليس فقط في كواكب السماء ونجومها ومظاهرها.. بل في نباتات الحقل وحشراته أيضاً.. وفي الأشجار والحيوان والإنسان.. وأصبح الناس يعتقدون أن عدداً كبيراً جداً من الآلهة يحوم فوق الدار وساكنيها ويرقص مع ضوء المصباح ووهجه إذا رقص.. ومن أجل الاتصال بالآلهة يستطيع المرء أن يقوم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة، كما يمكن الاتصال بالآلهة بفحص العلامات والخطوط التي تحدثها النار فحصاً تستمد منه المعونة من الخبراء.. وبهذه الطريقة كان اليابانيون يستوثقون من الخطوط الطيبة أو الخبيثة، ومن ملاءمة الظروف لقيامهم برحلات برية وبحرية أو عدم ملاءمتها.

وكان اليابانيون يخافون الموتى ويعبدونهم.. لأن غضبهم قد ينزل بالعالم شراً كبيراً. ومن أجل استرضاء الموتى كان لا بد أن يضع الناس لأسلافهم هدايا ونفائس في القبور.. وأبرز تلك الهدايا السيف إذا كان الميت رجلاً والمرآة إذا كانت امرأة.. وكان الناس يؤدون الصلاة ويقدمون الطعام الشهي الفاخر أمام صور هؤلاء الأسلاف في كل يوم..

وكان يحدث في أحيان كثيرة أن يلجأ الناس إلى التضحية البشرية خاصة إذا أبى المطر الغزير أن يتوقف.. أو أريد لجدار أو بناء كبير أن يثبت ولا ينهار.. وكم حدث أن دفن الأتباع مع سيدهم الذي مات ليدافعوا عنه في أولى مراحل حياته الآخرة..!



وكانت عبادة هؤلاء الأسلاف أيضاً أساساً من الأسس الرئيسية التي قامت عليها عقيدة «الشنتو».

وعرف للعقيدة صورتان: العقيدة الدولية التي تتجه بالعبادة إلى الحاكمين الأسلاف، وهم الآلهة الذين أسسوا الدولة وأقاموا بناءها.. والعقيدة المنزلية التي تتجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة..



على أن العقيدة في كلتا الحالتين لم تطلب من الناس أكثر من أن يحجوا حيناً بعد حين لأسلافهم ويقدموا لهم الضراعة والخشوع.. وأن يفعلوا ذلك أيضاً لإمبراطورهم ولماضي أمتهم. وقد كان معتنقو هذه الديانة يخاطبون السلف المقدس الأول الذي جاءت عنه سلسلة الأباطرة، ضارعين سبع مرات كل عام.

ومن هنا عبد اليابانيون أصحاب عقيدة الشنتو.. إمبراطورهم.. الميكادو.. إذ كانوا يرون أن الميكادو ليس بشراً مثلهم، بل هو أقرب شبهاً للشمس أو القمر أو جبل فوجي المقدس.. وهو كائن كالآلهة لا بد أن يعبد.

فلماذا عبد اليابانيون الميكادو؟

إن الرد على هذا التساؤل يجيب عليه الكتابان المقدسان لعقيدة الشنتو، وهما «الكوجيكي» و«النيهونجي».

* * *

قصة الخلق:

تقول القصة الواردة في الكتابين المقدسين:

في البداية كانت الآلهة..

وكانت الآلهة تولد ذكراً وأنثى، ثم تموت، حتى حدث في النهاية- في زمن كان يعيش فيه الجيل السابع من الآلهة- أن أصدر شيوخ الآلهة أمرهم إلى إلهين شابين هما «ايزاناجي» و«ايزانامي» بأن يخلقا الأرض ويقيما عليها الحياة.

وعلى رأس قوس قزح.. ذلك الجسر الرائع الذي ينحدر من السماء إلى حيث مياه المحيط الواسع اللانهائي.. وقف الإله الشاب ايزاناجي وفوق رأسه إكليل من النور، يطل في حيرة الى رفيقته الإلهة إيزانامي بجمالها الرائع وشعرها المسترسل على كتفيها كأسلاك الذهب.

وبدا لإيزاناجي أن يتحسس برمحه الطويل المرصع بالجواهر صفحة الماء عله يجد شيئاً صلباً وسط هذا المحيط يتخذان منه مقراً للعالم الذي كلفا أن يخلقا فوقه الحياة. إلا أن الرمح لم يعثر على شيء صلب قط. ورفع الإلّه الشاب رمحه في يأس، ولم يكد يفعل حتى تساقطت من الرمح قطرات من الماء راحت تتجمع وتتكثف وتصلب وتمتد فوق صفحة المحيط لتصبح أرضاً صلبة واسعة.. كانت هي نفسها جزيرة «أناجورو». وعلى سطح هذه الأرض هبط الإلّهان.. وبدأت قصة الخلق..

ولم تكد أقدام الإلّهين تمس الأرض الجديدة حتى بدا لهما كأن كلا منهما يرى الآخر لأول مرة.. كان هناك شيء غريب يحدث للمرة الأولى على هذه الأرض.. شيء اسمه الحب..!

وراحت الربة الحسناء تتأمل حاله في إعجاب، وهو يقيم نصباً ضخماً يبدآن منه دورتين يكتشفان خلالها هذه الأرض الجديدة، ثم يعودان ليلتقيا عنده مرة أخرى.

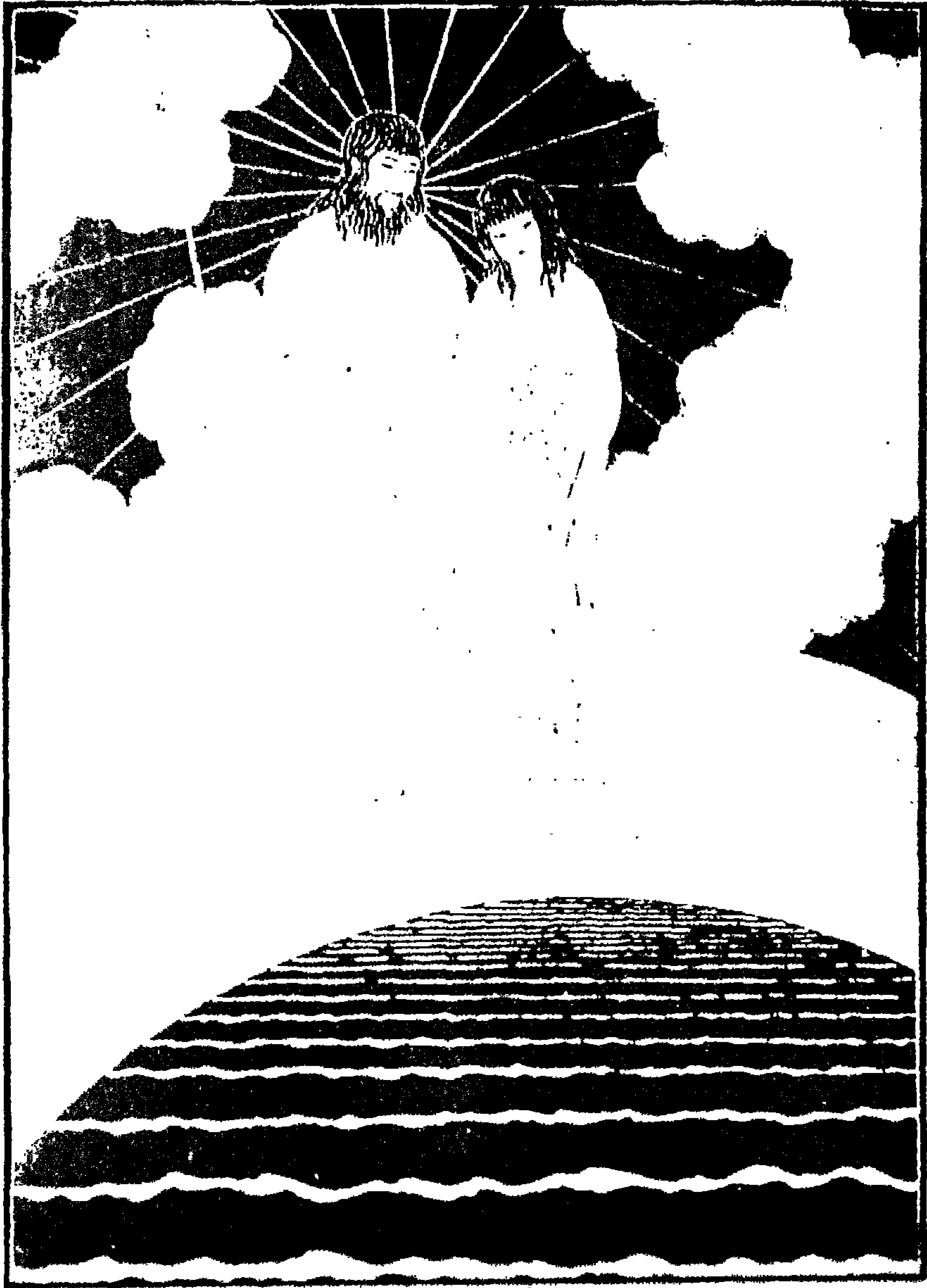
وبدأ كل منهما دورته، فأخذ إيزاناجي أحد الاتجاهين، وسارت ايزانامي في الاتجاه المضاد. وبينما كان كل منهما يأخذ طريقه على طول شاطيء الجزيرة، أخذا يشهدان ما تصنعه الضفادع في الماء وفوق الرمال، وأخذ بهما العجب وهما يكشفان سر اتصال الذكر بالأنثى، وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة لم يعرفاها من قبل.. لماذا لا يفعلان كما تفعل الضفادع..؟



وقد كان..

وتزوج الإلّهان..

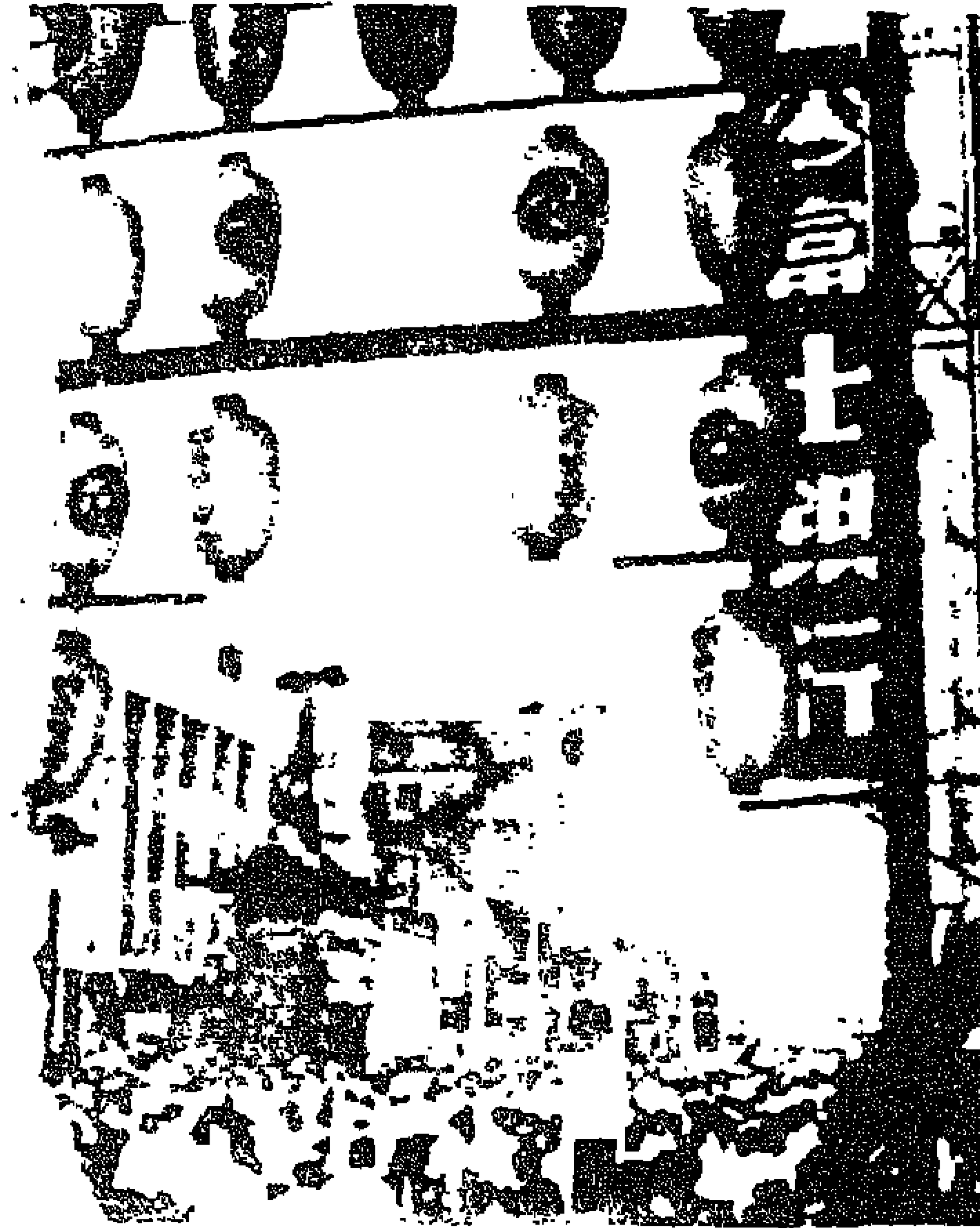
ولم يكد يمضي من الوقت سوى قليل حتى أنجبت ايزانامي أربعة آلاف ومائتين وأربعة وعشرين إبناً هم مجموع جزر اليابان، بكل ما فيها من جبال وأنهار وصخور، وبكل ما يعمرها من ناس وحيوان ونبات، تتساقط كما تقول الأسطورة من الثقب الذي حدث في السماء.



الإلهان الشابان.. إيزاناجي.. وإيزانامي.. يعبران قوس قزح بين السماء والأرض.



«أماتيراسو» ربة الشمس.. تمنح المرآة السحرية من كبير الآلهة







الاحتفالات الدينية لشعب اليابان.. ويرى مواكب الحجيج.. بينما كبار رجال العقيدة يؤدون الصلاة للآلهة



تمثال كوانون ربة الرحمة.. إنها مزار الشعب في جميع الأعياد



موكب الكهنة .. في عيد ابن السماء

وتساءل الإلهان يوماً.. لمذا لا يخلقان إبناً جديداً يكون سيداً لكل الأرض..!؟

ولم يكن هناك ما يمنع من التنفيذ..

ولدت إيزانامي أنثى هي «أماتيراسو» ربة الشمس، كان لها من الجمال والروعة ما جعل والديها يرسلانها على الجسر الإلهي إلى السماء، لتستقر هناك وترسل أشعتها الذهبية لتنير الأرض.

وعاد الإلهان ينجبان من جديد.. وكان الإبن التالي هو «تسوكي يومي» إله القمر، الذي أرسله أبواه على قوس قزح ليستقر هو الآخر في السماء..

وعندما اختلف الأخوان في السماء لم يجد أبوهما بداً من أن يبعد كلا منهما عن الآخر.. فمنح أما تيراسو مملكة النهار، ومنح أخاها مملكة الليل.

واستمر الأبوان ينجبان.. فجاء لهما «سوزانو».. إله العواصف، ثم «كاجو تسوتشي».. إله النار..

غير أن الأخير لم يكد يولد حتى أصاب أمه بحمى قاسية شديدة أحرقتها. وكان لا بد لإيزانامي بعد ذلك أن تنحدر الى العالم السفلي بعيداً عن الأرض التي خلقتها..

وتحكي قصة الكتابين المقدسين بعد ذلك كيف كافح الأب ليحاول إنقاذ زوجته من العالم السفلي.. ولكن كل جهوده عبثاً، واضطر إلى الهرب من الجحيم عائداً إلى الأرض..

في ذلك الوقت كان هناك صراع آخر يجري بين الآلهة الأبناء.. أما تيراسو وتسوكي يومي وسوزانو.. وكان الصراع مريراً انتهى آخر الأمر بانتصار ربة الشمس، التي كانت قد غضبت لعدم تأييد بقية الآلهة لها، خلال صراعها مع أخيها رب العواصف، فاختفت عن الظهور، وعاش الناس في الظلام يصرخون.. فلما انضم إليها الآلهة وناصروها واشتركوا جميعاً في هزيمة سوزانو.. عادت إلى عرشها ولم تغب منذ ذلك اليوم عن أرض اليابان أبداً..

وعادت الحياة إلى الأرض. وانقطعت عن الآلهة صرخات الاستنجاد التي كانت تنبعث من أهلها.

غير أن الآلهة عادوا يجتمعون من جديد.. ولم يكن صراخ سكان الأرض هذه المرة هو السبب، بل كان الضيق الذي أصابهم مبعثه ذلك الطنين المزعج المنبعث من كل ما على الأرض من جبال وصخور وسهول وأشجار، فقد كانت كل هذه الأرواح لا تزال تتكلم تماماً كأبناء البشر.



وكان الطنين الذي يحدثه كلامها يؤرق آلهة السماء. فلم يكن بد من الاجتماع لمناقشة الأمر والبحث عن وسيلة للقضاء على الضجيج وإرساء السلام والهدوء على الأرض.

وعندما ارتفعت أصوات الآلهة خلال المناقشة.. تقدمت ربة الشمس باقتراحها أن ترسل حفيدها «نينيجي» فيحكم هذا العالم المضطرب ويعيد إليه المجد والسلام. ووافق الجميع.



وقربت أماتيراسو حفيدها منها، ومنحته بركاتها ونصائحها وزودته بهدايا قيمة ثمينة، من بينها أحجار كريمة اقتطعت من سلم السماء، وكرات شفافة من قبتها، وسيف خالد وجد في قلب التنين، كما منحته المرآة السماوية الخالدة التي أهداها لها كبير الآلهة.

وانطلق نينجي - ابن السماء - في طريقه إلى الأرض.. واستقبله رب الحقول الذي أخذه في رحلة طويلة مرهقة حول الأرض، التي كان عليه أن يحكمها ويهديها إلى السلام. وفي إحدى المناطق المقدسة استقر رأيه على إقامة قصره..

وهناك شهد نينيجي حسناء رائعة تنتصب قائمة إلى جوار حدائق الزهور.. وتقدم ابن السماء منها يسألها من تكون. فقالت له:

- أنا كونوهانا إبنة ملك الجبل المقدس.. ومهمتي أن أصنع الزهور التي تغطي أشجار هذه الأرض..

ووقع ابن السماء في هوى ابنة ملك الجبل.. وعندما انطلق إليه يطلب

يد ابنته، أبى هدا إلا أن يروجه أختها الكبرى معها.. برغم دمامتها وقبحها.. فقد كانت هي ربة الصحور.. وكان الأب يريد لأبناء بسه أن تكون أعمارهم خالدة كعمر الصخور..

ولم يجد نينيجي بدا من الزواج بالأختين.. غير أن كل حبه كان يتجه إلى الزوجة الحسناء.. وبدا منه إهمال كبير لشقيقتها المشوهة. التي أقسمت أن تنتقم..

وقد كان.. فذات يوم أعمت الغيرة قلب نينيجي على زوجته الحسناء.. ولم يكن هناك من سبب لتلك الغيرة المجنونة التي شقيت بها كونوهانا.. والتي جعلتها تنطلق إلى كوخ وتغلقه على نفسها. ثم تشعل في نفسها النار.

ومن بين ألسنة اللهب خرج ثلاثة أطفال.. كان من بينهم «هوري» الذي تسلسلت منه سلسلة مقدسة متصلة الحلقات من «الميكادو».. هم الأباطرة الذين جلسوا على عرش اليابان منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.

* * *

عبادة الميكادو:

عن طريق هذه القصة أمكن تحديد أسس كثيرة عن حقيقة عقيدة الشنتو.

وعن طريق هذه القصة أيضاً عبد اليابانيون الميكادو.. بل أن الناس حتى اليوم يعتقدون أن هيروهيتو هو الحفيد الرابع والعشرون بعد المائة لإلّهة الشمس اماتيراسو.

ومن أجل ذلك أيضاً استطاعت عقيدة الشنتو بتبشيرها بأن الميكادو هو حفيد إلّهة الشمس، أن تجعل أتباعها يؤمنون بأن واجبهم الديني هو الولاء لحاكمهم.. وبتعليمها الناس كيف يعبدون جبال اليابان ووديانها.. ملأت اعماقهم بالحب والعشق لبلادهم.

وكان لا بد بعد ذلك كله أن تجمع عقيدة الشنتو بين الوطنية والدين.. وأن يحمل علم اليابان حتى اليوم شمساً حمراء لتبين أن أرض اليابانيين هي الأرض المشرقة حيث كانت إلّهة الشمس أما تيراسو تقيم..

فهل استطاعت هذه العقيدة أن تواصل سيرها بقوة في اليابان.. رغم ظهور البوذية والكونفوشيوسية...!؟

الواقع أن اليابانيين تعلموا عن الصينيين منذ وقت قديم كيف يفلحون الأرض ويزرعون الأرز ويربون دودة القز ويغزلون الحرير وينسجونه.. كما تعلموا كيف يكتبون ويصورون وكيف يصنعون عدة أشياء..



ومن السهل توضيح السبب في مشابهة الكتابة والموسيقى والعقائد اليابانية لمثيلاتها في الصين..

فقد استعارت اليابان من الصين كتابتها وفنونها وعقائدها.. إذ هي أقرب جاراتها.

وعندما كان في الهند رجال عظام مثل الأمير ماهافيرا الجانتي والأمير جاوتاما البوذا. يقومان بتغيير عقائدها القديمة.. لم تكن اليابان أكثر من مجموعة من الجزر البرية تسكنها بعض قبائل من المتوحشين يتصارعون بصورة أبعد ما تكون عن الحضارة. وعندما كانت الصين من القدم بحيث أصبح فيها كتب في الفلسفة وكتب في الاحتفالات تقول للناس كيف يفعلون عند ذهابهم إلى المعبد.. كان اليابانيون شعباً بسيطاً بدائياً يعيش على صيد البر والبحر.

وأطلق الصينيون على اليابانيين وقتئذ اسم «الأقزام» ووصفوهم بأنهم شعب يرسم الوشم على وجوه أفراده ويحارب بالرماح والقسي والسهام.

وعندما بدأ الصينيون يرسلون إلى اليابانيين فن الكتابة وفن صنع الآلات الموسيقية، وأفكارهم عن كيفية زراعة الأرز وصنع الحرير من غزل دودة القز، ابتهج اليابانيون كل الابتهاج بتلقي هذه الهبات الرائعة، وكانوا متحمسين للتعلم.

وقد كان اليابانيون منذ بداية تاريخهم حتى الوقت الحاضر، تلاميذ مجربين يتعلمون بسرعة أي شيء يثير اهتمامهم. فلما تلقوا معرفة الكتابة والزراعة والفنون والعقائد من الصين، غيروا كل ذلك تغييراً كبيراً بحيث يلائم مناخهم وحياتهم.. وهما مختلفان اختلافاً كبيراً عن مثيليهما عند الصينيين.

وبينما كان اليابانيون يتعلمون عن الصينيين كل هذه الأشياء. استطاعوا أن يأخذوا عنهم أيضاً كيف يفكرون وماذا يعتقدون.

فقد وصلت إليهم تعاليم كونفوشيوس حكيم الصين.. وكانت تعلم عبادة الأسلاف..

البوذية في اليابان:

ثم جاءت البوذية إلى الصين عن طريق الهند وتعمقت جذورها لتمتد بعد ذلك مع البعثات الدينية شرقاً إلى كوريا واليابان.

وأصبح ملك كوريا منذ ١٣٠٠ سنة بوذياً.. وأرسل إلى ميكادو اليابان تمثالاً لبوذا مصنوعاً من الذهب الخالص.. ومعه عدد من الكتب البوذية المقدسة..

ولكي يعبر الميكادو على احترامه لهذه الهدايا وتقديره لها، أقام معبداً خاصاً أقام فيه تمثال بوذا الذهبي وكتبه المقدسة.

وعندما عرف ملك كوريا كيف أقيم معبد بوذا.. أسرع فأرسل كهنة بوذيين إلى اليابان لتفسير عقيدتهم.

وهكذا وصلت البوذية إلى اليابان هدية من ملك لآخر..

ولكن هذه البوذية لم تكن هي البوذية التي خرجت من الهند منذ ألف عام سابقة.. إذ عندما خرجت تعاليم بوذا من الهند كانت تعلم بساطة العيش واتباع الطريق المستنير والقضاء على عبادة الأصنام.. إلا أن البوذية الجديدة التي عبرت جبال الهيملايا عبر التبت، ومرت بالصين ثم

كوريا حتى وصلت الى اليابان كانت قدتغيرت تماماً.. وأصبح بوذا نفسه معبوداً يعبده الناس.. وإلى جواره معبودات أخرى كثيرة تحيط به..

خرج بوذا من موطنه متسولاً فوصل اليابان أميراً يتقدمه جيش من المعبودات المتألقة ويسير خلفه جيش من المعبودات بين ذكر وأنثى.

وعندما رأى الياباني البسيط موكب الآلهة والمعبودات العديدة الفتية، وسمع القصص العجيبة عن حياة بوذا وأعجب بها. وجد نفسه ببساطة أيضاً يعتنق البوذية ويدخل الناس معه أفواجاً في الدين الجديد..

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح للبوذية معابد في كل مدينة في اليابان وأصبحت أكثر العقائد انتشاراً.. بل لقد أصبحت تهدد بطرد عقيدة الشنتو نفسها من البلاد التي نشأت فيها.

ولكن الشنتو كانت تعلم عبادة الإمبراطور. ولهذا ساعد الإمبراطور في بقائها حية بين شعب اليابان..

ومع ذلك فقد كان هناك عامل هام في إنقاذ عقيدة الشنتو.. هو أن العقيدة القديمة كانت على وفاق مع عقيدة كونفوشيوس.. وصاغت العقيدتان معاً قواعد للطريق الذي يجب على الناس أن يتبعوه.. وخاصة النبلاء.. وهو ما يعرف في اليابان باسم «يوشيدو».. ومعناه «طريق الفرسان».. الذي يفرض على الناس أن ينتحروا بشق بطونهم بأيديهم وإخراج أمعائهم من أجل الوصول السريع إلى الشرف.. والمجد!!!

★ ★ ★

النظام الاجتماعي:

بقدر ما كانت الصين بلداً محباً للسلام. كانت اليابان في أوائل التاريخ القديم تعيش في حروب لا نهاية لها قط.. تحارب كوريا يوماً وتدخل مع جيرانها في صراع مخيف يوماً آخر.. فإذا لم يكن هناك ما يدعو لقتال

خارجي.. انقلبت الآية ودخل اليابانيون في معارك دامية ينهشون خلالها بعضهم بعضاً.

وفي البلاد التي تكثر فيها الحروب يصبح المحاربون محل إعجاب كبير. وهذا هو ما حدث بالضبط في اليابان حيث أصبح كل من حمل السيف وقاتل به يعتبر بطلا.. حتى أصبح شرفاً كبيراً للمواطن أن ينتمي إلى طبقة المحاربين، كما أصبح قادة هؤلاء الجنود نبلاء اليابان. وأطلق عليهم اسم «الفرسان».

حتى الميكادو نفسه.. تأثر مكانه وسلطانه بوجود كبير الفرسان.. وهو الشوجن.. أي الحاكم العسكري..

فالميكادو من الوجهة النظرية هو الإمبراطور المفدى.. أما السيد الحاكم حقيقة فقد أصبح هو هذا الحاكم العسكري الذي صار منصبه هو الآخر وراثياً.. وأصبح هو نفسه الذي يحدد ميزانية الإمبراطور وحاشيته. فكان يسمح للامبراطور وحاشيته بمبلغ يعادل خمسة وعشرين ألف ريال كل عام، مقابل الاحتفاظ بالأسطورة التي تؤثر في جميع النفوس أثراً عميقاً وتقول بإطراد الحكم في بيت واحد. بل أن الحكام العسكريين أصبح من مبادئهم الا يتركوا للامبراطور ذرة من السلطان، وأن يعزلوه عن الشعب وأن يحيطوه بالنساء، ويفتوا في عضده بالتخنث والتعطل. بينما جعل الحاكم العسكري لنفسه امتيازات هي عادة من حق الإمبراطور «ابن السماء». فإذا سار في الطريق محمولاً في عربته التي يجرها ثور، أو محمولاً في محفته أمر رجال البوليس كل المنازل على طول الطريق بإغلاق الأبواب والمصاريع الخشبية، وأن تطفأ كل النيران وتحبس القطط والكلاب كلها داخل الدور، وأن يسجد الناس على جانبي الطريق رؤوسهم على أيديهم وأيديهم على الأرض.. وكان للحاكم العسكري حاشية تضم أربعة مضحكين وثماني سيدات مثقفات واجبهن أن يسلينه في غير التزام لقواعد الحشمة.



الساموراي:

وكان يحيط بالحاكم العسكري ومن خلفه أمراء الإقطاع ألوف من فئة المحاربين الذين أطلق عليهم اسم «الساموراي».

ولم يكن هؤلاء الفرسان مجرد وطنيين ومحاربين فحسب.. بل كانوا أيضاً علماء وسادة. واجتمع هؤلاء ووضعوا كتاباً عن الطريقة التي يجب على الرجل الذي ينتمي لطبقتهم أن يتبعها.. وقالوا أن كونفوشيوس كان رجلاً مهذباً مثالياً.. فأخذوا تعاليمه مرشداً وهادياً لهم واستخلصوا منها قواعد السلوك للفرسان.. وسميت هذه القواعد «بالبوشيدو».

وقواعد البوشيدو عديدة.. ولكن أهمها هي الطرق العشرة للسيد المهذب، وتشتمل على صفات الشجاعة والعدل والإحسان والأدب والشرف والإخلاص وضبط النفس والحكمة وحب التعلم. وكان جوهر فكرة البوشيدو أنها القدرة على اختيار السلوك في الحياة وفق ما يمليه العقل دون تردد.. وأن يموت المرء حين يجب عليه أن يموت، وأن يضرب حيث ينبغي له أن يضرب.

وكان التقدير الذي ينالونه مقابل ذلك منحهم امتيازات كثيرة. فقد اعفوا من الضرائب، وكان لهم الحق في مقدار من الأرز يعطيه لهم السيد الذي يخدمونه.. وكانوا يحتقرون الحب ويعدونه لعبة رشيقة، بينما كان الميسر والعربدة جزءاً متمماً لحياتهم.

ومن أجل أن يحافظوا على قوة سيوفهم وأيديهم في الطعان كان من حقهم أن يدفعوا المال للجلاد في مقابل أن يسمح لهم بجزر رقاب المحكوم بإعدامهم. كما أن للرجل من فئة «الساموراي» أن يستعمل سيفه للقضاء على أي إنسان من الطبقات الدنيا إذا أساء إليه، وإذا كان سيفه جديداً وأراد أن يجربه فيجوز أن يفعل ذلك في كلب أو شحاذ..

وأخذ الساموراي على أنفسهم أن يعيشوا حياة خشنة مقترة، حتى أنهم لا يأكلون في اليوم إلا وجبة واحدة، يتناولون خلالها أي طعام يصادفهم

مهما كانت حقارته. وكانوا يحتملون الآلام على اختلافها صامتين، ويكبحون في أنفسهم كل ما يمكن أن يدل على انفعالاتهم، حتى أنهم علموا زوجاتهم كيف يتهللن بشراً إذا ما بلغهن أن أزواجهن قد قضوا نحبهم في ساعة القتال.

ولم يكن المحاربون يلتزمون الطاعة إلا لرؤسائهم، لأن طاعة الرؤساء جزء من تشريعهم الذي وضع تلك الطاعة فوق حب الآباء لأبنائهم أو الأبناء لآبائهم.

وأخذت قواعد البوشيدو مع مضي الوقت تتطور وتفسر بطريقة غير التي أريدت لها. فبينما كانت البوشيدو تطلب من الفارس أن يكون شريفاً فحسب، تحولت بعد ذلك ليفسرها الفرسان المتأخرون بأنه من واجب الفارس أن يقتل نفسه عندما يموت رئيسه. لكي يخدمه ويحميه في الحياة الآخرة.

الهارا كيري:

ثم كان بعد ذلك آخر قوانين البوشيدو. وهو قانون «هارا كيري» ومعناه الانتحار بإخراج الأمعاء. والحالات التي تقتضي من الرجل منهم أن ينتحر على هذا الوجه كثيرة.. فإذا حكم بالموت على رجل من ذوي المكانة البارزة سمح له بأن يبقر بطنه بنفسه من اليسار إلى اليمين ثم يشقها إلى أسفل، مستخدماً في ذلك سيفه الصغير الذي كان الواحد منهم يصطحبه دائماً اينما ذهب خارج بيته. وإذا هزم أحدهم في القتال أو اضطر إلى الاستسلام لعدوه، كان من حقه أن يبقر بطنه ويخرج أمعاءه بطريقة الهاراكيري، وإذا لقي الواحد منهم إساءة من سيده، فإنه إذا كان محارباً أصيلاً يهلك حياته بالانتحار عند باب ذلك السيد.



وكان فن بقر البطن بمثابة الطقوس الدينية في عقيدة الشنتو، وهو في طليعة ما يدرسه الشاب من فئة الساموراي. وآخر علامات المودة التي يبديها الصديق لصديقه، أن يقف إلى جانبه ليجز له

ذراعه فيفصلها عن جسده بعد أن يكون ذلك الصديق قد بقر بطنه هو نفسه بيده.

وكانت الهاراكيري وقفاً على الرجال دون النساء.. فقد كانت الهاراكيري محرمة على النساء والسوقة. ولكن سمح للنساء إذا أصابتهن إساءة بنوع آخر من الإنتحار.. وهو بأن يقطعن رقابهن بالخناجر وأن يقطعن الشرايين بضربة واحدة. وكانت المرأة ذات المركز الاجتماعي الكبير تتلقى تدريباً في عملية جز الرقبة.. وتتعلم كيف تربط ساقيها قبل قتل نفسها خشية أن تقع الأبصار على جثتها وهي في وضع لا يتفق مع ما تقتضيه العفة..!

وهكذا أصبح السيف نفسه- بضرورة وجوده مع كل فرد من طبقة الساموراي- مقدساً عندهم وصاروا يعبدونه.

★ ★ ★

أسس الإيمان:

ومضت عقيدة الشنتو تسير في طريقها والناس يؤمنون بها كل الإيمان.. فقد كانت الشنتو تستحق ذلك الإيمان بالفعل..

وكان شعور الولاء الذي يعلن عن نفسه في الوطنية وفي الحب وفي حب الوالدين وحب الأبناء وحب الوطن.. هو نفسه الشعور الذي لا بد أن يلتمسه الناس في العالم كله.

وبرغم الاعتدال في التدين الذي كان من طبيعة إيمان اهل اليابان حتى أنهم لم يكونوا كالهندوس مثلا في عمق إيمانهم انديني وشدة انغماسهم في ذلك الدين، إلا أنهم مع ذلك أخلصوا إخلاصاً ظاهراً للتقوى والصلاة والفلسفة التي تنتهي بهم إلى التفاؤل.

وكان اليابانيون أهل مرح لا يحبون التشاؤم.

وعندما جاءت البوذية هدية من ملك كوريا إلى اليابان.. لم تلبث تحت سماء اليابان أن تحولت من عقيدة يملؤها التشاؤم، إلى عقيدة قوامها آلهة واقية، وإلى محافل دينية تبعث الغبطة في النفوس، كما تحولت إلى أعياد مرحة، وجنة موعودة تسري عن الصدور كروبها. فقد آمنت البوذية اليابانية بالجحيم كما آمنت بالجنة، بل آمنت بوجود مائة وثمانية وعشرين جحيماً أعدت لشتى الغايات ومختلف الأسماء، كما آمنت أيضاً بعالم القديسين وبعالم الشياطين الذي كان على رأسهم شيطان يسمى «أوني» له قرون وأنف أفطس ومخالب وأنياب ويسكن في مكان مظلم يقع في الشمال الشرقي من العالم، وهو يستطيع بين الحين والحين إغراء النساء بالذهاب إليه هناك ليمتعنه.

ولكن إلى جانب هذا كانت عقيدة البوذية اليابانية تقول إن هناك «بوذيين» كثيرين على استعداد أن يخلعوا على الناس جزءاً من الرحمة. وكان هناك آلهة للرحمة فعلاً اسمها «كوانون» قيل أنها زارت الجحيم يوماً ونزلت إلى أعماقه حيث أظهرت عطفها على المذنبين وأطلقت سراحهم. وكان هناك إله آخر يشبه المسيح اسمه «جيزو». وكانت العبادة تؤدى بعضها صلاة عند مذابح المنازل أو عند أضرحة المعابد. على أن معظم مظاهر عبادتهم كانت تتخذ صورة المواكب المرحة، إذ كانت الديانة تخلي المكان الأول لمظاهر الغبطة والفرح. وكان العابد يستطيع وهو في عبادته أن يطهر روحه بالصلاة ربع ساعة تحت شلال دافق في قلب الشتاء، أو بالانطلاق في رحلات ينتقل فيها من ضريح إلى ضريح من أضرحة الأسلاف..

وأصبحت البوذية اليابانية من أمتع ما اعتقدته الإنسانية، ولم تحاول ان تطغى على العقيدة الأصيلة، ولم يتعذر عليها ان تخلي من نفسها مكاناً للآلهة القديمة التي آمنت بها «الشنتو».. وهكذا اندمج بوذا بأماتيراسو ربة الشمس وخصص مكان متواضع في المعابد البوذية لعبادة الشنتو.

فساد الكهنة:

ومع مضي الأيام تحول كهنة البوذية اليابانية إلى طرق أخرى غير الدين. فراحوا ينظمون لأنفسهم جيوشاً للحصول على نفوذ سياسي وسلطان.. وازدادت ثرواتهم بينما الشعب فقير جائع.. وراح الكهنة يستغلون الناس فقالوا للعباد المؤمنين أن الرجل في سن الأربعين يمكنه أن يشتري عدداً آخر من السنين يضيفه إلى حياته، إذا هو دفع رسوماً لأربعين معبداً تدعو به بعمر جديد.. ويمكن للرجل وهو في الخمسين أن يشتري عشر سنوات جديدة من العمر إذا دفع الرسوم لخمسين معبداً تطلب له من الآلهة طول العمر.. وفي سن الستين يستطيع الإنسان أن يستأجر ستين معبداً لنفس السبب. أما إذا مات خلال ذلك فلا يكون هذا إلا بسبب نقص في إيمانه بقدر عدد السنوات التي يجب أن يعيشها ودفع من أجلها الرسوم.!

على أن البوذية اليابانية فقدت سلطانها على الأمة بعد ذلك ببضع عشرات من السنين.. واتجه الحكام العسكريون خلال القرن الثامن عشر إلى الكونفوشيوسية الجديدة الوافدة من الصين.. ونهض زعيمان يتزعمان حركة تدعو إلى إحياء عقيدة الشنتو.

ونهض علماء آخرون ينقدون الدين نقداً عقلياً. فقال «اشيكاوا» في جرأة أن الأصول الدينية التي تتناقلها الأجيال عن طريق الرواية الشفوية قد ابتعدت عن أصولها الحقيقية.

وبذلك يكون الأصل المزعوم للجزر اليابانية وأنها قد جاءت من قطرات الرمح الذي أمسك به الإله إيزاناجي بعيداً عن التصديق. وتبعاً لذلك يكون الإدعاء بأن الأسرة الإمبراطورية من أصل إلَهي إن هو إلا حيلة سياسية، وأنه إذا كان أسلاف البشر بشراً مثلهم فالأرجح أن يكونوا حيوانات وليسوا آلهة.

الكونفوشيوسية:

وعندما دخلت الكونفوشيوسية إلى اليابان.. كان ذلك على يد رجل من سلالة الأسرة اليابانية الشهيرة « فيوجيورا سيجوا ». وكان ذلك الرجل قد سمع بحكماء عظام في الصين فقرر الارتحال إليها برغم أن الاتصال بالصين كان محرماً في ذلك الوقت. واضطر الفتى لتدبير خطة يعبر بها مياه البحر في سفينة كانت تشتغل بالتهريب. وإذ هو في السفينة سمع طالباً يقرأ كتاباً صينياً عن كونفوشيوس.. وأعجبه ما فيه.. فانطلق يبحث عن نسخ من كل ما أنتجته الفلسفة الكونفوشيوسية، وانغمس في تتبع ما في هذه الكتب من مجادلات حتى نسي رحلته إلى الصين، ولم تمض أعوام حتى جمع حوله طائفة من طلبة العلم الناشئين، الذين نظروا الى فلسفة الصين نظرتهم إلى وحي أوحى به إليهم عن عالم جديد يسوده الفكر الدنيوي.

واستطاع أحد تلاميذ سيجوا واسمه « هاياشي » أن يملأ صدور أتباعه بالحماس للفلسفة الصينية، حتى لم يعد عسيراً عليه أن يجتذبهم من البوذية والمسيحية على السواء، ويضمهم إلى العقيدة الخلقية البسيطة التي أشاعها كونفوشيوس في أرجاء الشرق الأقصى. وراح داعية الكونفوشيوسية الجديد في اليابان يقول للناس ان اللاهوت المسيحي خليط من أوهام خلقها الخيال ولا تعلقها العقول. كما أنبأهم ان البوذية مذهب يفت في عضد الأمة اليابانية ويتهدد نسيجها بالوهن وروحها المعنوية بالضعف. وكان يقول: «إن كهنتكم يذهبون إلى أن هذه الحياة الدنيا فانية زائلة، ثم تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعية، وبهذا تقتلون في الناس روح الواجب والعمل والصواب، ثم تقولون أن طريق الإنسان محفوف بالخطايا فاهجر اباك وأمك وأبناءك ومولاك وابحث عن الخلاص. ولكني أقول لكم أني قد تعمقت الدراسة، فلم أجد قط للإنسان طريقاً سوى ولائه لمولاه وطاعة الإبن لأبيه».



واستمرت الكونفوشيوسية تواصل سيرها في اليابان.. جنباً إلى جنب مع البوذية.. والشنتو القديمة..

وعاشت اليابان على هذا الإيمان حتى اليوم.

ومن قبل عندما وصل أول تمثال ذهبي لبوذا إلى اليابان، كان في تلك البلاد عدد قليل من الناس. فلم يكن في الآلاف الأربعة والمائتين من الجزر أكثر من بضعة ملايين قليلة لا تتجاوز الستة.. ولكن عددهم أخذ في النمو والازدياد حتى تجاوز ثمانين مليوناً يعيشون تحت علم الشمس المشرقة.

وعندما أصبحت اليابان أمة عظيمة قوية في الشرق الأقصى.. أراد الناس في الغرب أن يعرفوا عنها كل شيء.. كيف يعيش أهلها وماذا يرتدون وما هو سلوكهم وكيف يفكرون.

ولكن القليلين في الغرب هم الذين عرفوا شيئاً عن اليابانيين. فقد ذهبوا إلى الجزر اليابانية وعادوا يروون الكثير عما يجري في بلاد الشمس المشرقة.

وفي أغلب الكتب قال الرحالة أن أهم أشياء ثلاثة لاحظوها في اليابانيين هي:

... حب اليابانيين للطبيعة.

... حبهم للفنون.

... حبهم للتعليم.

وقال الذين ذهبوا إلى اليابان في ذلك الوقت وشهدوا حياة الناس في ظل العقائد الثلاث، أنه ليس في العالم كله شعب يحب الطبيعة كما يحبها اليابانيون، فهم يحبون الجبال والأنهار والغابات والأزهار حباً يفوق حبهم كل ما عداها. حتى الأطفال عندما يكونون صغاراً يعلمون كيف ينسقون الأزهار في أوانيها، وتقام المهرجانات للاحتفال بمواسم بعض الأشجار.. وهم حين يزرعون أشجار الكريز والبرقوق والخوخ لا يفعلون ذلك من أجل ثمارها بل لشيء آخر.. من أجل براعمها وأزهارها.

ولكن هناك ما هو أعظم من حب اليابانيين للطبيعة وهو حبهم للفن.. فالشعر والتصوير لهما في نفس كل ياباني أثر عميق. ولا يستطيع المرء قبل أن يدخل بيتاً من بيوت اليابانيين أن يدرك المدى البعيد لأهمية الفن لديهم.. فبيوتهم بسيطة ومنسقة لا تخلو من كل ألوان الجمال.

والتعليم له أثره الكبير أيضاً في حياة اليابانيين.. فقد استمدوا معرفتهم من الأمم الأخرى.. ولكنهم برعوا جيداً في تغيير كل ما يتعلمونه بحيث يلائم احتياجاتهم الخاصة وطبيعة بلادهم وحياتهم الغارقة في الفن والجمال.

فهل كان لعقائد اليابانيين أثرها في كل ذلك..

الواقع أن سر حب اليابانيين للطبيعة والفنون والتعليم يكمن في عقيدتهم التي جمعوا فيها العقائد الثلاث.. الشنتو والبوذية والكونفوشيوسية.

فعن الشنتو تعلم الياباني حب الطبيعة.

وعن البوذية تعلم حب الفن.

وعن الكونفوشيوسية تعلم حب العلم..

والعقائد الثلاث تجد في الغالب من يضمها جميعاً ويتبعها في وقت واحد.

وإذا كانت الشنتو أعز العقائد على اليابانيين لأنها أقدم عقيدة.. فإن أتباع البوذية يفوقون أتباع كل من العقيدتين الأخريين عدداً.. وإن كانت الكونفوشيوسية أقوى العقائد الثلاث أثراً في النفوس.

ومع كل ذلك فما زال الناس يؤمنون بطرق السماء المشرقة البعيدة التي آمنت بها عقيدة الشنتو.. ولا زال الجميع يرددون كل يوم ما جاء في «أومي أوكورا» المقدسة:

«التفت أنت.. التفت إلى الأشياء القريبة.. التفت إلى وطنك الأرض يا صديقي.. وحاول أن تؤدي واجبك نحوها حتى تموت».

الزرادشتية

القسم الرابع

عقائد الإله الواحد

هذا ما أسألك عنه..
فأصدقني الخبر يا أهورامزدا.
منذا الذي رسم مسار الشموس والنجوم؟
ومنذا الذي يجعل القمر..
يتزايد ويتضاءل؟
ومنذا الذي رفع الأرض..
والسماء من تحتها...
وأمسك السماء أن تقع؟
منذا الذي حفظ المياه والنباتات،
ومنذا الذي سخر..
للرياح والسحب سرعتها؟
ومنذا الذي أخرج العقل الخير؟
إنه أنت يا واحد.. يا أهورامزدا.
من يستطيع أن يحمي..
شخصاً ضعيفاً فانياً مثلي..؟
أي كائن آخر غيرك..
بما لك من عقل وقوة نارية..
يقوى نشاطه على تنفيذ..
مبدأ الاستقامة والتقوى؟
اكشف لي عن أسرار المعرفة..
كي تساعدني على نشر دينك.
أيها الإله الواحد.. الحكيم..
يا أهورامزدا..

« زرادشت »

شعلة النار..

في كف نبي

كان عدد من الرجال الفارعين الذين يرتدون أثواباً بيضاء ذات أحزمة منسوجة، يشقون طريقهم بين الجموع المختلفة في مدينة بومباي بالهند، في طريقهم نحو الشاطىء المطل على بحر العرب.

وعند حافة الماء وقف الرجال، ثم انحنوا على الماء فغطسوا أيديهم ثم رفعوها إلى جباههم.. ثم مدوا أيديهم بعد ذلك إلى أحزمتهم ففكوها وعادوا يرفعون أيديهم إلى الجباه من جديد.

وبعد أن أعادوا التمنطق بالأحزمة مرة أخرى راحوا- وقد بدا عليهم التوقير والتبجيل- يرفعون أيديهم نحو الشمس الغاربة، وخرج من بين شفاههم ترتيل خفيض يقول:

«أجهر بالثناء على الفكرة التي أجيد التفكير فيها.. والكلمة التي أجيد قولها.. والعمل الذي أجيد عمله».

والذي حدث في ذلك اليوم كان هو نفسه الذي يحدث كل يوم في بومباي، عندما يكون الجو صافياً والنهار لطيفاً.. فلا يكاد الغروب يهبط حتى يزدحم الشاطىء بالرجال ذوي الثياب البيضاء الذين جاءوا ليتعبدوا في الخلاء، ويتقدموا إلى الشمس إحدى رموز قوة الإله بالتبجيل والتقديس.

وبعد أن تغرب الشمس ويستحيل وهجها الأحمر أقحوانياً في السماء الداكنة، يستدير هؤلاء وينحنون نحو الغرب ثلاث مرات، ونحو الجنوب

ثلاث مرات، و نحو الشرق ثلاث مرات، ونحو الشمال ثلاث مرات.. ثم يغطسون أيديهم من جديد في المياه الراكدة، ويرفعونها -إلى جباههم، ثم تنتهي تلك الطقوس.



والواقع أنه حتى في الهند- بلاد مختلف العقائد- يبدو هؤلاء الناس وطرقهم غريبة على الجميع.

ولكن الذين يرونهم يعرفون انهم ليسوا هندوكيين، وأنهم لا ينتمون إلى أية طائفة من طوائف الهندوكية العديدة، بل هم بقايا أتباع زرادشت الذين يسمون عبدة النار، لأنهم يبقون في معابدهم ناراً دائمة الاشتعال، يقدسونها، ولكنهم في الواقع لا يعتبرونها إلهاً يعبد، لأن نبيهم زرادشت لم يعبدها ولم يدع أحداً إلى عبادتها، وإنما اتخذها رمزاً للآلهة الطاهر المطهر الذي يهلك المفسدين ولا يتطرق إليه أي فساد.

ومع ذلك فليست النار وحدها المقدسة عند هؤلاء القوم الذين يسمون بالبارثيين.. بل إن الماء والأرضُ أيضاً مقدسان طاهران.

ولهذا فعندما يموت واحد منهم، فإنهم لا يحرقون جثته كما يفعل الهندوكيون ولا يلمسونها أيضاً لأن الجسد في عرفهم لا يعدو أن يكون مادة بغيضة نجسة ملوثة بعد خروج الروح منه، فلا يصح ان يحرقوا الجثة بالنار لأن للنار قدسيتها التي يجب ألا تلوث بأي شيء نجس.

وهم لا يستطيعون أن يلقوا بالجثة في ماء البحر حتى لا يدنسوا الماء المقدس الذي لا يقرب إلا للشرب وري الأرض ولا يستخدم حتى في غسل الأشياء القذرة.

وهم لا يستطيعون دفن الجثة في الأرض مخافة تدنيسها فهي مصدر أرزاق الناس وأقواتهم ولا يجوز أن تودع في بطنها تلك الجثث البغيضة الملوثة.

من أجل ذلك فهم يضعون أجساد موتاهم على قمم أبراج عالية بنيت وكأنها المداخن الضخمة.. تسمى «أبراج الصمت». وإلى هذه القمم تحمل

الجثث نهاراً على نعوش من حديد ثم تلقى فيها لتأكلها طيور الهواء. ولا يجوز لأحد أن يحمل جثث الموتى أو يلمسها غير طائفة معينة وظيفتها إعداد الجثث وحملها إلى برج الصمت. ذلك أن كل من يلمس جثة ميتة يعد ملوثاً عدا هؤلاء الذين أعدوا لهذا العمل الذين لا يجوز لهم حتى بعد أن يتطهروا عقب الانتهاء من عملهم أن يختلطوا بالناس قط.

هؤلاء الناس يعرفون «بالمجوس».. وأصلهم فارسيون من إيران. وبرغم أنهم عاشوا في الهند منذ مئات السنين، إلا أنهم لا يزالون يسمون بالفارسيين، ويعتبرون أجانب جاءوا من بلد أجنبي يسيرون على ما وجدوا عليه آباءهم.. فارتبطوا بالحزام المقدس وبذكرى وتعاليم نبيهم زرادشت الذي كان يعيش منذ عدة قرون مضت في بلاد إيران التي عرفت ذات يوم باسم فارس.. وكان شعبها يسمى بالفارسيين.

* * *

عبادة بدائية:

في تلك البلاد التي تقع شمالي غربي الهند وعلى مقربة من بحر قزوين كان يعيش منذ عدة مئات من السنين، شعب كان يتكلم لغة تشبه كثيراً تلك اللغة التي كانت سائدة في الهند منذ أربعة آلاف عام، وكان يؤمن بعدة آلهة تشبه آلهة الهند في ذلك الوقت، ويعبد نفس البقرة التي كان يعبدها الهندوكيون.

ولكن الهندوكيين كانوا يعيشون في الهند. بينما الإيرانيون يعيشون في إيران، والفرق كبير بين المناخ والأحوال الجوية في الهند وإيران.

وإذا كانت إيران بعيدة في الشمال، فقد كان الجو فيها اكثر برودة من مثله في الهند. وحينما يكون الجو أكثر برودة فلا بد أن يرتدي الناس ثياباً أثقل، وأن يأكلوا طعاماً أكثر دسامة، وأن يسكنوا بيوتاً أكثر دفئاً. وللحصول على ثياب أثقل وطعام أكثر دسامة وبيوت أكثر دفئاً كان لا بد

أن يعمل الناس بنشاط أكثر مما يعمل الآخرون الذين يعيشون في المناخ الدافىء.

وكانت إيران أيضاً بلداً مليئاً بالقبائل الهمجية التي وفدت إليها من كل مكان يحيط بها، فسلبت الناس ماشيتهم ومحاصليهم. ومن هنا لم تكن حياة الراعي أو الفلاح الإيراني حياة سهلة، كما كانت حياة جاره الهندوكي.. بل كانت حياة حافلة بالمصاعب والمخاوف والأخطار.

وعندما يكون الشعب جائعاً مضطرباً، فإنه لا يفكر كثيراً في الحياة بعد الموت، كما يفكر في الخبز والسلام. ومن هنا عبد الإيرانيون عدة آلهة عبادة سطحية.. فلم يطلبوا النيرفانا كالهندوكيين، بل راحوا يصلون من أجل وفرة المحصول ومن أجل الانتصار على الأعداء والمعتدين.

وإذ عاش الإيرانيون في خوف دائم من القبائل الوافدة المنقضة، فقد أخذوا ينظرون إلى كل رجل لا يؤدي عملاً نافعاً على أنه رجل شرير، ولم يحترموا سوى الذين يفلحون الأرض ويرعون الأغنام والماشية لأنهم هم وحدهم الصالحون..

وبينما كان في الهند آلاف من الرهبان يعيشون على الصدقات ومع ذلك ينالون حظاً عظيماً من الإكبار والتبجيل، لم يكن في إيران من يجرؤ على الحياة على الصدقات.. فالاحتقار والإهانة لكل من لا يعمل ليكسب عيشه بكفاحه وكده وعرق جبينه. فقد كان كفاحهم في سبيل الحياة شاقاً، وكانت وسائل الزراعة والري بدائية يكلفهم الحصول على إنتاجها كثيراً من الجهد والتعب. ولهذا فقد كرهوا أن يشركوا معهم في ثمرة جهودهم أي واحد لا يشترك معهم في بذل الجهد والتعب والكفاح.

آلهة الطبيعة:

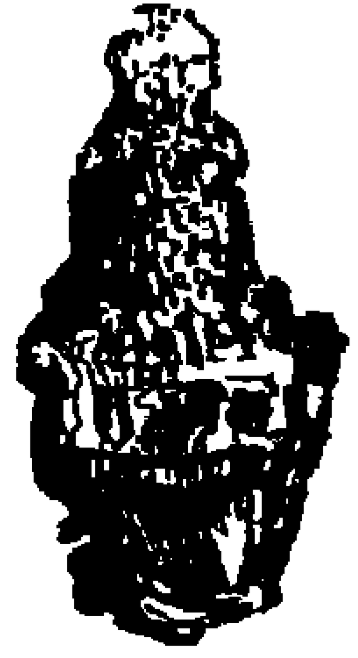
ولقد عبد الإيرانيون القدماء عدداً كبيراً من آلهة الطبيعة. فعبدوا إله الشمس الذي ينضج محاصليهم وسموه «ميثرا»... وعبدوا إلهة الخصب

والأرض وسموها «أنيتا».. وعبدوا الثور الذي مات ثم بعث حيا ووهب الجنس البشري دمه شراباً ليسبغ عليه نعمة الخلود وسموه «هوما».. كذلك عبدوا إله المطر الذي يروي حقولهم، وعبدوا إله السحاب وإله الريح وكل آلهة الطبيعة التي ساعدتهم في عملهم المضني للحصول على الرزق.. وسموها كلها «دايفاً» أي الأرواح الخيرة..

وكان الشتاء عندما ينتهي ويجيء الربيع ويبدأ أوان بذر البذور في الأرض يذهب الإيرانيون إلى الجبال ويدعون آلهة الطبيعة لتساعدهم في إنبات المحصول ومدهم بإنتاج طيب ذلك العام.. وعندما ينتهي الصيف على آلهة الطبيعة ويقدمون لها القرابين من الفاكهة والحبوب والحملان الصغيرة.

لقد كانت تلك العقيدة بسيطة حقاً.. ولكنها لم تستمر بسيطة وقتاً طويلاً لأن الشعب الإيراني لم يعد يؤمن بالأرواح الخيرة فحسب. بل أصبح يؤمن بآلهة القبائل وآلهة العائلات وعدة أنواع أخرى من الآلهة والأرواح.

ومع تعدد الآلهة ظهرت التماثيل والأصنام التي نحتوها من الصخر وشكلوها من الطين ورسموها على ألواح الخشب. وصاغ الأغنياء أصنامهم من الذهب والفضة. وعندما فعل الإيرانيون ذلك لم يعودوا يذهبون إلى الجبال لعبادة آلهتهم، بل اكتفوا بالتجمع لتقديم القرابين والصلوات لتلك الأصنام التي وضعوها في المعابد وأقاموا أمامها المذابح للتقرب والصلاة.



وبالتدريج زادت الصلوات والتراتيل والقرابين التي تقدم لمختلف الآلهة، ولم يستطع الناس الذين كانوا منهمكين في فلاحة الأرض ورعاية قطعانهم وحماية ممتلكاتهم من قبائل البدو والأعداء. لم يستطيعوا أن يحفظوا جيداً كل التراتيل التي لا بد من أدائها للآلهة المختلفة، كما لم يستطيعوا أن يذكروا أي الصلوات تتلى لكل إله، وأي القرابين تلائم إلهاً دون أن تغضب الآلهة الأخرى وتثير غيرتها. وهكذا استخدموا بعض

الرجال الذين أتقنوا تعلم طرق تقديم القرابين ومتى تغنى التراتيل المناسبة للآلهة.. وكان هؤلاء هم الكهنة.

الكهانة والسحر:

وإذا كان الكهنة دائماً في صحبة الآلهة داخل المعابد، فقد بدأوا هم أنفسهم يعتقدون أنهم خير من جميع الناس الآخرين في إيران، وادعوا أيضاً أنهم يعرفون كيف يرضون الآلهة الخيرة، كما يملكون أيضاً أن يجعلوا الآلهة تفعل كل ما يريده الكهنة منها.

وصدق الإيرانيون الكهنة. ونظروا إليهم على أنهم وسطاء بين الآلهة والبشر. وكلما ذهب الإيرانيون إلى الحرب أخذوا معهم كهنتهم وأصنامهم المحبوبة لتساعدهم في كسب المعارك.

وهكذا أصبح الكهنة سحرة.. وأصبحت الكهانة نوعاً من السحر.

وإذ استطاع الساحر أن يؤثر في الآلهة لكسب الحروب كما أصبح الناس يظنون، فقد صار من المؤكد أنه يستطيع أن يؤثر في الآلهة لجعل أبقار الناس تدر الكثير من اللبن بدلاً من القليل، وجعل حقولهم تنتج محصولاً اكثر وفرة، وأغنامهم تنمي صوفاً أغزر وأطول.

وقال السحرة انهم لو أرادوا لفعلوا أكثر من كل ذلك وأفضل..

وانتشر الإيمان بالسحرة بين الناس.. وزادت عبادة الأصنام وانتشر السحر في كل بلاد إيران..

* * *

مولد زرادشت:

كل ذلك كان يحدث في إيران.. في الوقت الذي كانت البشائر تنبيء بقدوم نبي عظيم.. بدأ ظهوره في مدينة أذربيجان.. غربي بحر قزوين.. وراح الناس يتحدثون عن معجزة ظهوره.

فهناك.. في إحدى جوانب تلك المدينة البعيدة.. كان يعيش رجل اسمه «بوروزهازيو» من قبيلة «سبيتاما» مع زوجته الحسناء «دوغدوما».

وذات يوم، بينما كان الرجل يرعى ماشيته في الحقل، إذ تراءى له شبحان نوريان اقتربا منه، وقدما إليه غصنا من أغصان نبات الهوما المقدس، وأمره أن يحمل الغصن معه إلى داره ويقدمه لزوجته، لأنه يحمل كيان الطفل الروحاني. وصدع الرجل بالأمر، ومزج الغصن باللبن وشربه هو وزوجته، فحملت الزوجة وليداً هو «زارافوشترا» الذي نسيمه الآن «زرادشت».

وبعد خمسة شهور من الحمل، رأت الأم في الحلم أن سحابة سوداء أحاطت بيتها، وأن مخلوقات بشعة هبطت عليها من السحابة فانتزعت الطفل من رحمها وهمت بالقضاء عليه. وصرخت الأم وأعولت، ولم يلبث أن هبط من السماء شعاع نور مزق السحابة السوداء إرباً، فاختفت الكائنات البشعة التي ولت هاربة، ثم انبثق من النور طيف شاب يشع منه نور متلألىء، أعاد الطفل إلى بطن أمه وسكن من روعها، وقال لها: هذا الطفل عندما يكبر، سيصبح نبي أهورامزدا..

وعندما ولد الطفل عام ٦٦٠ قبل الميلاد، لم يبك مثل سائر الأطفال، وإنما قهقه بصوت عال اهتزت له أركان البيت الذي غمره نور إلَهي، وهربت الأرواح الشريرة كلها إلى عالمها السفلي.

وهناك عدة قصص تروي عما حدث عقب ولادة زرادشت..



تقول إحدى هذه القصص أنه عندما ولد الصبي بدأ «دوران سرون» كبير سحرة إيران ونائب الملك في المقاطعة يرتعد فرقاً، لأنه عرف أن طفلاً قد ولد، وأنه عندما يكبر وينمو فسوف يقضي على السحر وعلى عبادة الأصنام، ويطرد السحرة والكهان جميعاً من البلاد.

وأرسل دوران سرون ثلاثة من سحرته لإحضار زرادشت إليه في معبد

النار. وفي أثناء ذلك، أعد دوران سرون ناراً على المذبح. وعندما جيء بالطفل اليه وضعه وسط النار، وانطلق خارجاً من المعبد هو وسحرته.

وظن دوران سرون أن هذه هي نهاية زرادشت. و لكنه كان مخطئاً فعندما عادت أم الطفل إلى البيت ولم تجد ولدها، انطلقت إلى معبد النار لتصلي وتدعو الآلهة أن ترده إليها. وهناك على المذبح، وجدت الأم طفلها يلعب في ابتهاج وسط اللهب، كما لو كان يعبث في حمام دافىء.

وتأكد دوران سرون أن زرادشت ليس طفلاً عادياً، فدبر خطة جديدة، واستدعى سحرته الثلاثة، وأمرهم بإحضار الطفل زرادشت مرة أخرى ووضعه وسط الطريق العام حيث يمر قطيع كبير من الماشية.

ولكن أول بقرة من القطيع اسرعت نحو الطفل ووقفت تغطيه بجسمها لتحميه من بقية القطيع. وظلت البقرة في مكانها حتى مر القطيع كله. وعندما جاءت أم زرادشت تجري إلى الطريق بحثاً عن ولدها وجدته على الأرض سليماً لم يلحقه أي أذى.

واستبد الخوف بكبير السحرة. وظل ثلاثة أيام وثلاث ليال يدبر المؤامرة. ثم قرر آخر الأمر خطة جديدة.. أن يسرق زرادشت ويوضع في وكر الذئاب.

وحدث دوران سرون نفسه قائلاً: «حتى إذا لم تقتله الذئاب فلا شك أنه سيموت جوعاً».

ولكن الذئاب عندما عادت إلى وكرها وشمت الرائحة، وأدركت أن أحداً بالداخل واقتربت لتنهشه.. عندئذ تسمرت الذئاب فجأة في الأرض وعجزت عن التحرك.. بينما ظهرت عنزتان دخلتا الوكر بغير خوف وراحتا ترضعان الطفل.

وليست هذه القصة سوى واحدة من عدة قصص قيلت حول ما حدث لزرادشت عندما كان لا يزال في المهد بعد.. غير أن كل ما حدث جعل أباه وأمه يتوقعان له أن يصبح صاحب مستقبل عظيم، فقررا أن يعلماه أحسن تعليم في البلاد.

الطبيب:

وعندما بلغ زرادشت السابعة من عمره، أرسل بعيداً ليدرس مع بورزين- كوروس الذي امتدت شهرته بالحكمة في جميع أنحاء إيران وظل زرادشت ثمانية أعوام مع الحكيم بورزين حيث لم تقتصر دراسته معه على العقيدة، بل تعدتها إلى الزراعة وتربية الماشية وعلاج المرضى.

وبانتهاء الأعوام الثلاثة عاد زرادشت إلى موطنه وارتدى القميص المقدس، وتمنطق بالحزام، وكان ذلك رمزاً لتعميده في عقيدة شعبه..

على أن زرادشت لم يكد يعود الى موطنه وهو في حوالي الخامسة عشرة، حتى غزا التورانيون إيران من الإقليم المجاور. وتطوع زرادشت الشاب على الفور للذهاب إلى ميدان القتال لتطبيق معرفته في معالجة المرضى والجرحى من الجنود.

ولكن الحرب عندما انتهت لم تضع حداً لآلام الناس، فقد انتشرت المجاعة في جميع أنحاء إيران، واشتد المرض وزادت الفاقة في البلاد، بنفس الصورة التي كانت قائمة في وقت الحرب. ومن جديد تطوع زرادشت ليضع جهده وخبرته في خدمة المرضى والفقراء.

وانقضت خمسة أعوام كرس فيها زرادشت الشاب كل حياته لذلك العمل النبيل الذي تطوع للقيام به. وعندما عاد إلى موطنه طلب منه أبوه أن يتخلى عن عمله بين الناس، وأن يتزوج ويستقر ويعيش حياة محترمة كصاحب أرض وراعي ماشية.

ولكن زرادشت لم ينفذ من نصيحتي أبيه سوى الزواج بفتاة حسناء اسمها «هافويه». أما العمل كفلاح ومربي ماشية فقد عجز عن أن ينفذه، إذ أقنعته تجاربه في ميادين القتال وخلال المجاعة، أن قد كتب عليه أن يقوم بعمل أكثر أهمية من زراعة الحبوب وتربية الماشية..

وهكذا واصل عمله في خدمة المرضى وعلاجهم في كل مكان.

وظل زرادشت عشرة أعوام أخرى وهو يعمل بين الفقراء والمحتاجين، ويبتكر بين حين وآخر وسائل جديدة لتخفيف آلام الناس.

ولكن آلام الناس وأحزانهم لم يكن لها نهاية..

البحث عن الحقيقة:

وأخذ زرادشت يتساءل: من أين تجيء كل هذه الشرور إلى العالم؟

وراح زرادشت يتمنى أن لو عرف مصدر ذلك العناء، إذن لاستطاع أن يحقق حلمه في جعل كل الناس سعداء.

وذات يوم.. قال زرادشت لزوجته هافويه: «سأذهب بعيداً لأعيش ناسكاً فترة من الوقت، أفكر خلالها في الخير والشر.. فربما تبينت مصدر العناء في العالم».

وكأي زوجة راحت تلح على زوجها ألاَّ يفعل.. فقد كان من الحمق أن يضيع زوجها وقته في البحث عن مصدر الخير والشر.. في الوقت الذي يجب عليه في أن يربي ماشيته وينمي ثروته..

ولكن زرادشت وقد استقر رأيه، لم يكن يستطيع أن يقتنع بمنطق زوجته. فخرج من البيت، وانطلق إلى جبل سابلان.. وقد عزم على ألا يعود قبل أن يكتسب الحكمة التي ينشدها ويصل الى الهدف الذي يريد.

وظل زرادشت أياماً وأسابيع وشهوراً وحيداً يفكر فوق الجبل.. ويحاول أن يفهم سر هذا العالم.

فكر في كل ما تعلمه من أستاذه الحكيم بورزين كوروس.

وفكر في كل ما تعلمه من أبيه وكهنته.

وفكر في جميع تجاربه بين الناس أثناء الحرب وخلال المجاعة، والسنوات التي أعقبت ذلك.

أهورامزدا وأهرمان:

ولكنه لم يستطع أن يجد في كل ذلك ما يفسر له عالم الخير والشر.

وذات يوم.. جلس زرادشت أمام كهفه في بطن الجبل. وتساءل عما إذا كان عليه أن يتخلى عن بحثه عن مصدر العناء.. وأن يعود إلى زوجته وأط

وأخذت الشمس تغوص خلال ذلك في المغرب وراء الأفق. واستحالت السماء أمام ناظريه بين ذهبية وقرمزية وحمراء.. ثم أخذت الشمس تغيب في بطء شيئاً فشيئاً خلف التلال. ونشر الظلام جناحيه على الوادي تحته.. وعلى حين فجأة.. قفز زرادشت واقفاً على قدميه وقد ملأه فرح غامر..

وجاءه ذلك الإدراك وهو يرقب غروب الشمس.. كما أدرك وقتئذ أن اليوم ينقسم قسمين: النهار والليل.. النور والظلام..



ولكن.. ألم يكن يعرف هذه الحقيقة العادية منذ طفولته؟

نعم.. ولكنه تبين فيها الآن سر الحكمة..

فكما أن اليوم يتألف من النور والظلام.. فالعالم أيضاً فيما بدا لزرادشت يتألف من الخير والشر.

وكما أن الليل والنهار لا يمكن أن تتغير طبيعتهما أبداً.. النهار متألق والليل مظلم.. فكذلك لا يمكن أبدا للخير أن يصبح شرا، ولا للشر أن يصبح خيراً قط..

الخير لا بد أن يكون خيراً دائماً.. والشر لا بد أن يكون شراً أبداً.

وإذا كان الخير دائماً خيراً، والشر شراً.. فإن السحرة والكهنة. الذين يقومون على عبادة الأوثان لا بد أن يكونوا جزءاً من الخطأ أيضاً.. فهم يعتقدون أو يوهمون الناس أن الإنسان يستطيع أن يصلي لآلهة الخير لتوقع الشر بأعدائه، ويتقرب لآلهة الشر من أجل أن تصنع له خيراً..

فآلهة الخير لا يمكن أن تصنع شرا.. وآلهة الشر لن تستطيع أن تفعل أي خير..

وبدا واضحاً كل الوضوح لزرادشت أن العالم تحكمه قوتان.. خير واحد، وشر واحد.. وقال زرادشت أن أهورامزدا هو قوة الخير.. وأن اهرمان هو قوة الشر.

غير أن زرادشت- وإن كان قد أصبح لديه سر الحكمة- إلا أنه لم يصبح واضحاً له تماماً لماذا خلق الخير ولماذا خلق الشر. ولا كيف يجب على الناس أن يفعلوا من أجل أن يقضوا على الشر وعلى العناء.

وظل زرادشت واقفاً على جبل سابلان، يستوضح أفكاره شيئاً فشيئاً، ويتقدم في بطء من حقيقة اكتشافه أن الخير خير دائماً.. وأن الشر شر أبداً.. تماماً كما يتقدم نحو فهم السبيل الذي يجعل الناس يعيشون كلهم أخياراً.

وقيل أنه حدث ذات يوم بينما هو واقف على الجبل يفكر.. إذ أحس فجأة بنشوة روحانية تغمره وتنتشر في جميع جنبات نفسه وتملأها نوراً وهاجاً.. ثم رأى كائناً نارياً نورانياً يدنو منه وكأنه عمود من نور، حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان، يحمل في يده عصا من اللهب. ولم يلبث ذلك الكائن أن حلق فوق رأس زرادشت في صورة عمود آخر من النور، وأمره بخلع ملابسه، ثم أنبأه أنه «فاهو مانا» كبير الملائكة، وأنه جاء يقوده إلى السماء ليحظى بشرف المثول بين يدي رب السماء نفسه. وصدع زرادشت بالأمر. ولم يلبث أن وجد نفسه لدى إله النور الأكبر الذي يحيط به ضياء عظيم. وهناك تلقى كلمات الحق والحقيقة، وتعلم أسرار الوحي المقدسة واستمع إلى أمر النبوة.

وقيل أنه أفاق من نشوته وعاد إلى إنسانيته بعد أن تكررت التجربة الروحانية ثلاث مرات. وعندما انتبه إلى نفسه قال:

«الآن.. سأنزل الى الناس وأقود شعبي باسم أهورامزدا.. من الظلام إلى النور.. ومن الشقاء إلى السعادة.. ومن الشر إلى الخير».

* * *

الدعوة:

ما ان نزل زرادشت من فوق جبل سابلان مستعداً في حماس لإعلان حقيقة الخير والشر للناس.. لم يكن أهل إيران مستعدين للانصات إليه.

فقد كان أهل إيران قد تعودوا آلهتهم وأصنامهم التي كانت حقائق ملموسة بين أيديهم.. بينما إله الخير وروح الشر اللذان يتحدث عنهما زرادشت لا يمكن رؤيتهما أو سماعهما أو لمسهما. وكل ما كان أهل ذلك الزمان

يعجزون عن رؤيته بعيونهم أو لمسه بأيديهم أو سماعه بآذانهم.. فهم لا يؤمنون بوجوده..

حتى أسرة زرادشت نفسها لم تؤمن بالتعاليم التي جاء بها قط..

ومرت بزرادشت عشرة أعوام رهيبة هائلة وهو يبحث عن مؤمنين به، ولقي خلال تلك السنوات من العنت والشقاء والعذاب ما لا يتحمله بشر. فقد تخلى عنه أهله وعشيرته منذ أعلن فيهم رسالته، وطردوه، فترك مسقط رأسه وراح يتنقل من بلد إلى بلد تسبقه إليها شهرته التي تقول إنه رجل دَعِيٌّ يسب الدين والكهنة.. فيخشاه الناس ويأبون حتى أن يستضيفوه، ويغلقون في وجهه الأبواب. فلا يجد أمامه ليبيت لياليه الطويلة سوى حظائر الخيل والبغال والحمير..!

واستمر زرادشت يناضل في سبيل دعوته وهو يقطع ارض إيران طولاً وعرضاً يعظ الناس ويرشدهم ويجادلهم.. ولكن أحداً مع ذلك لم يتبعه، حتى كاد اليأس الكامل أن يأخذ به.

ومع هذا فإن ربه «اهورامزدا» لم يتركه.. فيقال إن الوحي نزل عليه في هذه الفترة سبع مرات.. ظهر له في إحداها أهورامزدا، كما ظهر له بعد ذلك الملائكة الستة الكبار ليلقنوه أصول الحكمة.. وهؤلاء الملائكة الستة هم اساطين العرش.. وهم رموز ومثل عليا لمعان إنسانية مقدسة.. فثلاثة منهم ذكور يمثلون التفكير الطيب والحق الأسمى والإحسان.. وثلاث إناث يمثلن الفداء والخلود والتقوى. وقد لقنه كل فرد منهم حقيقة من الحقائق الكبرى.. فتعلم حقيقة النار المقدسة، والأسرار التي تنطوي عليها الأرض، وحياة الحيوانات والنباتات، و خواص المعادن، والسر في وجوب العناية بالماء، والصراع الأزلي بين الخير والشر.

الملك كشتاسب:

على أن الأعوام العشرة لم تكد تنقضي حتى وجد زرادشت من يؤمن

وكان الذي آمن به وصدقه هو ابن عمه.. ميتيوماه..

وقال له ميتيوماه: «ان تعاليمك شاقة جداً على فهم الناس».

وتأمل زرادشت كلام ميتيوماه وقال في أسف «نعم»..

قال ابن العم: ولكنك إذا استطعت أن تسترعي نظر المتعلمين الذي تدربوا على فهم الأفكار الصعبة والآراء المستعصية، فربما وجدت من يسمع لك.

وهتف زرادشت: أجل.. أنت على حق..!

وقد كان..

وقرر زرادشت أن يبدأ بالمتعلمين من بني وطنه.. ومن كان أكثر تعلّماً في البلاد إن لم يكونوا هم الملك والملكة وبقية أعضاء الأسرة المالكة..!؟

وهكذا انطلق زرادشت إلى «بلخ» ليشرح عقيدته للملك.. «كشتاسب».

وعند أبواب القصر ظهر زرادشت.. وتراب السفر لا يزال يغطي قدميه، وقال لحارس الباب:



- إذهب إلى الملك وأخبره اني أنا زرادشت سبتاما نبي الإلّه الواحد الحكيم قد جئت لأراه وأعلمه طريقي الخير والشر..!

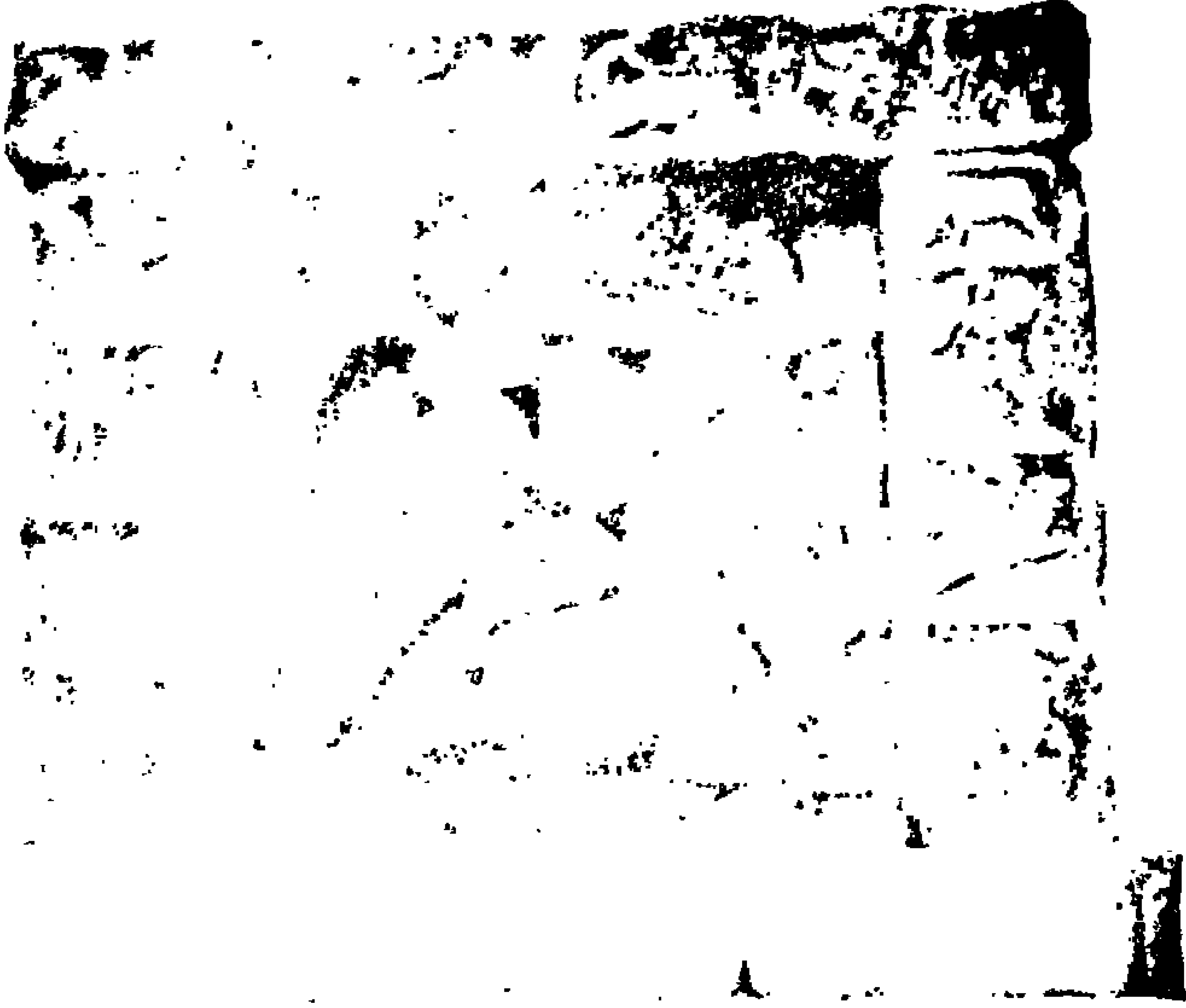
وانفجر حارس الباب ضاحكاً.. فما كانت هيئة الرجل الذي يقف أمامه لتوحي بأكثر من أنه متسول حقير. غير أن الضحكة العالية انقطعت فجأة.. مع اللهجة الآمرة والقوية التي انطلقت من بين شفتي زرادشت:



- اذهب أيها الحارس وافعل ما أمرتك به..

وارتعد حارس الباب.. فقد لمس في صوت زرادشت ونظرات الغضب في عينيه ما يخيفه. ولكنه مع ذلك ظل واقفاً في مكانه لا حراك به.

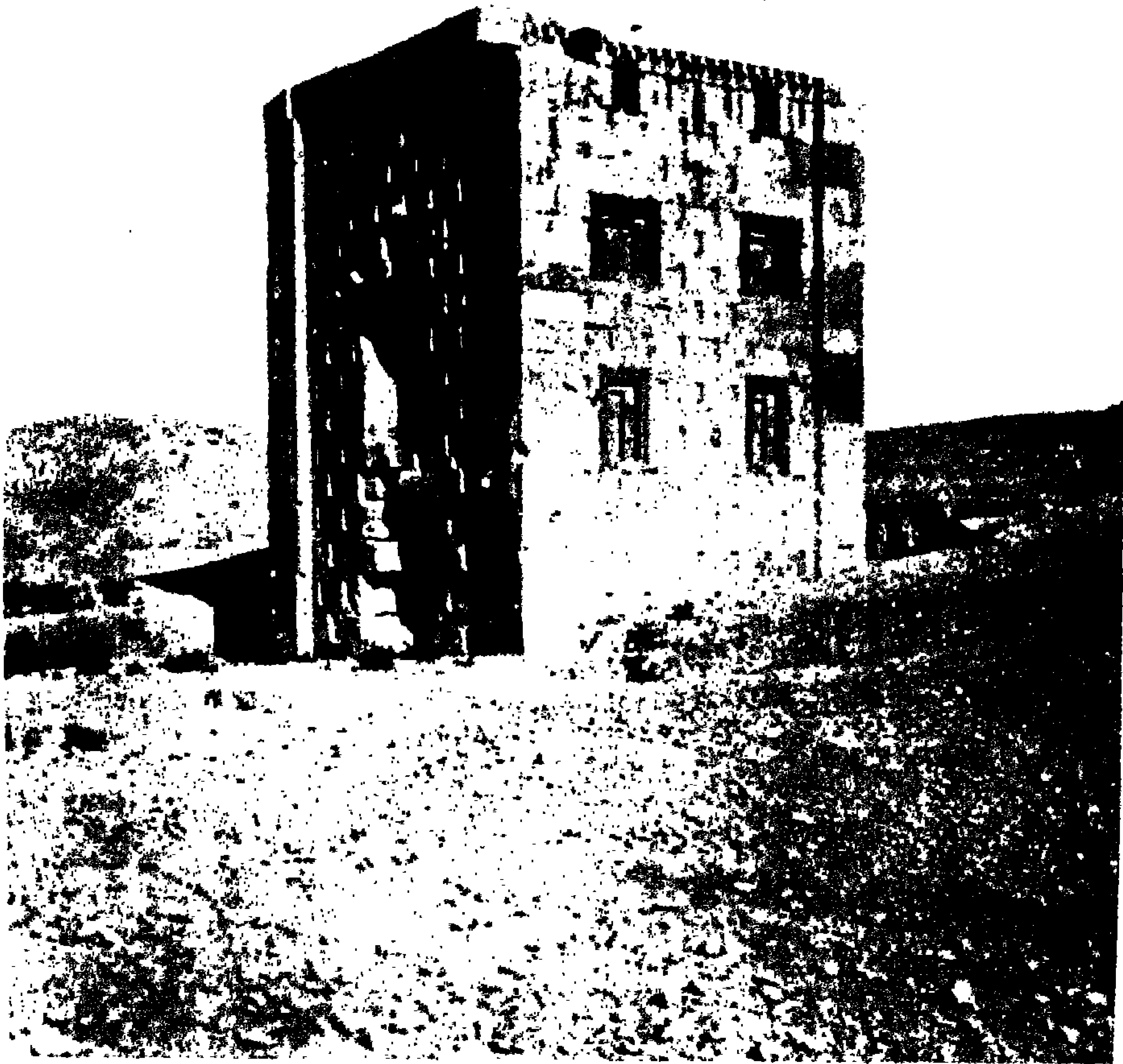
وأمسك زرادشت بيده كرة من النار ورفعها في وجه حارس الباب وهو يقول:



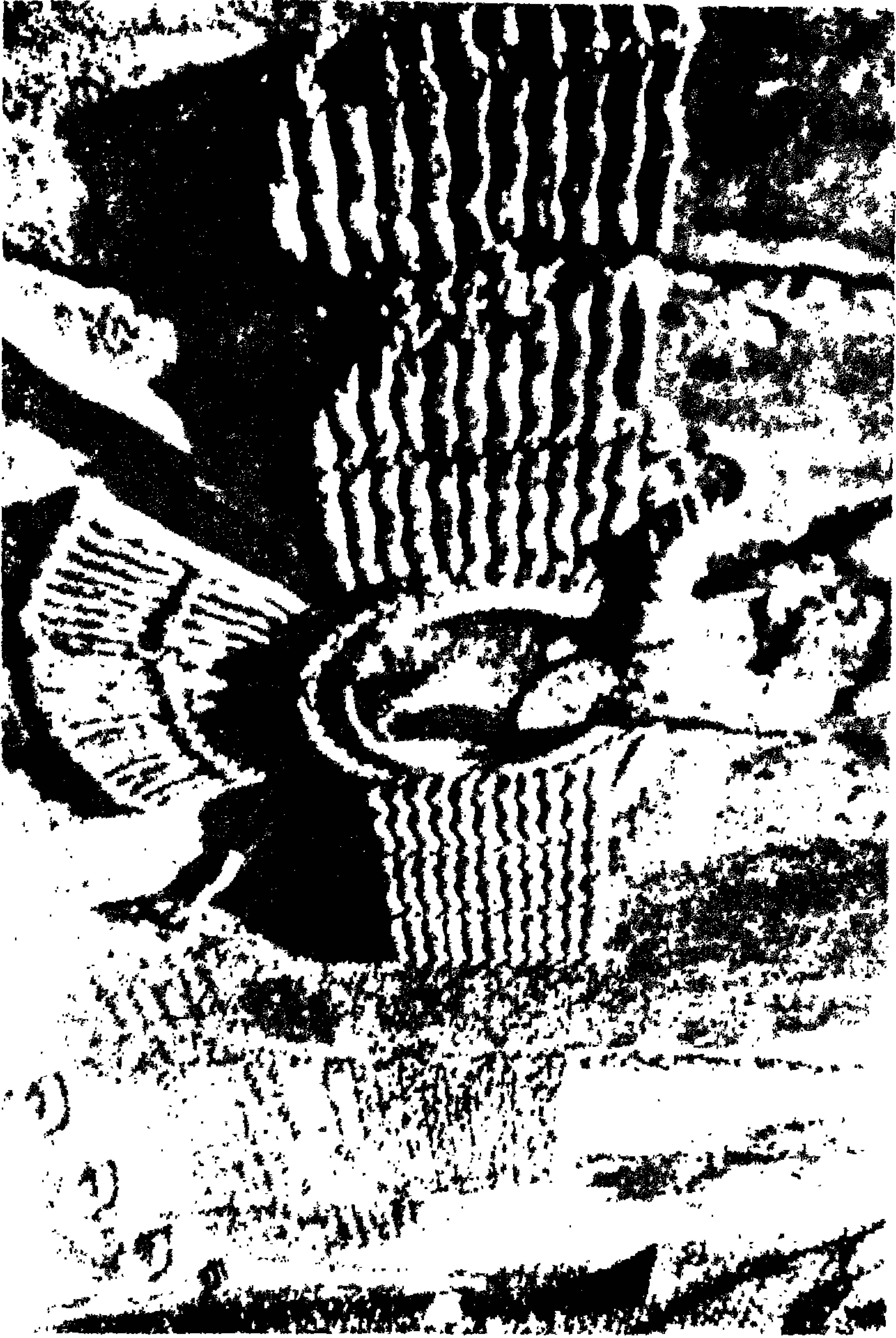
الرب ميثرا إله الشمس يذبح القربان في صورة ثور وفي أسفله الحية.. بينما يقفز الكلب على رأس الثور ليلعق دمه الذي فاض، على الأرض.



الإله ميثرا.. واللوحة يحيط بها أحداث حياته. وبين مولده من الصخرة.. وأسرة للثور.. وأخذه إلى الكهف. كما يبدو في أعلى منظر تناسله من أهورا مزدا.. إله الخير الأعظم.



بقايا أحد أبراج الصمت التي لا تزال قائمة في أرض إيران.. حيث توضع في قمتها جثث الموتى لتنهشها جوارح الطير حتى لا تدنس الأرض المقدسة..



أهورامزدا.. إله الخير.. كما يبدو على أحد الآثار المنقوشة في باخستان.



تمثال منحوت في الصخر يمثل النبي زرادشت.. وقد صوره المثال في وجه يمثل أهورامزدا.. بينما أشعة الشمس حول رأسه تمثل الإله ميثرا. «من آثار كرمان شاه».

- لتكن هذه آيتي ودليلك على أني جئت باسم الآله الواحد الحكيم..!

وانطلق حارس القصر في قوة واندفاع مذعوراً إلى قاعة العرش، حيث كان الملك جالساً يحيط به حكماؤه وكهنته. وهتف الحارس وهو يلهث:

- بالباب رجل عجيب حقاً يريد أن يراك أيها الملك.. وهو يدعي أنه نبي من عند إلّه واحد، ويمسك في يده كرة من النار تلتهب ولكنها لا تحرقه..!

وسكت الملك برهة.. ولكنه انتفض بعد لحظات ليأمر الحارس بدعوة الرجل الواقف بباب القصر.

ولم يكد زرادشت يظهر لدى باب القاعة حتى ارتفع صوته حزم رهيب:

- أنا زرادشت سبتاما نبي الآله الواحد الحكيم.. جئت إليك أيها الملك لأحول قلبك من الأصنام الشريرة التافهة.. إلى مجد إلّه حق خالد حكيم..!

وحدق الملك طويلاً في الرجل الواقف أمامه رافع الرأس شامخاً.. ثم قال في صوت جهد أن يكون قوياً حازماً:

- أي برهان لديك تثبت به صدق دعواك؟

أجاب زرادشت:

- إني أعلم كلمة الحق ضد كلمة الباطل. فإذا شئت أنت وحكماؤك أن تسألني فسأرد عليكم بما يثبت لكم أن طريق العبادة الذي تسيرون فيه، وتمسككم بتلك الأصنام خطأ يشوبه ظلام حالك.. وأن طريق الإلّه الحكيم الواحد خير مشرق كضوء النهار..

وتوجه الملك إلى حكمائه وكهنته وقال:

- أيها الحكماء وكبار الكهان.. إسألوا هذا الغريب عن تعاليمه وسأجلس بينكم في مكان الحكم. لأقرر الأمر أيكم على حق وأيكم على باطل.

وأطل زرادشت طويلاً إلى الملك ثم قال يخاطبه:

- هل تعدني إذا تحققت كلماتي أيها الملك، بأن تتخلى عن عبادة الأصنام وطريقها الضال.. وأن تتبع طريق الإلّه الحكيم الواحد المتألق بالنور!؟

ووعده الملك.. وبدأت المناقشة الطويلة بين زرادشت وكهنة الملك كشتاسب..

* * *

خلق العالم:

ارتفع صوت كبير الكهنة في غضب: ما هي هذه العقيدة الجديدة التي تبشر بها أيها الرجل.. وما هو موطن الاختلاف بينها وبين عقيدة آبائك الأولين؟

أجاب زرادشت: لم أجيء لأبشر بعقيدة جديدة.. ولكن لتحسين عقيدة قديمة. والذي أعلمه هو حقيقة الخالق وهو لهذا خير.. أما عبادتكم للأصنام فليست حقاً.. وهي من أجل ذلك شر.

وسأله كبير الكهنة: أتعني أن آلهتنا الشمس والنار والجبال والنجوم آلهة زائفة؟

أجاب زرادشت: كلا.. فهي ليست آلهة زائفة.. لأنها ليست آلهة على الإطلاق. ومثل ذلك كالرجل الذي يبني بيتاً.. هل تصفون البيت بأنه هو الرجل؟ إن هذه هي الحقيقة.. فالشمس والقمر والجبال ليست آلهة.. بل هي من صنع الخالق القوي..

وسأله أحد الكهنة: من هو ذلك الخالق؟

قال زرادشت: إنه أهورامزدا إله الحكمة والحاكم الإسمي للعالم.

وسأله حكيم آخر: وتقول أنه خالق كل شيء في العالم؟!

قال زرادشت: خلق كل ما هو خير في العالم لأن الله خير..

وعاد الحكيم يسأل زرادشت: ومن الذي خلق الشر إذن؟

أجاب زرادشت: أهرمان روح الشر الذي خلق كل ما هو شر في العالم.

وصاح كبير الكهنة في انتصار: إذن فهناك أكثر من إله واحد في العالم؟

وأجاب زرادشت في هدوء:

– نعم. إن دورة العالم تستمر إثني عشر ألف سنة. وفي أثناء الآلاف الثلاثة الأولى كان هناك عالمان متجاوران هما عالم أهورامزدا «عالم النور» وعالم أهرمان «عالم الظلمات». وكان العالمان متناهيين من جوانب ثلاثة. ولكن كلامنهما يحد الآخر من الجانب الرابع. فعالم النور في الجانب الأعلى وعالم الظلمات في الجانب الأسفل. وبينهما فراغ مملوء بالهواء. وقال أهورامزدا لأهرمان: إن طرقك لا تتفق وطرقي، وأفكارك لا تتفق وأفكاري، وكلماتك ليست كلماتي، وأعمالك ليست أعمالي. فلنفترق. وكان أهورا مزدا يعلم المستقبل.. فعرض على أهرمان حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة. وقبل أهرمان العرض وهو لا يعرف غير الماضي. وعندئذ قال أهور مزدا بأن الجولة تنتهي بهزيمة عالم الظلمات. وفزع أهرمان، ولم ينتبه إلاَّ وهو يسقط في الظلمات ويقضي فيها مشلولاً مدة ثلاثة آلاف سنة، خلق أهورامزدا خلال ذلك الأرض بكل ما فيها من خير.

وسأله الحكيم:

– كيف إذن جاء الشر إلى الأرض؟

أجاب زرادشت:



لقد بدأ أهورا مزدا، روح الخير، يخلق أرواح طيبة تنسجم مع طبيعته ليستعين بها في مقاتلة روح الشر أهرمان.. وعلم أهرمان بذلك فخلق أرواحاً شريرة من جنسه ليقاوم بها الأرواح الخيرة. ثم خلق أهورامزدا النجوم والكواكب وانتهى في خلق الأرض. وعندما انتهى من ذلك جعل الأرض حاجزاً بينه وبين أهرمان وأعوانه. ولكن اهرمان شق الأرض وأحدث فيها فجوة جمع بداخلها أعوانه الشريرين. ثم صارت ميداناً للصراع بين القوتين.

وعاد الحكيم يسأله:

- ومن الذي خلق الإنسان على الأرض؟

قال زرادشت:

أول البشر:

- أهورا مزدا أيضاً. فعندما أتم خلقه الأرض خلق الثور الأول ثم خلق الإنسان الأول «كيومرد» الذي هو أول البشر. وعندئذ ألقى أهرمان بقوته ضد خلق أهورا مزدا، فنجس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات. وأقام أهورا مزدا خندقاً أمام السماء. ولكن أهرمان كرر هجماته ونجح أخيراً في قتل الثور وكيومرد أول البشر. وكانت بذور كيومرد مخبأة في الأرض فنتج منها عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من بني آدم. وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر. وأخذ البشر يلعبون دوراً في الحرب بين مملكتي النور والظلمات.

وقال الحكيم لزرادشت:

- إذن فلماذا تقول أنه يجب علينا أن نتبع روح الخير. ولماذا لا نتبع روح الشر وهي عظيمة عظمة روح الخير؟

- لأن الخير سينتصر في النهاية على الشر.

- ومن أين عرفت ذلك؟

- لأن الشر ليست له بصيرة...

ثم فسر زرادشت ذلك بعد برهة بقوله:

- إن الإله الحكيم يذكر الماضي ويدرك المستقبل. ولكن روح الشر لا تعرف الماضي ولا المستقبل والشر لا يعيش إلا لفائدة الحاضر. ولهذا سينتصر الحكيم الواحد في المعركة على الشر في النهاية.

حساب الآخرة:

وسأله أحد الكهنة:

- ولكنك قلت إن روح الخير لا يفعل إلا الخير.. ولا يخلق سوى الأشياء الصالحة. فكيف إذن يحدث أن الإنسان الذي خلقه روح الخير ينطلق ليتبع روح الشر؟

وأجاب زرادشت:

- ذلك لأن الإنسان خلق حر الإرادة يختار بها بين الخير والشر. ولكن كل الأفكار التي يفكر فيها الإنسان، وكل الكلمات التي يقولها، والأفعال التي يأتيها كل يوم من أيامه حياته، مكتوبة كلها في كتاب الحياة فالأفكار والكلمات والأفعال الصالحة مكتوبة في جانب، والأفكار والكلمات والأفعال الخبيثة مكتوبه في الجانب الآخر. وعندما يموت الإنسان تذهب روحه إلى الحفيظ على كتاب الحياة. فإذا كانت أفكاره وكلماته وأفعاله الخيرة اعظم من أفكاره وكلماته واعماله الخبيثة ذهبت إلى الجنة وإلا ذهبت إلى عذاب الجحيم.

وسأله الملك: وهل يستمر هذا الأمر طويلاً؟

أجاب زرادشت:

- كلا يا صاحب الجلالة.. لأن يوم الحساب قريب. وفي ذلك اليوم ينتصر الإله الواحد على الشر وعندئذ يبعث الموتى ويقع النجم المذنب على الأرض، فتشتعل وتذوب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب. وعلى كل الناس الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا مجرى السيل الذي يبدو للأرواح الخيرة وكأنه لبن دافيء، فيطهرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة.. أما الأرواح الشريرة فتظل تحترق إلى الأبد خالدة في المعدن الملتهب. وعندئذ يطرد الإله الخير روح الشر وكل من يتبعه من الأرواح الخبيثة إلى وسط الأرض ويدعها فيها إلى الأبد. وفي ذلك اليوم يبدأ العالم السعيد الخير الذي لا شر فيه ويدوم سرمدياً.



وصمت جميع الرجال في قاعة العرش، فهم لم يسمعوا قط من قبل مثل هذه الكلمات الغريبة. وسأل الملك رجاله:

- هل لديكم أسئلة أخرى توجهونها إلى هذا الرجل؟

وعاد أحد الكهنة يسأل زرادشت:

طريق الإيمان:

- كيف يجب على المرء أن يفعل ليتبع سبيل الإله الواحد؟
- السبيل إلى الإله الواحد هو الأفكار الطيبة والكلمات الطيبة والأعمال الطيبة.
- وكيف يدرك المرء ذلك النوع من الأفكار والكلمات والأعمال؟
- الأمر غاية في البساطة.. فالصدق صالح.. والكذب باطل.
- هل الصدق وحده هو سبيل الإله الواحد؟
- الصدق يأتي أولاً. ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة.. فالذي يسلك طريق الإله الواحد يجب أن يكون: طاهراً في أفكاره وأعماله، محسناً يساعد المحتاجين، يفلح الأرض وينبت الأشجار ويربي الماشية ويؤدي أعمالاً نافعة أخرى ويكون رحيماً بالحيوانات.

واستمر زرادشت يفسر للجميع كيف أن ثواب الأعمال الخيرة لا يكون في الدار الآخرة وحدها، بل هنا أيضاً في هذه الدنيا. وذكر زرادشت قائمة كاملة بجميع أعمال الخير وثوابها وجميع أعمال الشر وعقابها.

وظل رجال الملك ثلاثة أيام وثلاث ليال، يوجهون الأسئلة إلى زرادشت وهو يرد عليهم جميعاً. وأخيراً قال الملك بعد أن ظل ينصت بانتباه:

- من المؤكد أن هذا الرجل الذي يستطيع أن يتكلم بمثل هذه الحكمة ويهزمكم جميعاً.. إنما هو نبي من عند إله حكيم..!

★ ★ ★

السجن:

بر الملك بوعده واعتنق تعاليم الإله الواحد الحكيم، وأعلن أن زرادشت هو النبي الحق لهذه العقيدة الجديدة.

وفي جميع أنحاء إيران انتشرت أنباء اعتناق الملك للعقيدة التي جاء بها زرادشت. وعندما حدث ذلك تدفق الناس على زرادشت.. حتى أسرته

التي رفضت أن تنصت إليه من قبل عادت تكرمه وتحييه وتعلن إيمانها به..!

وملأت السعادة نفس زرادشت.. فقد انتصر في النهاية على الأصنام والسحرة والكهان. ووجد أتباعاً عديدين مستعدين لقبول تعاليمه.

غير أن سعادته لم تدم طويلاً.

فقد اجتمع حكماء القصر وكهنة عبادة الأوثان، وراحوا يتآمرون سراً على زرادشت وهم يقولون أن هذا الرجل إذا كسب ثقة الملك فلن تقوم لهم قائمة.. وكم تمنوا من أعماق القلوب لو استطاعوا قتل الرجل، ولكنهم كانوا يعلمون ان الملك لو عرف فلن تأخذه بأحد منهم رحمة على الإطلاق.

وهمس واحد من الكهان:

- إن الملك يكره السحرة والمشعوذين.. فلو أردنا إنهاء الأمر فما علينا إلا أن نتهم زرادشت بأنه ساحر أفاق..

- ولكن كيف نستطيع إثبات ذلك الاتهام..؟

- دعوا الأمر لي.. سأعرف كيف أضع الدليل في غرفة زرادشت.

ووافق الجميع. وعندما جاء الصباح التالي كانوا يقفون أمام الملك كشتاسب. وقال كبيرهم:

- إن هذا الرجل زرادشت الذي يسمي نفسه نبي الإله الواحد الحكيم ليس إلا ساحراً.. بل ساحراً شريراً. وإذا أمرتم بتفتيش غرفته فسينكشف لكم من أمره العجب.

وكان لا بد أن يرسل الملك رسلاً لتفتيش غرفة النبي.. ومن هناك عاد الجميع حاملين رؤوس قطط وكلاب ميتة، وعظاماً من كل نوع، وأظافر وشعراً مما كان يتخذ وسيلة للسحر في تلك الأيام. وفوجىء الملك بما رأى فأصدر أمره للفور بالقبض على الساحر زرادشت وإيداعه السجن. وأمر الناس بالعودة الى عقيدة الآباء والأجداد. ونفض عن نفسه إيمانه بدين أهورا مزدا.

المعجزة:

في ذلك الوقت أصيب جواد الملك بمرض لم يستطيع أن يفهم سره أحد. فقد أصبح عاجزاً عن الوقوف إذ تقلصت قوائمه الأربع جميعاً، ودخلت في بطنه ولم يعد يظهر منها سوى الأطراف.. .

وتجمع كل أطباء البلاط وكهنة القصر الملكيين. وذهبوا إلى الحظيرة، وراحوا يجربون في الجواد كل ما خطر ببالهم من حيل العلاج وألوان الطب ليعيدوه إلى صحته.. ولكن شيئاً لم يجد نفعاً قط.

ولم يجد الجميع إلا أن يبتهلوا إلى الآلهة والأصنام أن تبرىء الجواد المسكين. غير أن الجواد ظل راقدا على الأرض وقد ضمرت سيقانه كأنها الأعشاب الجافة مغروسة في الطين.

وبلغ الخبر أسماع زرادشت وهو في أعماق السجن.. واستطاع ان يرسل من يحمل الى الملك أنه يستطيع برء الجواد. وأثارت رسالة زرادشت ضجة في القصر. وجيء به على الفور إلى الحظائر الملكية حيث كان كل أفراد عائلة الملك يقفون ومعهم كهنة البلاط وأطباؤه. في انتظار أن يروا ما يستطيع أن يفعله ذلك الرجل الذي جاء وقد قرر في نفسه أن يملي على الملك شروطه الأربعة!:

وقال زرادشت للملك كشتاسب.

– هل تعدني أيها الملك إذا أعيدت للجواد صحته.. بأن تؤمن بتعاليمي ولا تهجرها على الإطلاق؟

ولم يجد الملك ما يمنعه من ذلك.. فاقترب زرادشت من الجواد، وراح يدلك ساقه الأمامية اليمنى وهو يرفع رأسه الى السماء ويتوجه بالدعاء إلى ربه. ولم يكد ينتهي من دعائه حتى برئت ساق الجواد على الفور. وتوقف زرادشت عن العمل ووجه حديثه إلى الملك من جديد:

– إن أبرأت جوادك فهل تعدني أيها الملك بأن يعتنق ابنك الأمير



اسفنديار تعاليمي، وأن تجعل حياته وقفاً على نشر هذا الدين في كل مكان بكل ما لديه من وسيلة؟

ووعده الملك. فدلك زرادشت ساق الجواد الثانية وهو يدعو ربه. ولم يكد يفعل حتى برئت تماما مما ألم بها. وعاد زرادشت يقول للملك:

- إذا أنا أبرأت ساق الجواد الثالثة. هل تعدني بأن تعتنق الملكة من جديد تعاليمي وتؤمن بأهورا مزدا وتترك دين أهرمان؟

وعاد الملك يعد زرادشت الذي راح يدلك ساق الجواد حتى برئت، ولم يعد هناك سوى آخر قوائمه مغروسة في بطنه كالعود الجاف..! وتلفت زرادشت حوله هذه المرة في صرامة ونظر إلى الناس الذين وقفوا يرقبون عمله في إعجاب وإكبار ثم قال:

- وهل تعدني أيها الملك إذا شفي جوادك تماماً، بمعاقبة أولئك الذين تآمروا ضدي واتهموني باطلاً بالسحر..؟

ووعده الملك.. وعندئذ برئت ساق الجواد على الفور.. وقفز واقفاً وراح يتمسح في الرجل الذي شفاه وأنقذه ويلعق يديه ورجليه..

وصدر أمر الملك بالإفراج عن زرادشت.. والتحقيق في أسباب المؤامرة. فإذا بالحارس الذي كان يحرس غرفة زرادشت يعترف بكل ما حدث، ويكشف عمن اشتركوا في التآمر على النبي.. فقبض عليهم جميعاً وألقي بهم في اعماق السجن.

* * *

كبير الكهنة:

مضت الأيام.. كل يوم منها يحمل معجزة جديدة يقوم بها زرادشت الذي كان يدعو ربه كل مرة فيستجيب دعاءه.. وعرض الملك ذات يوم على نبي أهورا مزدا أن يحقق له بعض الرغبات ليطمئن قلبه وتصفو عقيدته.. ثم.. ليكون تحقيقها مقابل شروط زرادشت الأربعة التي حققها له الملك يوم تمت معجزة الجواد. وكانت الرغبة الملكية هي أن يطلعه

زرادشت على مكانه في الجنة بحيث يراه بعينيه.. وأن يتحول جسده وكأنه من الحديد بحيث لا يؤثر فيه أي سلاح.. وأن ينبئه زرادشت بأحداث الماضي والحاضر والمستقبل.. وأن يبقى متمتعاً بالخلود إلى يوم القيامة.



ولم يرفض زرادشت طلب الملك.. ولكنه عند ما أجابه بأن تحقيق هذه الرغبات سهل ميسور.. أضاف إلى جوابه أنها لا تتحقق كلها لشخص واحد أبداً.. من أجل ذلك فعلى الملك أن يكتفي برغبة واحدة.. واختار الملك أن يرى مكانه في الجنة. وتقول كتب الزرادشتيين المقدسة أن زرادشت تضرع إلى ربه أن يجيب دعاءه. وفي لحظة.. هبط على القاعة التي انقلبت فجأة وكأنها قطعة متلألئة من النور، عدد من الملائكة على ظهور جياد من الجنة وبهت الملك واعتراه شبه شلل أعجزه وأبقاه جامداً. وفيما هو كذلك إذ بنور وهاج يمر أمام عينيه ويدخل قلبه. وإذا بروحه تسمو وتطفو بينما يقدم له أحد الملائكة كأساً من ماء الجنة لا يكاد يشرب منها حتى يرى رأي العين في سهولة ووضوح أرواح الخير وأشياء أخرى كثيرة لم تخطر بباله على الإطلاق ولا نظير لها في الحياة الدنيا. وبعد لحظات تحرك جسد الملك نفسه، واقترب من الملكة وسقاها من نفس الكأس، فسمت روحها وطهر قلبها من أدران الاعتقاد بأهرمان وامتلأ إيماناً بأهورا مزدا. وقدم زرادشت إلى أصغر ابناء الملك قدحاً من اللبن لم يكد يشربه حتى حلت به روح الخلود. ثم قدم إلى وزير كشتاسب قدراً من عبير الجنة لم يكد يشمه حتى أشرقت على نفسه أنوار العرفان واطلع على أسرار الماضي والحاضر والمستقبل. ثم قدم أحد الملائكة إلى اسفنديار ابن الملك تفاحة لم يكد يأكلها حتى صار جسده قوياً كأنه من الحديد الصلب.. وأخذ على نفسه المواثيق بأن يفرغ للدفاع عن دين زرادشت.

أما زرادشت.. فكان الذي ناله من الملك هو أن صدرت الأوامر بذبح أثني عشر ألف بقرة، دبغت جلودها وربطت بخيوط من الذهب الخالص، وكتب عليها بحروف من الذهب جميع تعاليم نبي الإله الواحد. وسميت

«الأفيستا».. وعين صاحبها زرادشت كبيراً لكهنة الملك كشتاسب في بلاد بلخ ببلاد إيران.

* * *

انتشار الزرادشتية:

كان لزرادشت إبنة صغيرة تدعى بوروكيستا، عرف عنها أنها أحكم النساء في المملكة. وجاءت بوروكيستا إلى القصر الملكي لترى أباها الذي عين كبيراً للكهنة في بلاط بلخ. ونالت الفتاة بحكمتها إعجاب العائلة الملكية لدرجة ان رئيس الوزراء طلب الزواج منها.

ولم يكن في بلخ كلها سوى رئيس واحد للوزراء. ولما كانت بوروكيستا امرأة حكيمة فإنها لم ترفض العرض وعندما أصبح زرادشت صهراً لرئيس الوزراء، تدعم مركز نبي أهورا مزدا في البلاط الملكي. وذات يوم قال زرادشت للملك كشتاسب:

- يا صاحب الجلالة.. لا شك أن اهورا مزدا الإله الواحد الحكيم خلق كل ما هو خير في العالم كله، وأن روح الشر خلق كل ما هو شر في العالم. وما من شك أيضاً في أن مملكة الإله لا تقتصر على إيران وحدها بل هي تشمل العالم كله.

- إن ذلك يبدو صحيحاً أيها النبي..

- وإذا كان صحيحاً. فإن تعاليم الإله الواحد قصد بها البشر جميعاً في كل مكان.

- وذلك أيضاً لا شك فيه.

- إذن.. ألا ترى أن من واجبنا نشر تعاليم أهورا مزدا في كل مكان؟

ووافق الملك، وبعد أيام انطلق الرسل في جميع انحاء إيران وخارجها لنشر تعاليم «الأفيستا» الكتاب المقدس الذي وضعه زرادشت.

وسرعان ما انتشرت تعاليم الزرادشتية في جميع انحاء ايران وخارجها

حتى وصلت إلى توران بل وإلى اليونان والهند، ولكن عدد أتباع زرادشت خارج إيران لم يكن مع ذلك كبيراً.

وعندما بلغ زرادشت الستين من عمره قرر أن يفرض على كل شعب توران المجاور لإيران اعتناق عقيدته.

وكان الإيرانيون مدينين لمملكة توران. وطلب زرادشت من الملك أن يرسل إلى ملك توران رسالة يقول فيها:

«إذا لم تتخل أنت أيها الملك وشعبك عن عبادة الأوثان.. وقبلتم تعاليم الإله الواحد كما كتبها في الأفيستا النبي زرادشت سيبتاما.. فسنرفض أن ندفع الديون التي لك علينا».

وثار غضب ملك توران. وقال له حكماؤه الذين استدعاهم ليعرض عليهم أمر رسالة: «إذا استند الإيرانيون إلى العقيدة في رفض سداد ديونهم.. إذن فباسم نفس العقيدة سيلجأون بعد ذلك الى انتزاع أرضنا وإهدار حريتنا».

واتفق الجميع على أن يرسلوا إلى ملك إيران الرسالة التالية:

«نحذركم أنا ملك توران وشعبي، بأنكم إذا لم تكفوا عن تعاليم زرادشت وتعودوا إلى إيمان آبائكم الأولين.. فسنهاجمكم بجيوشنا ورماحنا قبل أن تنقضي ثلاثة شهور قمرية».



وهكذا شبت الحرب بين إيران وتوران حول عقيدة زرادشت نبي الإله الواحد الحكيم.

وبعد عدة معارك رهيبة انتصر الإيرانيون انتصاراً عظيماً على توران، وأصبح زرادشت الذي كان سبب الحرب بطلاً شعبياً عظيماً. وصارت كلمته قانوناً وتعاليم مقدسة.

كان هذا هو ما حدث في إيران:

موت زرادشت:

أما في توران فقد كره الناس زرادشت وراحوا يدبرون الخطط لانتقام كبير.

ومنذ ذلك اليوم، ولمدة سبعة عشر عاماً، واصل التورانيون مؤامرتهم على زرادشت والإيرانيين، وعندما شعروا بالقوة الكافية للدخول في حرب ثانية هاجموا مملكة إيران. وبعد وقت قصير حاصروا مدينة بلخ وفتحوها واندفعوا يحطمون أمامهم كل شيء..

أما زرادشت، فعندما كانت أسوار المدينة تنهار أمام أبناء توران.. كان هو نفسه في معبد النار يصلي ومعه ثمانون من كبار الكهنة، يدعون ربهم أهورا مزدا لإنقاذ شعبه ومناصرته في حربه المقدسة.

وبينما هو راكع امام النار، اندفع الجنود التورانيون داخل المعبد وطعنوا النبي العجوز في ظهره، كما أعملوا سيوفهم في الكهنة الثمانين، فسقطوا جميعاً صرعى، وسالت منهم الدماء تلطخ جدران موقد النار.. كما امتدت إلى النار المقدسة نفسها.. فأخمدتها.

وهنا.. انتهت حياة زرادشت.. نبي أهورا مزدا الإله الواحد الحكيم وهو في السابعة والسبعين.

* * *

ولكن.. إذا كانت حياة زرادشت قد انتهت.. فإن عقيدة أهورا مزدا لم تنته بموته على الإطلاق.

أهورا مزدا:

فقد ظل كل أتباع الزرادشتية يؤمنون بحقيقة أهورا مزدا كما حدثهم عنه نبيهم زرادشت.. في الأفيستا المقدسة.

فأهوار مزدا هو الإله الأعظم.. وهو قديم أزلي. مجرد من جميع شوائب المادة، منزه من كل أدران النقص، لم يولد ولن يموت، وهو روح الأرواح،

يرى ولا ينظر ولا تدركه عين أو بصر، وهو موجود في كل مكان ولكنه لا يرى في أي مكان. وهو يعلم الحاضر والمستقبل ويعلم الغيب ويدرك دخائل النفوس. وهو قدير على كل شيء، لا يسمو عليه شيء قط. وهو معين من لا معين له، وراعي الفقراء والأغنياء على حد سواء.. ومفرج الهموم ومانع الضر عن الناس.. وإن أقوى الناس ليشعرون بضعفهم أمامه، وهو القوة غير المنظورة التي يتطلع إليها الناس لتشد من أزرهم وتقوي من نفوسهم.. لهذا لا يقدر على إدراك حقيقته عقل بشري ولا يقوى على تصوره خيال إنسان. ومن أجل أن يتمكن الناس من تصور هذه القوة الغيبية الخفية، وحتى تتقرب إلى أذهانهم، فقد رمز إلى أهورا مزدا برمزين ماديين مشاهدين تقوي عقول الجماهير من أتباعه على إدراكها، ويستطيعون بالتفكير فيها تصور صفات أهورا مزدا على وجه التقريب:

هذان الرمزان هما الشمس.. والنار.

فالشمس في السماء تمثل روح أهورا مزدا، في صورة يستطيع الناس إدراكها لما امتازت به من صفات تشبه صفات المبدأ الأول، إذ هي كائن مشرق متلألىء يفيض الخير على جميع الكائنات ويبعث فيها الدفء والنشاط، وهي قوة لا تقاوم ولا تستطيع نزعات الشر الاقتراب منها والحط من قدرها والإنتقاص من طهرها وصفائها.



والنار في الأرض هي العنصر الذي يمثل للناس تلك القوة العليا. فهي ليست عنصراً أولياً ساذجاً أبدياً أزلياً فحسب، بل هي أيضاً قوة مطهرة مهلكة طاهرة نقية نافعة لا يمكن أن يتطرق إليها الفساد.

النار المقدسة:

وهكذا تبدو تلك الصورة التي يتصور الناس من أجلها أن أتباع زرادشت يعبدون النار.. بينما هم يؤكدون أن تلك الفكرة خطأ كبير. فهم لا يعبدون النار أو يتخذون منها إلهاً، ولكنهم يرونها إلى جانب الشمس رمزاً لقوة الإله الذي لا يمكن أن يراه أحد.. ويعدون الوثنية والشرك

بالإله الواحد الخير الحق جريمة كبرى، لأنها تتضمن إنكار مبدأ وحدة الواحد أهورا مزدا..

ويقول الزرادشتيون أنهم يقدسون النار ولا يعبدونها، لأنها مقدسة كرمز.. ومن أجل ذلك تحملوا التبعة التي ألقاها زرادشت على أكتافهم بالاحتفاظ بشعلة النار مضطرمة بالمعنى الرمزي والمعنوي.. فراحوا يوقدونها أبداً ويجعلونها تتأجج في صدورهم إلى جوار تأججها في المعابد.. وعندما توقد النار في هيكل، ويصير من أهم الواجبات وأقدسها على رجال الدين أن يعملوا دائبين على إبقاء نارها المشتعلة، فيأتوا إلى الهيكل خمس مرات في اليوم ليقدموا إلى النار وقوداً من خشب الصندل وغيره من المواد العطرية.. فتنتشر في الهيكل رائحتها الزكية. وفي كل مرة يتلو الكاهن عبارات دينية يدعو بها الناس إلى التأمل في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح.. وهي جواهر الزرادشتية الثلاثة التي تتضمن كثيراً من الفضائل والأدب كالأمانة وحسن المعاملة والعفة والطهر والإحسان إلى الفقراء والعطف على الأغراب..

ومن هنا كان أول عهد يأخذه الزرادشتي على نفسه كما جاء في الافيستا المقدسة:

«لن أقدم على سلب أو نهب، ولا تخريب أو تدمير، ولن آخذ بالثأر.. وأقر أني أعبد الإله الواحد أهورا مزدا، وأني أعتنق دين زرادشت.. وأقر أني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح»..

فأهورا مزدا في دين زرادشت إذن واحد لا يشركه أحد.. وهو خير محض لا شر فيه وكل ما في العالم من خير منبعث منه.. وهو مصدر كل مجد ونور وسعادة، يريد الخير دائماً ولا يفكر في الشر أبداً.. وهو المشرع القدسي والقاضي الأسمى العادل الرحيم. وقوة أهورا مزدا الخيرة هي التي ستنتصر في النهاية على روح الشر اهرمان الذي هو سبب كل ما في العالم من شرور، يقوم بها هو ومعاونوه من خلائق الشر الأخرى المعروفة باسم «ديفاً». لقد آثرت هذه الخلائق منذ أول الأمر النية البيئة واندفعت بأمر من روح

الشر أهرمان تغدر بالناس وتغرر بهم وتسلبهم الحياة السعيدة والخلود الذي ينتظرهم في العالم الآخر، ذلك العالم الذي جاء ذكره في الأفيستا المقدسة حين يقول:

«سوف تبتهج نفوس الخيرين في الحياة الثانية الخالدة كما سيتعذب الكاذبون إلى الأبد».

* * *

اليوم الآخر:



وهكذا يكون الحساب والجنة والمطهر والنار في ديانة زرادشت فالعالم الدنيوي يتصل بالعالم الآخر بجسر يسمى جسر الانفصال وعندما يموت الناس فإن أرواحهم تجتاز هذا الجسر لتصفّى فيه.. فأما الأرواح الطيبة فتمر عليه وهي مطمئنة إلى المصير الذي ينتظرها عندما تصل إلى الجانب الثاني، وهو «بيت الخلود أو الجنة» حيث تلقاها هناك فتاة عذراء ذات قوة وبهاء، تقودها إليها لتعيش مع أهورا مزدا سعيدة منعمة إلى أبد الدهر.



أما الأرواح الشريرة فإنها عندما تمر على الجسر ترتجف من الفزع والخوف ولا تستطيع أن تجتاز الجسر لما تحمل من ذنوب، فتتردى في درك من الجحيم يتناسب عمقه مع ما اقترفت كل روح من ذنوب. وهذا الجحيم عبارة عن هاوية مظلمة تثير الرعب وتضرب فيها الأرواح المذنبة حتى الأبد. فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح سيئاته قاسى عذاباً مؤقتاً يطهره من الذنوب، وإذا كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا ولكنه فعل بعض الخير لم يلبث في العذاب إلا إثني عشر الف عام يذهب بعدها للجنة.

وهكذا يتم الحساب في الحياة الأخرى حيث يتولى أهورامزدا نفسه حساب الناس.

عندئذ.. تقوم مملكة أهورا مزدا، ويهلك أهرمان هو وجميع قوى الشر

هلاكاً لا قيام لها بعده.. وتبدأ الأرواح الطيبة جميعاً حياة جديدة في عالم خال من الشرور والظلام والآلام، وكما جاء في الأفيستا «يبعث الموتى وتعود الحياة إلى الأجسام، وتتردد فيها الأنفاس ويخلو العالم المادي كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال».

التغييرات في العقيدة:

كل ذلك آمن به الناس من أتباع زرادشت.. وظلوا يؤمنون به حتى بعد مصرعه عندما سقطت إيران في أيدي التورانيين.

وإذا كان مصرع زرادشت لم يؤثر في إيمان الناس.. إلا أن المعركة نفسها بين الإيرانيين والتورانيين لم تنته مع مصرع نبي أهورا مزدا. فقد أقسم الملك كشتاسب على الانتقام ممن قتلوا النبي.. ونظم قواته وجدد هجماته على التورانيين حتى انتصر في عدة مواقع.. ولم يعقد الملك صلحاً مع جيرانه إلا بعد أن وعدوا باعتناق عقيدة زرادشت.

ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى أرسل الملك رسله إلى البلاد الأخرى يدعو للدخول في دين نبي أهورا مزدا..

غير أنه مع مرور الزمن، بدأت تعاليم زرادشت تتغير وتنقلب على نفسها في بطء شديد.

فمن قبل.. عندما سئل زرادشت عما إذا كان الإله الواحد هو وحده صانع الخير في العالم، أجاب إن الإله له مساعدوه السماويون الذين يسمون الملائكة، وقال إن أهم هذه الملائكة سبعة:

«العقل الخير، والنور، والحكمة، والخير، والتقوى، والخلود، والأمر الصالح».

ونستطيع أن نفهم بسهولة من أسماء هذه الملائكة أن زرادشت لم يكن يعني أن ملائكة الإله الواحد حقيقيون ذوو أجنحة كما نراهم أحيانا في الصور، بل كان زرادشت يعني أن هذه هي المميزات المتعددة للإله الحكيم، والصفات والمظاهر الرئيسية له.

ولكن كهنة إيران وشعبها كانوا من عبدة الأوثان. وإذا كانوا قد قبلوا تعاليم زرادشت إلا أن عقولهم كانت لا تزال عقول عبدة أوثان. وعندما ذكر زرادشت لهم ميزات الإله الواحد تصوروها ملائكة حقيقيين تطير هنا وهناك، كأنها قطيع من الطير الأبيض تنفخ في أبواق ذهبية تترنم بالتراتيل.

ولم يمض وقت طويل حتى أطلقوا اسماء على ألف ملاك يعيشون في السماء و٩٩٩٩ شيطاناً أسود يساعدون روح الشر في الجحيم تحت الأرض.



وبهذه الطريقة فعل الإيرانيون ما لم يكن زرادشت يريد منهم أن يفعلوه، عبدوا الأوثان القديمة بعد أن غيروا أسماءها بأسماء جديدة.

وكان زرادشت يؤمن أيضاً بأن العالم سوف ينتهي في أيامه، ولكن أتباعه بعد موته قالوا إن الله الواحد قد خلق العالم في ست فترات.. كل فترة منها شهران.. وإن العالم سيستمر ألف سنة مقابل كل شهر من شهود الخلق.

وقالوا إن زرادشت ولد في نهاية الألف التاسعة بعد الخلق.. وإنه بعد وفاته بثلاثة آلاف سنة سيظهر في هذه الدنيا أحد أبناء زرادشت.. وسيكون هذا الابن هو المخلص الذي يخلص البشرية.

وغير أتباع زرادشت معتقداته وتعاليمه.

الخصال الحميدة

ولكن أهم تعاليم نبي الإله الواحد الحكيم باقية في أساس عقيدتهم حتى اليوم.. وهي أن لإله الواحد مجرد لا يستطيع المرء أن يلمسه أو يسمعه أو يشمه أو يراه.. وأنه واحد حكيم خالق كل ما هو خير في العالم ولا نعرفه إلا من خلال أعماله.

وعلم زرادشت الناس أيضاً أنه عندما يفعل المرء خيرا، فإن فعله الخير لا يسجل في كتاب حياته فحسب فيكافأ عنه، بل أن فاعل الخير يضيف بعمله خيراً إلى خير العالم.

وإذن فمن واجب الإنسان أن يفعل الخير لا من أجل الثواب الذي يناله فحسب، لأنه عندما يفعل الخير يضيف إلى خير العالم ويساعد أهورامزدا في كسب معركته ضد أهرمان روح الشر.

وفاعل الشر مرتبط بروح الشر.. أما فاعل الخير فهو يقاتل من أجل الإله الحكيم.

وحث زرادشت أتباعه على أن يقاتلوا في سبيل الإله الحكيم، وذلك باتباع ست خصال حميدة هي:

- طهارة الفكر والكلمة والعمل
- النظافة والبعد عن كل ما هو دنس
- الإحسان بالفعل والقلب
- الرفق بالحيوانات النافعة
- القيام بالأعمال النافعة
- مساعدة الذين لا يتيسر لهم تحصيل التعليم بتعليمهم

فالذين يتبعون هذه التعاليم يمكن أن يوصفوا بأنهم يسلكون سبيل الإله الواحد الحكيم.

★ ★ ★

بقايا أتباع زرادشت

وهكذا مضت الأيام..

وبعد ثلثمائة عام من موت زرادشت غزا الإسكندر الأكبر أرض فارس وحطم الأفيستا.. وأقام بدل الزرادشتية عقيدة اليونان..

ولكن شعب فارس لم يشأ التخلي عن عقيدته، وأخذ يعلمها لأبنائه سراً.

فلما استقلت فارس عن الحكم الأجنبي بعد خمسمائة عام تقريباً، أعادوا تعاليم زرادشت ثانية.. وجمعوا الأجزاء القديمة من الأفيستا في كتاب

واحد، برغم أن جزءاً كبيراً كان قد ضاع من الأفيستا القديمة. ومع ذلك فإن الأفيستا الجديدة الباقية بدأت تنتشر في جميع أنحاء فارس.. وبنيت معابد جديدة للنار.. أبقيت النار مشتعلة فيها رمزاً للإله الحكيم الواحد الخالد.

وبعد أربعمائة عام، أخرى غزا العرب فارس، وجاءوا بدينهم الجديد الذي أرسل به محمد.. وهو الإسلام.



ولكن عدداً من الناس في إيران فضلوا الموت على اعتناق الدين الجديد.. وإن فضل عدد آخر منهم اعتناق الإسلام.. أما الآخرون فقد هربوا إلى بلاد سمح لهم فيها بممارسة طقوس عبادتهم كما يشاءون..

واليوم.. لم يبق في إيران- أرض فارس القديمة- سوى القليلين جداً من الزرادشتيين. أما أغلب أتباع هذه العقيدة فيعيشون في الهند.. البلد الذي هربوا إليه منذ أكثر من ١٣٢٠ سنة.

وإذا كان هؤلاء الزرادشتيون الذين يسمون الآن بالمجوس يعتقدون أن عقيدتهم هي أفضل عقيدة في العالم.. إلا أنهم لم يعلموها للهندوكيين.. وليس هذا فحسب، بل إنهم يحرمون على أي إنسان لم يولد زرادشتياً أن يعتنق هذا الدين.

فلقد تبين المجوس أن أفضل الهندوكيين وهم أكثرهم نصيباً من التعليم، ممن ينتمون إلى الطواف العليا.. هؤلاء لن يتخلوا عن الهندوكية ويعتنقوا ثانية عقيدة أخرى، كما تبينوا أن الهندوكي الوحيد الذي يمكن أن يقبل اعتناق عقيدة جديدة هو الذي ينتمي إلى طائفة المنبوذين، لأنه يحاول أن يجد تعاليم عقيدة جديدة تشعره بأنه صالح مثل الذين يفوقونه. وتبين المجوس أنهم إذا سمحوا للطبقات الدنيا من بين شعب الهند باعتناق عقيدتهم، فمعنى هذا أن تنقلب الزرادشتية بسرعة إلى عبادة الأصنام من جديد.

من أجل هذا قرروا أنه من الخير لهم ألا يكون هناك سوى قلة من الأتباع الجديرين بالعقيدة.. من أن يكون هناك كثيرون من غير الجديرين بها..

وليس هناك الآن سوى ١٢٠ ألف مجوسي في العالم. ومع ذلك فهذه العقيدة رغم قلة عدد أتباعها اليوم.. فهي ذات أهمية كبرى من حيث تأثيرها في العقائد الأخرى.

ولا تزال جماعتهم حفيظة على كتبها المقدسة، تخلص لها وتدرسها برغم ما أدخل عليها من تغييرات، ولا تزال تقدس النار والتراب والأرض والماء كرموز للإله.. وتعرض موتاها في أبراج الصمت للطيور الجارحة حتى لا تدنس العناصر المقدسة بدفنها في الأرض أو حرقها في الهواء.. وهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة تشهد بما كان للدين الزرادشتي من أثر عظيم في تهذيب الناس وتمدينهم وإيمانهم بالخير.

اليهودية

ملعوناً تكون في المدينة،
وملعوناً تكون في الحقل.
ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك.
ملعوناً تكون في دخولك وخروجك.
يرسل الرب عليك اللعن والزجر،
في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله.
حتى تهلك وتفنى سريعاً..
من أجل سوء أفعالك إذ تركتني.
يلصق بك الرب الوباء،
حتى يبيدك عن الأرض،
التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها.
يغير بك الرب بالسل والحمى والبرداء،
والالتهاب والجفاف واللفح والذبول،
فتتبعك حتى تفنيك.
يغير بك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب،
أيضاً كل مرض وكل ضربة،
لم تكتب في سفر الناموس،
هذا يسلطه الرب عليك،
حتى تهلك.

«التوراة»

يا أحبَّاء يهواه

اكرهوا الشر!

لم يكن إبراهيم بن تارح يستطيع أن يتنفس بعد..

فالبيت كُله غارق في نفايات من الحجارة والطين والخشب.. وجوانب الدار لا تخلو قط من تماثيل منحوتة ومصنوعة.. والأب لا يكاد ينفض يديه من أدوات النحت والنجارة يصنع بها آلهة ومعبودات يصلي لها الناس ويتعبدون.. وحتى أخواه ناحور وحاران.. لا يكادان يعودان معه من أرض المرعى الأخضر في وادي الفرات، حتى يتركاه ليغرقا مع أبيهم العجوز في صنع الأصنام بقية الليل والنهار..!

ويطل إبراهيم حوله.. ويتأمل كل ذلك الذي يدور في بيوت أور.. تلك المدينة التي ولد فيها من أراضي الكلدانيين.. ويتساءل:

كيف يمكن أن يعيش قوم في مثل ذلك الضلال والجهل.. كل آمال حياتهم موضوعة في تماثيل يصنعها أبوه وأخواه بأيديهم من طين وحجر..!؟

كيف يمكن أن يركع هو نفسه ويصلي في المساء أمام صنم صغير لثعلب، رأى أباه وهو يعجن طينه ويشكله في الصباح؟!

ما هي القوة الخارقة والقدسية الغريبة لمثل هذه المعبودات المصنوعة من طين..!؟

ولطالما خطرت كل هذه الأسئلة لإبراهيم بن تارح وهو يعيش في ذلك الزمن منذ أربعة آلاف عام.. ولكنه بدلاً من أن يجد رداً مقنعاً عليها، كانت تنهال على رأسه أسئلة أخرى عديدة لا يجرؤ على أن يستفسر عنها من



أبيه وكل كهنة أور؛ فهو يعلم أن الشك في قدسية المعبودات إنما هو إثم كبير جداً في بلاد الكلدان..

ولكن فجأة.. حدث ما لم يجرؤ أحد على فعل مثله من قبل قط..

تحطيم الأصنام

فبينما إبراهيم وحده في حانوت أبيه، إذ خطر له أن يأخذ فأساً ويحطم به كل الأصنام إلا واحداً كان أكبرها حجماً وشكلاً. وعندما انتهى من تحطيم كل الآلهة وضع الفأس في يد الصنم الذي لم يحطمه، ثم جلس ليرى ما الذي يمكن أن يحدث بعد؟.

ومضت ساعة.. ثم وصل أبوه تارح العجوز ومعه بعض قومه.

وفتح الرجل عينيه في جنون وهو يرى كل ماالديه من أصنام قومه حطاماً. وثار به غضب شديد. واتجه إلى ولده في غيظ وهو يصرخ:

- أهو أنت الذي فعلت هذا بآلهتنا يإبراهيم..!؟

وأجاب إبراهيم وهو يشير إلى الصنم الوحيد الباقي من مجموعة الأصنام:

- بل فعله كبيرهم هذا إذ اختلف معهم.. فتناول الفأس وانهال بها في هياج شديد ليدمرها تدميراً..

وصاح تارح:

- ذلك كذب.. وإنك لتعلم أن هذه الأصنام لا تستطيع أن تتنازع وتتقاتل. إنك أنت الذي فعلت ذلك بآلهتنا.

وسأله إبراهيم:

- إذا صح ما تقوله يا أبت من أن هذه الأصنام لا تستطيع أن تفعل شيئاً قط.. فلأي شيء تصلح إذن!؟

ولم يكن تارح قد سمع مثل هذا السؤال من قبل.. ولهذا لم يكن يعرف بماذا يجيب.. ولم يستطع إلا أن يرد في صوت خفيض:

– إنها تعبد..؟

وأجاب إبراهيم وهو يطل إلى أبيه ومن معه:

– لها أعين ولكنها لا تبصر.. وآذان ولكنها لا تسمع.. وأيد ولكنها لا تتحرك. فمن المؤكد إذن أنها لا تصلح لشيء.. لهذا كسرتها فما كان من المعقول أن تعبدوا ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم.

وقال تارح:

وما الذي يجب على الناس أن يعبدوه؟

أجاب الفتى:

يعبدون الآلهة التي خلقت الشمس والقمر والنجوم.. يعبدون الآلهة التي تأتي بكل موسم في موسمه، وتعطينا المطر، وتجعل الحقول غنية بالمراعي والنعاج مثقلات بالحملان.

وبدت هذه الكلمات غريبة جريئة وهي تصدر من ابن عابد أصنام.

وعندما ذاع في أور نبأ ما فعله أكبر أبناء تارح بأصنام أبيه وما قال عنها.. لم يعد من المأمون بقاء إبراهيم وأسرته في ذلك البلد.

ولم يجد إبراهيم بداً من الهرب بعيداً عن مسقط رأسه.. فانطلق ومعه زوجه وبعض أقاربه وخدمه، بل وقطعان أغنامهم وماشيتهم.. وأخذوا يضربون في الأرض حتى بلغوا أرض كنعان التي تستوطنها قبيلة كنعان العربية النارحة من جزيرة العرب..

وأطلق أهل كنعان على ضيفهم إبراهيم اسم «عبري» ومعناه الرجل الذي جاء عبر دجلة والفرات.. كما سموا أسرته بالعبريين.

* * *

بنو اسرائيل

مضت الأيام بإبراهيم إله العبريين في أرض كنعان..

وإذا كان هؤلاء العبريون يختلفون عن الكنعانيين وغيرهم من القبائل

التي تعيش بالقرب من تلك البلاد أو بعيداً عنها.. وإذا كانوا لم يختلفوا عنهم كثيراً في كلامهم أو في مظهرهم.. فقد اختلفوا عن بقية الشعب في أن جميع القبائل الأخرى كانت تعبد الأصنام.. أما هؤلاء العبريون فقد كانوا يتبعون تعاليم إبراهيم ويؤمنون بأن الأصنام يجب ألا تعبد على الإطلاق.



وراحت الأعوام تمضي.. والعبريون يتكاثرون ويتزايدون..

وأصبح لإبراهيم محطم الأصنام ولد اسمه اسحق.. وجاء لإسحق ولد اسمه يعقوب. وكان ليعقوب ابن اسحق اسم آخر هو إسرائيل.. ولهذا سمي أبناؤه ببني إسرائيل.. أو الإسرائيليين.

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الإسرائيليون قبيلة قوية كبيرة العدد. وصاروا رعاة يتنقلون من مكان لآخر بحثاً عن المراعي الخصبة التي يحتاج إليها الرعاة..

الهجرة إلى مصر

على أن بني إسرائيل لم يرتعوا طويلاً في الرخاء الجديد.. فلم تكد تمضي سنوات حتى حلت المجاعة في أرض كنعان وما جاورها. ولم يجد الإسرائيليون أمامهم سوى أن يذهبوا إلى مصر التي سمعوا عن وفرة غذائها وغنى مراعيها. وكما هي عادة المصريين دائماً سمحوا لضيوفهم الوافدين عليهم بالاستقرار في إقليم جوشين بالقرب من نهر النيل.

وعاش العبريون القادمون من كنعان وصحراء شور سعداء في أرض جوشين بمصر. وتكاثر عددهم عاما بعد عام. ولكنهم ظلوا في عزلة عن المصريين ومعبوداتهم وعقائدهم..

والحق لقد كانت معبودات المصريين غريبة مذهلة. وكان لهم عدد من الأصنام لم يوجد عند شعب آخر من شعوب تلك الأيام. وكانت معابدهم وقصورهم وبيوتهم مليئة بالأصنام من كل نوع وحجم، وكان من الطبيعي

أن يكره المصريون أولئك العبريين الذين لم يشاركوهم عبادة آلهتهم.. إلا أن الكراهية تحولت مع مضي الوقت وتكاثر عدد العبريين إلى خوف من أن يسيطر هؤلاء العبريون بعقيدتهم، فيقضوا بذلك على المعبودات التي عاشت وقتاً طويلاً قوية مقدسة..

وذات يوم استدعى فرعون كهنته وسحرته وحكماءه. وسألهم عما يفعله بالعبريين قبل أن يزداد عددهم ويستفحل خطرهم على البلاد.

قال الحكماء لفرعون: إن العبيد لا يفكرون لأنفسهم.. بل هم يفكرون في العادة تفكير سادتهم. وإذا نحن أسرنا اليهود واستعبدناهم فإنهم سيجدون أنفسهم بالرغم منهم يفكرون كما نفكر ويعتقدون كما نعتقد..

وأخذ الملك بالنصيحة. وتحقق بالفعل ما أشار به الحكماء. إذ حالما تم استعباد العبريين أخذوا بالتدريج يتحولون عن عقيدتهم، ويفكرون بالطريقة التي يفكر بها المصريون، ويعبدون الآلهة والأصنام التي عبدها المصريون.

ومع ذلك فقد ظلوا بمعزل عن شعب مصر الذي اكتشف بالفعل أن بني إسرائيل كانوا يتآمرون عليه. ولم يجد فرعون إلا أن يذلهم ويسخرهم في عمل اللبن والبناء وغير ذلك من شاق الأعمال. ووكل بهم من يتبعهم حتى لا يحسوا راحة ولا يجدوا فرصة لزيادة نسلهم قط. ومع كل ذلك فقد ظل عدد العبريين في تزايد مستمر. ومع الفقر الذي كانوا يعانونه انتشرت بينهم الأمراض وأصبحوا بما يعيشون فيه من ألوان الجوع والقذارة مصدر قلق لفرعون وشعب مصر.

ونادى فرعون كهنته وسحرته وحكماءه من جديد وقال لهم:

- لقد استعبدنا العبريين ولكنهم مع ذلك ظلوا بمعزل عن الشعب المصري وربما كانوا يتآمرون ضدنا. فما الذي نفعل بهم؟

قال الحكماء:

لِنسِنَّ قانوناً يقضي بإغراق كل ولد يولد للعبريين حتى لا يزداد نسلهم أكثر من ذلك.. وعندئذ تضطر بناتهم إلى الزواج من المصريين ويصبحن مصريات مثلنا".

مولد موسى

سر فرعون بهذا الاقتراح. وسن قانوناً بإغراق كل مولود ذكر تلده عبرية.. وذات يوم ولد طفل عبري صغير لرجل اسمه عمران من زوجته يوكابد.. وكان اسم الصبي موسى. وطبقاً للقانون الجديد كان لابد للصبي أن يموت غرقاً.. ولكن أمه لم تستطع احتمال موت ولدها، وجهدت أن تخبئه عن عيون من يطلبون أطفال بني إسرائيل لإغراقهم. وعندما خشيت أن يفتضح أمرها خاصة بعد أن ظلت تخبئه ثلاثة شهور، راحت تفكر في وسيلة تنجي بها ولدها من الموت.. فألهمتها السماء أن تضع الطفل في سلة.. وتتركه يسبح فوق سطح النيل.

وهكذا كان.. وبدأت قصة موسى.. رسول الله.. وبني إسرائيل..

عندما جاءت زوجة فرعون إلى النيل تستحم بعد ظهر ذلك اليوم عثرت على الطفل في سلته.. وأعجبت المرأة بالوليد، ولم تجد ما يمنعها من أن تأخذه معها، حيث استطاعت أن تقنع زوجها بألا يقتله.. فلعله لا يكون عبرياً، ولعله أن يكون قرة عين لها وولداً.

وتعلم موسى وشب في قصر فرعون.. وكان قوي البدن عظيم القوة، ولكن يبدو أنه عندما كبر واستطاع أن يفهم، اكتشف أنه عبري من ذلك الشعب المضطهد من فرعون وشعبه. فقرر في أعماقه أن يكون ظهيراً للعبريين.

وذات يوم، رأى موسى أحد الموكّلين بالعبيد وهو يضرب عبدين عبريين بقسوة وشدة.. فهاج موسى وقتل المصري.

هرب موسى

لم يكن قتل مصري من عبراني من السهولة بحيث يمضي بغير عقاب، خاصة وأن العبرى الذي أنقذه موسى خان منقذه وكشف عن اسمه.. وأرسل فرعون بمن يبحثون عنه.

عندئذ تبين موسى أن وجوده في مصر لم يعد مأمونا قط. فأسرع بالهرب إلى الصحراء.. وظل يضرب فيها حتى بلغ صحراء مدين حول خليج العقبة.

وهناك.. عند بئر مدين، وجد موسى قوماً كثيرين حول البئر، يسقون ماشيتهم ويملأون جرارهم، بينما وقفت فتاتان صغيرتان بعيداً في انتظار أن ينتهي القوم حتى تملآ جرارهما وتسقيا ماشيتهما.

واقترب موسى وساعد الفتاتين، اللتين انطلقتا إلى ابيهما «شعيب» تحكيان له ماحدث. فأرسل إحداهما لاستدعاء موسى حيث رحب به ودعاه للإقامة لديه.



وذات يوم دخل موسى حديقة شعيب، ووقف طويلاً أمام عصا مغروسة في الأرض بين الأشجار.. وكانت العصا في ظاهرها تبدو عادية مستديرة ناعمة كتلك العصى التي يحملها الرعاة.. ولكن كان فيها شيء غريب لم يدر كهنه.

وسأل موسى شعيب: لماذا زرعت هذه العصا في حديقتك؟

وتلفت شعيب حوله في الحديقة ثم قال:



لهذه العصا قصة. فعندما مات يوسف بن يعقوب في مصر، أخذ كل متاعه إلى قصر فرعون وعندما رأيت العصا أعجبتني.. وكنت وقتئذ كبير الكهنة في القصر. وسألت فرعون إذا كان ممكناً أن آخذ هذه العصا. ولم يبخل علي الملك بها فأخذتها معي.

وعندما جئت فيما بعد إلى هذا المكان غرست العصا في الأرض صدفة.. فلم أكد أفعل حتى امتدت لها جذور قوية في الأرض،



موسى كاتب التوراة ونبي اسرائيل.



الشمعدان المقدس ذو الفروع السبعة رمز النور السرمدي الخالد.. في المعابد اليهودية بأورشليم.

وأصبح من العسير على أي إنسان أن ينتزعها.. حتى أن كل الرجال الأقوياء في مدين حاولوا جذبها ولكنهم فشلوا جميعاً. وهكذا ظلت مغروسة في الأرض منذ ذلك الحين.

وأطل موسى وقد ضاقت عيناه كمن يحاول أن يذكر شيئاً. واقترب أكثر من العصا يتأملها بعناية بالغة. وفجأة مد بصره جيداً إلى رأس العصا فإذا منقوش عليها ثلاث كلمات بالعبرية. وفوق الكلمات نقش الإسم الأعظم.

ونظر موسى إلى شعيب وقال له: نعم.. لهذه العصا قصة.!

وسأله شعيب في استغراب: قصة أخرى؟!

قال موسى: نعم.. ففي نهاية اليوم السادس من أيام خلق الكون. وقبيل انتهاء الأسبوع الأول وبدء السبت.. أتم الله خلقه بخلق العجائب العشر.. وهذه العصا بالذات هي إحدى تلك العجائب..

ونظر شعيب إلى العصا في دهشة وقال: هذه العصا؟

قال موسى: نعم هذه العصا.. لقد أعطيت لآدم عندما كان لا يزال في جنة عدن. وأعطاها آدم لأحد أبنائه.. وهذا أعطاها لآخر.. حتى وصلت العصا لإبراهيم الذي أعطاها لإسحق وأعطاها إسحق ليعقوب الذي جاء بها إلى مصر وأعطاها ليوسف.. وها هي أمامك!

وكان موسى غريباً في أرض مدين. فظنه شعيب واحداً من أولئك الذين يقصون قصصاً رائعة.. مليئة بالخرافة.

وسأله شعيب: ومن أين لي أنك صادق في كلامك؟

أجاب موسى: ألم تقل أن أحداً حتى أقوى الرجال في مدين لم يستطع انتزاع العصا من الأرض..!؟

أجاب شعيب: بلى.

ومضى موسى نحو العصا. ومد يده إليها فانتزعها من الأرض في يسر كبير، وكأنها عصا عادية غرست في أرض من رمل.

عندئذ فقط.. عرف شعيب أن موسى لابد أن يكون رجلاً عظيماً.. وطلب إليه أن يخدمه برعى غنمه ثماني سنوات في نظير أن يزوجه بإحدى ابنتيه..

ومنذ ذلك اليوم صار موسى صهراً لشعيب.. وراعياً لأغنامه الوفيرة في أرض مدين.

★ ★ ★

الرسالة

ذات يوم.. بينما موسى يرعى غنمه بعصاه التي وجدها في أرض شعيب ومعه امرأته، ضل الطريق. «إذ كانت الليلة باردة فقد أراد أن يشعل ناراً، ولكن الزند عاكسه ولم يشعل النار. وبينما هو حائر إذ شهد ناراً من بعيد فقال لامرأته: «أمكثي إني آنست ناراً لعلي آتيك منها بقبس أو أجد على النار هدى فاسأل من عندها عن الطريق يهدوننا».

واقترب موسى من النار فوجدها في شجرة عليق.. والنار لا تشعل الشجرة وهي لا تنطفىء أيضاً.

وشغل موسى بما حوله. وفجأة انطلق صوت من وسط النار يناديه «يا موسى إني أنا الله رب العالمين».

وسمع موسى الصوت يأمره بأن يخلع نعليه، فخلعها، وعندئذ عاد الصوت يسأله:

- وما تلك بيمينك يا موسى؟

قال: هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى..

وأمره الصوت بأن يلقي العصا. ولم يكد يلقيها حتى انقلبت حية تسعى في الأرض. وأخذ به الرعب غير أن صوت الرب أمره ألا يخاف، وعادت العصا سيرتها الأولى. وعاد الصوت يقول له:

﴿أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾.

وفعل موسى ما أمره به، فإذا يده تخرج بيضاء كالثلج. ثم ردها في جيبه فعادت كما كانت..

واستشعر موسى رعباً جديداً. غير أن الصوت قال له:

﴿هذان برهانان من ربك إلى فرعون ومثله﴾.

وعرف موسى أنها الرسالة.. وأدرك أن الصوت صوت ربه.. فطلب منه أن يشد أزره بأخيه هارون وهو يذهب إلى فرعون..

وقد كان..

وخلف موسى وراءه زوجته وأبناءه في أرض مدين.. وأخذ طريقه إلى مصر.. وإلى قصر فرعون.

بين موسى وفرعون

وأمام فرعون وقف موسى- ومعه أخوه هارون- يطالب بتحريره شعبه العبرانيين من العبودية.. وإطلاقهم إلى البرية ليعبدوا ربهم الذي يؤمنون به..

وسأله فرعون: ومن الذي بعثك لتطلب حرية العبريين؟

أجاب موسى: الله رب العبريين يهوه أرسلني إليك، وقال دع شعبي يذهب حتى يمكن أن يخدمني في البراري.

وفتح فرعون «كتاب الآلهة» وأخذ يقرأ.. وقرأ أسماء جميع آلهة مصر وجميع آلهة أدوم ومؤاب. ولكنه لم يجد إسم «يهوه» قط بين تلك الأسماء، فهز رأسه وقال لموسى:

- لم أستطع أن أجد إسم إلهك الذي تقول به.. وأنا هنا رب الآلهة الذي يعبدون.. ولن أدع العبريين يخرجون من أرضي، فهم عبيدي وعبيد شعبي.

مضت كل محاولات موسى لهداية فرعون وشعبه عبثاً. فبرغم إلحاحه

الشديد على فرعون إلا أن هذا تجاهل دعوة موسى وسخر بالإله الذي يقول به. بل أن فرعون قال في ملأ من قومه أنه سيتخذ الوسيلة للصعود إلى إله موسى ليصفي الحساب معه. وأمر بالفعل أحد مهندسيه واسمه هامان بإقامة صرح عال ليصعد عليه لمنازلة رب موسى. وعندما أقيم الصرح صعد فرعون فوقه وصوب سهمه إلى السماء ورمى به، فعاد إليه النصل مخضبا بالدم، وعندئذ قال فرعون: لقد قتلت إله موسى!

واستمر فرعون في غيه يرفض الإيمان بما جاء به موسى ويرفض تحرير العبيد العبريين. ولم يجد موسى بداً من أن يريد الآية التي جاء بها من ربه، فألقى العصا فانقلبت حية تسعى.. ووضع يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء.



وتكمل المصادر الإسرائيلية ما حدث فتقول:

إلا أن فرعون مع ذلك لم يؤمن، بل أمر بإحضار كل السحرة، حيث ألقوا عصيهم فانقلبت إلى ثعابين صغيرة، ولم يكد موسى يلقي بعصاه حتى تحولت إلى حية ابتعلت كل ثعابين السحرة، وبهت السحرة الذين علموا أن ذلك لا يمكن أن يكون سحراً. فخروا ساجدين وأعلنوا إيمانهم برب موسى. ولكن فرعون استمر يطغى.. بل وتمادى فأمر بتشديد العذاب على العبريين وتكليفهم بأشق مما كانوا يكلفون به. واستنجد بنو إسرائيل بموسى الذي انطلق من جديد إلى فرعون يبلغه ما أمره به ربه وينذره بما سيحيق من العذاب بفرعون وقومه جزاء تكذيبهم إياه، وإذ رفض فرعون كل إنذارات موسى وسخر بها، أشار موسى إلى العصا في يده وهمس في أذن أخيه هارون الذي كان يرتعد من الخوف وقال له:

– لا تخف.. ولكن أنظر إلى ذلك الحرف الأول من الكلمة الأولى على رأس العصا، إنه يمثل كلمة ديم.. ومعناها الدم. إن إلهنا سيصيب المصريين بطاعون الدم.

والتفت موسى إلى فرعون وقال:

- إسمع يا فرعون.. بهذه العصا سيحيل ربي كل الماء في مصر إلى دم إذا لم تؤمن به.

وعاد فرعون يسخر.. فما كان يصدق كلمة مما قال موسى.

وأدار موسى العصا بطريقة معينة.. وعلى الفور استحال ماء الأنهار والترع والبحيرات والغدران والبرك والآبار في مصر إلى دم. وحيثما كان هناك ماء من قبل أصبح دماً.

ومع ذلك أصر فرعون على عدم السماح للعبريين بالرحيل.

ونظر موسى إلى العصا ورأى الحرف الثاني ومعناه ضفادع. وأدار العصا بطريقة معينة.. وسرعان ما أصبحت أرض مصر مغطاة بالضفادع.

وأصر فرعون على الرفض. ومن جديد نظر موسى إلى عصاه وأدارها فأصبحت مصر مليئة بقمل في حجم البيض، وتعرضت أراضيها لأسراب هائلة من الجراد.

ولكن فرعون ظل مصراً على موقفه بعدم السماح للعبريين بالخروج. وعندئذ رفع موسى عصاه.. فنزل على المصريين وباء موت أول مولود..

عندئذ فقط.. فزع فرعون فقد كان هو أول مواليد أبيه، وخشي أن يموت.

الخروج

وهكذا سمح للعبريين بالخروج من مصر.. كما يقول اليهود..

وكائنة ما كانت الطرق التي اتبعها موسى.. فإنه أقنع فرعون أخيراً بإخلاء سبيل العبريين. وصدرت الأوامر بالسماح لهم بالخروج من البلاد..

وقاد موسى شعبه منذ ٢٢٠٠ سنة.. وقد فصم رباطهم من المصريين.

على أن فرعون ندم بعد ذلك على إطلاق بني إسرائيل.. خاصة بعد أن بلغه ما فعلته نساء اليهود بالمصريات؛ إذ استعرن حليهن وزينتهن ثم مضين

ولم يرددن شيئاً منها لصاحباتها، عندئذ جمع فرعون عدداً كبيراً من الجند وسار بهم يتبع بني إسرائيل ليردهم إلى عبوديته.

في ذلك الوقت كان موسى ومعه بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر عند خليج السويس، وعندما طلع عليهم فرعون وجيشه مع شروق الشمس أيقنوا بالهلاك. غير أنّ موسى سكن من روعهم ودعا ربه. فأمره بأن يضرب البحر بعصاه. وعندما فعل موسى ذلك انفلق البحر حتى ظهر قاعه.. وقاد موسى شعبه وراح يعبر بهم من الشاطىء الغربي إلى الشاطىء الشرقي. وعندما شهد فرعون ذلك أبى إلا أن يعبر في أثرهم هو وجنوده. ولم يكد يتوسط البحر مع جيشه حتى كان موسى وبنو إسرائيل قد أتموا العبور.. وعندئذ انطبق البحر على فرعون وجنوده فغرقوا جميعاً ولم يفلت منهم أحد قط.



عودة إلى الوثنية

كان بنو إسرائيل الذين انطلقوا مع موسى جيشاً كبيراً، يرحلون على ظهور الخيل وفي العربات وعلى أقدامهم، يتبعون زعيمهم موسى شرقاً نحو فلسطين، التي ادعوا أن ربهم يهوه قد وعدهم إياها..

ولم يخل طريقهم من المعجزات التي قدمها لهم رب موسى.. فعندما اشتد الحر وهم في سهول صحراء سيناء، وشكا بنو إسرائيل إلى موسى، دعا ربه فساق الغمام ليظلهم ويقيهم وهج الشمس. وعندما قل معهم الزاد أرسل الله لهم الرياح تحمل المن والسلوى- طيور السمان وغذاء كالعسل- ولما لم يجدوا ماء لشربهم أمر إله موسى أن يضرب الأرض فخرج لهم الماء من اثنتي عشرة عيناً.

وخلال الطريق ترك موسى بني إسرائيل ليصعد إلى جبل الطور، ويمكث ثلاثين ليلة صائماً ليتلقى من ربه الوصايا التي ترسم الطريق للمؤمنين. وامتدت الأيام الثلاثين فصارت أربعين ليلة.

وبينما كان موسى يفعل ذلك من أجل أن يعقد ميثاقاً بين يهوه وشعب بني إسرائيل.. كان هؤلاء يصنعون شيئاً عجباً.. لم يكن موسى ليتصور أن يحدث فقط.

فبرغم كل المعجزات التي أتاها موسى في سبيل إنقاذ بني إسرائيل.. والتي كان يجب أن تؤكد لهم أنها من صنع إلّههم وإلّه آبائهم، الواحد المنزه عن كل شريك ومعين.. برغم كل ذلك كانت الوثنية لا تزال لاصقة بقلوب القوم الذين عاشوا أمداً طويلا في مصر، حيث ألفوا آلهة المصريين وقلدوهم في وثنيتهم شأن المغلوب في تقليد الغالب.

وكما كانوا يرون المصريين وهم يعبدون آلهة يرونها في داخل المعابد.. فقد بدا لبني إسرائيل أنهم يستطيعون أيضاً رؤية إلههم متجسداً أمامهم في صورة ثور أو عجل أو بومة.. منذ أن عبروا البحر وساروا في جبل سيناء.. ولعلهم أصيبوا بخيبة أمل عندما لم يروا أمامهم سوى الجبل.. وسأل بعضهم البعض:

«أين هذا الإله الذي حدثنا عنه موسى والذي وعدنا أن يوصلنا سالمين إلى أرض الميعاد؟»

واستطاع رجل ماكر منهم استغلال تلك الغيبة التي غابها موسى عن بني إسرائيل ليلقى أمر ربه. فجاء لهم بعجل له خوار وقال لهم: «هذا إلهكم وإله موسى، نسيه موسى هنا، وذهب لملاقاته في الغيبة الطويلة..»



واقتنع القوم الذين في قلوبهم غرس الوثنية. وأعطوا لذلك الرجل واسمه السامري بعض حليهم فألقاها في النار، وسبك منها عجلا ذهبياً راحوا يعبدونه، ويعتبرونه ربهم يهوه..

على أن موسى عندما عاد وشهد ما كان منهم غضب غضباً شديداً.. وعاقب يهوه بني إسرائيل بأن جعلهم يقاتلون بعضهم بعضاً حتى قضى منهم عدد كبير بلغ مالا يقل عن ثلاثة آلاف شخص.

ولكن يهوه عفا بعد ذلك عمن بقي من بني إسرائيل.. فواصلوا السير مع موسى في الطريق إلى أرض فلسطين.

وكان على بني إسرائيل أن يستولوا على تلك الأرض ويمتلكوها.. غير أن الذلة التي ملأت نفوسهم وتمكن الهوان منهم جعلهم يجبنون عن أن يقاتلوا في سبيل الحصول على الأرض، بل قالوا لموسى عندما أصر على أن يقاتلوا «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون».

وشكا موسى أمر بني إسرائيل إلى ربه، فعاقبهم الله بأن يتيهوا أربعين سنة قبل أن يستقروا في أرض يعيشون عليها.

وصعد موسى إلى جبل ينظر إلى أرض فلسطين ولا يدخلها.. وهناك مات موسى ودفن في كثيب أحمر.. غريب.

★ ★ ★

على أن موسى قبل أن يموت كان قد رسم لليهود طريقهم السوي..

الوصايا العشر

فقد أمرت الوصايا بني إسرائيل بعدة أشياء:

● ألا يتخذوا إلهاً غير يهوه «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي».

● ألا يعبدوا أصناماً أو تماثيل من أي نوع «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن».

● ألا يتخذوا اسم يهوه لهواً ولعباً «لا تنطق باسم الرب إلّهك باطلاً لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً».

● أن يستريحوا في اليوم السابع من كل أسبوع وأن يسموا ذلك اليوم مقدساً «أذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل أولاً وتصنع جميع عملك. وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلّهك».

● أن يكرموا آباءهم وأمهاتهم «أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلّهك».

● ألا يقتلوا «لا تقتل».

● ألا يفسقوا «لا تزن».

● ألا يسرقوا «لا تسرق».

● ألا يكذبوا القسم ولا يكذبوا الشهادة «لا تشهد على قريبك شهادة زور».

● ألا يحسدوا الآخرين ولا يتمنوا الحصول على ما لديهم «لا تشته بيت قريبك ولا امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيء مما لقريبك».

ولم تكن هذه الوصايا تعلم أفكاراً جديدة.. فقد كان المصريون يعرفون بعضها ويعلمونها أيضاً.

ولكن كانت هناك وصيتان لم تسمع بهما من قبل قبائل إسرائيل.

فقد كان العبيد في مصر يعملون كل يوم من الأيام السبعة.. والآن يأمر موسى شعبه باسم يهوه أن يعملوا ستة أيام فقط ولا يعملوا يوم السبت..

غير أن الوصية الأولى كانت هي الأخرى غريبة هامة..



«أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ومن بيت العبودية.. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي..»

ففي هذه الوصية لم يقل موسى أن يهوه هو الإله الوحيد في العالم، بل أن ما قيل هو أن بني إسرائيل يجب ألا يكون لهم آلهة غير يهوه..

وكانت هذه الوصية قد جعلت بني اسرائيل يقسمون على الارتباط بيهوه. وكان هذا الاتفاق هو ما يجب أن يقوم دائماً بين يهوه وبني إسرائيل..

إلا أن بني إسرائيل الذين كانت الوثنية قد تمكنت في قلوبهم من جديد وهم في صحراء سيناء. راحوا يتحدون موسى ويعاندونه ويطالبونه بأن يريهم إلههم.

ولم يجد موسى إلا أن يدعو ربه ويشهده على تمرد بني إسرائيل.. فنزل غضب الرب عليهم وعاقبهم بالتيه في البرية أربعين سنة..

وعندما انتهت مدة العقوبة استطاع بنو إسرائيل العثور على الطريق الذي يوصلهم إلى أرض كنعان.. نفس الأرض التي هاجروا إليها ذات يوم حينما هربوا من قومهم الكلدانيين.

اغتصاب فلسطين

وأخذ بنو إسرائيل طريقهم إلى كنعان.. وهن يحملون معهم صندوقاً صغيراً كان موسى قد ملأه بالذهب والفضة ووضع فيه المواثيق وسماه تابوت العهد، وقال لهم أنه في هذا السفط توجد روح الإله يهوه.. وعندما وصلوا إلى هناك قاتلوا أهلها حتى دخلوها. واستقر بهم المقام فيها.

وكانت هذه هي قصة غزو بني إسرائيل لأرض كنعان الخصبة.. التي سميت بعد ذلك فلسطين..

ولكن بني إسرائيل عندما استقروا في أرض فلسطين، بعد أن اغتصبوها بالقوة من أصحابها الكنعانيين، وأصبحوا يفلحون الأرض وينبتون أشجار الزيتون والعنب.. بدأت أساليبهم وأفكارهم في الحياة تتغير.. تماماً كما تغيروا هم أنفسهم من قبائل صحراوية رحل.. إلى فلاحين وزراع..

والواقع أنه كان لابد من أن يتم هذا التغيير..

فالفلاح يعرف متعة البذر ولذة الجني.. ويعرف الحزن الذي يسببه المطر الغزير عندما تفوق غزارته حاجة الأرض إلى الماء.. والحزن الذي يسببه صفاء السماء وخلوها من السحب حينما تكون هناك حاجة إلى المطر. والفلاح يغني أغاني الفرح وهو يجني محصوله في موسم الحصاد... ويندب حظه ويملؤه الحزن عندما يحل بمحصوله وباء..

ومع هذا التغيير كان لا بد أن يعمد الإسرائيليون إلى إضافة أغانٍ وتراتيل زراعية.. إلى أغانيهم وتراتيلهم الدينية في الأعياد التي تميز الأحداث في حياة الفلاح..

وكانت هناك طريقة أخرى تختلف فيها حياة الفلاح عن حياة القبائل الرحل..

فالبدوي الضارب في الصحراء لا جيران له، بينا للفلاح جيران يجب أن يعرف أساليبهم ويفهمها..

وقد يكون الجيران أصدقاء، ولكنهم من ناحية أخرى قد يكونون أعداء أيضاً. فإذا كانوا أصدقاء وجب الاحتفاظ بصداقتهم، وإذا كانوا أعداء وجبت مراقبتهم في شك كبير..

ولما كان أبناء إسرائيل قد تحولوا من بدو إلى فلاحين، كما تغيرت مشاكل حياتهم، فقد وجب أن يتغير كذلك إلههم يهوه.

* * *

رب اليهود

وكان ذلك التغيير في أذهان الناس غريباً حقاً.

فمن قبل.. عندما كان اليهود يخترقون الصحراء... كان يهوه إلها متنقلاً لشعب متنقل يكافح معه في معاركه ويهزم أعداءه..

وعندما دخلوا غزاة أرض كنعان.. صاغ اليهود يهوه في الصورة التي كانوا هم أنفسهم عليها، فجعلوا منه إلها صارماً، ذا نزعة حربية بالغة العنف، وإن كان لا يطالب بالاعتقاد بأنه عالم بكل شيء، حتى أنه لم يطلب إليهم أن يرشوا بيوتهم بدماء الكباش المضحاة، حتى لا يهلك أبناؤهم مع من يهلكهم من أبناء أعدائهم. ولم يكن يهوه في أذهان يهود ذلك الوقت معصوماً عن الخطأ، ومن أجل ذلك فقد ندم على خلقه للإنسان.. وإن كان ذلك الندم قد جاء بعد أن ضاعت الفرصة ولم يعد سبيل للتراجع كما جعله اليهود رباً شرهاً غضوباً متعطشاً للدماء متقلب الأطوار، وإن كان في الوقت نفسه خجولاً لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره.

وبدا رب اليهود كما جاء في الأسفار الخمسة إله حرب، يدعو للاستعمار والفتح، ويقول إن الأرض التي فتحها اليهود ملك له وحده، وهو يرتكب في سبيل انتصار شعبه من ضروب الوحشية ألواناً بالغة العنف والقسوة إلى حد الظلم الرهيب.

على أن كل ذلك لم يستمر طويلا.. فعندما استقر اليهود في أرض

كنعان، تطلعوا إلى ربهم، وجعلوا منه إلها آخر يحميهم من الأعداء بطريقة مسالمة، ويمن عليهم بالمطر في مواسمه، والريح عندما يكونون في حاجة إليها.. والشمس حينما تكون الحاجة إليها أشد..

وجعل اليهود رمزاً لروح إلههم تابوت العهد.. ذلك الصندوق الخشبي الذي يحتوي على ملفات السنين ووثائق الأنبياء.. ولم يكن يسمح لأحد أن يمسه.. حتى أن «عزة الصالح» عندما مد يديه إلى التابوت ليمنعه من السقوط على الأرض وأمسكه لحظة قصيرة.. غضب الرب على عزة وضربه الرب هناك لأجل أنه يمد يده إلى التابوت.. فمات هناك أمام الله».

وإذا كان هذا هو إيمان اليهود بربهم.. فقد كانت شرائعهم مختلفة كثيراً عن بقية الديانات والعقائد.. فلم يكن في هذا الدين جحيم يخصص لعقاب المذنبين، ولكن «شيول» وهي أرض الظلمات التي تحت الأرض، لم تكن أقل هولاً من الجحيم.. وفيها يلقى بكل من يموت سواء كان طيباً أو خبيثاً، ولا يستثنى سوى المقربين إلى الله كموسى وإينوك وإيليا.. على أن اليهود مع ذلك قليلاً ما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت. ولم يذكروا في أسفارهم شيئاً عن الخلود، إذ كان الثواب والعقاب يتم في الحياة الدنيا.. ولم تدر فكرة البعث في رؤوسهم إلا بعد أن فقدوا الأمل في أن يكون لهم سلطان على الأرض.

* * *

انقسام اسرائيل

في أول الأمر كان يحكم شعب إسرائيل في فلسطين عدة قضاة كانوا هم قادة الشعب العسكريين، ولكن بعد أن استمرت القبائل الإثنتا عشرة لمدة ثلاثة قرون يحكمها قضاة، جمعوا أمرهم في النهاية على إقامة مملكة واحدة، اختاروا لملكها فلاحاً من بينهم إسمه شاؤل..



إلا أن مملكة إسرائيل المتحدة لم يقدر لها أن تدوم طويلاً.. فالذي حدث أنه لم يحكمها سوى ثلاثة ملوك هم: شاؤل وداود وسليمان..

ومع ذلك ففي أثناء حكم الملوك الثلاثة وصل مجد إسرائيل كمملكة إلى أعلى قمة.

وفي أثناء حكم الملك الثالث سليمان بنى أول هيكل كبير لعبادة يهوه.. بعد أن كان اليهود يقربون القرابين لإلههم في هياكل ساذجة فوق التلال.

وكان هيكل سليمان يقوم فوق ربوة.. وكان يبدو في شكل سياج مربع يضم عدة أجنحة، وفي صدر البناء الرئيسي مدخل كبير يبلغ ارتفاعه مائة وثمانين قدماً مرصع بالذهب.. وكان الذهب فضلاً عن ذلك يغشى كثيراً من أجزاء الهيكل مثل سقف البناء الرئيسي والأعمدة والأبواب والجدران والثريات والمصابيح ومقصات الفتائل والملاعق والمباخر.. كما كان فيه مائة حوض من الذهب. وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه، كما ترصع تمثالي الملكين اللذين يحرسان قدس الأقداس حيث استقر تابوت العهد الذي قالوا إن فيه رمز يهوه رب أرض فلسطين. أما الجدران فكانت مشيدة من حجارة كبيرة مربعة، وأما السقف والأعمدة والأبواب فكانت من خشب الأرز والزيتون المنقوش.

لقد كانت أيام حكم سليمان هي أغنى عهود مملكة إسرائيل التي أقامها شاؤل، وقواها ووسع حدودها الملك داود، ثم جعلها سليمان أغنى البقاع في كل المنطقة.

وبعد أن مات سليمان اختلف شعب المملكة العبرية المتحدة على أنفسهم. فقال شعب الشمال أن داود وسليمان ووزراءهما- وكانوا يقيمون في الجنوب- لم يعاملوا شعب الشمال على أنه شعبهم.. وقرروا إنشاء مملكة خاصة بهم.

وهكذا وجدت مملكتان في فلسطين.. مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب.

الأسر

ولقد أضعف التقسيم مملكتي أبناء إسرائيل أمام أعدائهم، ولم يمض مائة عام بعد وفاة سليمان، حتى غزا الآشوريون مملكة إسرائيل وساقوا أهلها

أسرى إلى بلادهم. بينما نقلوا الآخرين إلى بلاد أخرى مجاورة.

ووضعت عدة كتب حول شعب مملكة إسرائيل المنهزم.. كما قيلت عدة أساطير عنهم لأنه لم يعد لهم أثر في أي مكان. ويشار إليهم غالباً بأنهم قبائل إسرائيل التائهة.

أما مملكة يهوذا في الجنوب، فقد كانت أحسن استعداداً للقتال ومقاومة الأعداء.. واستمرت مملكتهم ١٦٠ عاماً بعد انقضاء عهد مملكة الشمال.

وعندئذ انقض البابليون عليهم وخربوا مدنهم وأحرقوا معبد أورشليم وأخذوا الآلاف من شعب يهوذا أسرى إلى بابل.

* * *

كان الإسرائيليون قد خرجوا من مصر شعباً تحرر من العبودية ومضى زاحفاً إلى أرض كنعان بآمال مشرقة وأغان بهيجة. وبعد سبعة قرون سيقوا من أرضهم عبيداً وأسرى مرة أخرى وقلوبهم يائسة وشفاههم أطبقها الحزن.

وغاصت مملكة إسرائيل كما تغرق السفينة وسط المحيط فلا تترك وراءها أثراً. وبقضاء بابل على مملكة يهوذا انتهى الفصل الأخير من تاريخ أبناء إسرائيل.



ولكن حدث شيء غريب أثناء ذهابهم أسرى..

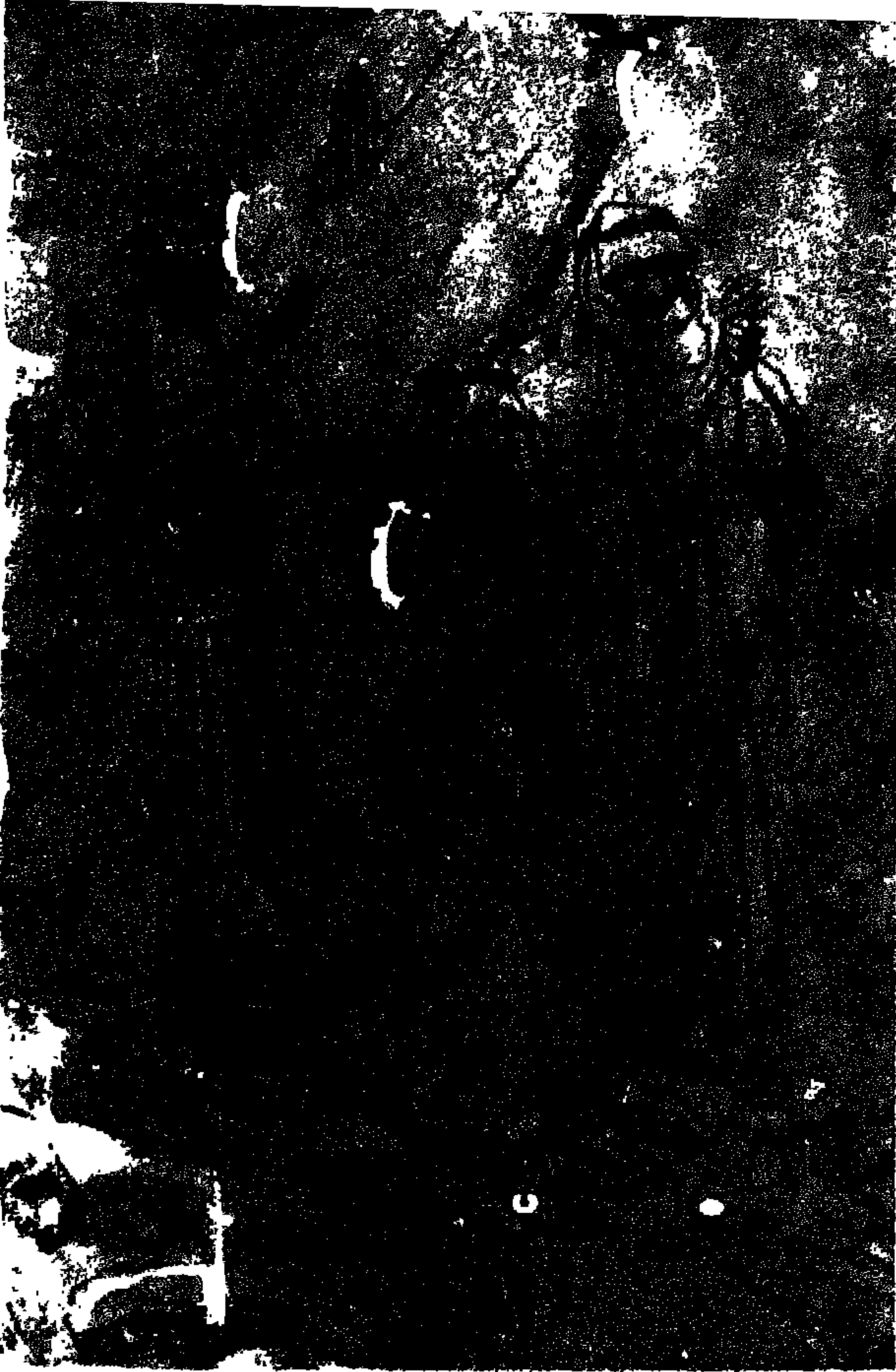
فقد كانوا وهم مقيمون في أرض فلسطين يفكرون في يهوه على أنه إله فلسطين..

أما الآن فقد تفرقوا بين الأمم وتحطمت المدينة المقدسة وأحرق هيكل يهوه فأصبح رماداً.. فأين الرب يهوه؟

واعتقد أبناء إسرائيل أن مرجع أحزانهم هو خطاياهم، وأن يهوه كان يعاقبهم كما أنذرهم من قبل. ولكنهم ما زالوا شعبه المختار وما زال هو إلههم الواحد.



. نجمة إسرائيل في أحد معابد اليهود بأورشليم.



يـــدا النـــبي موسى المرفوعتان بعد إعلان الوصايا العشر.



النبي أعبا.. ظهر في مملكة يهوذا وأخذ يتوسل للملك أهاز أن يظل على الحياد في الحرب بين أشور القوية ومملكة أفرايم.. وتحققت له عدة معجزات..



النبي يشوع.
ورئيس جند الرب



النـبي حزقيـال.. أحـد أنبيـاء اليهود راح يندد بما شاع بين اليهود من فساد أدى إلى أسرهم في بابل ولكن الحقد في قلبه كان أخف قليلا مما كان في قلب أرمياء.



إسرائيليون يبكون ويتمسحون بحائط المبكي بأورشليم.

وبدا لهم أن يهوه كان معهم في الأسر. ولكن.. إذا كان يهوه لا يزال مع شعبه الذي ظل في فلسطين، وإذا كان أيضاً مع شعبه الذي أسر في الشمال والجنوب والشرق والغرب.. إذن فلا بد أن يكون يهوه في كل مكان.

وبدا هذا الاكتشاف بأن إلههم في كل مكان.. كشفاً عظيماً لأبناء إسرائيل. وساعد هذا الاكتشاف فيما بعد على تغيير عقيدتهم تغييراً كبيراً.

واستمتعت بابل بانتصارها في فلسطين على مملكة يهوذا. إلا أن الأمر لم يدم بها طويلا.. فقد حدث في تلك الأيام بآسيا الصغرى التي تقع في شمالهم الغربي، أن برزت مخالب نسر يستعد للإنقضاض على الصقر الذي هوى على الأرنب ليفترسهما كليهما.

فإن البابليين بعد انقضاء خمسين عاماً من انتصارهم على مملكة يهوذا وقعوا في قبضة الفرس.

وأطلق الفرس على شعب مملكة يهوذا اسم اليهود.. وأطلقوا على عقيدتهم اسم اليهودية..

★ ★ ★

التأثر بالزرادشتية

كان الفرس على علاقة طيبة باليهود، فسمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة إلى فلسطين من جديد وإعادة بناء مملكتهم. وكان الاتجاه الودي من فارس نحو اليهود سبباً في أنهم درسوا العقيدة الفارسية وتعلموا عن الفرس عدة أشياء.

وكان الفرس وقتئذ يدينون بالزرادشتية.. فتعلم اليهود منهم أن هناك في الوجود قوتين.. إله يسيطر على الخير يحارب قوة أخرى هي روح الشر.

ولم يستطع اليهود أن يتصوروا وجود خالق ينقسم إلى قسمين.. وكانوا يؤمنون بأن إلهاً واحداً خلق النور والظلام والفرح والحزن والخير والشر.

وكان اليهود قد استنتجوا أن يهوه لابد أن يكون في كل مكان.. وهاهم الآن يستنتجون أيضاً أن ذلك الإله الواحد الذي خلق العالم كان هو نفسه يهوه.

وأصبح يهوه الذي ظنوه حامي أرض فلسطين ومملكة بيت داود وحدها.. هو نفسه خالق كل العالم.. والإله الواحد للجميع.

ولم يصل اليهود عن طريق دراستهم للزرادشتية إلى تلك النتيجة الهامة فحسب. بل عرفوا أيضاً تعاليم حيوية غيّرت عقيدتهم القديمة.

وكان من بين هذه التعاليم التي أخذها اليهود عن الزرادشتية الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت. ولأول مرة عرفوا أيضاً أن هناك جنة وناراً. فنقلوا ذلك الاعتقاد إلى دينهم..

المسيح المنتظر

وكان هناك اعتقاد آخر استعاره اليهود أيضاً من الزرادشتية. هو اعتقادهم بمجيء المسيح المنتظر.

وعندما ضعفت قوة المملكة اليهودية وهزمها أعداؤها واضطهدوا اليهود، راح هؤلاء يرجون ظهور مخلص لهم يكون بطلاً وطنياً من سلالة الملك داود، يستطيع إعادة المملكة اليهودية كما كانت في أيام داود وسليمان.

وبدأ اليهود أيضاً يفكرون في مسيحهم ومخلصهم على أنه أكثر من مجرد بطل وطني يعيد مملكة اليهود إلى مجدها.. وإن ظلوا يعتقدون أن المسيح الحقيقي لابد أن يكون فعلا من سلالة الملك داود، فيجمع جميع اليهود مرة أخرى في الأرض التي سكنوها، وبدأوا يعتقدون أيضاً أن مسيحهم لابد أن يأتي بالسعادة والسلام لجميع العالم.. فلا يعيش الناس وحدهم في العالم في سلام وسعادة، بل يشاركهم في ذلك حتى الحيوانات في الغابة.. فالذئب يسالم الحمل، والفهد يسالم الجدي، والأسد يسالم العجل، ويصبح الجميع جيراناً مسالمين.

وفي الوقت الذي عاد فيه اليهود إلى فلسطين، واستطاعوا بمساعدة الملك قورش أن يعيدوا بناء الهيكل المقدس في أورشليم، كانت عقيدتهم قد تغيرت تغييراً كبيراً.

إلا أن سعادة اليهود بالعودة إلى فلسطين لم تدم طويلا.

فعندما انهارت قوى الفرس أمام قوى أعدائهم، عاد اليهود يعانون الاضطهاد مرة أخرى.. إذ كانوا شعباً مهيض الجناح، فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ضد غزو الدول الكبرى التي نشأت في الغرب.

ففي أول الأمر هزمهم الإغريق..

ثم جاء الرومان وحكموهم بالنار والحديد..

وكلما اشتد الضغط على اليهود زادت حاجتهم وتطلعهم إلى ظهور المسيح ليخلصهم من العذاب والأحزان.

واستمر كفاح اليهود ضد الأعداء العديدين لهم قرابة مائتي عام. وأخيراً دمرت أورشليم مرة أخرى وأحرق الهيكل الثاني وتفرق اليهود في عدة بلاد.

وكانت آخر أيام اليهود في الأرض التي غزوها واستوطنوها هي عام ٧٠ ميلادية أي أنهم عاشوا فيها قرابة ١٩٠٠ عام.. قبل أن يعودوا إلى اغتصابها من جديد.. وفي خلال الـ ١٩٠٠ عام تغيرت اليهودية تغيراً كبيراً.. وإن ظل هناك فارق كبير بينها وبين العقائد التي سبقتها.. هو أن تعاليم العقيدة لم يأت بها معلم واحد.. فهي ليست عقيدة شخصية التأسيس..

دين غير عالمي

فالبوذية هي العقيدة التي أسسها بوذا.. وإن كانت قد تغيرت بعد موته. والجانتية هي العقيدة التي أنشأها الماهافيرا.

وأنشأ كونفوشيوس عقيدة الكونفوشيوسية.

والداوية هي العقيدة التي أسسها الفيلسوف العجوز لاو- تسي. ولكن اليهودية ليس لها مؤسس واحد..



ويخطىء الذين يعتقدون أن موسى هو منشىءُ اليهودية..

فلقد كان إبراهيم هو أول رجل وضع حجر الزاوية في اليهودية عندما قال: يجب ألا نعبد الأصنام.

وأضاف موسى إلى هذه العقيدة الوصايا العشر والاعتقاد بأن اليهود هم شعب يهوه المختار.

ونمت آراء اليهودية في فلسطين الواحد بعد الآخر.. خاصة بعد ظهور أنبيائها خلال فترات الانهيار والفساد. واستعار اليهود من الزرادشتية بعد عدة قرون كثيراً من التعاليم وضموها إلى عقيدتهم بعد أن غيّروها.

وهكذا نمت اليهودية وتطورت بنمو اليهود وتطورهم.

وهذا هو السبب في أن تاريخ عقيدة اليهود هو قصة كل طوائف اليهود. ولم تكن اليهودية عقيدة إيمان بقدر ما كانت طريقة للحياة.. ولم تكن مجرد دين لليهود بل كانت حكومتهم.

وهذا هو السبب في أن اليهود رغم إيمانهم بوجود إله واحد في العالم.. لم يصبح دينهم ديناً عالمياً لأن اليهودية لم تهتم إلا باليهود الذي موطنهم في اعتقادهم هو فلسطين.. وعاصمتهم هي أورشليم.

* * *

الأنبياء

غالباً ما كان يحدث واليهود في أرض فلسطين أن يفسد حكامهم ويحيد قادتهم عن القانون المقدس وتعاليم الدين.. ويبدأ كثير من أفراد الشعب تقليد حكامهم من الغزاة الفاتحين.. حتى أن بعضهم اعتنق الوثنية..

وكانت حرب الطبقات هي السبب الأساسي لذلك الفساد.. وهي حرب

لم يندلع لهيبها إلا بعد أن رأى الفقراء بأعينهم ثروة سليمان الطائلة.. والفقراء عادة لا يعرفون أنهم فقراء إلا حين يبصرون الأغنياء بعيونهم.

وقد تطلبت المشروعات الضخمة التي أقامها سليمان كثيراً من الكدح وفرضت على الشعب ضرائب باهظة. وكان بعد ذلك أن وجدت طبقة من العمال المتعطلين كانوا أحد عوامل الشقاق السياسي والفساد الاجتماعي في فلسطين. وكانت الأحياء القذرة تزداد شيئاً فشيئاً بينما تنمو ثروة الملوك ويزداد ترف الحاشية.. وأصبح استغلال الشعب والربا عادة مألوفة بين أصحاب الضياع الكبرى والتجار والمرابين.

ومع اتساع الثغرة بين ذوي الحاجة وذوي اليسار، ومع اشتداد النزاع بين المدن والريف، انقسمت فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين، هما مملكة إفرايم الشمالية وعاصمتها السامرة، ومملكة يهوذا الجنوبية وعاصمتها أورشليم. ومع الانقسام أيضاً أخذ الضعف يدب بين اليهود واشتعلت فيهم نيران الحقد..

وفي مثل تلك الظروف كان ينهض واحد من بني إسرائيل يدعو الشعب للعودة إلى قانونهم.. وباسم يهوه كانوا يتنبّؤون بما سيحدث لإسرائيل إذا لم يتبع اليهود طرق الاستقامة كما وصفتها عقيدتهم. وكان هؤلاء الناس يسمون بالأنبياء.. وكلما حلت المتاعب باليهود ظهر الأنبياء يعلمون الشعب طرق الله..

على أن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا كلهم يستحقون الاحترام مثل ما استحقه عاموس وأشعيا.. بل كان بعضهم من المتنبئين الذي يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ويخبرونهم بالمستقبل حسبما يتقاضون منهم من أجور. ومنهم متعصبون متهوسون يستثيرون مشاعر الناس بالأصوات الموسيقية الغريبة أو المشروبات القوية أو الرقص، وينطقون في أثناء غيبوبتهم بعبارات يراها أصحابهم وحياً أوحي إليهم. وقد سخر أرميا سخرية لاذعة من كل رجل مجنون ومتنبئ، وكان منهم من هو ناسك نكد

كايليا، ومنهم آخرون يعيشون في مدارس أو أديرة مجاورة للهياكل.. ولكن معظمهم كانت لهم أملاك خاصة وزوجات.



من هذا الحشد الكبير من النساك خرج أنبياء إسرائيل وأصبحوا على مر الزمن نقاداً لعصرهم ولشعبهم دائبين على نقدهم. وكانت نبوءات بعضهم مزيجاً من الوعد والوعيد، أو عبارات دالة على التقى والصلاح..

وكان أغلبهم يأتون بنبوءاتهم على لسان الرب يهوه.

عاموس

فعاموس قال على لسان يهوه وهو يصب غضبه على ذوي الثراء المنغمسين في الترف والذين لا يراعون في الناس عهداً ولا ذمة «من أجل أنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها، وغرستهم كروما شهية ولا تشربون خمرها.. ويل للمستريحين في صهيون.. أنتم المضطجعون على أسرة من العاج والمتمددون على فرشهم، والآكلون فراخا من الغنم، وعجولاً من وسط الصيرة، الهاذرون مع صوت الرباب، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود، الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان. كرهتكم، كرهت أعيادكم. إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضي.. أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربàباتك لا أسمع، وليجر الحق كالمياه، والبر كنهر دائم».

وقد تحققت إحدى نبوءاته وهو لا يزال حياً.. فقد قال «هكذا قال الرب.. كما ينزع الراعي من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن.. هكذا ينتزع بنو إسرائيل الجالسون في السامرة من زاوية السرير وعلى دمقس الفراش.. فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة».

وقد حدث بالفعل أن الآشوريين غزوا البلاد واستولوا على السامرة وحطموها وأخذوا مائتي ألف أسير من اليهود ليكونوا عبيداً للآشوريين.

وفي أثناء حصار الآشوريين لأورشليم.. أصبح نبي آخر اسمه أشعيا من أعظم أنبيائهم.. فقد ظهر في مملكة يهوذا وأخذ يتوسل للملك «آهار» ثم للملك «حزقيال» أن يظلا على الحياد في الحرب بين آشور القوية ومملكة أفرايم. وعندما حوصرت أورشليم نفسها نصح حزقيال بعدم التسليم. وحدث أن انسحب ملك آشور، فعد ذلك إحدى معجزات أشعيا.

وكان أشعيا ينصح الناس أن يعاملوا بعضهم بالعدل: وأن يتركوا الأمر بعد ذلك ليهوه، وكان يزدري أشد الازدراء من يتظاهرون في العالم بالتقوى وهم يبتزون أموال الفقراء. قال على لسان يهوه:

«لماذا لي كثرة ذبائحكم؟ قد اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات.. رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسي.. صارت علي ثقلاً.. مللت حملها.. فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم، وإن كثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً. اغتسلوا تنقوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني. كفوا عن فعل الشر. تعلموا فعل الخير. أطلبوا الحق. انصفوا المظلوم. أقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة».

وختم أشعيا مواعظه بترديد أمل اليهود في ظهور مسيح يقضي على ما بينهم من انقسام وبؤس وشقاء ويعيد إلى الأرض الإخاء والسلام:

«ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل.. وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً ورئيس السلام.. يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض.. ويسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معاً وصبي صغير يسوقها».

والواقع أن عاموس وأشعيا هما اللذان بدآ في عصر الحروب يمجدان في أسفارهما فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء، وهي



الفضائل التي جعلها يسوع أساساً جوهرياً لدينه بعد ذلك، وكان هذان النبيان أيضاً أول من اضطلع بذلك العبء الثقيل، عبء تحويل رب الجنود يهوه إلى إله حب وسلام.

التوراة

ولعل أهم أثر لأنبياء بني إسرائيل في معاصريهم كان كتابة التوراة. فقد أحس الكهنة أن الشعب قد شرع يرتد عن عبادة يهوه.. كما رأوا الأنبياء يعزون إلى يهوه ما يجيش في صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها.. فاعتزموا أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه في صورة سنن إلهية تبعث النشاط والقوة في حياة الأمة الخلقية، ويضمنون بها معونة الأنبياء. واستطاع الكهنة أن يضموا إلى جانبهم الملك «يوشيا» الذي أعلن الكاهن عزرا في عهده أنه عثر في سجلات الهيكل على ملف عجيب قضى فيه موسى نفسه في جميع المشكلات التاريخية والخلقية التي كانت مثار جدل عنيف بين الأنبياء والكهنة. ودعا الملك الكهنة وكبار القوم إلى الهيكل حيث تلا عليهم «سفر الشريعة». وقد تأثر الشعب بما جاء في الشريعة الموسوية كما جاءت في تلك الوثائق.. وانتهز الملك تلك الفرصة ليحطم جميع الأصنام المنافسة ليهوه والتي كانت توجد في الهياكل والمعابد.

على أن بابل زحفت من جديد على مملكتي إسرائيل فحطمتها.. وعاد نبوخذنصر بالآلاف من الاسرى اليهود ليكونوا عبيداً في بلاده، بعد أن حرق أورشليم وهدم هيكل سليمان.

أرميا

وفي خلال تلك الأزمة ظهر النبي أرميا أشد الأنبياء حقداً على فساد قومه.. فقد اشتعلت في صدره نيران الغضب حين رأى ما عليه قومه وزعماؤهم من انحطاط في الأخلاق وحمق في السياسة. وخيل إليه أن كل ما يشهده من انحلال قد أنزله يهوه باليهود عقاباً لهم على ما ارتكبوه من

الذنوب. قال على لسان يهوه «فوتوا في شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها.. هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها».

وأخذ أرميا يتوعد المنافقين الذين يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتقى والصلاح وهم يحملون بعض ما جمعوا من كدح الفقراء يقدمونه قرابين. وكان يسب اليهود أقذع سباب ويصور لهم ما سيحل بمن لا يستمعون إليه من هلاك. وقد حنق الكهنة عليه لتطاوله عليهم فأخذوه في الهيكل وأرادوا قتله، غير أنه أفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة. وقبض عليه من جديد وربطه الأمراء في حبال وأنزلوه بها في بئر مملوءة بالوحل. وظل على ذلك أياماً ثم خفف عنه العقاب وسجن في فناء القصر حيث وجده البابليون حين سقطت في أيديهم أورشليم.

* * *

حزقيال

راحت النبوءات الجديدة تواصل سيرها وتحقق وجودها بين أبناء إسرائيل حتى بعد أن تم أسرهم في بابل.

وبين الأسرى اليهود في بابل ظهر نبي آخر اسمه حزقيال راح يندد بما شاع بين اليهود من فساد أدى إلى أسرهم، ولكن الحقد في قلبه كان أخف قليلا مما كان في قلب أرميا، إذ أعلن أن يهوه سينجي بقية من اليهود يبعثون أورشليم حية. وتنبأ بأن سيقام فيها معبد جديد وبأنها ستصير مدينة فاضلة للكهنة، فيها الكلمة العليا والمقام الأعظم حيث يقيم يهوه مع شعبه أبد الدهر.

أشعيا الثاني

وكان أعيا الثاني أكثر رحمة وشفقة على شعبه. فراج يعلن لليهود المنفيين مبادئ التوحيد ويعرض عليهم إلهاً جديداً شفيقاً عليهم رحيماً بهم.

وكانت رسالته تهدف إلى بث الأمل في قلوب اليهود أيام استعبادهم وتبتعد عن صب اللعنات على الشعب المنفي.. وكان يقول:

«روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين. أرسلني لأعصب مكسوري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق.. وهو ذا الرب يأتي بقوة وذراعه تحكم له.. كراع يرعى قطيعه، بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات».

ويبشر أشعيا الثاني بالمسيح المنقذ. ويصف «الخادم» الذي سينجي إسرائيل بالتضحية الأليمة فيقول:

«محتقر ومخذول من الناس.. رجل أوجاع ومختبر الحزن.. محتقر فلم تعتد به.. لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها. ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولاً.. وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا. والرب وضع عليه إثم جميعنا».



وهكذا كان الأنبياء يفسرون للشعب أسباب متاعبهم ويحثونهم على الرجوع عن آثامهم إلى طريق الله والخير. فقد كان الأنبياء حكماء وعرفوا أنه من الخير يأتي الخير.

وكان الملوك الفاسدون يكرهون الأنبياء. وكان الكهنة يكرهونهم أيضاً..

ولم يظهر الشعب حباً كبيراً لهؤلاء الناس..

ولكن الأنبياء لم يكفوا عن تحذير الشعب بوجوب التحول عن طرق الشر. فهل كان ما يقولونه حقاً؟ وهل كان عدلاً؟ إذا كان حقاً وعدلاً فما كان حتى التهديد بالموت ليردهم عن دعواهم. وكان أغلب الأنبياء فقراء. وكانوا يأتون من التلال إلى الأسواق وإلى الهيكل وإلى حيث يجتمع الناس ويقولون لهم تعاليمهم.

وحتى الوقت الذي أسر البابليون فيه اليهود، كان الأنبياء هم رجال السياسة المقدسين في إسرائيل.

فكان الملك وحاشيته يشرفون على تنفيذ قوانين الهيكل.

وعلم الانبياء الناس قوانين الحق والخير.

ولم يعلم الأنبياء اليهود مجرد اتباع طريق الخير وتحاشي طريق الشر.. بل كانوا يقولون أنه على كل يهودي أن يشن الحرب على الشر. فإن اليهود لهم رسالة في الحياة وهي مكافحة الشر ونشر الخير.

وكان الأنبياء يقولون: «يا أحباء يهوه.. يا أحباء يهوه.. إكرهوا الشر..».



نفي اليهود

وراحت الأيام تمضي باليهود أيام شقية مهينة قاسية.

وخلال آخر حرب خاضوها فوق أرضهم قتل أكثر من مليون ونصف مليون يهودي.. وهدم القيصر طيطوس الذي هزم اليهود أسوار أورشليم. وأشعل النار في المعبد الثاني من معابد الرب «يهوه» حتى بدا التل الذي يقوم عليه هذا المعبد وكأنما اشتمله اللهب كله.

وكان ذلك ختام الحرب اليهودية الكبرى وبداية نفي اليهود. ومنذ ذلك الوقت انتشر اليهود في جميع أنحاء العالم.

وكلما بدت مصاعب اليهود شديدة القسوة، تفوق احتمالهم زاد أملهم في قدوم المسيح.

وكثيراً ما ترددت بين اليهود في منفاهم شائعات بأن المسيح قد جاء. وظهر الذين ادعوا أنهم المسيح في فارس وفي فلسطين وفي فرنسا وفي أسبانيا وفي غير ذلك من بلاد وجد فيها اليهود.

المسيح الكاذب

وكان أشهر مسيح كاذب هو شبتاي زيفي.

وقد ولد زيفي في أزمير عام ١٦٢٦م بعد اندلاع نار حرب الثلاثين سنة

في أوروبا بثمانية أعوام. وقاسى الناس في جميع أنحاء أوروبا الكثير بسبب هذه الحرب الطويلة.. وكان اليهود من بين الذين قاسوا كثيراً.. أكثر من الآخرين.



وبمضي الحرب عاماً بعد عام، وازدياد عذاب الناس وشقاوتهم، بدأوا يؤمنون بأن نهاية العالم قد دنت. وأن الحرب تمهيد لقدوم مخلص البشرية.

ووضعت عدة كتب في انجلترا وفرنسا وألمانيا حول مجيء مخلص البشرية..

وحدد عام مجيئه بأنه عام ١٦٦٦.

وكان اليهود في اعتقادهم بأن المخلص لابد أن يكون من بيت داود، يرجون أن يكون مجيئُه إنهاء لحياة المنفى التي يحيونها وعودتهم إلى فلسطين.

ولا بد أن يكون زيفي قد سمع كثيراً من القصص حول المسيح المنتظر عندما كان لا يزال طفلا بعد.. وعندما كبر بدأ يدرس كتاب دانيال الذي تنبأ بقدوم المسيح.. ثم راح يصوم يوماً بعد يوم. ويبدو أنه حتى عندما كان غلاماً صغيراً كان يحلم بأن يصبح هو نفسه.. المسيح..

واقترب عام ١٦٦٦ شيئاً فشيئاً..

وكان زيفي في الثانية والعشرين حين وضعت حرب الثلاثين أوزارها.

وفجأة.. فوجئ أصدقاء زيفي بصاحبهم يقف بينهم ذات يوم ويعلن أنه المسيح الحق المختار من الله لإعادة شعب إسرائيل إلى أورشليم. ولكن أحداً لم يأخذ كلامه مأخذ الجد.

وتبين زيفي أن الشعب في موطنه لا يريد الإنصات إليه.. فرحل إلى سالونيك وأعلن هناك أنه هو المسيح المنتظر. ولكن الناس سخروا به.. فلم يجد أمامه إلا أن ينطلق إلى أورشليم لعله يجد أتباعا.. ولكن الأتباع عزوا عليه هناك.. فسافر إلى مصر بينما هو في الرابعة والثلاثين من العمر.

وازداد اقتراب عام ١٦٦٦.

وبقي زيفي في القاهرة ثلاثة أعوام، وتبعه قلة من الناس أعجبوا بإلمامه بكتب الدين.. وشجعوه على السفر إلى أورشليم، حيث وعد بالقيام ببعض المعجزات الكبرى في يوم الخلاص.

وقضى زيفي نهاره بأورشليم في صيام دائم، وقضى لياليه في الصلاة. وبدأ الناس من حوله يعتقدون أنه المسيح حقاً. واشتهر اسم زيفي تدريجياً في جميع أنحاء الشرق..

وجاء عام ١٦٦٥... السابق لعام القيامة..!

وانطلق زيفي إلى أزمير موطنه. وهناك تلقاه حشد كبير من الناس فرحين مهللين مستبشرين بعودة السيد المبارك والملك مسيح إله يعقوب.

وذاع نبأ قدومه إلى أزمير في إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولندا وانجلترا.

ولبس الناس أفخر ما لديهم من ثياب وتجمعوا في الكنائس والميادين يرقصون ويغنون. ووزع الأثرياء ثرواتهم معتقدين أنه طالما ظهر المسيح، فلم تعد بهم حاجة إلى الثروات.. فكل ما يريدون هو خلاص أرواحهم..!!

وبدأت القصص العجيبة تنتقل هنا وهناك بين الناس، بعضها عن سفينة غريبة بديعة ظهرت فجأة في شمال اسكتلندا.. قلاعها وحبالها من حرير وملاحوها يتكلمون اللغة العبرية ويرفرف عليها علم كتب عليه «أسباط إسرائيل».

ورن فرح اليهود في كل مكان. بل إن الكثيرين من المسيحيين المتدينين آمنوا بأن زيفي هو مخلِّص البشرية المنتظر.. الحقيقي!..

واقترب عام ١٦٦٦.

وأرسل زيفي كلمة يقول فيها «إنه في يوم صيام اليهود يجب أن يقام عيد كبير» ومن أجل أن يؤكد أنه المسيح الحق بدأ رسالته بقوله:

«من أول ابن لله شبتاي زيفي مسيح ومخلص شعب إسرائيل إلى جميع أبناء إسرائيل.. السلام..

لما كان قد قدر لكم أن تكونوا جديرين برؤية اليوم العظيم وإنجاز وعد الله إلى أبنائه.. فلا بد أن تغيروا أحزانكم فرحاً وصومكم مرحاً لأنكم لن تبكوا بعد الآن. فاستمتعوا وغنوا واستبدلوا اليوم الذي كان من قبل يقضى في حزن وآلام إلى يوم عيد لأني ظهرت».

وبدأ فجر عام ١٦٦٦ يطلع على الناس.

وأمسك يهود العالم أنفاسهم منتظرين يهوه يعيد شعبه إلى فلسطين بمعجزة كبرى.

غير أن شيئاً غريباً حدث في ذلك العام الذي طال انتظاره.. فبدلاً من أن يذهب زيفي جنوباً إلى أورشليم.. ذهب شمالاً إلى القسطنطينية. وحالما وصل إلى هناك ألقي القبض عليه بأمر السلطان وأودع السجن..

وفي ١٦ سبتمبر ١٩٦٩ جيء بزيفي أمام السلطان وقيل له أن عليه أن يختار بين اعتناق الإسلام أو الإعدام بتهمة الخيانة.

واعتنق شبتاي دين الإسلام.

وتحول فرح اليهود الذين ينتظرون المسيح إلى حزن وغم مقيم.

* * *

التلمود

كما حدث في كل عقيدة ودين. لا تكاد تمضي عشرات قليلة من السنين حتى يلجأ رجال الدين إلى زيادة إضافات وتفسيرات إلى أصول العقيدة، كثيراً ما خرجت بها إلى أنواع أخرى من العقائد قد لا تمت بصلة إلى الدين الأصلي عدا الإسلام. والذي حدث مع بقية العقائد السابقة حدث أيضاً مع الدين اليهودي. فمع توالي الاضطهاد الذي نزل باليهود مع التطورات السياسية التي مرت ببني إسرائيل في أرض فلسطين، ظهر نوع من الحاخامات احتفظوا لأنفسهم بحق تفسير التعاليم التي وصلت إليهم عن الفريسيين الذين كانوا متسلطين على الشعب اليهودي في عهد المسيح. وقال

هؤلاء الحاخامات أن هناك مجموعة قواعد ووصايا وشرائع دينية وأدبية ومدنية وشروح وتفاسير وتعاليم كانت تتناقل وتدرس شفهياً من آن إلى آخر. وخشي هؤلاء الحاخامات أن تضيع هذه الأقوال والنصوص مع مرور الزمن، فدونوا سراً بالكتابة سياجاً للتوراة. وقبلت كسنة من موسى وسمى مادوّنه هؤلاء الحاخامات بالتلمود.

يتألف التلمود من قسمين: مشنا وجمارا..

فالمشنا يضم خلاصة الشريعة الشفهية ومجموعة قوانين اليهود السياسية والمدنية والدينية. وقد بدأ جمعها الحبر شمعون جملئيل سنة ١٦٦ وأتمها الربي يهوذا سنة ٢١٦، والجمارا تحتوي على إيضاحات وشروح وتفاسير وتعاليم وروايات تعتبر روايات وأحاديث الحاخامات.

وقد أوضح الحاخامات في تعاليمهم أن الله أعطى موسى الشريعة على طور سيناء، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً، حتى إذا حدث فيما بعد أن تسلطت أمة أخرى على اليهود فإن التلمود يوجد الفرق بينهم وبين باقي الوثنيين من غير اليهود.

سلطة الحاخامات

وليقنع الحاخامات اليهود بالتلمود، فقد بذروا في النفوس أن لكل الحاخامات سلطة عليا وكل أقوالهم تعتبر صادرة من الله.. وأن مخافة الحاخامات هي مخافة الله.. «ويلزم المؤمن أن يعتبر أقوال الحاخامات كالشريعة، لأن أقوالهم هي قول الله الحي. فإذا قال الحاخام أن يدك اليمنى هي اليسرى وبالعكس فصدق قوله ولا تجادله، فما بالك إذا قال لك أن يدك اليمنى هي اليمنى ويدك اليسرى هي اليسرى!؟.

الله في التلمود

فقد قال التلمود: «أنه لا شغل لله في الليل غير تعلم التلمود مع الملائكة» وأن النهار اثنا عشر ساعة: في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع

الشريعة، وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك. وهذا الحوت كبير جداً يمكن أن يتسع حلقه لسمكة طولها ثلاثمائة فرسخ دون أن تضايقه، ونظراً لكبر حجمه فقد رأى الله أن يحرمه من زوجته لأنه إن لم يفعل ذلك امتلأت الدنيا وحوشاً تهلك من فيها. ولهذا حبس الله الذكر لقوته الإلهية، وقتل الأنثى، وملّحها وأعدها لطعام المؤمنين في الجنة..

ويقول التلمود أن الله ليس معصوماً من الخطأ.. فهو يندم على تركه اليهود شعبه المختار في حالة التعاسة عندما كتب الذلة والمسكنة عليهم وصرح بهدم أورشليم. ولهذا فهو يبكي وينوح كل يوم فتسقط من عينه دمعتان في البحر يُسمع دويّها من بدء العالم إلى نهايته، وتضطرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأوقات فتحصل الزلازل. وهو ليس معصوماً من البطش، لأنه حين يغضب يستولي عليه الطيش، كما حدث يوم أن غضب من بني إسرائيل في الصحراء وحلف أن يحرمهم من الحياة الأبدية. ولكنه ندم على ذلك بعد إفاقته ولم ينفذ القسم. والله يمكن أن يحنث في يمينه، بدليل أنه كذب بقصد الإصلاح بين إبراهيم وسارة زوجته. ولذلك فالكذب حسن سائغ لأجل الإصلاح.

الملائكة والشياطين

وقسم التلمود الملائكة قسمين: قسم لا يطرأ عليه الموت وقسم آخر يصيبه الموت. وللملائكة وظائف مختلفة. فمنهم من هو مخصص لحفظ الأعشاب ومنهم من هو مخصص للبرد. وهناك ملائكة للنار.. وبعضهم مخصص للخير وبعضهم الآخر للشر، وبعضهم لبث المحبة والصلح وبعض آخر لمراقبة حركة الشمس والقمر والكواكب!

أما الشياطين «فقد خلقهم الله يوم الجمعة وقت الغروب. ولم يخلق لهم أجساداً ولا ملابس، لأن يوم السبت كان قريباً فلم يكن لديه الوقت الكافي ليفعل ذلك. وبعضهم مخلوق من مركب مائي وناري، والبعض من هواء

والبعض الآخر من طين. وبعض الشياطين من نسل آدم الذي كان قد هجر حواء بعد اللعنة والتقى باثنين من نساء الشياطين فولدتا شياطين. ويستطيع الإنسان في بعض الأحوال قتل الشياطين إذا أجاد صناعة فطير الفصح.. »!

آدم وحواء

أما آدم وحواء فقد تم خلقهما بأن أخذ الله تراباً من جميع بقاع الأرض وكونه كتلة وخلقها جسماً ذا وجهين، ثم شطره نصفين فصار أحدهما آدم والثاني حواء. وكان آدم طويلا جداً فكانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء. وإذا نام كانت رأسه في المشرق وقدماه في المغرب. فلما عصى آدم ربه نقص طوله حتى صار كباقي الناس..!



وخلق الله الأرواح في الأيام الستة الأولى للخليقة، ثم وضعها كلها في مخزن بالسماء، يخرج منها كلما حملت امرأة. وتتميز أرواح اليهود على باقي أرواح الناس بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه. لهذا كانت أرواح اليهود أعز على الله من باقي الأرواح. لأن أرواح غير اليهود ليست أكثر من أرواح شيطانية شبيهة بأرواح الحيوانات. وعندما يموت اليهودي تخرج روحه وتشكل جسما آخر. أما اليهود الذي يرتدون عن دينهم بقتلهم يهودياً، فتدخل أرواحهم بعد موتهم في الحيوانات أو النباتات، أو تذهب إلى الجحيم وتعذب عذاباً شديداً، لتعود بعد ذلك فتدخل في الجماد ثم الحيوانات ثم الوثنيين، وأخيراً تعود إلى جسد اليهود بعد تطهيرها.

رأي اليهود في المسيح

على أن اليهود رغم انتظارهم للمسيح المنتظر.. لم يعترفوا بأن يسوع هو ذلك المسيح..

وهم يعتبرونه يهودياً مرتداً عابداً للأوثان. ويقول التلمود عنه: « إن

يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين القار والنار.. وقد أتت به أمه من العسكري باندارا عن طريق الخطيئة. أما الكنائس النصرانية فهي قاذورات. والواعظون فيها أشبه بالكلاب النابحة. وقتل المسيحي من التعاليم المأمور بها. والعهد مع المسيحي لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم اليهود القيام به. ومن الواجب أن يلعن اليهود ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعدواة لبني إسرائيل».

أما المسيح الذي ينتظره التلمود فيقول فيه: «عندما يأتي المسيح تطرح الأرض فطيراً، وملابس من الصوف، وقمحاً حبه في حجم كلاوي الثيران الكبيرة. وحينئذ ترجع السلطة لليهود. وكل الأمم تخدم ذلك المسيح وتخضع له. وفي هذا الوقت يكون لكل يهودي ألفان وثمانمائة عبد يخدمونه، وثلاثمائة وعشرة أكوان تحت سلطته».

«ولكن المسيح لن يأتي إلا بعد القضاء على حكم الأشرار من الخارجين على دين بني إسرائيل. لذلك يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع إشتراك باقي الأمم في الأرض كي تظل السلطة لليهود وحدهم. ويستمر ضرب الذل والمسكنة على اليهود حتى ينتهي حكم الأجانب من غير بني إسرائيل. وقبل أن يحكم اليهود نهائياً باقي الأمم يجب أن تقوم الحرب ويهلك ثلث العالم، ويبقى اليهود سبع سنوات متواليات يحرقون الأسلحة التي كسبوها بعد النصر. وفي ذلك اليوم تكون الأمة اليهودية غاية في الثراء لأنها تكون قد ملكت كل أموال العالم. وستملأ كنوزهم بيوتاً كبيرة لا يمكن حمل مفاتيحها وأقفالها إلا على ثلاثمائة حمار.. ويدخل الناس كلهم أفواجاً في دين اليهود ويقبلون جميعاً عدا المسيحيين فإنهم يهلكون لأنهم من نسل الشيطان».

الشعب المختار

والإسرائيلي في التلمود أفضل من الملائكة عند الله. فإذا ضرب أمي «أي غير إسرائيلي» يهودياً فكأنه ضرب العزة الإلٓهية، لأن اليهودي جزء

من الله. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود وباقي الشعوب. ذلك أن النطفة التي خلقت منها بقية الشعوب الخارجين على الديانة اليهودية هي نطفة حصان.. والشعب المختار هو الذي يستحق الحياة الأبدية. أما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير، ولا قرابة بين اليهود وبين الأمم الخارجة عن الدين اليهودي. لأنهم أشبه بالحمير وبيوت عبادة باقي الأمم ليست سوى زرائب حيوانات.

الحلال والحرام

والكفار في التلمود هم كل من ليس يهودياً. ومحظور على اليهود أن يحيوا الكفار بالسلام ما لم يخشوا ضررهم أو عداوتهم.. وهذا معناه أن النفاق جائز وأن اليهودي يمكنه أن يكون مؤدباً مع الكافر ويدعي محبته كذباً إذا خاف أن يؤذيه.

.. وكل الدنيا بما فيها ملك لليهود، ولهم عليها حق التسلط، لأنهم مساوون للعزة الإلهية. والسرقة من الأجانب ليست سرقة.. بل هي استرداد لأموال اليهود. ويشرخ التلمود ذلك فيقول أنه مصرح لليهود بأن يضروا الأمي لأنه جاء في الوصايا «لا تسرق مال القريب.» ولما كان الأمي ليس بقريب فسلب ماله لا يكون مخالفاً وصايا موسى.

ويسمح التلمود بغش غير اليهودي وأخذ ماله بواسطة الربا« فإذا بعت أو اشتريت من أخيك اليهودي شيئاً فلا تخدعه ولا تغشه. وإذا جاء أجنبي وإسرائيلي أمامك في دعوى فاجعل الإسرائيلي رابحاً. فإذا لم تتمكن فاستعمل الغش والخداع في حق الأجنبي حتى تحل الحق لليهودي».

والله لا يغفر ذنباً ليهودي يرد لأمي ماله المفقود. ولا يجوز رد الأشياء المفقودة من الأجانب.. فاليهودي الذي يرد للأمي ماله فإنه يرتكب إثماً كبيراً، لأنه بعمله هذا يقوي الكفار. ويظهر اليهودي بذلك أنه يحب الوثنيين، ومن أحبهم فقد أبغض الله.

ويقول التلمود: إنه غير مصرح أن يقرض اليهودي الأجنبي إلا بالربا. فقد أمرنا الله بأخذ الربا من الأمي. وألا نقرضه شيئاً إلا على هذا الشرط. وبدون ذلك نكون قد ساعدناه، مع أنه من الواجب علينا أن نلحق به الضرر.

والتلمود يبيح قتل غير اليهودي. وهو يقول: «إقتل الصالح من غير الإسرائيليين» لأنه جائز قتل من ينكر وجود الله. وإذا رأى أحد اليهود كافراً في حفرة وجب ألا يخرجه منها، حتى ولو وجد سلماً يستطيع أن يخرج الكافر بواسطته. ويجب على اليهودي نزع السلم محتجاً بأنه أخرجه حتى لا ينزل عليه قطيعه. وإذا وجد اليهودي حجراً بجانب الحفرة وضعه فوقها.. ويقول: «أنا أضع هذا الحجر ليمر عليه قطيعي!؟».

واليهودي في التلمود لا يكون خاطئاً إذا انتهك عرض الأجنبي.. فكل امرأة ليست من بني إسرائيل بهيمة.. لليهودي الحق في اغتصابها.

ولا يعتبر أي قسم يقسمه اليهودي لأي فرد من باقي شعوب العالم يميناً، لأن القسم لغير اليهودي قسم لحيوان فلا يعد يميناً. ويجوز له أن يحلف زوراً ولا يخطئ إذا حول اليمين في سره لوجهة أخرى.

وفي يوم الغفران يغفر لليهود كل الذنوب بما فيها الإيمان الزور. وفي ذلك اليوم، يصلي اليهود صلاة يطلبون فيها الغفران عن خطاياهم والأيمان التي أدوها زوراً، والعهود التي تعهدوا بها ولم يوفوها.. وتقام الصلاة في محفل عام ليلة عيد. ويوم الغفران واحد في كل سنة.

وهكذا غير الحاخامات أغلب ما جاء في شريعة موسى.. وأصبحت اليهودية الجديدة شيئاً آخر غير ما جاء في العقيدة الأولى.

* * *

الصهيونية

وظلت الأيام تمضي..

وأمل اليهود في العودة إلى فلسطين لا يموت..!



وإذا كان أغلبهم قد يئس ذات يوم من العودة إلى هناك إلا بمعجزة. إلا أنهم دبروا طريقة لعودتهم.. هي الصهيونية.

ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأ اليهود يركزون جهودهم في التحرر من الاعتماد على الغموض الديني والتحول إلى حركة سياسية جديدة، بعد أن تبين لهم أن خلاصهم من الاضطهاد الذي يلاقونه لن ينتهي عن طريق الإيمان بظهور المسيح أو بالعزلة الروحية.. بل يكون بقيام الدولة اليهودية فعلاً فيما سموه أرض الميعاد..

واعتمدت هذه الدعوة الجديدة على أن اليهود أمة كسائر الأمم، لها حق الحرية في اختيار الحياة التي تحياها دون تدخل باقي الأمم. وأن الأمة اليهودية يجب أن تستقر في وطن خارجي، لأن ذلك سيخفف من حدة الكراهية التي يشعر بها العالم نحو السامية.. كما أنه من ناحية أخرى يقضي على المشكلة اليهودية قضاء تاماً والعودة إلى جبل صهيون «وهو الذي اشتق منه الإسم الجديد للصهيونية» لا يعني قيام وطن سياسي لليهود فقط، بل يهدف إلى البعث الروحي لهذه الأمة بأسرها، وإحياء ثقافتها القديمة وخلق دولة راسخة الأقدام اقتصادياً واجتماعياً..

على أن أهم هدف لفكرة الصهيونية ليس هو ربط يهود العالم جميعاً في قافلة واحدة، والقضاء على الشقاق الذي يمزق وحدتهم.. بل إن الهدف أوسع من ذلك بكثير.. لأنه في الحقيقة يرمي إلى تمكين اليهود من الاستئثار بحكم العالم وثمراته، لأنهم شعب الله المختار لزعامة الجنس البشري، ولأن العالم لم يخلق إلا ليكونوا هم سادته وأوصياءه، ولذلك فمن حقهم وحدهم استعباده وتسخيره بكل الوسائل، واحتكار كل سلطة ومنفعة فيه. وليس لمن عداهم من الأمم إلا السمع والطاعة لهم.

هذه الحقيقة يوضحها «بروتوكول حكماء صهيون» الذي طبع سراً عام ١٨٩٧ وجاء في مقدمته «أن حكومات العالم أجمع خاضعة اليوم سواء كل

خضوعها بإرادتها أم بغير إرادتها، لأوامر الحكومة العليا، حكومة صهيون. لأن القيم جميعها تحت يدها ولأن الدول كلها مدينة لها بمبالغ لا تستطيع سدادها ».

الحكومة العالمية

وتقوم الفكرة الرئيسية في هذه المواثيق على أن تمكين اليهود من وطنهم القومي يحقق فيما بعد سيادتهم على الأميين، بإقامة مملكة يهودية مستبدة تحكم العالم كله، يكون مقرها أورشليم أولا ثم تستقر في روما إلى الأبد. ويتعاقب على عرشها حكام من ذرية ملكهم داود، إذا توج الواحد منهم فتكون ذاته مقدسة لا تمس، لأنه سيكون بطريرك العالم وملكه معاً.

وللوصول إلى الحكومة العالمية يجب زيادة إفساد جميع نظم الحكم الحاضرة في العالم بالتدريج، حتى تسقط في الوقت المناسب لقيام المملكة اليهودية العالمية، وقيام الحكومة العالمية يجب أن يسبقه تمزيق الأوطان والقوميات والأديان التي لا تتفق مع اليهودية، وإفساد أنظمة الحكم، وذلك بعدة وسائل، منها إغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب التي يجب إغراؤها بالتمرد على سلطة الحكام والقوانين والعرف والتقاليد، ويكون هذا بنشر مبادئ الحرية والمساواة ونحوها مع تفسيرها تفسيراً خاصاً يؤذي الجانبين، وبمحاولة إبقاء كل من قوة الحكومة وقوة الشعب في حالة عداء مستمر كل منها للأخرى. ومن أجل تحقيق الفكرة الصهيونية الكاملة فينبغي إثارة حروب عالمية وأهلية بإلقاء بذور الخلاف والبغضاء بين الأمم.. على أن تكون هذه الحروب ضارة بالغالب والمغلوب.

على أنه ينبغي لليهود لتحقيق هدفهم أن يستغلوا الذهب الذي يحتكرونه، لأنه أمضى الأسلحة لإثارة الرأي العام والقضاء على الأخلاق وفضح مساوئ الأديان والقوميات حتى تستنزف قوى أعداء اليهود، فلا يجدون بعد ذلك مفراً من الركوع تحت أقدامهم.

وقد بدأ اليهود تنفيذهم لمبادىء الصهيونية بمحاولة الوصول أولا إلى استعمار أرض فلسطين. وبدأت هذه المحاولات بما ضمنه مؤسس الفكرة الصهيونية الحديثة موسى هس في كتابه «روما وبيت المقدس».

يشرح هس السبيل إلى تحقيق المثل للشعب اليهودي في فلسطين بإقامة نظام اجتماعي مثالي قائلاً: إن أول أوامر الله لليهود هو أن يطبقوا القانون الذي بعثه الله ليعلموه للشعوب الأخرى، وإن أقسى عقوبة فرضت عليهم لانحرافهم عن السبيل الذي خطته لهم العناية الإلّهية، كانت عجزهم عن عبادة الله كأمة متكاملة فقدوا أرضهم.. وزعم أن الذي يعني اليهودي هو الأرض- أي الوطن- لكي يقوم بواجبات دينه.

وبعد ذلك بعشرين عام خرج «تيودور هرتزل» سنة ١٨٩٦ بكتاب اسمه «الدولة اليهودية» كتب على صفحته الأولى «إذا أردتم فلا حاجة بكم إلى الحلم» ودعا فيه إلى تأسيس الدولة اليهودية، التي يهاجر إليها المضطهدون الذين لا يطيقون البقاء في البلاد التي يسكنونها. وفي عام ١٨٩٧ عقد أول مؤتمر عالمي للصهيونية في مدينة بال بسويسرا للبحث في تأسيس الدولة اليهودية. وأقر المجتمعون ضرورة الإسراع في تحقيق هذه الرغبة على أن يكون مركز دولة اسرائيل الحديثة هو أرض إسرائيل القديمة.. أي فلسطين.

وفي فترة من الضعف الذي مني به العالم العربي استطاعت الدعوة الصهيونية بكل وسائلها أن تحقق أول هدف لها عندما وقف بن جوريون في ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ليعلن قيام دولة إسرائيل.

ومنذ تلك اللحظة بدأ اليهود يواصلون العمل لتحقيق الهدف الرئيسي للدعوة الصهيونية العالمية.. بالسيطرة على العالم كله.

وهو أمل تؤكد الظواهر كلها أنه غريب بعيد التحقيق.

المسيحية

أحبوا أعداءكم. أحسنوا إلى مبغضيكم،
باركوا لاعنيكم،
وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم.
من ضربك على خدك
فاعرض له الآخر أيضاً.
ومن أخذ رداءك،
فلا تمنعه ثوبك أيضاً.
وكل من سألك فأعطه.
ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه.
وكما تريدون أن يفعل الناس بكم،
إفعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا.
وإن أحببتم الذين يحبونكم،
فأي فضل لكم
فإن الخطاة أيضاً يحبون الذين يحبونهم
وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم،
فأي فضل لكم.
فإن الخطاة أيضاً يفعلون هكذا.
وإن أقرضتم الذين ترجون،
أن تستردوا منهم، فأي فضل لكم.
فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة
لكي يستردوا منهم المثل.

« الإنجيل »

أحبّوا أعداءكم

يقولوا لأجل الذبن يسيئون إليكم

منذ قاد موسى شعبه بعيداً عن أرض مصر ، آمن اليهود بأن إلههم يهوه سيرسل إليهم وقت الحاجة مخلصاً ينتصر على أعدائهم، ويأتي إليهم بنعم العدالة والسلام.

هذا المخلص المنتظر هو الذي أطلق عليه بنو إسرائيل اسم المسيح.. ومعناه المختار.

على أن أملهم في ظهور المسيح لم يبلغ من القوة مثل ما بلغ في حكم القيصر أغسطس، قبيل هزيمة الرومان لهم هزيمة منكرة بمائة عام. فقد لقي اليهود وقتئذ عذاباً شديداً جعلهم يرجون أن تكون متاعبهم تلك إيذاناً بمجيء المخلص.

أحلام دانيال:

وأخذ الجميع يقرأون ويبحثون كتاباً صغيراً من ثلاثين صفحة، اسمه «سفر دانيال».

وفي هذا الكتاب الصغير العجيب، ذكر دانيال نبأ الأحلام الغريبه التي رآها. فقد رأى في أحد أحلامه أربعة حيوانات ضخمة تأتي من البحر. أحدها: في صورة أسد له أجنحة نسر. والثاني: في صورة دب جائع. والثالث: في صورة نمر له أربعة رؤوس وأربعة أجنحة. ولكن الحيوان الرابع: كان أشدها هولاً حتى أنه أكلها وسحقها جميعاً. وكانت لهذا الحيوان أسنان من

الحديد ومخالب من النحاس وعشرة من القرون. وكان لكل من هذه القرون عينان وفم يتكلم.. وكانت أفواه هذه القرون تذكر أموراً رهيبة.

ورأى دانيال في حلم آخر كبشاً يأتي من النهر.. له قرنان عاليان قويان يوجهها غرباً وشمالاً وجنوباً، ولم يجرؤ أي حيوان آخر على اعتراض طريقه.

ثم ظهر آخر الأمر في الغرب جدي قوي يتوسط عينيه قرن وحيد، هاجم الكبش وأسقطه تحت أقدامه وداس عليه. وذكر دانيال غير هذين الحلمين أحلاماً أخرى قال أنه لم يفهمها حتى جاء ملاك من السماء وفسر له معنى أحلامه.

قال الملك: سيأتي الوقت الذي يظهر فيه ابن الإنسان من نسل داود لإقامة ملكوت السموات على الأرض. ويأتي للعالم بالسعادة والسلام.

ولكن الملك لم يقل متى سيحدث هذا..

انتظار المسيح:

ولكن حالما سمع دانيال الملك يتنبأ بأن وقت ظهور المسيح قد اقترب حاول أن يفهم، ولكنه لم يستطع تحديد ذلك..

ومع ذلك فقد كان هذا هو ما حاول الناس فيا بعد أن يفهموه من قراءة تلك الأحلام الغريبة.. واستنتجوا عدة أشياء.



على أن هذا لم يكن كل شيء في الكتاب الصغير. فقد ذكر دانيال أيضاً أنه قبل ظهور المسيح ستحدث متاعب لم يحدث لها مثيل من قبل لأمة من الأمم.

وخطر لليهود أن المتاعب التي عانوها في ظل حكم الرومان هي المقصودة بذلك. وتوقع الكثيرون منهم أن يظهر المسيح أثناء حياتهم. ولقد كانوا واثقين من أن المسيح سيظهر قريباً جداً، حتى أن بعضهم وزعوا ما يملكونه من متاع وتركوا زوجاتهم وبيوتهم وأبناءهم

وأعمالهم، وأقبلوا على الصيام والصلاة ليعدوا أنفسهم لليوم العظيم.

وأخذ الناس في المعابد والأسواق والبيوت في جميع انحاء البلاذ يناقشون مجيء المسيح.. سواء في ذلك المتعلمون والجهلة والشيوخ والشبان. وراح الناس يتهامسون:

«المسيح.. المسيح.. لقد اقترب يومه تبارك اسم الرب..»

وظل الناس يتهامسون بعضهم مع بعض.. وأطلق عليه البعض اسم المختار، والبعض الآخر اسم ابن الإنسان. وآخرون قالوا عنه ابن داود.. بينما الباقون تهامسوا قائلين.. إنه ابن الله.. وراح الجميع يتساءلون:

- كيف سيبدو المسيح عندما يجيء؟
- كيف سيستطيع الناس أن يعرفوه..؟
- هل ستلده امرأة أم سيأتي رأساً من السماء على العربة التي ارتفع عليها إيليا النبي؟

كل هذه الأسئلة راحت تدور في أذهان الناس..

ووصف المتعلمون منهم المسيح فقالوا:

- سيظهر ابن داود فوق قمة جبل، وفوق رأسه تاج المجد وفي صحبته إيليا النبي ومجموعة كبيرة من الملائكة.

وسأل البعض: ولكن أين بالضبط سيظهر المسيح؟

وأجاب آخرون: سيظهر في الشمال..

وقال سواهم: بل سيظهر في الجنوب..

ورد فريق آخر: سيظهر ابن داود مع السحاب في السماء ثم يهبط على سقف هيكل أورشليم القدس.

ولكن مهما اختلفوا حول المكان الذي سيظهر فيه المسيح، وكيف سيظهر.. فإنهم اتفقوا على أنه سيظهر قريباً جداً، واصبح حديث مجيئه على كل لسان.

وكان هو الذي حدث بالفعل.

مولد يسوع:

فهناك... في بيت لحم، كانت العذراء مريم بنت عمران تمر في حياتها بدور غريب لم تشهد مثله فتاة من قبل قط. وهي لم تكن تتصور أبداً ذلك الذي حدث لها، برغم تلك السنوات الطويلة التي قضتها تخدم في الهيكل، تنفيذاً لنذر أمها التي نذرتها لخدمة هيكل الرب الذي تقبلها قبولاً حسناً وأنبتها نباتاً كريماً، وهي تحت كفالة زكريا زوج خالتها اليصابات، أم يوحنا المعمدان الذي يعرف في القرآن باسم يحيى.

وكانت مريم قد نشأت نشأة طهر وعفاف وبعد عن الإسفاف والرذيلة. وكانت عناية الله تكلؤها وتحرسها حتى أن زكريا كان يجد عندها رزقاً من رزق الله لم يأتها به أحد ولا وجود له عند الناس. وكان يسألها عنه فتجيبه أنه من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

واختارتها عناية الله لتكون أماً لكلمته المتجسدة، فدبرت أن تخطب ليوسف النجار حتى لا تبقى في الهيكل. وذات يوم بينما هي تجلس في خلوة وحدها، إذ بالملك جبريل الذي أرسله الله إليها يقف أمامها ليبشرها بأن سيكون لها غلام زكي. وأخذت مريم بالمفاجأة، وعجبت كيف يكون لها ولد وهي عذراء لم يمسسها أحد من الناس، وهون جبريل عليها الأمر وقال لها أن قدرة الله لا يعجزها شيء. وأن الله الذي صنع الإنسان من غير إنسان لقادر على أن يخلق فيها إنساناً من غير إنسان. وبشرها جبريل أن ابنها يسمى المسيح عيسى بن مريم، وأنه يكون وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وأنه يكلم الناس في المهد وكهلاً، وأن الله سيعلمه الكتاب والحكمة والتوراة ويعطيه الإنجيل، وأنه سيكون آية للناس على قدرته ورحمة منه لعباده، إذ نصب لهم به سبيل الخلاص، وجعله لهدايتهم وردهم عن الضلال.



وحملت مريم بيسوع بمجرد أن نفخ جبريل في جيبها. وعندما حان وقت الوضع ألجأها المخاض إلى جذع النخلة بجوار مزود للبقر حيث ولدت

الطفل. وإذ خافت أن ترمى بسوء السيرة كاشفت يوسف النجار خطيبها بالإلهام الإلهي. ورغم أن يوسف كان يبعدها عنه إلا أنه رأى في الحلم ملاكاً يقول له:

«لماذا عزمت على إبعاد امرأتك اعلم انه ما كون فيها إنما كون بمشيئة الله، فستلد العذراء إبناً وستدعونه يسوع تمنع عنه الخمر والمسكر وكل لحم نجس لأنه قدوس الله من رحم امه. فإنه نبي من الله أرسل إلى شعب إسرائيل ليحول يهودا إلى قلبه، ويسلك إسرائيل في شريعة الرب كما هو مكتوب في قاموس موسى، وسيجيء بقوة عظيمة يمنحها له الله. وسيأتي بآيات عظيمة تفضي إلى خلاص كثيرين».

★ ★ ★

نجم في المشرق:

في تلك الأيام كان الحاكم الحقيقي لليهود هو قيصر أغسطس إمبراطور الرومان. ولكن ملكاً آخر منهم كان يحكمهم أيضاً، وإن لم يكن يهودياً ولا رومانياً ولا إغريقياً.. إذ كان خليطاً من عدة أجناس من بينها الجنس الفلسطيني.. وكان يسمى الملك هيرود العظيم.

كان هيرود ملكاً شريراً.. على أنه وإن لم يكن سعيداً في قصره، إلا أنه ظل راغباً في أن يبقى حاكماً على اليهود إلى الأبد. ولم يكن هناك أدعى إلى إثارة غضبه من حديث الناس عن مجيء المسيح ابن داود الذي سيصبح ملكاً على اليهود..

وذات يوم، بينما الملك هيرود في السبعين، إذ جاء احد جواسيسه إلى القصر وقال:

- لقد جاء إلى أورشليم ثلاثة حكماء من مجوس فارس محملين بالهدايا. وهم يجوبون أنحاء المدينة سائلين: اين الطفل الذي ولد ليصبح ملكاً على اليهود.. لقد جئنا لنعبده..!

وأصدر الملك أمره:

- أتوني بهؤلاء المجوس على الفور.

وعندما جيء بالمجوس الثلاثة أمام هيرود سألهم:

- أية دلالة دلتكم على أن ابن داود المنتظر ملك اليهود قد ولد؟ وأجابه المجوس:

- لقد رأينا نجماً يشرق في الشرق. وسار أمامنا حتى جئنا إلى هنا.. وكانت هذه هي دلالتنا..

وفكر هيرود برهة بعقله المليء بالشر وقال:

- إذهبوا واعثروا على الطفل الذي ولد ليكون ملكاً على اليهود. فإذا وجدتموه فاخبروني بمكانه، فإني انا الآخر أريد أن أذهب إليه وأعبده.

وترك المجوس الثلاثة الملك وتبعوا النجم القرمزي الذي رأوه يشرق في الشرق. وتحرك النجم أمامهم وتبعوه، وظلوا يتبعونـه حتى خرجوا من



أورشليم ووصلوا الى بيت لحم. وهناك وقف النجم فوق المسكن الذي يقطنه يوسف النجار وزوجته مريم، وابنهما الطفل يسوع..

ودخل الحكماء الثلاثة البيت وركعوا أمام الطفل وهو في حجر أمه، ونثروا الذهب واللبان والمر عند قدمي الأم رمزاً لأنه سيكون ملكاً كاهناً ونبياً.. ثم خرجوا من بيت لحم.



على أن المجوس الثلاثة لم يعودوا قط الى أورشليم. فقد كانوا من الحكمة بحيث فهموا أن الملك هيرود لم يكن يريد أن يكتشف مكان وجود الطفل ليعبده، بل ليقضي عليه. وهكذا عاد الثلاثة إلى بيوتهم في فارس دون ان يمروا على قصر الملك هيرود العظيم.

في تلك الليلة رأى النجار يوسف ملاكاً في الحلم يهمس في أذنه قم خذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر.. واشتد بيوسف الخوف حتى أن الصبح لم يكد يصبح حتى كان قد اصطحب زوجته والطفل وانطلق هارباً في الطريق إلى مصر.



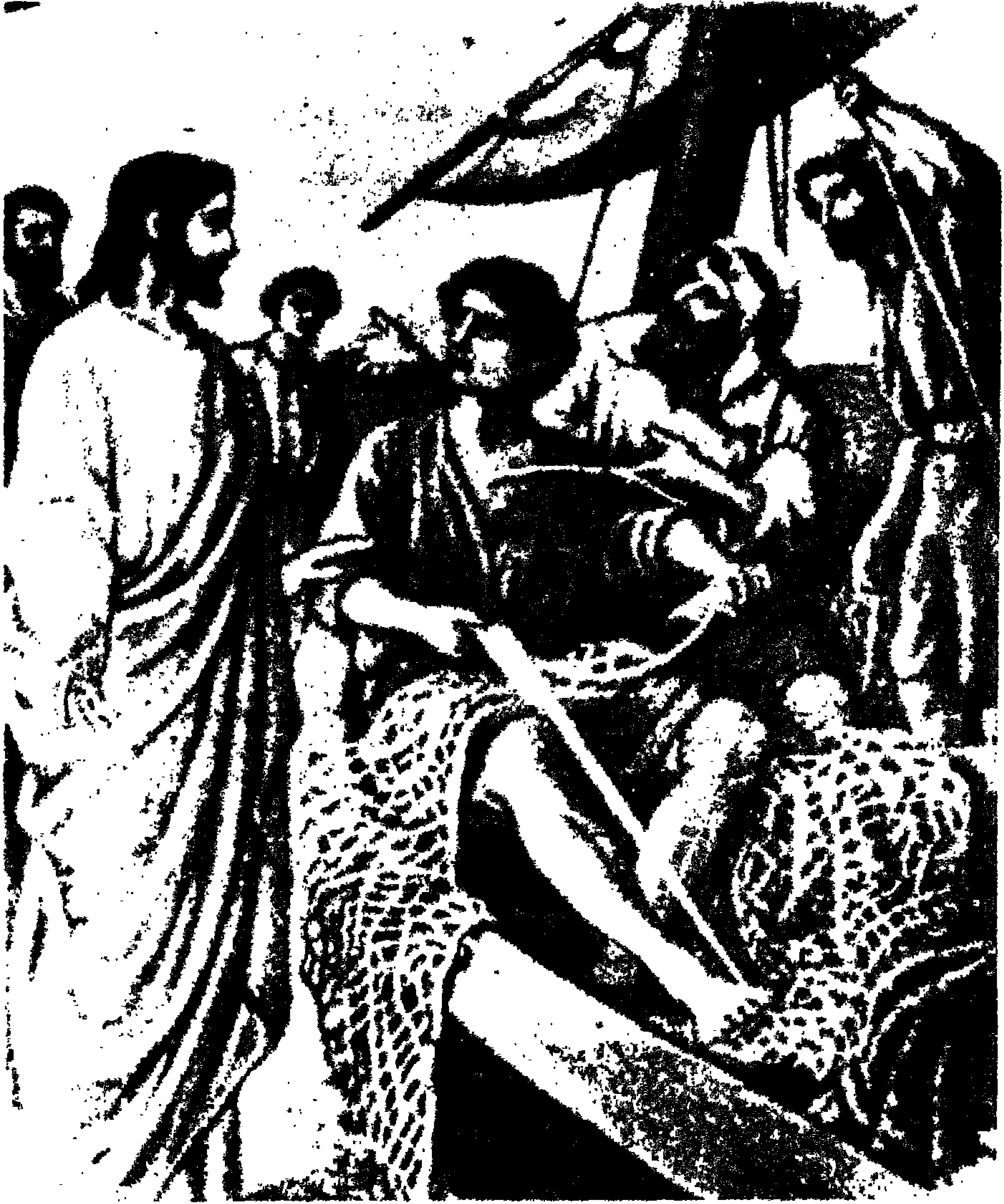
وجاءها الملك جبريل وهي في خلوة وبشرها بأن سيكون لها غلام زكي.. وعجبت كيف يكون لها ولد وهي عذراء لم يمسها بشر. قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً.



لوحة ترمز لميلا ـسوع وحوله الملائكة من كل جانب



العذراء مريم تحمل الطفل يسوع.. لوحة في إحدى كنائس القسطنطينية



يسوع يتحدث مع الصيادين وبينهم بطرس الذي أصبح اول حوارييه الاثني عشر.

كل هذا حدث بينما الملك هيرود لا يزال ينتظر عودة المجوس الثلاثة ليقولوا أين يوجد الطفل الذي ولد ليكون ملكاً على اليهود. وانتظر وظل ينتظر، وكلما طال انتظاره زاد به الغضب. حتى إذا مضى وقت طويل تبين له أنهم لن يعودوا.. وعندئذ راح يفكر في طريقة لقتل الطفل. وانتهى به التفكير إلى أن يصدر أوامره بقتل جميع الأطفال في بيت لحم ممن تقل أعمارهم عن السنتين.

على أن الأمر لم يستمر طويلاً. فإن الملك هيرود قد مات بعد وقت قليل من هروب يوسف وأسرته إلى مصر.

وعندما وصلت إلى مصر أنباء موت الملك هيرود، عاد يوسف مع أسرته إلى موطنه واستقر في مدينة الناصرة.. بمنطقة الجليل.

* * *

يسوع في الناصرة:

مدينة الناصرة مدينة صغيرة في منطقة الجليل السفلي، بعيدة عن الطرق العامة، مختبئة في الوادي تحيطها التلال. وكانت بيوتها مبنية من الحجر الأبيض الذي جيء به من المحاجر القريبة. وكان منظر بياض البيوت الحجرية من بعيد يزيغ البصر تحت أشعة الشمس، فكان الناس يسمون الناصرة بالمدينة البيضاء.

ولم تكن الناصرة تبعد عن أورشليم بأكثر من خمسة وخمسين ميلاً. ولكن في تلك الأيام لم تكن ضجة المدينة الكبيرة لتصل الى المدينة الريفية الصغيرة في تلال الجليل.

وكانت الحياة في الناصرة هادئة ساكنة. وكان يوسف النجار رغم فقره سعيداً هناك، يقضي أيامه في عمل يعول به نفسه وزوجته مريم وطفلها الصغير.

وفي تلك الأيام كان القادرون يرسلون أبناءهم إلى أورشليم ليتعلموا من الحاخامات الكبار. ولكن يوسف النجار لم يستطع ذلك. ومع هذا فإنه لم يهمل تعليم الصبي فكان وهو يمارس صناعة النجارة يعلمه هو وأبناء خالته الوصايا العشر المقدسة. وكانت زوجته مريم تعلمهم صلاة الصبح وصلاة المساء. وكان الأطفال في المعبد يسمعون في أيام السبت والأعياد العديدة تلاوات من التوراة، ويتعلمون الكثير عن القانون المقدس والعادات التي يسير عليها اليهود الصالحون.

ولطالما أحب يسوع البقاء في الكنيسة والإنصات إلى الكبار وهم يتناقشون في التوراة ويتبادلون أحاديث القصص عن الحاخام هليل العجوز الذي كان موجوداً حتى خمسين سنة مضت.

ويقال أن أحد الوثنيين جاء ذات مرة إلى الحاخام هليل وسأله:

- هل تستطيع أن تعلمني كل ما في الشريعة المقدسة وأنا واقف على قدم واحد؟

وأجاب هليل على السؤال بقوله:

- لا تفعل للآخرين ما تكرهه لنفسك.. هذه هي كلمة الشريعة المقدسة..!

وسمع يسوع هذه القصة وأشباهها من القصص في معابد الناصرة، وكانت هذه القصص عنده أكثر قبولاً ومتعة من ألعاب الأطفال الآخرين. ولكن كان أكثر ما يحب هو أحاديث الهمس حول مجيء المسيح الذي يملأ تلك القلوب الحزينة بالفرح والسلام.

وعندما بلغ المسيح الثانية عشرة، حدث في حياته تغيير كبير. ففي تلك السن أصبح لا بد له من أن يتعلم الشريعة والحج إلى أورشليم. والصوم هناك من أهم واجبات من يصل الى هذا السن، وهكذا كان على يسوع أن يسافر إلى أورشليم لأول مرة في حياته.

وكان يوسف النجار شديد الفقر إلى حد لا يمكنه من شراء حمار.

فاضطر يسوع الى أن يمشي إلى جوراه مع أمه، طوال المسافة من الناصرة في الجليل حتى أورشليم.

مدينة الله:

كان يسوع قد سمع الكثير عن أورشليم، وغالباً ما حاول أن يتصور روعة مدينة الله. ولكنه حالما دخل المدينة تبين أن أورشليم لم تكن قط مدينة أحلامه. فقد سمع حوله عدة لغات أجنبية يتكلمها الناس. ورأى خليطاً من الأجانب يرتدون ثياباً غريبة عليه، وجنوداً رومانيين عابسي الوجوه منتشرين بين الناس.

وزاد شعوره بخيبة الأمل عندما وصل إلى الهيكل. فبيت الله الذي كان كثيرا ما يفكر فيه بإجلال وإكبار، كان محاطاً بقطيع من الأغنام والثيران المعروضة للبيع على المتعبدين القادمين لتضحيتها قرابين. وفي كل مكان تجار الماشية يصخبون، والحجاج والصيارفة يصيحون باستعدادهم لاستبدال النقود المختلفة بعملة أورشليم الفضية.

وكانت أشد أحاسيس الخيبة التي ساورت يسوع هي تلك التي أحسها عندما دخل ذلك الجزء من الهيكل حيث يجتمع الحاخامات الكبار لمناقشة الشريعة.

فلقد كانت الشريعة في معبد الناصرة الصغير شريعة بسيطة سهلة الفهم، أما هنا في الهيكل فقد أنصت يسوع الى التفسيرات الطويلة الصعبة، وكانت الكلمات معروفة لديه ومع ذلك فقد عز عليه فهمها.

وهكذا عندما انتهى الصيام وعاد يسوع إلى الناصرة، كانت احلامه عن مجد مدينة الله قد تبددت. وكانت أحزانه قد ازدادت وهو يشهد الهيكل الذي طالما قدس ذكراه.. وقد انقلب سوقاً صاخبة كلها الأباطيل..

ولكن يسوع لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً بعد.

★ ★ ★

يوحنا المعمدان:

لم يعرف سوى القليل عن حياة يسوع منذ بلوغه الثانية عشرة وزيارته أورشليم حتى بلوغه سن الثلاثين. كل ما يعرف هو أن يوسف النجار مات وأن أمه مريم انتلقت بأسرتها من الناصرة إلى «كانا» موطنها.

وهناك اشتغل يسوع بالنجارة.. الحرفة التي تعلمها عن يوسف النجار. وكان يعمل طوال ايام الأسبوع في حانوته الصغير بقرية كانا. وفي أيام السبت يذهب الى المعبد للصلاة ودراسة الشريعة. وغالباً ما كان يسوع يقف أمام المتعبدين يشرح لهم شريعة موسى.. فقد كانت العادة في تلك الأيام أن من يشتد به التأثر يقوم امام المجتمعين يشرح ويفسر أي جزء من الشريعة يكون قد فكر فيه. ولكن تفسيرات يسوع كانت مختلفة عن تفسيرات الآخرين.. إذ كانت كلماته بسيطة تستهوي أفئدة السامعين. وأصبح الكثيرون في المعابد من المعجبين به. وأطلقوا عليه اسم «معلمنا» وأخذ الكثيرون منهم يبحثون تعاليم النجار الشاب.



في ذلك الوقت جاءت انباء تقول أن شاباً اسمه يوحنا بن زكريا قد جاء إلى شاطىء نهر الأردن ليعلن النبوءة. وكانت النبوءة وقتئذ تعني أن وقت ظهور المسيح قد حان.

وتجمع عدد كبير حول يوحنا بالقرب من بيت حابارا على نهر الأردن، حيث أغطسهم يوحنا في ماء النهر ليطهرهم قبل أن يعظهم ويبشرهم بقدوم المسيح.

والواقع ان الناس في جميع انحاء آسيا قد ظلوا قروناً عديدة يعتقدون أن الماء المتدفق سراً. وفي الهند كان الناس يذهبون إلى نهر الجينجز ليستحموا فيه معتقدين أن ماء ذلك النهر المقدس يمكن أن يغسل آثامهم. ولقد كان بعض اليهود أيضاً في أيام يسوع يؤمنون بأن الغطس في الماء المتدفق يغسل الآثام. وكان يوحنا هو الآخر يؤمن بذلك فعمد الناس في ماء نهر الأردن قبل أن يعظهم.. ولهذا سمي يوحنا المعمدان.

أما يسوع فقد ترك حانوته وذهب جنوباً ليقابل المعمدان، خاصة بعد أن قالت له أمه أنه ابن خالتها البصابات.

وهناك، على شاطىء الأردن وبالقرب من أريحا، رأى يسوع عدداً كبيراً من الناس يلتفون حول رجل يرتدي معطفاً من وبر الجمل، ربطه عند حقويه بحبل من الجلد، وكان يخطب في الناس بكلمات تلتهب حماساً. وبالرغم من أنه كان شاباً في الثلاثين من عمره إلا أن لحيته كانت طويلة وكان شعره مهملا. وعرف يسوع من مظهره وكلماته أنه لا بد أن يكون المعمدان الذي سمع به.

واقترب يسوع وسمع يوحنا يقول:

« سيأتي بعدي من هو أقوى مني، ولست جديراً بأن أصل إلى درجة الانحناء لفك رباط حذائه ».

وعند انتهاء الموعظة ذهب يسوع إلى يوحنا وطلب إليه أن يعمده. ولكن عين النبي الفاحصة لحت على الفور أن يسوع لبس رجلاً عادياً. وتردد يوحنا وهو يقول:

« أنا الذي في حاجة الى أن تعمدني ثم تأتي إليّ ».

ولكن يسوع أصر، فامتثل يوحنا الذي رأى الروح القدس نازلاً مثل حمامة. وصوت من السماء يقول: هذا هو إبني الحبيب.

★ ★ ★

تجربة الشيطان:

كان لقاء يسوع بيوحنا في العام الثلاثين بداية حياته كنبي، وهي حياة لم تستمر أكثر من ثلاثة أعوام مليئة بالأحداث السريعة التي انتهت نهاية محزنة.

فلقد ظل يسوع أعواماً طويلة يقرأ ويسمع عن مجيء المسيح. وعندما سمع عبارات يوحنا المعمدان عرف أن مجيء المخلص قد أصبح وشيكاً. ولم يكن في قلب يوحنا أدنى شك ولا في عباراته أدنى تساؤل.. وكان قرب مجيء المسيح مؤكداً كطلوع الفجر عندما ينتهي الليل.

وترك يسوع يوحنا ومضى في الصحراء يفكر في المسيح الذي تنبأ به يوحنا. وظل أربعين يوماً وحيداً في الصحراء المنعزلة، لا يأكل ولا يشرب.. يصلي ويتأمل.

تقول الأناجيل: وخلال صيام يسوع في البرية جربه الشيطان إذ أحس بالجوع. أتاه الشيطان وقال له: إن كنت إبن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً. فقال له: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله. فأوقفه الشيطان على جناح الهيكل وقال له:

إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك. فقال له:

مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك. فأخذه إبليس على جبل عال وأراه ممالك الأرض ومجدها وقال له: اعطيك هذه جميعاً إن خررت وسجدت لي. فقال له يسوع: إذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد، فذهب عنه الشيطان وجاءته الملائكة لتخدمه.

ويقول برنابا في إنجيله الذي لا تعترف به بعض المذاهب المسيحية:

« ولما بلغ يسوع الثلاثين سنة من العمر كما أخبرني بذلك نفسه، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً. وبينما كان يصلي في الظهيرة وبلغ هذه الكلمات « يا رب برحمة.. » إذا بنور باهر قد أحاط به، وجوق لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون: ليتمجد الله.. فقدم له الملاك جبريل كتاباً كأنه مرآة براقة. فنزل الى قلب يسوع الذي عرف به ما فعل الله وما قال الله وما يريد الله، حتى إن كل شيء كان عرياناً مكشوفاً له. ولقد قال لي: صدق يا برنابا إني أعرف كل نبي وكل نبوة. وكل ما أقوله إنما قد جاء في ذلك الكتاب. ولما تجلت هذه الرؤيا ليسوع وعلم أنه نبي مرسل إلى بني إسرائيل، كاشف مريم أمه بكل ذلك قائلاً لها: انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله، وإنه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويخدمها فلما سمعت مريم هذا أجابت: يا بني إني نبئت بكل ذلك قبل أن تولد فليتمجد إسم الله القدوس ».

الرسالة:

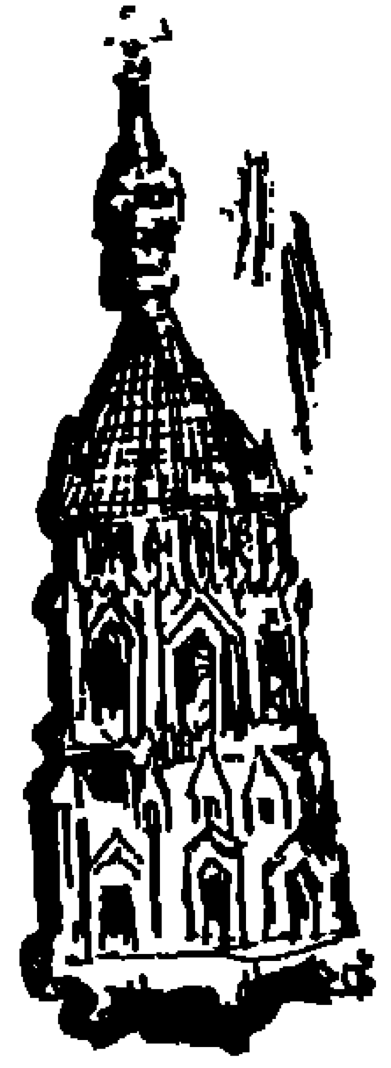
عاد يسوع من الصحراء إلى بيته وأفكاره تدور حول الأخوة الإنسانية وعالم العدل والسلام. ولكنه لم يطل إقامته في الجليل لأن عيد الصوم كان قد أقترب حيث يجب الحج إلى أورشليم.

وذهب يسوع إلى المدينة المقدسة. وكان لا يزال غارقاً في أفكار ملكوت السموات. ووصل الى فناء الهيكل ورأى أمامه مرة أخرى منظر الثيران والأغنام المقيدة والتجار المتحمسين وتجار الحمام والصيارفة والحجاج القادمين لتكريم يهوه يناقشون التجار ويصخبون.

وتطلع يسوع الى الهيكل الذي استقر فيه قدس الأقداس، ثم أدار عينيه مرة أخرى نحو السوق. وشعر بغضب شديد من هذا الاحتقار لبيت الله. والتقط سوطاً كان أحد تجار الماشية قد تركه. وساق الماشية خارج الهيكل. وقلب موائد الصيارفة. ونثر النقود على الأرض بين الحصى. وارتفع صوت يسوع فوق أصوات التجار الثائرين:

- خذوا هذه الأشياء بعيداً.. لا تجعلوا بيت الله سوقاً..

وما كان شيء يفعله يسوع غير هذا ليزيد غضب الكهنة وزعماء الدين في أورشليم، لأنهم هم الذين سمحوا للتجار بدخول فناء الهيكل. وكان تدخل يسوع وطرد التجار والصيارفة من الفناء تحدياً لسلطان الكهنة.



وأثار يسوع بهذا العمل عدة أعداء. ولكنهم كانوا قليلين إذ قورنوا بالأصدقاء والتابعين الذين تجمعوا جول الرجل الذي جرؤ على تحدي السلطات في أورشليم.

وفي نهاية الصوم عاد يسوع إلى الجليل وأخذ يعظ في الناصرة وكانا بالعقيدة التي يجب أن تنبع من القلب.

وحاول الناس الّذين عرفوا يسوع منذ طفولته أن يقللوا من شأن تعاليمه. وقال بعضهم لبعض:

- أليس هذا هو ابن يوسف النجار؟
وأجاب الناس:
- نعم إنه ابن مريم.
وقالوا ساخرين:
- ماذا جعله إذن بهذه الحكمة؟
وقال يسوع الذي سمعهم:
- لا كرامة لنبي في وطنه أو في بيته.

موعظة الجبل:

وسافر يسوع إلى كفر ناحوم وهي قرية صغيرة على شواطىء بحيرة الجليل. وهناك عاش مع شقيقين اسمهما بطرس واندراوس وهما صيادا سمك متواضعان يعتقدان أن يسوع هو المسيح المنتظر، وغالباً ما كان يسوع يخرج إلى شاطىء البحيرة حيث يتجمع الصيادون لإصلاح شباكهم فيعظهم.

ونمت شهرة يسوع ببطء في تلك القرية وانتقلت إلى ما وراءها من القرى المجاورة والمدن القريبة. وبدأت القصص العجيبة تحكي عن نجار الناصرة الشاب. وانتقلت هذه القصص جنوباً حتى أطراف المملكة. وجاء الناس من قريب ومن بعيد إلى قرية الصيادين الصغيرة ليروا وليسمعوا الرجل الذي يحكي عنه إتيان المعجزات.

وذات مرة تجمع جمع كبير من الناس على أحد التلال القريبة من القرية الصغيرة ليسمعوا موعظة يسوع. ووقف أمامهم وألقى عليهم الموعظة التي عرفت باسم موعظة الجبل. وفي هذه الموعظة ذكر لهم أهم تعاليمه وكشف لهم كيف أن تعالمه تختلف عن تعاليم الكهنة والحاخامات الذين سبقوه.

قال يسوع في تلك الموعظة الخالدة:
طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات..
طوبى للودعاء لأنهم سيرثون الأرض.

طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون..
طوبى للرحماء لأنهم يرحمون..
طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله..
طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون..

لا تظنوا أني جئت أهدم الشريعة أو الأنبياء.. ما جئت لأنقض بل لأكمل.

لقد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. من قتل يكون مستوجباً الحكم. وأما أنا فأقول لكم أن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم.

سمعتم انه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً.

لقد سمعتم أنه قيل. أحب قريبك وتبغض عدوك.. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات. فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين.



لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك. وإن سلمتم على أخواتكم فقط فأي فضل تصنعون. أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك؟

فكونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل ».

وأكد يسوع بهذه الموعظة على الجبل وبأغلب عظاته وأمثاله بعد ذلك.. أكد الفارق بين تعاليمه وتعليم اليهودية.

كانت اليهودية تعلم القانون.

ويسوع يعلم الحب.

★ ★ ★

التحول في حياة يسوع

اختار يسوع من بين أتباعه وتلاميذه إثني عشر، سموا بالحواريين، وأرسلهم لإعلان ظهور المسيح..

ومضى التلاميذ في أنحاء الجليل يبشرون الناس بقدوم مخلص البشرية كما تنبأ بذلك الأنبياء، وقالوا في همس أن يسوع الناصرة كان هو المسيح.

وجاء إلى القرية جموع عظيمة من المؤمنين، وجموع أخرى من الفضوليين، يبحثون عن يسوع ويطلبون منه إبراءهم، لأنه قيل في كل مكان أن يسوع كان ماهراً في إبراء المرضى.

وحيثما ذهب يسوع كانت تتبعه جموع كثيرة. وغالباً ما كان لا يجد وقتاً لتناول طعامه..

في ذلك الوقت قتل يوحنا المعمدان، الذي كان قد جهد في انتقاد فساد هيرود انتيباس ابن الملك هيرود العظيم. ووصلت الى يسوع أنباء مقتل يوحنا المعمدان، وتقديم رأسه بعد أن اجتزتها السكين في صحفة أمام الملك.

وكما كان أول لقاء بين يسوع ويوحنا نقطة البدء في حياة يسوع الدينية، كانت أنباء مقتله نقطة التحول في تلك الحياة.

لقد دفع يوحنا المعمدان حياته ثمناً لعظاته، ولكنه بموته اعطى درساً جديداً بأن خير ميدان للصراع هو معسكر الأعداء.

وقرر يسوع أن يذهب الى أورشليم نفسها لنشر تعاليمه هناك.

الصدوقيون والفريسيون:

كان يسوع يعرف مدى الخطر في ذهابه إلى أورشليم، ولكنه مع هذا قرر الذهاب إلى «بيت حنة» القريب من أورشليم لنشر تعاليمه والقيام بالمهمة التي جاء لها.

والحق أن مهمة يسوع كانت مهمة غاية في السمو. أبرز ما فيها أن يضع الخطوط الرئيسية لمبادىء أخلاقية مثالية.. هي التي تنبأ بقيامها عندما يحل ملكوت الله.

فقبل مجيئه بأمد ليس بالقصير، كان بنو إسرائيل قد قست قلوبهم وتحولوا عن أصول شريعة موسى، وانحرفوا عن الطريق الواضح الذي رسمه لهم أنبياؤهم. وأفرط اليهود في التهالك على المادة، واستغرق حب المال تفكيرهم. فكان كهنتهم يحرضون الفقراء والمحتاجين على النذر للهيكل ليستولوا هم على ذلك المال الذي كان الناذرون انفسهم في أشد الحاجة إليه.. فأراد المسيح أن يخفف من هذه الأنانية في الكهنة ورجال الدين، ويرد بني إسرائيل كلهم عن القسوة والبعد عن الخير.



وكان في اليهود فريق الصدوقيين، الذين لا يؤمنون بالجنة أو النار أو القيامة أو البعث أو الحساب.. بل يقولون أن جزاء الأعمال الصالحة أن يبارك الله لصاحبها في الدنيا، وجزاء الأعمال الرديئة أن يعاقبه الله في الدنيا.. فكان من مهمة المسيح أن يرد هؤلاء الى عقيدة البعث والقيامة والجزاء، وأن يثبت الإيمان في قلوبهم ويحذر الناس من اتباعهم والانقياد لتعاليمهم.

وكان هناك الفريسيون، الذين يريدون من شعب بني إسرائيل أن يعودوا الى العقيدة القديمة قبل نفي اليهود الى بابل.. وكانوا يعارضون كل تعاليم تعارض الشريعة الموسوية أو تعاليم الأنبياء الأولين.. ولكنهم قبيل زمن المسيح انحرفوا عن سنن أسلافهم، وألهتهم الحياة الدنيا بزخرفها، وأقبلوا على الشهوات يستترون بها وهم في عملهم يراءون الناس استدراجاً لهم ليوقعوهم في مخالبهم ويبتزوا أموالهم.. فكان ظهورهم بمظهر الزهد فخاً نصبوه لصيد الدرهم والدينار.

وكان هناك الكتبة. ومهمتهم الوعظ وكتابة الشريعة لمن يطلبها، ولكنهم كانوا يشبهون الفريسيين في تصيد أموال الناس.

وكان هناك الكهنة وخدمة الهيكل وهؤلاء صاروا في حال رديئة. يحرفون كلام الله ويتهالكون على الحكام الفانين.

كل هؤلاء كانت أحوالهم تستدعي إصلاحاً وتقويماً على يد مصلح مخلص.. فجاء المسيح ليخلصهم من الآثام التي راحوا يرتعون فيها ويبصرهم بالطريق السوي..

ومن هنا أيضاً اكتسب المسيح عداوة كل هؤلاء الذين وجدوا فيه محطماً لكل ما اكتسبوه من نفوذ وسلطان وثراء.. خاصة بعد أن أعلنها فيهم عالية قوية:

« الكتبة والفريسيون.. يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس. وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم. وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس.. فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم. ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع.. لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون.. أيها القادة العميان. أيها الجهال والعميان، تركتم أثقل الناموس- الحق والرحمة والإيمان- تنقون خارج الكأس والصحفة، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة، تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياءً ونفاقاً إنكم أبناء قتلة الأنبياء. فاملأوا أنتم مكيال آبائكم. أيها الحيات أولاد الأفاعي. كيف تهربون من دينونة جهنم. إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله ».

الصراع مع يسوع:

وهكذا كان لا بد أن يثور الكهنة ورجال الدين عندما علموا بأنباء قدوم المسيح إلى أورشليم.. وراحوا يدبرون المؤامرات له..

ولكن كيف السبيل إليه..

أنهم يعلمون أنه لا يقوم بغير وعظ الناس.. والوعظ في تلك الأيام لم يكن محرماً على أحد. ما لم يكن وعظه موجهاً ضد الحكومة الرومانية التي تحكم فلسطين. أو ما لم يكن متهماً بالسخرية من الله.



وإذن فما من سبيل إلا بمحاولة إثبات تهمة الخيانة او السخرية من الله على المسيح، حتى يسهل القضاء عليه وعلى تعاليمه.

وهكذا جاءوا إليه يلقون عليه العديد من الأسئلة، لعله يقول شيئاً يجعله آثماً ضد حكام البلاد. ولكنهم عندما فشلوا في ذلك حاولوا أن يثبتوا عليه تهمة الإلحاد.

سأله أحد الفريسيين: «ما هي أول الوصايا؟».

ورد يسوع: «أول الوصايا هي أن إلهنا إله واحد، والوصية الثانية هي أن تحب قريبك حبك لنفسك، ولا أعظم من هذه الوصايا».

وأعقب ذلك نقاش طويل بين يسوع ومعلمي الشريعة والفريسيين. وقال الفريسيون أن الشريعة المقدسة يجب إتباعها حرفياً. ورد يسوع بأن العقيدة التي لا تنبع من القلب لا قيمة لها.

وعندئذ أنكر يسوع علماء الشرائع صراحة.. وكذا الفريسيين، وحذر الناس منهم، وزادت الفجوة بين يسوع والزعماء الدينيين اليهود اتساعاً.

* * *

تطهير الهيكل:

بعد ثلاثة أعوام من ظهور المسيح في فناء الهيكل وطرده التجار والصيارفة ظهر مرة أخرى في عيد الفصح للهيود. ومن قبل الأعوام الثلاثة كان يسوع قد جاء وحده، أما في هذه المرة فقد جاء في وسط جموع تنشد وترتل في الشوارع وهي تجتازها:

«تبارك الذي يأتي باسم الرب».

ووقف الذين لا يعرفون شيئاً من أهل أورشليم عن يسوع الجليل يتساءلون: من هذا الرجل الذي تعنون باسمه؟

وأجاب أتباع يسوع: «إنه يسوع نبي الناصرة».

وعندما دخل يسوع فناء الهيكل.. عاد من جديد يشمئز من منظر تجار المواشي والصيارفة. وكما حدث في المرة الأولى هاله ما كان تحت المظلات من ضجيج وأعمال تجارية. وانتابته هو وأتباعه نوبة قوية من الغضب الشديد دفعتهم مرة أخرى إلى قلب مناضد الصيارفة والتجار. وبعثرة نقودهم على الأرض، وإخراج التجار من ساحة الهيكل بضرب العصي..

وارتبك الفريسيون والكهنة من جرأة يسوع. فمن قبل، عندما جاء وحده أول مرة لم يخافوه، أما الآن فأتباعه كثيرون.. ويبدو أن الاستقبال

الحماسي الذي أستقبل به في أورشليم حير زعماء اليهود، فصارو يخشون أن تلتهب حماسة هذه الجماعات التي اجتمعت في عيد الفصح، فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعتها الوطنية إلى الثورة على السلطة الرومانية ثورة طائشة عقيمة، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما يستمتع به اليهود من حكم ذاتي وحرية دينية يتصرفون فيها كما يشاؤون.

المؤامرة ضد يسوع:

إزدادت خشية الكهنة والفريسيين من امتداد سلطان المسيح، وانتشار نفوذه، فقرروا أن يعقدوا اجتماعاً سرياً ليروا كيف يستطيعون أن يوقفوا يسوع عن الوعظ ويمنعوا عدد أتباعه من الازدياد.

ودعا الحاخام الأكبر مجلس السنهدرين إلى الإجتماع، وأعلن فيه: «أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد من الشعب ولا تهلك الأمة كلها».

ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه، وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح.

ويبدو أن نبأ هذا القرار وصل الى مسامع يسوع.. ولا شك أنه كان يعرف أن أعماله وأقواله عند الهيكل ومواعظه قد أثارت الكهنة والفريسيين. وتذكر يسوع مصير يوحنا وقال لتلاميذه ذلك اليوم عدة مرات إنه يشعر أن نهايته قد دنت.



ولم يستطع أتباع يسوع أن يفهموا سر تشاؤمه.. وآمنوا سراً بأن يسوع في خلال عيد الفصح التالي سيعلن أنه المسيح. وجعل هذا الإيمان السري جميع الأتباع سعداء.

وظل يسوع وحده ينتظر العيد بقلب مفعم بالثقل.

العشاء الأخير:

وفي الليلة السابقة لعيد الفصح، اجتمع يسوع بحوارييه الإثني عشر في بيت أحد أتباعه لتناول طعام العشاء. وكانوا ينتظرون أن ينجي المعلم

نفسه بما لديه من المعجزات، ولكنه لم يكن يفكر في ذلك قط. فقد رضي بما قدر له. وعرف أن ما سيلقاه إنما هو تضحية يكفر بها عن ذنوب شعبه. وبعد أن جلس يسوع عند رأس المائدة، لاحظ التنافس بين حوارييه على مقاعد الشرق القريبة منه.

وترك يسوع مقعده على الفور وأمسك حوض ماء وغسل أقدام تلاميذه. واندهش جميع التلاميذ وهم يرون معلمهم يفعل ذلك. واحتج بعضهم ولكن يسوع قال:

«لقد حاولتم التنافس على مقعد الشرف. والآن أضرب لكم المثل الذي يجب أن تحتذوه. تذكروا أن الخادم ليس أعظم من سيده. ولا الذي أرسل بأعظم من الذي أرسله».

وفهم التلاميذ هذا اللوم... وأخذوا يتناولون عشاءهم في صمت. وكان على المنضدة لحم وخمر. ولكن القليلين منهم استطاعوا أن يأكلوا.. وإن كان الذين أكلوا لم يحسوا أي ابتهاج.

وبينما كانوا جالسين في صمت، قال يسوع فجأة:

«الحق أقول لكم إن أحدكم سوف يسلمني».

وأخافت الكلمات التلاميذ. ونظر كل منهم إلى الآخر في حزن وتهامسوا: «هل هو أنا يا معلم»؟

وقال يسوع: «إن الذي يضع يده في الصفحة معي هو الذي سيسلمني».

ثم أضاف: «ولقد كان خيراً للذي يسلمني أن لو كان لم يولد».

وأكلوا في صمت.. ولم ينتبه أحد إلى أن يهوذا الأسخريوطي كان هو بالفعل الذي وضع يده في الصفحة معه.

وعندما انتهت المأدبة الحزينة نهض يسوع والتفت إلى تلاميذه، ونظر إليهم وفي عينيه رقة وحب وقال:

«يا أولادي.. أنا معكم زماناً قليلاً بعد، وستبحثون عني ولكن لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم أنا أمضي لأعد لكم مكاناً. وإن مضيت أعددت لكم

مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إلى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً. وصية جديدة أنا أعطيكم.. أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم فهكذا سيحب بعضكم بعضا، وبهذا سيعرف الجميع إنكم تلاميذي إذا كان لكم حب بعضكم لبعض».

★ ★ ★

القبض على يسوع:

في تلك الليلة خرج يسوع من المدينة إلى حديقة جسثماني حيث اعتاد أن يخرج للصلاة والتأمل. وكان جميع تلاميذه معه فيما عدا يهوذا الإسخريوطي الذي كان قد غادرهم في أول الليل. وفي أواخر الليل وصل يسوع وتلاميذه الى الحديقة، وكانوا جميعاً متعبين فناموا الواحد بعد الآخر.. أما يسوع فظل ساهراً يصلي وحده.

وبعد منتصف الليل شق السكون في الحديقة وصول يهوذا الإسخريوطي، وهو يتقدم جماعة من الضباط والجنود حاملين المصابيح والمشاعل والعصي.. وتقدم يسوع لمقابلة الضباط وهو يقول: عمن تبحثون؟

أجابوا: نبحث عمن يسمي يسوع الناصري.

قال: أنا هو.

ولم يكد يقول ذلك حتى سقط الجميع على وجوههم. وعندما نهضوا وضع الضباط أيديهم على يسوع وقيدوه. وأيقظت الضوضاء الحواريين النائمين، وإذ رأوا الضباط والجنود هربوا جميعاً واختبأوا، بينما اقتيد معلمهم إلى بيت كبير كهنة اليهود.

المحاكمة:

وبعد ليلة طويلة متعبة من الاتهامات والإهانات جيء بيسوع إلى قاعة المحاكمة أمام بيلاطس النبطي حاكم أورشليم الروماني، متهماً بالكفر والتمرد.

وحقق بيلاطس النبطي مع يسوع دون اهتمام بالمنازعات الدينية الخاصة باليهود، لعله يجد فيه واحداً من أولئك الزعماء العديدين الذين كانوا

يثيرون الناس ضد الحكم الروماني في فلسطين، ولكنه لم يجده مقترفاً لجريمة الخيانة، وتمنى لو يستطيع إخلاء سبيله. ولكن الذين اتهموا يسوع جاءوا باتهامات أخرى ضده وقالوا:

- إن هذا الجليلي يثير الشعب ضد القيصر..

وتلقف بيلاطس هذه الكلمة وقال:

- إذا كان هذا جليلياً فيجب ان يحاكم امام هيردوس انتيباس حاكم الجليل لا أمامي..!

وأرسل يسوع الى هيردوس الذي كان وقتئذ في أورشليم.

وأعاده هيردوس ساخراً إلى بيلاطس، الذي وجد نفسه مرغماً أمام ضغط كهنة اليهود وقيافاً كبيرهم والضجة التي أقاموها، إلى أن ينطق بالحكم على يسوع المتهم بالكفر. وكانت عقوبة هذه الجرية هي الإعدام.

وكانت العادة في تلك الأيام تقضي بأن يعرض الحاكم العفو عن أحد المحكوم عليهم بالإعدام في البلاد ليلة عيده. وكان أمام بيلاطس النبطي يسوع الناصرة وسجين آخر هو باراباس.. وهو رجل كان قد قاد ثورة ضد الإمبراطورية الرومانية وقبض عليه وحكم عليه بالموت.

وكان بيلاطس غير مؤمن بإدانة يسوع.. غير أنه وجد نفسه مضطراً للاستسلام لرجال الدين اليهود. ولعله وجد فرصة للإفراج عنه إذا خير الجماهير عند اختيار أي من المحكوم عليهما يفرج عنه فاختاروا المسيح. ولكن بيلاطس عندما سأل الزعماء والجماهير في قاعة المحكمة من منهما يريدون العفو عنه.. أجابوا: باراباس.

وهكذا كان..

وأطلق سراح باراباس. وسلم يسوع الناصرة إلى الجنود لينفذ فيه حكم الإعدام، بتلك الطريقة الرومانية القاسية المعروفة باسم الصلب.

الصليب:

وسيق يسوع وإثنان من اللصوص تحت حراسة الجنود، يتبعهم بعض الدهماء الفوضويين الساخرين. وكان اللصان قد حكم عليهما هما الآخران

بالصلب في ذلك اليوم. واقتيد الثلاثة إلى تل خارج المدينة اسمه تل جولوجثا.

وكانت عادة الرومان وقتئذ تقضي بأن يحمل المحكوم عليهم صلبانهم حتى ... ون عليها.

وكان ... ليب الذي يحمله يسوع ثقيلاً ثقلاً خاصاً. وكان سر ذلك انه عندما أثار باراباس ثورة في مدينة أورشليم، وقرر والد القتيل أن ينتقم، من باراباس لفقد ولده الوحيد. ولكن باراباس كان قد قبض عليه وحكم عليه بالإ... ام، فذهب الأب الموتور إلى الجنود الرومانيين وقدم لهم الخمر والهدايا ... لسماح له بصنع الصلبان للصين والباراباس فسمح له بذلك. و... صنع الصليب الخاص بباراباس ثقيلاً جداً حتى يجعل الثائر المحكوم ... يه يعاني عناءً إضافياً في حمل صليبه الى جولوجثا.

ولكن باراباس حصل على العفو عنه.. وأعطى صليبه ليسوع الناصرة الذي حل محله ليحمله. فسار في طريقه وهو يتعثر تحت الحمل الثقيل.. بينما الجنود والسفهاء يضربونه ويعذبونه ويسخرون منه.

وكان من عادة الرومان أن يضعوا إشارة على كل صليب تتضمن اسم المصلوب والجريمة التي يصلب من اجلها. وكان على صليب يسوع عبارة ساخرة تقول: «يسوع الناصرة وملك اليهود».



وعندما جاءت نسوة أورشليم وعرضن على يسوع شراباً من الخل والصبر ليخفف عنه الآلام رفضه. وسكت عندما نزعوا ثيابه واقترعوا على ردائه وضربوه بالسياط ووضعوا أكليلاً من الشوك على جبينه.

وعندما سخر منه الجنود والدهماء همس في صوت خافت:

«إغفر لهم يا أبت.. لأنهم لا يعرفون ماذا يصنعون».

وتقول الأناجيل إن المسيح بعد أن وضع على الصليب ببضع ساعات أصبحت آلامه لا تحتمل.. فصاح يسوع:

«إلهي.. إلهي.. لِمَ تركتني».

ثم أضاف بصوت لا يكاد يسمع: «يا أبتاه. في يدك استودع روحي».
وهوى رأسه على صدره.. وكانت النهاية..
واقترب جندي روماني من الجسد المصلوب، وطعنه بحربته، في قلبه وانبثق الدم من الجرح أولا ثم خرج بعده مصل الدم.
واستطاع اثنان من اليهود الرحماء ذوي النفوذ أن يحصلا على إذن بيلاطس بإنزال الجثة عن الصليب. فأنزلاها وحفظاها بالند والمر ووارياها التراب.

القيامة:

وبعد يومين من هذا الحادث زارت مريم المجدلية ومعها نساء أخر قبر المسيح، فوجدته فارغاً والأكفان موضوعة بترتيب.
وتقول الأناجيل ان المسيح ظهر مراراً بعد قيامته. وفي أماكن متعددة. فقد ظهر لمريم المجدلية عند القبر. وظهر لتلميذه عمواس وللحواريين وهم مجتمعون في مخبئهم على جبل الزيتون.. والأبواب مغلقة مرتين. كما ظهر على شاطىء بحر طبرية لحوارييه ايضاً وهم في سفينتهم يصطادون، وعندما خرجوا وجدوا سمكاً مشوياً وعسلاً.



ويقولون إنه بعد أربعين يوماً من قيامته، اجتمع بالرسل على جبل الزيتون. وبينما هو يباركهم أخذته سحابة وصعد الى السماء، وفيما هم يتأملون مندهشين إذ بملاك يقف بهم ويقول: «يسوع الذي رأيتموه صاعداً سيأتي أيضاً كما رأيتموه نازلاً من السماء».

★ ★ ★

تجسد المسيح وألوهيته:

إختلفت الأراء بين المسيحيين أنفسهم حول تجسد المسيح وألوهيته، برغم الاعتقاد العام بأن الله نزل من سمائه وظهر في جسد إنسان، ليفدي البشر من الخطيئة ويحمل عنهم الآلام..

والأساس العام للعقيدة المسيحية هو أن الله له ثلاثة أقانيم: الآب والابن والروح القدس. وهذه كلها واحد. فانحدار الله- أو الكلمة- وحل في مريم البتول تجسد إنساناً ولد منها وهو يسوع.

وتشعبت الآراء حول تصوير تجسد المسيح وتضاربت..

● قال البعض: إن المسيح إنسان عادي. ونادى بهذا الرأي أبيون الذي ظهر في القرن الأول بعد خراب أورشليم، وأعلن ان المسيح لم يكن إلهاً بل كان إنساناً ولد بالطبيعة من يوسف النجار ومريم. كما نادى به أيضاً كيرنثوس الذي اعتنق المسيحية في القرن الأول، وأعلن ان يسوع البار هو ابن يوسف ومريم، وأن المسيح وهو أحد الأرواح الخالدة قد حل عليه أثناء التعميد. وقال بولس السميساطي في القرن الثالث ان المسيح إنسان محض وفيه حلت الحكمة الإلهية.

● وقال آخرون: إن المسيح نزل في جسم خيالي من السماء، ومر في بطن مريم العذرا،. ونادى بهذا الرأي فالينتوس الذي أعلن أن المسيح نزل من السماء بجسد واجتاز من العذراء كما يجتاز الماء في القناة. وقال سطرينس ان المسيح أتى إلى العالم بغير جسد حقيقي. وقال مركيون ان المسيح أتى لابساً هيئة جسد. وقال تاتيانس أن المسيح لم يكن ذا جسد حقيقي. وقال برديسياس ان المسيح نزل الى عالمنا لابساً جسداً سماوياً. وفي القرن الثالث الميلادي نادى ماني بأن المسيح نزل الى العالم لابساً جسداً خيالياً، وأن اليهود عندما أمسكوه وصلبوه لم يقدروا أن يؤذوا جسده لأنه خيالي. ونادى أبو ليناريوس في القرن الرابع بأن «الكلمة» اخذ جسداً نامياً فقط بلا روح، وأن اللاهوت مارس وظيفة الروح وامتزج بالناسوت حتى انه احتمل معه الصلب والموت. وقال أتباعه بعده ان جسد يسوع المسيح المولود من مريم العذراء كان مساوياً في الجوهر للاهوت الكلمة. وقال آخرون أن الكلمة لم تتخذ جسده من مريم العذراء، بل أتى به معه من السماء بينما اندفع قوم ينادون بعبادة مريم العذاراء، ويقولون إن فيها شيئاً من اللاهوت إثر حلول الروح القدس عليها وتجسد الكلمة فيها وتطرف أفتيخوس

رئيس دير بضواحي القسطنطينية في القرن الخامس فنادي بوحدة طبيعة المسيح، ولكنه أنكر أنه إنسان، وادعى امتزاج واختلاط إحدى الطبيعتين بالأخرى، حتى استحال الناسوت وتلاشى في اللاهوت. وقد اتخذ البابا أثناسيوس قراراً حول كل ما جاء من آراء الخياليين فقال: «كل من اعترف أن جسد المسيح نزل من السماء ولم يقل أنه من مريم العذراء وقال إن اللاهوت استحال إلى الناسوت واختلاط وتغير.. فإن الكنيسة تحرمه».

● والرأي الثالث حول تجسيد المسيح يقول بفصل طبيعته اللاهوتية عن الناسوتية. والذي نادى بهذا الرأي نسطور بطريرك القسطنطينية في القرن الخامس. وقد ترتب على ذلك عدم تسمية العذراء بوالدة الإله باعتبارها والدة الناسوت، وتسميتها أم يسوع فقط. وقد قال نسطور: «إني أعترف موقنا أن كلمة الله هو قبل كل الدهور، إلا أني أنكر على القائل بأن مريم والدة الإله فذلك عين البطلان، لأنها كانت امرأة. ولا أنكر أنها أم المسيح، إلا أن الأمومة من حيث الناسوت فقط، لأن مريم لم تلد إلهاً بل ما يولد من الجسد ليس إلا جسداً.. إن الخليقة لم تلد الخالق بل ولدت أنساناً تحول إلى اللاهوت».

وقد أدى هذا الرأي إلى أن عمد البابا كيرلس الإسكندري معاصر نسطور إلى تفصيل العقيدة حول تجسد المسيح في إثني عشر بنداً، وإعلان الحرمان على كل من يخالفها..

وسرى قرار الحرمان على قوم كثيرين.. فقد أصبح محروماً كل من لم يعترف بأن المسيح إله حقيقي وأن العذراء الطاهرة والدة الإله.. ومن لم يعترف بأن المسيح واحد فقط مع جسده وهو إله وهو إنسان.. ومن فرق المسيح الواحد الى أقنومين ولم يحسن أن يوحدهما بوحدانية طبيعية.. ومن ميز الأصوات المذكورة في الكتاب المقدس وفرزها إلى أقنومين فجعل بعضها لإنسان وبعضها لإله.. ومن تجاسر وقال إن المسيح الذي يستعمل السلطان الإلهي إنسان ساذج ولم يحسن أن يقول إنه إله بالحقيقة.. ومن قال

أن «كلمة الآب» هو رب المسيح ولم يحسن الاعتراف بأن المسيح هو نفسه إله وهو إنسان.. ومن قال أن الله الكلمة كان يفعل في الإنسان يسوع.. ومن تجاسر وقال أنه ينبغي أن يسجد للإنسان الذي أصعد إلى السماء مع الله وأن يمجد معه أو يسمى معه إلَهاً كان هناك اثنين.. ومن قال أن المسيح كان ممجداً من قبل الروح القدس بقدرة غريبة منه كأن يتم بها الآيات اللاهوتية في البشرية ولا يقول أن الروح خاصة للمسيح وإنه كان يفعل به آيات اللاهوت.. ومن قال أن لكمة الله ليس هو الذي صار رسولاً وتجسد وصار إنساناً وأن المسيح قرب نفسه من الآب لأجل نفسه ولم يحسن القول أنه قرب نفسه لأجل خلاص البشر.. ومن لم يعترف بأن جسد الرب شاف محي ولم يحسن القول بأنه معطي الحياة لأنه صار لكلمة الله خاصة الذي هو قادر أن يحيي الكل.. ومن لم يعترف بأن «الله الكلمة» تألم في الجسد وصلب في الجسد وذاق الموت وأنه يكبر الأموات.

وكان هناك رأيان آخران حول تجسد المسيح وألوهيته.. أحدهما ما يقول به الكاثوليك باتحاد طبيعتي المسيح لفظاً وفصلهما فعلا. فقد نادى الكاثوليك بروما بهذا الرأي وأخذته عنهم الكنائس اليونانية والبروتستانتية. ويظهر ذلك مما قاله الأسقف ليو الأكبر في رسالته التي أرسلها إلى مجمع إفسس الثاني في القرن الخامس: «حقاً يأتي المسيح الاثنان.. الإلَه والإنسان. وإن الأول يبهر المعجزات والآخر ملقى للإهانات» كما يظهر كذلك من قرار مجمع خلكيدون الذي يتضح منه أن طبيعتي المسيح اللاهوتية والناسوتية متحدتان لفظاً ومنفصلتان فعلاً، إذ قال القرار: «إن المسيح هو إلَه تام وإنسان تام، مولود بحسب اللاهوت من الأب وبحسب الناسوت من مريم البتول والدة الإلَه ومعروف واحداً بطبيعتين متحدتين بلا اختلاط ولا ابتدال ولا انقسام ولا انفصال» كذلك يظهر ذلك الرأي في المنشور الذي أصدره جريجوريسو الثالث عشر، ويتضمن الأمر بعدم تلاوة الجزء الأخير من التقديسات الثلاث وهي: «يا من ولدت ويا من صلبت ويا من قمت» فقد قصد المنشور أن نسبة الولادة



والصلب والقيامة ليست مستساغة إلى اللاهوت ولكنها للناسوت فقط.

● والرأي الخامس قول الأرثوذكس باتحاد طبيعتي المسيح لفظاً وفعلاً. وتنادى بهذا الرأي الكنيسة القبطية والسوريانية والأرمنية وجميع أتباعها من الكنائس الأرثوذكسية ويطلق عليه تعبير آخر هو «وجود طبيعة واحدة للكلمة المتجسدة».

ويستند هذا الرأي إلى بعض آيات الكتاب المقدس وأقوال الآباء التي تثبت أن «للكلمة المتجسد» طبيعة واحدة لأنها لا تميز بين طبيعتي اللاهوت والناسوت مثل قول المسيح: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» ومثل ما ورد في رؤيا يوحنا عن المسيح بقوله: «أنا هو الأول والآخر والحي وكنت ميتاً وها أنا حي إلى أبد الآبدين» ومثل قول بولس الرسول عن المسيح: «يسوع المسيح هو هو.. أمس واليوم وإلى الأبد» ومثل قول بولس الرسول: «كنيسة الله التي افتداها بدمه» ومثل ما جاء في رسالة البابا كيرلس الإسكندري الى تيودوسيوس الملك: «إننا لا نعري الناسوت من اللاهوت، ولا نعري الكلمة من الناسوت بعد ذلك الاتحاد الغامض، الذي لا يمكن تفسيره، بل نعترف بأن المسيح الواحد من هو شيئين اجتمعا إلى واحد مؤلف من كليهما لا يهدم الطبيعتين ولا باختلاطهما بل باتحاد شريف في الغاية».

* * *

رأي المسلمين في التجسد:

إذا كانت هذه الخلافات كلها قد ظهرت حول تجسد المسيح بين المسيحيين أنفسهم.. فقد كانت هناك خلافات بين اعتقاد المسيحيين.. وما يراه المسلمون حول صلب المسيح..

فالمسلمون يؤمنون بأن يسوع هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.. وأن مريم البتول نشأت على الطهر والبعد عن الدنس تكلؤها عناية الله.. ولما بلغت مبلغ النساء أرسل الله إليها الملك جبريل على صورة فتى، فأخذها الرعب منه وقالت له: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا.

فأعلمها أنه مرسل من الله تعالى ليهب لها غلاماً زكياً. واخذها العجب من ذلك إذ كيف يكون لها ولد وهي عذراء ولم يمسها أحد من البشر؟ فهون عليها الملك الأمر وأحاله على قدرة الله الذي لا يعجزه شيء. ونفخ الملك في جيب درعها فإذا هي حامل. وبشرها الملك بأن ابنها يسمى المسيح عيسى ابن مريم وأنه يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة ويكون من المقربين، وأنه يكلم الناس في المهد وكهلا، وأن الله يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة، ويعطيه الإنجيل أي البشارة، وإنه سيكون آية للناس على قدرة الله ورحمة منه لعباده، إذ نصب لهم به سبيل الخلاص مما هم فيه من ضلال.

وهكذا ولد يسوع.. عيسى ابن مريم.. ليكون رسولاً من عند الله.

وهنا يختلف رأى الإسلام في رسالة المسيح وتجسده وألوهيته عما يؤمن به المسيحيون.

فبينما يؤمن المسيحيون بتجسد المسيح وباتحاد طبيعتي اللاهوت والناسوت فيه. وبأنه بشكل عام مهما اختلفت المذاهب- هو الله تجسد في صورة إنسان- إلا أن الإسلام يقول إن المسيح ليس إلهاً ولا إبناً للإله من أمثلة ذلك ما جاء في سورة آل عمران «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون».

وما جاء في سورة النساء «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق. إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم. إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد. له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً».

وما جاء في سورة مريم «قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حياً».



وذكر القرآن موقفاً للمسيح في يوم القيامة.. عبر عنه بلفظ الماضي لتأكد وقوعه متى جاء وقته.. فقال في سورة المائدة: «وإذا

قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني أنا وأمي إلهين من دون الله. قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قلته فقد علمته. تعلم ما في نفس ولا أعلم ما نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم. وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ».

رأي الاسلام في صلب المسيح:

وثمة اختلاف كبير آخر بين ما يؤمن به المسيحيون وما جاء في الدين الإسلامي حول خاتمة أمر المسيح.

فالمسيحيون يؤمنون- وتؤكد ذلك كل الأناجيل- أن المسيح مر في آخر أيامه على الأرض بخاتمة شنيعة ومأساة مروعة. وجعلوا الاعتقاد بحصولها أصلاً من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم.. هي صلب المسيح.

ويقوم هذا الاعتقاد على أن آدم وهو أول كل البشر، قد عصى الله بالأكل من الشجرة المحرمة. فصار خاطئاً، وصار جميع ذريته خطاة، مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي. وقد جاء جميع ابناء آدم خطاةمذنبين، فهم يحملون وزر ذنوبهم، ووزر ذنب أبيهم الذي هو الأصل لهذه الذنوب،

ولما كان من صفات الله العدل والرحمة، فمن عدله أنه لا يترك الجريمة دون عقاب، والا لم يكن عادلاً. والعقاب مناف للرحمة فلا يكون رحيماً إذا عاقب. ولتحقيق الرحمة والعدل معاً شاء الله ان تحل « كلمته » في رحم امرأة من ذرية آدم ويتجسد جنينا في رحمها ويولد منها.. فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث أنه ابن لتلك المرأة، وإلهاً كاملاً من حيث أنه « كلمة الله » ويكون معصوماً من جميع المعاصي.. ثم بعد أن يعيش كما يعيش الناس، ويأكل ويشرب مما يشربون ويأكلون، ويتلذذ ويتألم كما يتلذذون ويتألمون، يأتي أعداء الله واعداء شريعته، ويقتلونه شر قتله وافظعها، بأن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه ويضفروا إكليلاً من الشوك على رأسه ويبصقوا في

وجهه.. كل ذلك ليفدى البشر من آلالمهم ويتحمل عنهم ذنوبهم وخطاياهم. وهذا هو ما حدث بالفعل- كما يرى المسيحيون- عندما عذب يسوع وصلب وقتل.. ثم صعد إلى السماء..

ولكن الإسلام يقول إن يسوع لم يصلب ولم يقتل «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم».

وخاتمة أمر المسيح كما يراها المسلمون تقول: إن المسيح عندما أحرج الكتبة والفريسيين بتعليمه وتجريحه إياهم في طريقتهم، وفضح رياءهم وخبثهم، أخرجهم إلى الكيد له والتدبير لقتله. وعندما اختمر هذا الأمر في أنفسهم شكوا أمره إلى بيلاطس، وزينوا شكواهم بما يستدعي اهتمام الوالي بأن ادعوا عليه أنه يقول إنه ملك اليهود، وأنهم لا يقرون بملك أحد سوى قيصر روما. فأرسل الوالي جنداً للقبض على المسيح عيسى بن مريم. فلما أتوا ولم يبق إلا القبض عليه، أنقذه الله من أيديهم وطهره منهم، وألقى شبهه على شخص آخر هو تلميذه الخائن يهوذا الإسخريوطى، الذي كان قد دل عليه أعداءه، فإذا الله يجعله بحيث أن كل من رآه لا يشك أنه هو يسوع. وهكذا أخذ يهوذا وهو في شبه المسيح، حيث صلب وقتل، ونجا من شرهم إذا أعلمه الله من قبل بما سيتم. وقد اختفى المسيح عن أعين اعدائه، ثم رفعه الله بروحه وجسده حياً إلى السماء.



وعلى هذا الضوء يكون يهوذا الإسخريوطى هو الذي قبض عليه بالفعل.. وهو الذي أخذه الجنود من حدائق جسثماني معهم.. وهو الذي وقف أمام المحكمة اليهودية.. وهو الذي اقتيد حاملاً الصليب إلى مكان الصلب، وضرب وعذب وجرح خلال الطريق والكل يظنونه هو المسيح، وكذلك كان هو الذي دقت يداه وقدماه إلى الصليب ثم ضرب حتى مات.. ثم كان جسده هو ايضاً الذي حفظ وكفن ودفن في مقبرة يوسف الرامى.. ثم اختفى منها بينما كان المسيح في طريقه إلى السماء..

لم يكن أعداء يسوع الذين كانوا سبباً في موته شديدي الاهتمام بقتله إلى حد اهتمامهم بالرغبة في القضاء على الطائفة التي نظمها.. وكانوا يعتقدون أن موت الزعيم يقضي على الطائفة.. ولكنهم كانوا مخطئين..

فقد أخذ تلاميذ يسوع يجتمعون سراً ويقررون الاستمرار في عمل زعيمهم المصلوب. وأطلقوا على زعيمهم الميت يسوع اسم المسيح وأسموا أنفسهم أتباع المسيح.. أو المسحيين.

وكان أغلب أتباع المسيح من الفقراء. وكان يسوع وهو في كنعان وكفر ناحوم وقيصرية يعظ الفقراء من اهلها ويبشر المساكين والمضطهدين.

وبعد صلبه انتشرت تعاليمه بين الفقراء والمضطهدين، وراح الجميع يتحدثون عن معجزاته.. وكانت تلك المعجزات كثيرة عجيبة. فقد قيل إن يسوع أحال الماء خمراً في حفل زواج في غانا الجليل وأنه مشى على الماء وصيره طريقاً له ولبطرس.

وأنه أطعم خمسة آلاف جائع بخمسة أرغفة من الخبز وسمكتين. ولكن أعجب هذة المعجزات هي قوته على إبراء المرضى..

فقد أعاد البصر إلى الأعمى، والسمع إلى الأصم، والنطق إلى الأخرس وأعاد العقل إلى المجنون، وجعل الكسيح يمشي والابرص يشفى من البرص، وأبرأ اليد اليابسة، وشفى منحنية الظهر، وجفف ينبوع نازفة الدم، وأرجع الأذن المقطوعة للجندي ليلة آلامه.

وتقول إحدى القصص أن يسوع جاء مكاناً يسمى «بيت جزدا» حيث اجتمع المرضى ليستحموا إيماناً منهم بأن الماء يشفيهم. وكان بين المرضى رجل ظل كسيحاً عمره ٣٨ سنة. والتفت يسوع إلى الرجل وقال:

«إنهض.. واحمل فراشك وامش».

ونهض الرجل من فراشه ومشى، وهو الذي لم يمش قرابة أربعين عاماً.

ولم يبرىء يسوع المرضى بالمعجزات فحسب، بل بعث الموتى من قبورهم كما فعل بابنة بايروس وابن أرملة نايين واليعازر، وقد خضع لسلطانه إيليا وموسى فأتيا له عند التجلي على الجبل بعد أجيال من انتقالهما.

وانتشرت قصص معجزات يسوع بسرعة بين فقراء فلسطين. وآمنوا فيما بينهم بأن يسوع قد نهض من قبره بالفعل، وصعد إلى السماء حيث سيظل هناك حتى ينتهي زمن وأزمان ونصف زمن، ثم يعود ويكشف نفسه للبشر.

ولقد تمنى الذين يريدون عودة المسيح أن يكون ظهوره سريعاً في أيامهم.

ووجدت هذة الامنية صدى طيباً. وانضم الكثيرون إلى الطائفة الجديدة التي تؤمن بأن يسوع هو المسيح، وأن يسوع قد نهض من بين الموتى وأن عودته قريبة.

ونظم زعماء الطائفة الجديدة أتباعهم، وأقاموا بينهم مجتمعاً سمي مجتمع الأخيار. وكان لا بد من تعميد من يريد أن يصبح عضواً في المجتمع الجديد.

وسمى هؤلاء الأعضاء انفسهم «بالأخ والاخت» وأكلوا معاً.. واعتنوا بالمرضى والمتعبين.. وتجنبوا الأثرياء. وما يملكه واحد كان ملكاً للجميع.

وزاد الذين اتبعوا دين المسيح وراحوا يتجمعون سراً.

وعندما تبين الحاخامات أن اتباع يسوع قد أخذوا يزدادون عدداً فزعوا، وأرسلوا الضباط للقبض عليهم وإيداعهم السجون.. ولكن الحاخام جماليل حفيد الحاخام هليل الكبير الذي كان يسوع يعجب بتعليمه، أنقذ زعماء المسيحية بقوله: «تنحوا عن هؤلاء الناس ودعوهم وشأنهم. فإذا كان عملهم وتعاليمهم هي تعاليم البشر انتهت إلى لا شيء، أما إذا كانت من عند الله كما يدعون فإنكم لاتستطيعون القضاء عليها»

* * *



يسوع واثنان من حواريه.. سمعان بن يونا الذي دعاه بطرس أي الصخرة. وصار هو مقدم الحواريين وزعيمهم.. والثاني اندراوس أخوه الذي كان هادىء النفس وديعاً.. يقوم بدوره سكون من أجل ابن الانسان



قضى يسوع ليلة كاملة يفكر فيمن يأتمنهم على الرسالة.. وفي الصباح اختار حوارييه الإثنى عشر.. وعلى رأسهم بطرس.. «الصخرة»



نظر يسوع إلى الكسيح الذي لم يحرك قدميه خلال أربعين عاما ورفع يده وهو يقول: لقد جاءك البرء.. إن برءك الآن في يديك.. قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك..!

الرسل

قبل أن يصعد المسيح إلى السماء اختار إثني عشر تلميذاً وسبعين رسولاً قال لهم: «أقيموا في أورشليم حتى تلبسوا قوة من الأعالي.. واذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس.. وعلموهم جميع ما أوصيتكم به.. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر».

وبقي الرسل في أورشليم وصعدوا على جبل الزيتون. وكانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة. وفي اليوم الخمسين الذي كان يتجمع فيه بأورشليم يهود من كل أمة، حل الروح القدس على الرسل مثل ألسنة من النار، وراحوا يعظون بمختلف اللغات. وكان من نتيجة ذلك أن آمن كثيرون. وعمد التلاميذ في ذلك اليوم نحو ثلاثة الآف نفس.

ولقد كان الرسل جميعاً يؤمنون بأن المسيح سيعود بعد قليل ليقيم ملكوت السموات على الأرض. وكانوا يعتسدون أنهم قد تلقوا عن المسيح، أو عن الروح القدس، قوى عجيبة من الإلهام وشفاء والأمراض والأقوال، وأقبل عليهم كثيرون من المرضى والعجزة.

ولما كثر عدد المؤمنين بالمسيح وكثر ما تحت أيدي الرسل من الأموال. عينوا سبعة من الشمامسة للإشراف على شؤون الجماعة. وظل رؤساء اليهود فترة من الزمن لا يعارضون قيام هذه الفئة لصغرها. فلما تضاعف عدد الناصرين في بضع سنين قلائل، وقفز عددهم من ١٢٠ إلى ثمانية آلاف، استولى الرعب على قلوب الكهنة. فقبضوا على بطرس وغيره، وجيء بهم أمام السنهدرين لمحاكمتهم. وكان السنهدرين يريد أن يحكم بإعدامهم، ولكن فريسيا يبدو أنه معلم بولس الرسول، أشار على المجلس أن يؤجل الحكم، ثم وفق بين الرأيين بأن جلد المقبوض عليهم واطلق سراحهم.



ومضت سنوات.. ثم حدث أن ثار اليهود على سلطان روما...

وأيقن المسيحيون المقيمون في أورشليم أن نهاية العالم قد دنت، فخرجوا

من المدينة وأقاموا في الأراضي القائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن.

ومنذ تلك الساعة افترقت اليهودية والمسيحية، واتهم اليهود المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة. ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيقاً لنبوءة المسيح. واتقدت نار الحقد في قلوب أتباع كلا الدينين منذ تلك اللحظة.

وخلال ذلك كان الرسل والإنجيليون قد انتشروا إلى فرق خمس يبشرون بالمسيحية.. عملت إحداها في أراضى اليهودية وتخومها، والثانية في الصغرى وما حولها، والثالثة ذهبت إلى العجم والهند، والرابعة إلى أقاليم أوربا، والخامسة إلى مصر وأثيوبيا.

وهكذا انتشرت الميحية على أيديهم إلى كل مكان في الأرض.

* * *

بولس الرسول

كان اليهود قبل عهد يسوع بوقت طويل قد انتشروا بين الأمم، وكانوا في أول الأمر قد طردوا من أرض فلسطين بالقوة، ثم أخذوا بعد ذلك يغادرون فلسطين بمحض إرادتهم.

وفي ايام يسوع كان يقيم في مدينة طرسوس عدد كبير من الجالية اليهودية.. بينهم تاجر ثري إسمه كيساى البنياميني له إبن إسمه شاول.

ولما كان شاول إبنا لمواطن روماني حر، فقد كان أيضاً معروفاً باسمه الروماني بولس. وإذ كان الإبن الوحيد لرجل غني، فقد نال حظاً كبيراً من التعليم.

وكان شاول في صباه يقضي معظم وقته على ساحل طرسوس، يرقب السفن وهي تأتي من البحر الأبيض المتوسط.

وهفا شاول إلى أن يصبح ملاحاً، ولكن أباه كان يرغب لابنه أن يصبح حاخاماً. وعندما شب أرسل إلى أورشليم ليدرس على يد جماليل حفيد الحاخام هليل الكبير.

وهكذا بينما كان يسوع في الناصرة وكنعان متأثراً بتعاليم الحاخام هليل، كان شاول الطرسوسي في أورشليم يتأثر بتعليم حفيد هليل.

وبعد أن أتم شاول دراساته عاد إلى طرسوس حيث نشأ. وهناك راح يدرس القانون وهو يعمل مع ابيه. وعندما صلب يسوع ووصلت إلى شاول في طرسوس أنباء تلك الاحداث لم يثر اهتمامه كثيراً، إذ لم يكن يوحنا المعمدان ويسوع الناصري عنده أكثر من زعيمين دينيين من بين كثير من زعماء الدينيين الذين قضوا على انفسهم. ولم يكن شاول يعطف على من يبشر بتعاليم تخالف القانون المقدس اليهودي.

وكان شاول كغيره من الحاخامات في عصره، يؤمن بأن صلب المسيح كفيل بتفرق أتباعه.

ولكن شاول كان مخطئا في ذلك الاعتقاد، تماماً كما أخطأ أصدقاؤه الفريسيون والحاخامات.

فقد ثارت الاضطرابات في أورشليم، وأخذ أتباع يسوع يتجمعون سراً لنشر تعاليم يسوع. ووصلت كلمة إلى شاول في طرسوس تقول:

إذا كانت شريعة موسى ورسالة إسرائيل مقدستين عندك يا حاخام شاول، فتعال إلى فلسطين وساعد في القضاء على الناصريين، الذين يسمون أنفسهم بالمسيحيين، فإن عددهم يزداد يوماً بعد آخر ويزداد الشعور بتأثيرهم ضد الشريعة.



وذهب شاول على الفور الى أورشليم ليفعل ما يستطيع للقضاء على الطائفة الجديدة. وكان منظماً ذكياً نظم قواته ضد أتباع يسوع المتفرقين. واضطهدهم بقسوة في أورشليم وطاردهم حتى السامرة. وعندما قيل له أن عددهم في دمشق في ازدياد، قام برحلة إلى تلك المدينة وقد عقد العزم على القضاء عليهم.

ولكن حدث أثناء الطريق إلى دمشق أن أبرق حوله نور من السماء وسمع صوتاً يناديه: شاول شاول.. لماذا تضطهدني؟ فقال له: من

أنت ياسيدي؟ فقال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. صعب عليك أن ترفس مناخس.

وهنا سقط شاول على وجهه، وأصابه شيء من الذهول، فاقتادوه بيده إلى دمشق. وهناك ظل ثلاثة أيام لم يأكل ولم يشرب مصلياً ومتأملاً. ومنذ تلك اللحظة تغير قلبه وبدلا من أن يضطهد أعضاء الطائفة الجديدة، إنضم إليهم وراح يساعدهم في نشر عقيدتهم.

ومنذ ذلك الوقت حتى نهاية أيامه، كرس بولس نفسه لنشر تعاليم يسوع.. بعد أن غير اسمه إلى بولس.

وقضى خمسة وعشرين عاماً يتنقل من مدينة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر .. وحيثما ذهب كان يقصد معابد اليهود حيث يواصل فيها نشر تعاليم يسوع.

وإذا لم تكن صورة بولس تسر الناظر إليها، إلا أنه كان بارعاً في الخطابة.. واستطاع أن يجمع حوله عدداً هائلاً من جماهير المسيحيين.

ولم يكن معنى هذا، أنه دفع الكثيرين إلى اعتناق تعاليمه على الفور.. فإن اليهود في البلاد الاجنبية سخروا منه كما سخروا من يسوع في أورشليم. كما أن الإغريق والرومان الذين كانت عقيدة اليهود كلها غريبة عليهم، لم يأخذوا تعاليمه مأخذ الجد. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أرقى من اليهود، وأعاروا عقيدة أولئك القوم المغلوبين على أمرهم في فلسطين انتباها ضئيلاً.

ولكن همة بولس لم تتبط مع بطء قبول الناس لتعاليمه. ورحل إلى سوريا ثم إلى كيليكيا ثم إلى مقدونيا ثم إلى صقلية ثم إلى روما في إيطاليا.. وحيثما ذهب كان يحمل معه البشرى السارة التي تقول:

« إن يسوع الذي أبشر به قد قام من الأموات »!

وحيثما ذهب كان ينظم الجماعات الصغيرة من الاتباع ويحمل إليهم أنباء مجموعات أخرى في أماكن بعيدة.. وجعلهم جميعاً يشعرون أنهم أعضاء في مجموعة كبيرة ستغزو العالم.

وبينما كان بطرس يسافر وينظم الكنائس باسم يسوع، كان يكتب رسائل إلى أتباعه في البلاد المختلفة، يفسر فيها عقيدته. وبهذه الرسائل كان يقوي إيمان كنائسه المنظمة في كل مكان.

وعندما ذهب بولس إلى روما لينظم كنيسة مسيحية هناك، قبض عليه واتهم بالخيانة. وظل في السجن عدة سنوات ثم حوكم أمام الإمبراطور نيرون وأفرج عنه.

ومات بولس، ولكنه كان قد أتم رسالته.

* * *

عقيدة الاغريق والرومان

في الوقت الذي اعتنق فيه بولس تعاليم يسوع، كانت الطائفة اليهودية الجديدة غاية في الضعف.

وفي الوقت الذي مات فيه، كانت جذور المسيحية بفضل عمله المتصل قد تعمقت بقوة وأصبحت تأمل في أن تصير عقيدة العالم.



بدأ بولس نشر تعاليم يسوع بين غير اليهود خارج فلسطين، وبعد موته بدأ عمل المسيحيين قاصراً تقريباً على تنصير غير اليهود وخاصة الاغريق والرومان.

وكان الإغريق والرومان وقتئذ مستعدين لقبول عقيدة جديدة تحل محل عقيدتهم.

وكانت عقيدة الإغريق بدون مؤسس وبدون كتاب مقدس، وتكاد تكون بلا كهنة أو قسس.

وكان الإغريق يعتقدون أن بلادهم هي مركز العالم، وأن في قلب بلادهم جبل عال جدا يسمى جبل الأولب، وعلى قمة هذا الجبل تقيم الآلهة التي يؤمنون بها.

كما كانوا يؤمنون بأن هناك على شواطىء نهر الأقيانوس الجميلة

مجموعة من الجزر البديعة تسمى جزر النعيم حيث الأخيار الذين كانوا في دنياهم حياة فاضلة ويستمتعون بحياة الخلود.

ومن بين الآلهة العديدة التي عبدها الإغريق كان جوبيتر إله الآلهة، وكانت جونو ملكة السماء، وأبوللو إله الشمس والطب والموسيقى والفن، وفينوس إلهة الجمال والضحك والزواج، ونبتون إله الماء وبلوتو إله الجحيم.

وكانت آلهة الإغريق تكاد تكون مثل البشر، فهي تعشق وتكره وتعاني الآلام وتغضب، وتنشد المتعة ويغار بعضها من البعض الآخر.

وإلى جانب هذه الآلهة القريبة جداً من البشر، كان هناك أنصاف آلهة مثل هرقل. بل لقد كان لديهم بشر عاديون يعبدونهم عبادتهم الآلهة.

وفي آخر الامر تعددت الالهة وانصاف الآلهة والمعبودات البشرية في اليونان، إلى حد أن الناس لم يعودوا يؤمنون بأحد.

وحدث نفس الامر تقريباً في أيام بولس.

وكان الكثيرون من الإغريق والرومان في لهفة لإيجاد دين جديد يرضيهم. واجتذبت معابد اليهود انظارهم حيث استمعوا إلى التعاليم التى تدعو إلى عبادة إله واحد عادل. ولكن اليهود أصروا على أن الذين يتنقون اليهودية لابد أن يتبعوا شريعتهم وعاداتهم. وكان صعباً على الإغريق والرومان أن يقبلوا هذه الشريعة، وان يتبعوا جميع طقوس اليهود.

وعندما جاء بولس وقال أن الإغريق والرومان يستطيعون أن يدخلوا الكنيسة دون أن يطيعوا شريعة اليهود، طالما كانوا يقبلون يسوع رباً لهم، زاد عدد أتباع الكنيسة الجديدة زيادة كبيرة.

وهكذا بدأت تعاليم يسوع تنتشر بين غير اليهود عن طريق الكنيسة التي أنشأها بولس.

* * *

بعد مائة عام من وفاة يسوع بدأت تعاليمه تنتشر في أنحاء آسيا الصغرى وسوريا ومقدونيا واليونان وروما، وحتى في مصر ووادي النيل.

وفي تلك الأيام تطلع المسيحيون حولهم ونظروا إلى أنفسهم على أنهم جنس جديد على هذة الارض.. وعلى أنهم إسرائيليون حقيقيون وإنهم شعب الله المختار حقاً.

وأخذوا يجتمعون كل يوم أحد، وأسموه يوم الرب، وراحوا يصلون ويقرأون الإنجيل.

وصلوا كل يوم أربعاء وكل يوم جمعة. وفي كل يوم راحوا يرددون صلاة تسمى صلاة الرب.

وكانوا رحماء بالمرضى كرماء للفقراء. وتمادى بعضهم إلى حد بيع أنفسهم في سوق العبودية حتى يستطيعوا بثمنهم المنكوبين.

وبعد وفاة بولس بمائة عام، جمعت التعاليم المقدسة عند المسيحيين وأصبحت كتاباً مقدساً خاصاً باليهوذ، وأضافوا كتاباً صغيراً أسموه العهد الجديد.

وشعر كل من أصبح مسيحيا أن من واجبه أن يخرج وينشر البشارة. واعتبر كل واحد منهم نفسه مبشراً، وبهذه الطريقة نما عدد أتباعهم يوماً بعد آخر.

وفي تلك الأيام كان رعايا الأباطرة الرومان يعبدون ملوكهم على أنهم آلهة. ولكن المسيحيين رفضوا عبادة الأباطرة وعصوا الأوامر الإمبراطورية التي تأمر بالسجود لتماثيلهم في المعابد، كما شعر حكام الإمبراطورية بزعزعة أركان المجتمع الروماني بسبب انتشار المسيحية بين الخاصة والعامة. وهكذا قامت تيارات جافة من الاضطهادات المتعاقبة على المسيحيين، كانت فترات الراحة منها لا توازي شيئاً إذا قورنت بما لا قوة

من عذاب. وبلغ عدد عهود الاضطهاد عشرة بدأت بعهد نيرون وانتهت بحكم دقلديانوس واستمرت بذلك إلى ثلاثمائة سنة. ولكن هذا الاضطهاد ظل يجتذب المسيحيين ويزيد من قوة ارتباطهم وإيمانهم بعقيدتهم.

وفي عام ٣١٢ أصبح قسطنطين إمبراطور روما مسيحياً، وجعل المسيحية دين الدولة الرسمي. وبهذا انتهى اضطهاد المسيحيين.

ولكم حالما انتهى الاضطهاد، بدأ النزاع بين المسيحيين في البلاد المختلفة ونشأت طوائف جديدة كل منها يبشر باعتقاد جديد في يسوع أو في التلاميذ.

وكان بعض هذة الطوائف يبشر بأن يسوع إله.

وبعضها الآخر يبشر بأن يسوع إنسان من كل ناحية.

وكان آخرون يعلنون أن أساقفة الكنيسة ليسوا مقدسين كما يدعون.

ولكنهم وإن تنازعوا فيما بينهم وبدأوا يكره بعضهم البعض الآخر، إلا أنهم ظلوا ينشرون تعاليمهم بين الوثنيين، وتحاول كل طائفة منهم أن تنصر أكبر عدد ممكن من الناس.

وبعد ستمائة سنة من وفاة بولس بدا ان المسيحية ستصبح عقيدة البشر وأنها ستصبح دين العالم.. ولكن ..

ولكن حدث وقتئذ في بداية القرن السابع من التاريخ المسيحي، أن ظهرت عقيدة جديدة في بلاد العرب، سرعان ما نافست المسيحية في نموها وانتشارها.. وكانت هذة العقيدة الجديدة هي الإسلام.



الاصلاح الديني

لا تصلوا يا أصدقائي من أجلي،
بل من أجل كلمة الله.
فقبل أن يبرد دمي تقع مسؤولية سفكه،
على آلاف من الناس في كل العالم.
فالعدو الأقدس للمسيح.. الأب، المعلم،.
زعيم القتلة يصر على سفك دمي.
فليكن كذلك ولتنفذ مشيئة الرب.
الله يهبني روحه حتى أستطيع أن أقاوم،
وأغلب خدام الباطل والضلال.
فإني أحتقرهم في حياتي وسأهزمهم بمماتي.
هم مشغولون لإجباري للرجوع عن الحق،
وانحرافي عن السبيل الذي أراد الله أن أسلكه.
وهذا هو رجزعي:
إني قلت قبلاً أن البابا،
هو نائب المسيح على الأرض.
وأما الآن فإني أقرر،
أن بابا روما،
عدو ربنا ورسول الشيطان.

«مارتن لوثر»

الشرق شرق..

والغرب روما!

عندما أعلن قسطنطين أوغطس المسيحية دينا رسمياً للإمبراطورية الرومانية، منذ أكثر من ١٦٠٠ سنة، كان يأمل أن يجمع بين مثل الكنيسة عن ملكوت السموات والمثل الرومانية عن ملكوت الأرض.

وكانت الإمبراطورية الرومانية وقتئذ تسيطر على معظم العالم المتحضر. وكانت مراميها بسط سلطانها على العالم فتحكم الشؤون الدنيوية لجميع البشر. وكانت مثل الكنيسة تنصير جميع شعوب العالم والتحكم في شؤونها الروحية.

ولما ربط قسطنطين بين الكنيسة والدولة، كان ذلك في الحقيقة للتحكم في جميع شؤون البشر المدنية والدينية.

وأصبحت الإمبراطورية الرومانية العظيمة عن طريق هذه المزاوجة إمبراطورية الرومان المقدسة.

انقسام الكنيسة

في ذلك الوقت كان يحكم الكنيسة أساقفة يرأسهم خمسة من الآباء يعرفون بالبطارقة، كما كانوا يسمون أيضاً بالباباوات.

وكان بابا روما في الغرب وباب القسطنطينية في الشرق هما أهم أولئك الآباء.

ومنذ البداية اختلفت كنيسة الشرق عن كنيسة الغرب. ولم يعد بابا روما على وفاق مع باب القسطنطينية، وأخذ المسيحيون في كل مكان يرون في روما الأرض المقدسة، لأن الحواريين بولس وبطرس وغيرهما من المسيحيين الأوائل استشهدوا فيها، ولأن باب روما كان يعتبر نفسه أعلى سلطة في الكنيسة.



ولكن القسطنطينية وقتئذ كانت قاعدة الإمبراطورية الرومانية العظيمة، واعتبر الأباطرة القسطنطينية مركز الكنيسة أيضاً ومكاناً له أعلى سلطة.

وهكذا كان كل من بابا روما وبابا القسطنطينية يغار من الآخر.

كما كان هناك خلاف آخر غاية في الأهمية بين الشرق والغرب. فقد كانت اللغة اليونانية هي اللغة السائدة في الشرق واللغة اللاتينية هي السائدة في الغرب.. وعند الترجمة من الأصل اليوناني إلى اللغة اللاتينية كان معنى الكلمات الدينية يتغير قليلاً كما تغيرت معتقدات الدين وطقوسه. وأثار هذا كثيراً من الجدل غير الودي بين كنيسة الشرق وكنيسة الغرب.

وبمضي الزمن زادت الخلافات بين كنيسة الشرق وكنيسة الغرب سنة بعد أخرى زيادة كبيرة، كما زادت الغيرة التي يكنها الآخر كل من باب القسطنطينية وباب روما زيادة كبيرة يوماً بعد يوم.

ثم ثار نزاع كبير حول عبادة التماثيل.

فقد كان المسيحيون الأوائل الذين انتقلوا من اليهودية إلى المسيحية، والمسيحيون الذين تلوهم مباشرة من غير اليهود، يحرمون عبادة أو استخدام الصور من أي نوع في الكنيسة. ولكن المسيحيين في الشرق والغرب بمرور الزمن بدأوا يصنعون الصور والتماثيل.

صنعوا تماثيل وصورا للشهداء والقديسين وتلاميذ يسوع وأمه مريم، وليسوع نفسه، بل حاول بعضهم أن يصنع صوراًلله. وكانوا في الغرب

يصنعون التماثيل غالباً، وفي الشرق يرسمون الصور المذهبة في كثير من الأحيان.

وأطلق إسم الأيقونة على الصور الملونة والمذهبة، وجاء المسيحيون وركعوا أمام هذه الصور المصنوعة من الخشب والحجر الملون، وصلوا لها، وآمنوا بأن لها قدرات خارقة.

وأخذ اليهود ثم المسلمون فيما بعد في السخرية من المسيحيين، وراحوا يقولون:

«أنظروا إلى هذه الصور وهذه الأيقونات: إن لها أعينا ولا تبصر، وأذانا ولا تسمع، وأيد ولا تتحرك وأرجلا ولا تمشي. ومع ذلك فالمسيحيون يعبدونها ثم يقولون لنا أن دينهم خير من ديننا!؟.

وتبين رجال الدين في الشرق والغرب خطر عبادة التماثيل في الكنائس. ولكن رجال الدين في الشرق لم يكن لهم سلطان أمام سلطان الأباطرة وزوجاتهم اللواتي كن يردن الصور في الكنائس.

وثار نزاع كبير.

وكانت هذه الخلافات وكثير غيرها سبباً في انقسام الكنيسة قسمين.. كنيسة الشرق الأرثوذكسية وكنيسة الغرب الكاثوليكية.

وفي أثناء ذلك هاجم البرابرة أوروبا واستولوا عليها. هاجمها القوط والهون والغال والدانيمرك والفرنجة، وأنشأوا ما أصبح فيما بعد ممالك انجلترا وفرنسا وأسبانيا وألمانيا.. وتحول هؤلاء البرابرة إلى المسيحية تحت تأثير بابا روما، فزاد ذلك من سلطان الكنيسة الغربية.

ولكن بينما ازدهرت قوة الكنيسة الغربية، كانت الإمبراطورية الرومانية في الشرق آخذة في التدهور والاضمحلال. وزاد اتساع هوة الخلاف بين الشرق والغرب.

وفي عام ١٠٥٤ حدث الانفصال النهائي بين روما والقسطنطينية، وانقسمت الكنيسة قسمين:



- الكنيسة اليونانية الأرثوذكية في الشرق.
- والكنيسة الرومانية الكاثوليكية في الغرب.

الحروب الصليبية

على أنه قبل أن يحدث هذا الانقسام في الكنيسة بزمن طويل، ظهر الإسلام وأرسل جيوشه في جميع أنحاء العالم، لنشر الإسلام والإيمان بالله وبنبيه محمد.

وفتح المسلمون أورشليم وهي المدينة المقدسة عند المسيحيين، حيث كان يسوع يعظ الناس، وحيث صلب يسوع.

وانتشرت الشائعات تقول أن المسلمين انتهكوا حرمة الأماكن المسيحية المقدسة.

وأخذ رجل عرف باسم بطرس الراهب يثير أهل فرنسا ليتجمعوا في جيوش صليبية لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين تمجيداً للعقيدة المسيحية. وعرض بطرس الراهب على الذين ينخرطون في تلك الجيوش الغفران من جميع آثامهم.

وأقبل آلاف الآثمين والمجرمين الذين ينشدون الغفران من خطاياهم، مع ألاف آخرين من المؤمنين المتحمسين للقضاء على الإسلام والمسلمين. كما انضم إليهم آلاف من المغامرين وآلاف من البرابرة، الذين أرادوا الذهاب إلى أي حرب، ومن هذه الآلاف جميعاً تألفت الجيوش الصليبية التي بدأت زحفها إلى بيت المقدس.

ووقعت عدة حروب صليبية أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

وتم الإستيلاء على بيت المقدس، وأنشئت فيها دولة للمسيحية استمرت بضعة أعوام.

ولكن الذين اصطلوا بنار هذه الحروب الصليبية لم يكن هم المسلمون بقدر ما اصطلى بنارها المسيحيون في الشرق.

ذلك أن آلاف الصليبيين وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، نزلوا على المسيحيين وطلبوا منهم إطعامهم وإيواءهم. بل حاولوا أن يقتلعوا الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية من القسطنطينية، ويبدلوها بكنيسة رومانية كاثوليكية.

وشك زعماء الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية في احتمال أن تكون الحروب الصليبية قد نظمت بقصد القضاء على المسيحيين الشرقيين الخارجين على الكنيسة الرومانية، لا القضاء على المسلمين في بيت المقدس.

ولكن الصليبيين فشلوا في الإنتصار على المسلمين. كما فشلوا في إخضاع الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية.

وكان كل الذي نجحوا فيه، هو أنهم خلقوا كثيراً من الشرور التي لا يزال العالم يعاني من آثارها حتى اليوم.

وأتمت الحروب الصليبية الانفصال بين الكنيسة في الشرق والكنيسة في الغرب، ورغم الجهود التي بذلت بعد ذلك لتوجيه الكنيسة الأرثوذكية اليونانية والكنيسة الرومانية، إلا أن الكنيستين ما زالتا حتى اليوم منشقتين.

★ ★ ★

البابوية في روما

ازداد سلطان كنيسة روما فسيطرت تقريباً على معظم أوروبا. وأرسلت بعثات التبشير شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لتنصير جميع البشر.

وازداد سلطان بابا روما يوم بعد آخر..



واعتبر عصيان أوامر بابا روما خطيئة تقضي على النفس، بل وجريمة أيضاً ضد الحكومة.

وجمع البابا في شخصه سلطتي السماء والأرض، فلم يكن يوصف بأنه خليفة المسيح فحسب، بل أصبح يعرف أيضاً بأنه أمير جميع الأمم والممالك.

وعندما يموت البابا ينتخب بابا آخر مكانه بالطريقة التي ينتخب بها رئيس جمهورية.. مع فارق وهو أن الباباوات لم يكونوا ينتخبون من الشعب، بل من جماعة من الكرادلة تسمى مجلس الكرادلة.

وثمة فارق آخر كان له كل الأهمية بين انتخاب البابا وانتخاب رئيس الجمهورية، هو أن البابا حالما يتم انتخابه يستطيع أن يسن أي قانون يشاء وعلى الشعب الطاعة.

وكان من بين القوانين التي سنها البابا أن يدفع الناس للكنيسة جزءاً من كل ما يكسبونه.. بل لقد أصبح البابا يستطيع أن يقرر ما يجب على الناس أن يقرأوه وما يجب ألا يقرأوه.. بل ما يجب أن يدرسه الناس وما يجب ألا يدرسوه.. وأصبح كل ما يقرره البابا شريعة ملزمة.. والعقاب الصارم ينزل بكل من يجرؤ على عصيان أمر البابا..

وهكذا عاقبت الكنيسة كل من خالف وصايا البابا وكرادلته وأساقفته.. وكان هؤلاء كثيرين. فقد رأى بعض الناس أن دفع الضرائب التي فرضها البابا ليست واجبة، وأراد البعض الآخر أن يختاروا لأنفسهم الكتب التي يقرأونها.. وشاء آخرون أن يدرسوا بعض الموضوعات التي حرمها البابا. ولم يشأ بعض الناس أن يحتفلوا بالأعياد التي قررها البابا.

ولكن كل هؤلاء تعرضوا للقبض عليهم وجيء بهم إلى المحكمة وحوكموا.. وكان الذين تثبت إدانتهم يعاقبون بصرامة وقسوة.

وكلما زاد تمرد الناس على الكنيسة زادت قسوة العقوبة التي تنزل بهم.. وكلما زادت وطأة العقاب زاد عدد المتمردين على حكم الكنيسة زادت صرامة العقاب.

فقد اعتبر الباباوات كل هؤلاء الذين عارضوهم ملحدين خارجين على قانون الكنيسة.

ففي عام ١٠٠٠ ظهرت جماعة في تولوز وأورليان تنكر المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب، ووجود المسيح في القربان المقدس، وتأثير الصلوات للقديسين. وإذا كان أمر هؤلاء قد ترك إلى حين، إلا أنهم حوربوا بعد ذلك وأحرق منهم ثلاثة عشر وهم أحياء عام ١٠٢٣. ومع هذا فقد قامت جماعات أخرى منذ عام ١٠٢٥ بعدة اضطرابات في كمبريه وليبج وجبلار وسواسون وكولوني.. وكان من بينها جماعات اعتبرتها الكنيسة عديمة الضرر، إذ كان أعضاؤها يلتقون لقراءة الكتاب المقدس بلغتهم القومية دون الإستعانة بقسيس، ويفسرون بأنفسهم ما فيه من عبارات اختلف الناس في تفسيرها. وقامت جماعات أخرى في إيطاليا وهولندا تتمسك بالدين في كل شيء إلا في الإصرار على أن يعيش القساوسة فقراء.

ثم حدث عام ١١٧٠ أن استأجر تاجر ثري يدعى «بطرس والدو» جماعة من العلماء ليترجموا الكتاب المقدس إلى لغة جنوبي فرنسا. وخرج الرجل من دراسته لما ترجم باعتقاد جديد، هو أن واجب المسيحيين يقتضيهم أن يعيشوا كما كان يعيش الرسل، ليس لأحد منهم ملك خاص. وتحت سيطرة تلك الفكرة نزل الرجل عن جزء من ثروته لزوجته، ثم وزع الباقي على الفقراء، وراح يدعو الناس إلى الفقر. واجتمع حوله طائفة لبست مسوح الرهبان وعاشت عيشة العفة والطهارة، ومشى أعضاؤها حفاة أو منتعلين بالصنادل، وراحوا ينفقون مكاسبهم مشاعاً. وبعد مرور عدة سنوات اصطبغت حركة هذه الطائفة صبغة معادية لرجال الدين الذين لم يعترفوا بهم، وأنكر أعضاء الطائفة صحة العشاء الرباني الذي يقدمه قس آثم، ونسبوا إلى كل مؤمن طاهر القدرة على العفو عن الذنوب. وعارض بعض الأعضاء صكوك الغفران وعقيدة المطهر، وتحول القربان المقدس إلى جسم المسيح ودمه والصلاة للقديسين.

وقامت طائفة أخرى تقول بأن الأشياء جميعاً يجب أن تكون ملكاً مشاعاً.

ونادت طائفة أخرى بأن الكنيسة هي المرأة الحمراء المذكورة في سفر الرؤيا.

وفي عام ١١٤٨ صدر قرار بحل هذه الجماعة. وإذا كانت أقلية منهم قد قبلت في الكنيسة بعد ذلك، إلا أن الأغلبية أصرت على آرائها التي اعتبرت خارجة على الدين، وانتشرت من فرنسا إلى إسبانيا وألمانيا. وعندئذٍ أصدرت مجلس ديني عقد في تولوز عام ١٢٢٩ قرار يقضي بألا يمتلك شخص من غير رجال الدين كتباً مقدسة عدا كتب الترتيل والأدعية ومعظمها مزامير، وحرم عليهم أن يقرأوا هذه الكتب بغير اللغة اللاتينية. وواجهت الكنيسة مقاومة هؤلاء الخارجين عليها بحرق آلاف من أتباع والدو.

ومع ذلك فقد ظلت هذه الطوائف في ازدياد مستمر.. وراحت تندد بالرشاوى وبيع المناصب الكهنوتية وثراء رجال الدين وزواجهم وانتشار التسرى بينهم. واقترحت بعضها أن تصادر أموال رجال الدين وأن تباع أملاكهم بالمزاد، فإذا قاوموا تباح بيوتهم للنهب ويطردون هم وأبناؤهم غير الشرعيين من المدينة.

الكاثارى

وظهرت طائفة سميت الكاثارى ومعناها «الطاهر» نادت بالعودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى.. وارتدى رجال الدين منهم ثياباً سوداء، وأقسم مطارنتهم عند ترقيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم وأبنائهم وأن يهبوا أنفسهم لله والإنجيل، وألا يقربوا امرأة قط، ولا يقتلوا حيواناً، ولا يأكلوا اللحم والبيض ومنتجات الألبان، وألا يطعموا إلا السمك والخضر. وقال أتباع الطائفة إن الشيطان لا الله هو الذي خلق العالم المرئي، وعدوا المادة كلها شراً، بما فيها الصليب الذي مات

عليه المسيح والقربان المقدس. وقالوا إنهم يرفضون العشاء الرباني والقداس وتعظيم الصور المقدسة والتثليت، ولم يؤمنوا بأن المسيح ولد من عذراء، وقالوا إن المسيح من الملائكة ولكنه ليس من الله.

وأطل الباباوات إلى هذه الطائفة واعتبروها كاملة الإلحاد، خاصة بعد أن أنكر أعضاؤها أن الكنيسة كنيسة المسيح، وقالوا إن بطرس لم يأت قط إلا روحاً ولم يؤسس الباباوية، وأن رؤساء الأساقفة والأساقفة ذوي الأملاك الواسعة والقساوسة الدينويين والرهبان، هم الفريسيون الأقدمون «الزنادقة» عادوا إلى الحياة من جديد.. ثم واصلوا هجومهم حتى قالوا إن رجال الدين هم زمرة الشيطان، وأن البابا هو المسيح الدجال.



ونهض البابا إنوست الثالث ليقاوم الكاثارى.. وأعلنها حرباً مقدسة في كل مكان ضدهم.. وفرض الحرمان على كل من لا يمد يد المساعدة في هذه الحرب. واستمرت الحروب ثلاثين عاماً انتهت بانتصار الكاثوليك.. وظهور محاكم التفتيش في الأفق الدامي لأوروبا.

★ ★ ★

وكانت لمحاكم التفتيش قصة طويلة رهيبة..

محاكم التفتيش

ففي سنة ١٢٢٩ اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليكية في تولوز لأول مرة أيام البابا جريجوريوس التاسع. وكان هذا الاجتماع تمهيدياً لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من اتهم في دينه «الكاثوليكي» وكل من كان على دين أو عقيدة غير الكاثوليك.. سواء كان من اليهود أو البروتستانت، وجماعة المفكرين والأحرار والمسلمين الذين كانوا في أوروبا في ذلك الوقت، وفي أسبانيا والبرتغال بوجه خاص، وكل من يتهم بالالحاد والزندقة في مسيحيته الكاثوليكية.

ولكن البابا جريجوريوس لم يقرر إنشاء الديوان بطريقة رسمية إلا عام ١٢٣٣ ، وعندئذ صدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن يختص بالبحث عن المشتبه فيهم وتقديمهم للمحكمة البابوية الخاصة. وخول كاهن التفتيش الاستعانة بمن يراه لازماً لمعاونته من الجواسيس، وأطلق على هذه المحكمة الخاصة اسم «الديوان المقدس» أو «التفتيش المقدس».

أما هؤلاء الجواسيس فما كانوا يكشفون عن شخصياتهم قط.. بل أخفيت شخصياتهم ووعدوا بغفران خطاياهم.. وأحل لهم ارتكاب الجرائم مهما كان نوعها. وكان المتهم يسأل أمام المحكمة ليقرر ما يراه عن الكنيسة.. ورأيه صراحة في الدين المسيحي.. فإذا أبى الإذعان ألقي به إلى زبانية التعذيب.

وكانت أمثلة ما يحدث مع هؤلاء المعذبين رهيبة غاية في القسوة..

وسائل التعذيب

جيء بواحد من هؤلاء أمام المحكمة.. ولم يكد يصل حتى أمر رئيسها جنود التفتيش بوضع الحديد في أصابعه.. وعندما انتهوا طلب رئيس المحكمة أن يوقفوه.. وأجابه الجنود: إنه لا يقوى على الوقوف.. فقال القاضي: إذن.. ضعوه في التابوت فإنه يقف فيه.

وكان التابوت الذي وضعوه فيه عبارة عن صندوق مربع فيه مسامير من الداخل.. فاضطر المسكين أن يقف رغم ما به من إعياء وضعف.. ثم رفعوا الكمامة التي كانت على فمه ليتمكن من الإجابة على الأسئلة. وعندما تنفس الرجل الصعداء طويلا.. أمر رئيس المحكمة أن يسقوه قليلا من الخمر. فلما شرب قليلا منها تفتحت عيناه وحدث عنده شيء من الانتعاش. وفحصه الطبيب حتى علم أنه قادر على الوقوف والاستجواب.. فأبلغ ذلك إلى هيئة المحكمة..

ودار هذا الحوار بين رئيس المحكمة.. والضحية:

- ما اسمك؟

- أنا مسلم مغربي.

- كلا بل أذكر اسمك المسيحي الجديد.

- صموئيل فرناندس.

- إن صموئيل هذا إسم يهودي.

- لقد كان المسيح يهودياً أيضاً.

- قل صدقاً.. كم عمرك؟



- ثلاث وثلاثون سنة.. مثل عمر المسيح.

- إذن أنت مستعد للتضحية؟

- بإذن الله..

- أتقبل ذلك وأنت راض؟

- نعم.

- ما الذي تفكر فيه الآن؟ وما هو تأثير المحاكمة عليك؟

- تأثير داخلي.

- وماذا يقول لك الصوت الداخلي؟

- لا أدري. فإني الآن لا أدري ماذا أقول.

- قل ما فكرت فيه بصوت مسموع.

- لا أقدر على الكلام لأني متألم جداً من الضغط على صدري. والكلام لا يكون حسب الأمر بل حسب الاستطاعة.

- ستنظر ذلك جيداً جداً.. أيها الحراس.. أظن أن ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام.

وسرعان ما جذبه أحد رجال التعذيب. وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبللة بالماء. فاحمر جلد وجهه. وكاد يخرج منه الدم وجعل يتلوى من الألم. وعاد رئيس المحكمة يسأله:

- أين ولدت؟

- في طنجة.
- إسباني أنت؟
- كنت إسبانياً.
- ولماذا تقول كنت؟
- أقول هذا لأني لست بأسباني لكي أظل أسبانياً إلى الأبد.
- وأين أبوك وأمك؟
- ليس لي أب ولا أم.. فقد ماتا.
- وأين ماتا؟
- في سجون ديوان التفتيش.
- أحرقا؟
- بل تعذيباً حتى تهرأ جسداهما فماتا من شدة العذاب.
- هل لك إخوة؟ وأين يقيمون؟
- بل قل أولاً.. أين ماتوا وأين قبورهم؟
- يظهر أنك تريد أن ينفد صبرنا معك. فسنبدأ بتعذيبك.
- يسوءني هذا.
- إذن أنت لا تريد أن تدلنا على البقية الباقية من إخوتك ولا عن مكان إقامتهم. إن الديوان المقدس لا يخفي عليه أن لك إخوة على قيد الحياة وأنهم يصلون في مساجد خفية. ألا تعلم أين هم؟



- لا أعلم.
- عندما صدر الأمر بسجنهم هربوا، ألا تعلم إلى أين؟ تذكر.
- كيف يمكنني أن أتذكر وأنا مضطرب الفكر ضائع العقل؟
- يجب أن تساعدنا على معرفة مقرهم حتى يخلص نفوسهم
- كما ستفعلون معي الآن؟
- أنت تسكن مع امرأة. فمن تكون؟
- زوجتي.

– يجب عليك أن تسلمها إلى ديوان التفتيش.. نحن نأمرك.

– إذا كنتم تأمروني فأولى بكم أن تقتلوني. وهذا كل ما يمكن أن تفعلوه. وعندئذ سوف تصلي زوجتي من أجلي.

– سوف تساق إلى التعذيب الآن فأولى لك الإقرار.

– لا يعنيني العذاب فإن جسمي مخدر لا يشعر:

– إذا لم تجب على ما سألناك فسوف نسقيك الماء رغم أنفك.. يدفع إليك من حلقك حتى يقضي عليك.

– لقد احترقت قدماي أولا بناركم فلم أمت حتى الآن.

واقترب منه أحد المعذبين وهو يتصنع الرقة والعطف، وقال بصوت متكلف:

– أعلم يا بني أننا لا نرمي من وراء تعذيبك إلا إلى الإقرار عن بقية أهلك الذين تحبهم، وبذا تنجي نفسك ونفوسهم ونصعد بكم إلى السماء.

أجاب الرجل:

– إذا صعدنا نحن إلى السماء فمن يهوي بكم أنتم إلى الجحيم؟

وعندئذ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذبين الواقفين أمام آلات التعذيب. فهجموا عليه وأخذ البعض منهم يضع الحبال في يديه وصدره معاً ويلفها لفاً.. وراح آخرون يربطون رجليه بحبل دقيق، ثم وضعوه على مائدة خاصة وأعادوا ربطه عليها ربطاً وثيقاً. وتقدم أحدهم وهو يحمل جرة ملآى بالماء، وتقدم آخر وفي يده قمع وأدخله في فمه. وراح المعذب يصب الماء داخل القمع شيئاً فشيئاً.. والطبيب إلى جوارهما يراقب التعذيب ليرى إلى أي حد يمكن للمسكين أن يحتمل العذاب الذي يؤدي إلى قتله خنقاً. ولكن الرجل مع هذا لم يعترف قط.. وراح المعذبون يزيدون في سكب الماء ولكن دون جدوى.. وظل بطن الرجل ينتفخ.. وجحظت عيناه. ثم مات خنقاً بالماء.

* * *

تلك صورة من الصور التي كانت تجري في محاكم التفتيش..

على أن الصورة قد تبدو مكتملة عندما يتصور المرء آلات التعذيب التي كان يستخدمها رجال التعذيب في فرنسا.

وتلك صورة من صور آلات التعذيب كما صورتها كتب التاريخ..

آلات التعذيب

كانت قاعة التعذيب عبارة عن غرفة مظلمة جدرانها سوداء. ثبتت فيها مسامير ناتئة قد صدأت. يغلق عليها باب من الحديد السميك. وفي أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات في الأرض. وكانت تلك السلاسل لربط المذنبين حين تعذيبهم، وإلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص ودواليب، وسحابات ذات مسامير صدئة حادة لتمزيق الأجساد، وعضاضات حديدية لعض اللحم، ثم أكاليل حديدية ذات مسامير ناتئة من الداخل تطوق بها جبهة الضحية ثم يأخذ المعذب في تضييقها شيئاً فشيئاً بواسطة مفتاح يدور بلولب حتى تغرز المسامير في الرأس. ثم هناك كلاليب ذات رؤوس حادة لسحب أثداء النساء من الصدور، وآلات لسل اللسان من أصله، وأخرى لتكسير الأسنان، وأحذية حديدية تحمى لدرجة الاحمرار يلبسونها لمن ساء حظه ووقع في يد أولئك الوحوش، ثم أحذية أخرى حديدية ذات مسامير من الداخل يضعونها في رجل السجين ثم يأخذ الموكل بالتعذيب في تضييقها شيئاً فشيئاً.



وتوجد مشنقة معلقة في السقف لكي تشنق المعذب نصف شنق، فلا هو حي فيرجى ولا هو ميت فيوارى، ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة أيضاً في نواح مختلفة من السقف ليربط فيها السجين وبينها، فتتجاذبه وتمزق أعضاءه. وهناك تابوت.. هو عبارة عن خزانة حديدية يقف فيها المعذب وفي بابها ست من الحراب القصيرة المثبتة، فإذا ما أغلق ذلك الباب بقوة دخلت حربتان في عيني المعذب، فتنفذان من مؤخرة الجمجمة، وتدخل حربة في قلبه وأخرى في معدته وأخريان في بطنه.

وكان يوجد في وسط القاعة ما يسمى «بالجحش الخشبي». فكان السجين يربط إليه لإزهاق روحه بواسطة التضييق على رئتيه، فكانوا يطوقون صدره بآلة حديدية ثم يأخذون في تضييقها بواسطة لوالب حتى تنقطع أنفاس المعذب المسكين.

* * *

كل هذا كان بعض ما يستخدمه الفرنسيون والإسبان.. ضد الضحايا في محاكم التفتيش..

وبدا واضحاً أن محاكم التفتيش قد تحولت لتصبح طريقة جديدة لتحويل الناس إلى المسيحية، فإذا رفض الرجال أو النساء أو الأطفال التحول إلى المسيحية الكاثوليكية عذبوا حتى يموتوا.

وحتى المسيحيون الأوائل قبل قسطنطين، والذين كانوا يعذبون ويقتلون ويلقى بهم إلى الأسود في روما والذين يعرفون باسم الشهداء.. لم يعاملوا بمثل القسوة التي عومل بها غير المسيحيين في ظل محاكم التفتيش.

واستمر نظام محاكم التفتيش أكثر من مائتي عام، وقتل خلالها آلاف الناس بأبشع صور التعذيب وحشية، فكان الناس يحرقون أحياء على نار هادئة، أو توضع على أجسامهم أثقال هائلة حتى الموت، أو يمزقون إربا بأدوات وحشية رهيبة.

ولم تكن معاملة محاكم التفتيش القاسية قاصرة على اليهود والوثنيين فحسب، بل وجهت أيضاً إلى المسيحيين مهما كانت تقواهم، إذا هم جرءوا على أن ينطقوا كلمة واحدة ضد حكم البابا، أو جرءوا على الإيمان بشيء لم توافق عليه الكنيسة.

ووضع بعض المسيحيين الشجعان كتباً يهاجمون فيها قسوة محاكم التفتيش، واستبداد البابا.. ولكن هؤلاء الناس قبض عليهم وعذبوا حتى الموت في غرف تعذيب محاكم التفتيش.

ولكن صوت العدالة لم تختنق أو يخرس، فإن قوة الحق والاحتجاج على مقتل البشر، كانت أقوى من السيف الذي يقتل الناس.

ولكما زادت محاكم التفتيش قسوة زاد عدد المحتجين.. وعلى هذا الحال كانت أوروبا تعيش أيامها في نهاية القرن الخامس عشر، عندما ولد مارتن لوثر في ألمانيا.

* * *

مارتن لوثر

كان مارتن لوثر ولدا لهانز ومرجريت لوثر.. وهما فلاحان فقيران في إيزلبين بألمانيا. وبرغم أن الأبوين كانا فقيرين ولهما ستة أبناء، إلا أنهما علما مارتن تعليماً طيباً. وعندما شب مارتن اتجهت أطماعه إلى الالتحاق بكلية الحقوق.. ولم تكن لدى الأبوين الوسائل الكافية لتعليمه بالكلية. فحاول مارتن أن يجمع مصاريف دراسته في كلية الحقوق بالغناء في الشوارع. وكان كثيرون من الطلبة الألمان وقتئذ يعولون أنفسهم بهذه الطريقة. وكان الناس يعرفون أن هؤلاء الطلبة ليسوا متسولين، بل طلبة جائعون. وعند كل باب كانت تظهر سيدة وتنادي المغني تدعوه إلى البيت ليتناول وجبة طعام.

وكان مارتن على وشك إتمام دراسته القانونية عندما مات صديق عزيز عليه. وكانت هذه الوفاة المفاجئة ذات تأثير قوي جداً على لوثر الشاب فترك دراسته للقانون على الفور وأخذ يدرس الدين.

وبعد سنتين من إلتحاقه بأحد الأديرة.. عين قسيساً.

واستلفت مارتن لوثر نظر رؤسائه بالدير بسرعة ذكائه وثقافته. ولم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره حين عينوه أستاذاً للفلسفة بجامعة وتمبورج.

وأخذ مارتن يعلم الطلبة في الجامعة ويعظ الناس في الكنيسة. ومع ذلك وجد من وقته فراغاً لدراسة نظم الكنيسة المسيحية وتاريخها وقواعدها.

وبرغم إخلاص مارتن لعقيدته الكاثوليكية، إلا أن عدة أمور حول سلوك البابا وحكمه وتصرفات رجال الدين بدت للوثر على أنها خطأ كبير. واعترض بصفة خاصة على نظام التفتيش، واعتبره نظاماً شريراً بعيداً عن المسيحية، وراح يقول... «لا يستطيع أحد أن يأمر، ولا يجب أن يأمر، أو يكره أحداً بالقوة على اعتقاد معين».

ولم يستطع لوثر أن يفهم كيف أن البابا أو أي واحد من أتباعه، يكره رجلاً على اعتناق المسيحية كما يعلمونها، إذا لم يكن هذا الرجل مؤمن بها أولاً بقلبه..

وبعد عدة سنوات أرسل لوثر وراهب آخر إلى روما في بعثة دينية. وعندما رأى لوثر روما ركع على ركبته وقال: «بوركت يا روما المقدسة. بوركت من أجل دم الشهداء المراق هنا».

ولم يطل الوقت حتى تبين لوثر أن روما لم تكن المدينة المقدسة التي كان يرجوها.

وعلم أن شعب روما يعيش حياة مخجلة. وعندما يدعي رجل أنه مسيحي طيب كانوا يصفونه بالحمق.

وشعر لوثر بأكبر خيبة أمل عندما وصل إلى مقر البابا الذي كان يعيش في قصر محاطاً بالثراء ويخاطبه الناس على أنه ملك.. فيجثون أمامه ويقبلون قدميه ويلتمسون رضاه.. والبابا ظل الله في أرضه يبيع بركته بالثمن..



وعاد لوثر إلى وتمبورج تعساً.. إذ أقنعته التجربة التي مر بها في روما بأن حكومة البابا كلها خطأ، ولكنه لم يعرف كيف يمكن تغيير حكم البابا إلى حال أفضل، ولم يكن قد خطر ببال لوثر كيف يمكن للمسيحيين الطيبين أن يحيوا حياة طيبة بدون مساعدة البابا في روما.

وبعد عودة لوثر من روما بعدة سنوات مات البابا يوليوس الثاني، وتولى مكانه البابا ليو العاشر.

صكوك الغفران

كان البابا الجديد يريد أن يبز جميع الباباوات السابقين، فقرر أن يبني كنيسة لم تبن كنيسة مثلها من قبل.

ولكي يجمع المال اللازم لبناء الكنيسة العظيمة التي تسمى كنيسة بطرس، أرسل البابا ليو العاشر عملاءه لبيع صكوك الغفران في جميع أنحاء العالم المسيحي.

وكان لدى البابا وجميع رجال كهنوته قائمة كاملة بجميع الخطايا التي قد يرتكبها البشر وعقاب كل خطيئة.

وكانت هناك خطايا يستطيع الآثم فيها أن ينال الغفران عنها بالتوبة.. ولكن كانت هناك خطايا لا بد فيها للمذنب من أن تحل به اللعنة.

وفي أثناء الحروب الصليبية وعد المساهمون في تلك الحروب بغفران جميع خطاياهم إذا كانوا مستعدين لبذل أرواحهم في سبيل إيمانهم.. وبعد الحروب الصليبية حل البديل ألنقدي محل بدل الأرواح، فامتلأت خزائن البابا بالأموال، وكان دفع الأموال إلى البابا لغفران الخطايا يعرف باسم «شراء الغفران».

وكانت صكوك الغفران تباع أينا وجد مسيحيون، وكان أكبر الآثمين طبعاً هم أكبر وأحسن المشتري.

ولم يكتف رجال الدين ببيع صكوك الغفران، بل كانوا يكلفون التجار ببيعها ويعطونهم عنها عمولة قدرها الثلث، وكانت لهذه الصكوك أسعار كالأسهم والسندات في بورصة اليوم.

ورأى لوثر في هذا الإتجار في صفح الله خطأ. ولم يستطع أن يفهم كيف يمكن لإنسان أن يقتل إنساناً آخر، ثم يلجأ إلى شراء شك الغفران من عملاء وسماسرة البابا فيصبح بهذا بريئاً أمام الرب.

وعندما أرسل البابا ليو العاشر رجاله لبيع صكوك الغفران لجمع المال

لبناء كنيسة بطرس، كتب لوثر بعض الرسائل التي تتضمن احتجاجه إلى القسس في ألمانيا، يطلب إليهم فيها أن يحتجوا على تجارة صكوك الغفران. ولكن هؤلاء القسس خافوا التدخل في أعمال البابا، إذ كانوا يعرفون سلطان وقسوة محاكم التفتيش.

وفي ذلك الوقت وصل جوهان تنزل ممثل البابا في ألمانيا ليبدأ المزاد على صكوك الغفران.

★ ★ ★

لوثر يتحدى البابا

في ليلة ٣٠ أكتوبر ١٥١٧ حلم الأمير فريدريك أمير ساكسونيا أنه رأى راهبا يأتي إلى كنيسة ويكتب على بابها. وكانت الكلمات التي كتبها الراهب طويلة إلى حد أنه كان من الممكن رؤيتها على بعد ستة أميال. وكان القلم الذي كتبها به ضخماً إلى حد أنه يصل من ألمانيا إلى روما.

وبينما كان الراهب في حلم الأمير فردريك يحرك قلمه، لمس رأس البابا في روما، وكاد يلقي تاجه من فوق رأسه.

وكان حلم الأمير فردريك غريباً.

ولكن مارتن لوثر ظهر في اليوم التالي ٣١ أكتوبر ١٥١٧ بكنيسة القصر في ويتنبرج، وسمر على بابها الخشبي مخطوطاً طويلا باللغة اللاتينية.

ووقف الناس بالكنيسة ليقرأوا الإعلان الذي استنكر فيه لوثر صكوك الغفران. وسرعان ما انتشر النبأ في جميع أنحاء المدينة، وتجمع الناس حول الكنيسة.



وبدون أن يعلم لوثر ترجم تحديه من اللغة اللاتينية إلى اللغة الألمانية.. ثم ترجم من اللغة الألمانية إلى اللغات الأوروبية الأخرى.

ولم تمض أربعة أسابيع حتى عرف في جميع أنحاء المانيا وفي جميع أنحاء أوروبا.

ووصلت الأنباء إلى البابا، ولكنه لم يزد على أن قال:



مر نعش ابن أرملة نايـــين وهي تبكي.. ووقـــف يسوع ولمس النعش.. ورفع يده وهو يقول: أيها الشاب لك أقول قم..

ونهض الفتى الميت من النعش.. واحتضنته أمه.



جـــاء الفريسيون يتقدمهم يهوذا. وتقدم من يسوع وقبله على جبينه، ليدلهم عـلى أنه يسوع. وقال له السيد عاتباً يا يهوذا.. أبقبلة تسلم ابن الإنسان!؟



مارتن لوثر

هاجم صكوك الغفران وكشف فساد البابوية



زفنجلي

نظم كنائس البروتستانت مع صديقه مارتن لوثر.

«إنه ألماني مخمور هذا الذي كتبه، وعندما يفيق سيرى فيه رأياً آخر».

مخطوط لوثر

وكان المخطوط يحمل رأي مارتن لوثر في خمسة وتسعين بنداً منها:

● أن ربنا يسوع المسيح في قوله «توبوا» يطالب المؤمنين أن تكون توبتهم حقيقية وسيرتهم مقدسة طاهرة نقية طول حياتهم.

● إن هذه الكلمة لا يمكن أن تشير إلى التوبة أو الاعتراف على يد الكاهن أو الاكتفاء بوفاء فريضة أو قانون يسنه الكاهن.

● إن البابا لا يريد- ولو أراد لا يستطيع- أن ينقذ الإنسان من عقوبة قانون إلا الذي سنه هو بمحض إرادته.

● إن البابا لا يستطيع أن يرفع عن الإنسان قصاص الخطيئة. وإنما فقط يعلن أن خطاياه مغفورة من الله.

● إن الآراء المغلوطة الخاصة بإمكان الكفارة في المطهر، هي بدعة قد نبتت في حقل الكنيسة في غفلة من رجال الدين.

● كل رسل البابا وأتباعه الذين يبيعون صكوك الغفران، يخطئون في قولهم أن العفو البابوي يمكن أن يحرر الإنسان من الخطيئة ويؤكد خلاصه.

● ينخدع غالبية الناس بهذه الوعود الجوفاء التي يستحيل على البابا الوفاء بها.

● القول بأنه في اللحظة التي ترن فيها الدراهم في صندوق الجمع تخرج النفس من المطهر، قول ليس فيه ذرة من الحق.

● أولئك الذين يعتقدون بخلاصهم من العذاب في الجحيم لحصولهم على الوعود البابوية، سيقضون أبدية تعيسة في جهنم برفقة الذين علموهم هذه الأمور.

● يجب أن يحذر الناس من التعاليم المضللة القائلة بأن هذه الغفرانات

هي هدايا ثمينة من عند البابا بها يقبل الإنسان عند الله.

● كل مسيحي يترك خطاياه ويتوب عنها توبة قلبية صادقة، تغفر له خطاياه ويكتب اسمه في سفر الحياة، ولا حاجة إلى خطابات توصية من البابا.

● كل مسيحي حقيقي حياً كان أو ميتاً، يشترك في كل بركات يسوع التي أعدها للمؤمنين بإسمه، بلا حاجة إلى صكوك الغفران.

● مع ذلك يجب ألا نحتقر الغفران البابوي لأن هذا إعلان لغفران الله.

التائب الحقيقي يحب القصاص ويبحث عنه ولا يتراخى لحظة في قبوله.

● يجب أن يعلم المسيحيون أن البابا لو عرف خداع الداعين لشراء الغفران وغشهم واختلاسهم، لفضّل أن تكون كنيسة ماربطرس التي سيبنيها في روما رماداً من أن يراها تبنى من دماء الرعية.

● لا ننكر نعمة الله التي منحت الكنيسة قوة الربط والإحلال من الخطيئة على اعتبار أن ذلك مجرد إعلان لحكم الله.

● من يتكلم ضد غفران البابا على اعتبار أنه إعلان لغفران الله فليكن ملعوناً، أما من يتكلم ضد دعاة شراء الغفران وصكوكه، أولئك الدعاة الحمقى، فليكن مباركاً.

★ ★ ★



على أن لوثر لم يكتف بكل هذا الذي فعله... بل لقد حطم لوثر تلك الأسوار الواهية التي ظلت أكثر من أربعمائة سنة تحيط المذهب البابأوي ببياض القبور الناصع، وهي من الداخل مليئة بالعظام النخرة. وراح لوثر يعدد المهازل والفضائح التي ارتكبتها روما في حق الشعب الألماني منذ أجيال عديدة. وتقدم بمشروع للإصلاح يحتوي على سبعة وعشرين بنداً أهمها ستة بنود محددة:

•يجب على الشعب الألماني أن يرفض دفع الضريبة السنوية للبابا لأنه بدلا من أن يصرفها في أعمال البر والإحسان يستعملها لإشباع شهواته الدنيئة.

• لا مانع من أن تكون الأمور الروحية الدينية من اختصاص البابا. ولكن على البابا ألا يتدخل في الأمور الزمنية التي هي من اختصاص السلطات الدنيوية.

• يجب أن يمتنع الباباوات عن الإنغماس في المتع والملذات، وأن يقللوا من مظاهر الأُبَّهَة والعظمة. فمن التناقض العجيب أن يدعي البابا أنه راعي كنيسة المسيح على الأرض، وخليفة القديس بطرس، بينما يحيا حياة العزة والأبهة غير متمثل بالمسيح الذي ولد وعاش ومات فقيراً.

• ليس للبابا سلطان على الإمبراطور إلا مسحه وتتويجه أمام المذبح، فلا يجب أن نستسلم لكبرياء البابا وخبثه وأوامره التي تقضي بأن يقبل الإمبراطور قدمى البابا أو يمسك بلجام بغلته إذا ركبها أو يقسم له يمين الولاء والطاعة وغير ذلك من الحقوق التي يدعيها الباباوات بلا خجل أو حياء.

• الناس يجترئون على الله بتقبيلهم قدمى البابا. وإذا كان المسيح يغسل أرجل تلاميذه ويمسحها بمنشفة لكي يؤكد لهم أنه جاء ليخدم لا ليخدم، فكيف يتجاسر البابا أن يأمر الناس بتقبيل رجليه مع أن بين من يقبلون قدميه من هم أكثر نقاوة وطهارة من البابا نفسه.

• تحريم قانون الكنيسة الرومانية الزواج على الكهنة خطأ، لأنه جعل الكثير من الكهنة يندفعون اندفاعاً مخيفاً إلى الفسق والفجور.

★ ★ ★

كل هذه الإعتراضات أعلنها مارتن لوثر.. فاهتز عرش البابا وية.. وهبط بيع صكوك الغفران.

ولكن بيع الصكوك الذي هبط بسرعة كان مثيراً أكثر من سواه لغضب البابا.

وعندئذ أصدر البابا الغاضب أمراً بطرد لوثر من سلك رجال الدين، وتحريم قراءة ما كتبه أو التعامل معه. وأرسلت نسخة من هذا الأمر إلى لوثر.

وعندما وصل الأمر إلى لوثر أحرقه علناً.

وكان هذا هو الحد الفاصل بين لوثر وكنيسة روما..

وكان للوثر عدد كبير من المعجبين والأتباع الذين وافقوه على إنقاده سلطان البابا وشجعوه على المضي في هجومه.

ولم يخيب لوثر أملهم فيه.. وأخذ يلقي المحاضرات ويؤلف العديد من الكتب عن موضوع سلطان البابا..



وفي أحد هذه الكتب يقول:

«أصبحت كنيسة روما التي كانت من قبل أقدس الكنائس، أشد مباءات اللصوص خروجاً على القانون، ومملكة الخطيئة والموت والجحيم».

وكان مارتن لوثر عاملاً مجداً لا يتعب ولا يمل. وقد كتب أكثر من ٤٠٠ كتاب وكتيب، وترجم الإنجيل إلى الألمانية.. ومع ذلك وجد وقتاً يعظ فيه الناس وينظم الكنائس التي انفصلت عن كنيسة روما..

وقبل أن يموت لوثر كانت تعاليمه المسماة «اللوثرية» قد انتشرت في جميع أنحاء ألمانيا والنرويج والسويد والدانمرك.

وأصبحت الكنائس التي نظمها تعرف بإسم الكنائس البروتستانتية..

وهكذا تحقق حلم الأمير فردريك..

* * *

عصر النهضة

لم يكن مارتن لوثر أول من كتب تاريخاً جديداً للكنيسة في عهد الإصلاح الديني.

وقبل انفصال لوثر عن البابا حدثت عدة ظروف دعت إلى ضرورة إجراء تغيير في تاريخ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، بما في ذلك الرجال الذين أبدوا الحاجة إلى التغيير.

ويتميز القرنان الرابع عشر والخامس عشر بيقظة كبرى عن العصور التي تعرف باسم العصور المظلمة.

وتسمى هذه اليقظة باسم النهضة.

وفي خلال هذين القرنين أنشئت جامعات هايدلبرج وكولوني وبراج وفيناوارفورت. ومن هذه الجامعات انتشرت المعرفة الجديدة.

وفي أثناء العصور المظلمة حظر الباباوات تعليم اللغتين اليونانية والعبرية، ودراسة الفلسفة الإغريقية ودراسة الميثولوجيا الكلاسيكية. أما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر فقد أعيد إحياء هذه الدراسات في الجامعات الكبرى، وبعثت تعاليم وآداب التاريخ الماضي.

وأسفرت دراسات اللغة اليونانية وتاريخ الإغريق عن اهتمام جديد بالفن. وشجع ذلك على نمو فن عظيم في أوروبا. وفي هذا الوقت سجل ليوناردو دافنشي رسومه التي لا تزال كنوزاً حتى اليوم. وسجل رافائيل رسومه المشهورة هو ومايكل انجلو الذي ترك للعالم تراثاً رائعاً في الصخر للنحوت.

وبينما هدرت المعرفة الجديدة كالرعد وأكب أساتذة الفرشاة والأزميل على العمل.. انتشرت الأنباء من بلد إلى آخر أن دياز وفاسكودا جاما

وكولمبس قد اكتشفوا سواحل عالم جديد وطريقاً مائياً إلى الهند.

ولم تكن أنباء الاكتشافات الرائعة للطريق الجديد إلى الهند، والقارة المجهولة، قد انتشرت كاملة عندما ظهر الطبيب البولندي العظيم العالم جان كوبرنيكوس، ببعض آلات صغيرة تحت ذراعه، وكتاب صغير كان قد كتبه ليثبت اكتشافاته في السماوات.

وكان الناس حتى ذلك الوقت يؤمنون بأن الأرض هي مركز الكون، وأن الشمس والقمر والنجوم تدور حول الأرض لتكون في خدمتها.

وأثبت كوبرنيكوس أن هذا الذي قيل ليس حقيقة. وأثبت أن الأرض والقمر والنجوم تدور حول الشمس وأن الشمس هي مركز الكون.

وهكذا انكمشت الأرض من مركز الأهمية الأولى في الكون، إلى بقعة لا قيمة لها في الفضاء، ضمن عدد كبير آخر يدور حول الشمس.



واستطاعت نظرية كوبرنيكوس المذهلة عن الكون أن تجعل الناس يفغرون أفواههم دهشة.. ويفكرون.

في انجلترا وفرنسا وفي إيطاليا وألمانيا وفي جميع أنحاء العالم المتحضر، أشرق فجر النهضة وأثار تفكير الناس وجعلهم يتحركون.

وجند الشعراء والكتاب الكبار في تلك الأيام أنفسهم في جيش المعرفة الجديدة.

وفي بداية القرن الرابع عشر نشر «دانتي» ملحمته الطويلة «الكوميديا الإلٓهية» وفيها يصف الشاعر رحلة خيالية عبر المطهر والجحيم والجنة. ولم يكن الدليل الذي قاد دانتي عبر النار والجنة ملكاً ولا حوارياً ولا فريسياً، بل فرجيل الشاعر العظيم الوثني.

وقد لا يبدو لنا هذا العمل الآن هرطقة أما في تلك الأيام فقد كان إظهار دانتي هذا الاحترام لشاعر روماني جريمة يستحق عليها بعض الناس الحرق على الصليب.

وبعد دانتي بدأ الكتاب العظماء الآخرون الثناء على فلسفة الإغريق وأساطيرهم وأدبهم العظيم.

وإذ دبت الحياة في كل هذه الآراء، حدث تغيير في المعتقدات الدينية، واضمحلال في نفوذ البابا.. وهو أمر لم يكن منه مفر.

وفي كل مكان من أوروبا ظهر مصلحون آخرون مثل والدو وجون وايكليف ورفنجلي وجون كالڤن.

* * *

كنيسة انجلترا

توجد في المتحف البريطاني وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ٣١٤ وقعها ثلاثة أساقفة بريطانيون، تقرر أن المسيحية وصلت إلى انجلترا قادمة من اسكوتلاندا وإيرلندا اللتين سبقتاها إليها.. ولكن بابا روما لم يرسل أوغسطين لتنصير الساكسونيين إلا في عام ٥٩٧، حيث أنشاء الفرع الانجليزي لكنيسة روما الكاثوليكية.. ذلك الذي سمى كنيسة انجلترا.

وبعد بضع مئات من السنين، رغب حكام انجلترا في الانفصال عن بابا روما. ولم يكن لديهم ما يحفظونه ضد عقيدة البابا كشأن زعماء الإصلاح الديني، كان هدفهم هو السلطان السياسي. وهكذا قرر رؤوساء كنيسة إنجلترا في عام ١٥٣٤ أن بابا روما ليست له سلطة في انجلترا تفوق سلطة أي حاكم أجنبي. ومنذ ذلك الوقت وكنيسة انجلترا منفصلة عن الكنيسة الكاثوليكية في روما، وأصبحت كنيسة انجلترا تعرف بالكنيسة البروتستانتية الأسقفية.

وإذا كانت كنيسة انجلترا قد انفصلت عن سلطان البابا، إلا أن معتقداتها وطقوسها وكهنوتها ظلت شبيهة بتلك الخاصة بكنيسة روما الكاثوليكية.

ولكن الطوائف البروتستانتية التي حاولت الانفصال عن الكثلكة وتعاليمها في انجلترا وفي غيرها من بلاد العالم، ظلت تنمو باطراد وكل منها تختلف عن الأخريات في بعض المعتقدات والطقوس.

وكان أتباع إحدى هذه الطوائف المهمة يعرفون باسم « المتكرين لوجود تعميد الأطفال ».

ولقد ظهر هؤلاء عقب انتشار تعاليم بيتر والدو وأتباعه. وفي الوقت الذي بدأ فيه لوثر وزفنجلي تنظيم كنائس البروتستانت، كان هؤلاء المنكرون لوجوب تعميد الأطفال قد تكاثر عذدهم. ومع ذلك فلعدة أسباب لم يجد لوثر وزفنجلي فيهم أصدقاء لهم وخاصة لأن ما يؤمنون به كان يخالف رأي لوثر وزفنجلي.

فبين عام ١٥١٧ عندما تحدى لوثر صكوك الغفران، وعام ١٥٣٠ عندما كثر أتباع لوثر وزفنجلي، أعدم أكثر من ٢٠٠٠ من أتباع الرأي المنكر لوجوب تعميد الأطفال. كانت الطرق التي يتبعها المصلحون الدينيون في قتلهم من الشناعة بحيث تذكر المرء بمحاكم التفتيش.



وقد طاردهم الكاثوليك والبروتستانت على السواء من مكان إلى آخر وقتلوهم أو سجنوهم أينما وجدوهم. ومع ذلك فقد تكاثر عددهم وانتشرت تعاليمهم في سويسرا وألمانيا والنمسا وهولندا.

وكان هؤلاء طلائع عدد من طوائف البروتستانت الهامة ومن وبينها المعمديون والمحفليون.. والأصدقاء.

وجماعة الأصدقاء ظهرت في انجلترا قبيل نهاية القرن السابع عشر. وكانوا يخالفون بعض الطوائف المسيحية الأخرى في أنه ليست لهم مجموعة معينة من الاعتقادات الخاصة بأعضاء هذه الطائفة.

كما أنه ليس لهم رجال دين أو كنائس.

وكانوا يؤمنون بأن الدين الصحيح الذين يسمونه النور الباطن، هو في داخل المرء. وأنه حيثما يجتمع المؤمنون الحقيقيون كان مكان الاجتماع أرضاً مقدسة. وكانوا يجتمعون في بيوت خاصة وفي الحظائر وفي الهواء الطلق وفي الأسواق.

وكانت اجتماعاتهم تشبه اجتماعات الأصدقاء.

وكانوا في الواقع يسمون أنفسهم جميعية الأصدقاء.

وقد اضطهدوا في انجلترا. وهاجر الكثيرون منهم إلى أمريكا. ولكن معاملتهم في أمريكا لم تكن أحسن حالاً من معاملتهم في انجلترا. حتى اتخذ آخر أتباع هذه الطائفة مستعمرة لهم في بنسلڤانيا ونيوجرسي.

وقد تأثرت هذه الطائفة بتعاليم الطوائف الأخرى التي سبقتهم، كما أنهم بدورهم أثروا في الطوائف التي جاءت بعدهم.

واستمر تعدد طوائف البروتستانت.

ويختلف بعض هذه الطوائف عن البعض الآخر إلى حد أنهم لا يكادون يبدون فروعاً لدين واحد. ويتشابه البعض الآخر إلى حد يدعو إلى التساؤل لماذا لا يتحدون في طائفة واحدة وكنيسة واحدة. ولبعض هذه الطوائف مؤسسون منهم يسمونهم القديسين والأنبياء. ولبعضها كتب مقدسة خاصة بهم إلى جانب الإنجيل. ولبعضها طرق عبادة لا يشاركهم فيها آخرون.

واستمر انقسام الطوائف البروتستانتية حتى اليوم إذ أصبح هناك ٢٠٠ طائفة مختلفة. ولا تزال هناك طوائف جديدة في سبيل الظهور.

* * *

الطوائف الأمريكية

أما في أمريكا.. فقد وجدت كل مذاهب المسيحية لها مكاناً.. ففيها الأرثوذكس اليونان والروم الكاثوليك وكذلك أتباع المائتي طائفة

البروتستانتية. وبالإضافة إلى طوائف الكنيسة التي تطوف في أوروبا، والتي انتقلت إلى أمريكا، توجد طوائف أخرى نشأت على أرض أمريكا نفسها.

وأبرز الطوائف الأمريكية:

المورمونية، وكريستيان ساينس.

وقد أنشئت المورمونية منذ قرن من الزمان.. أنشأها جوزيف سميث بولاية نيويورك.. وادعى أنه وجد كتاباً مكتوباً على أوراق من الذهب كشفها له ملك من السماء اسمه موروني. ونظم جوزيف سميث مع بعض الأصدقاء كنيسة جديدة أسموها «كنيسة يسوع للقديسين الآخرين».

وهناك قرابة نصف مليون مورموني في العالم الآن. ويقيم أغلبهم داخل مدينة «سولت ليك سيتي». ومع ذلك فهم مؤمنون ويدعون في العالم كله أن الكنيسة الحقيقية القائمة في العالم كنيستهم.

وأحدث من هذه الكنيسة ظهوراً، تلك الطائفة المعروفة باسم كريستيان ساينس- التي أنشئت منذ خمسين عاماً فحسب، ومؤسستها هي مسز ماري بتلر أيدي.

ولقد وضعت مسز ايدي كتاباً اسمه «العلم والصحة» كدليل إلى الإنجيل.. وحاولت فيه أن تفسر كيف يمكن شفاء المريض بالإيمان.

ونظمت كنيسة خاصة بها. كما فعل جوزيف سميث وآخرون غيره، وأسمتها الكنيسة الأولى للمسيح في العالم.

وسرعان ما وجدت مسز ايدي عدة أتباع في أمريكا وفي غيرها من البلاد.

ويدعي أتباع هذه الكنيسة ما يدعيه أتباع الكنائس الأخرى التي ظهرت حديثاً من أنها الكنيسة المسيحية الحقيقية الوحيدة.

على أنه مهما اختلفت طوائف البروتستانت فإنها تتفق على أن الإنسان يمكن أن يكون مسيحياً صالحاً دون أن يدين بالولاء للبابا ، وأن كنيسة روما الكاثولبكية ليست وحدها الكنيسة المسيحية الحقيقية في العالم.

ومع ذلك .. ففي أوائل عام ١٩٦٠ بلغ عدد الكاثوليك في العالم ٣٥٣ مليوناً والأرثوذكس ١٣٧ مليوناً والبروتستانت ١٧٠ مليوناً .. ويقدر هذا العدد الذي بلغه المسيحيون بحوالي ربع سكان العالم.

الإسلام

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ
ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ
وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ سُورَةُ الحُجُرَاتِ

« قرآن الكريم »

كلكم لآدم..

وآدم من تراب

مولد اسماعيل

كان العقم شيئاً كريهاً في حياة إبراهيم بن آذر وزوجته سارة. وما كان أشق على إبراهيم ألا يكون له نسل وهو يقترب من التسعين، وما كان أشق على سارة ألا يكون لها قدرة على الإنجاب وقد شاخت، ولم يعد يرجى لها أن تكون أماً. ولم يكن أمام سارة لترضى زوجها إلا أن تشير عليه بالدخول بجاريتها هاجر علها تنجب له ولداً يسرى عنهما ما يجدان من لوعة الوحدة ومرارة الوحشة، ورضي إبراهيم بمن وهبتها له زوجته، فأنجبت له غلاما سماه إسماعيل.

غير أن الفرحة التي ملأت قلب إبراهيم بولده، لم تجد لها صدى كبيراً في قلب سارة، التي دبت إليها الغيرة والحسد من أن يكون لزوجها من جاريتها ولد وهي ليست بذات ولد. فلم يمض وقت طويل حتى أصبح إسماعيل قذى في عين سارة، لا تطيق النظر إليه، ولا تحتمل رؤية أمه هاجر.

وفوجئ ابراهيم بسارة ذات يوم تطلب منه أن يقصي الولد وأمه عنها. ولم يجد إبراهيم إلا أن يذعن لإرادة زوجته ذات الحظوة لديه. وبدا له أن الله أوحى إليه أن يطيع أمرها ويستجيب لرجائها. فنهض في الصباح التالي ليركب دابته، واصطحب معه الغلام وأمه، وسار بهما يقطع الصحراء مبتعداً عن مكان سارة، وطال به السير حتى وقف في مكان كان هو الذي

صار مكة فيما بعد، فأنزل هاجر وطفلها في تلك الصحراء البلقع. وتركها هناك وليس معهما سوى مزود به قليل من الطعام، وسقاء فيه شيء من الماء ثم مضى عائداً إلى زوجته.

امتثلت هاجر للقضاء وجلست في ذلك المكان تأكل من الزاد وتشرب من الماء. غير أن الطعام والماء كان لابد لهما أن ينفدا، فحوى بطنها وجف ضرعها، ولم تعد تستطيع أن تجد ما ترضع به الرضيع الذي راح يصرخ، وقد ثقلت عليه وطأة الجوع والعطش. ونهضت الأم كمجنونة تبحث عن ماء، وراحت تجري فزعة مذعورة بين جبلي الصفا والمروة القريبين منها. غير أن سعيها الكثير الذي بلغ سبع مرات بين الجبلين لم يتح لها أن تجد شربة ماء لها ولولدها. وعادت إلى الرضيع وجلست على حجر تبكي وتنوح، وفجأة، والولد يضرب الأرض بقدميه في غضب شديد لطول ما ألم به، إذ بالماء ينبع تحت قدميه من بين رحل الصحراء.. وكانت هذه هي عين زمزم التي يؤمها الحجيج ويستبقون إلى حوضها حتى الآن.

الضحية

استردت هاجر وإسماعيل حياتيهما من نبع الماء.. وكان ذلك النبع سبيلا يجتذب إليه الطير الذي لم يكد يكثر تحويمه حول المكان، حتى جذب أقواماً فوجئوا بالماء في ذلك المكان البلقع، فاتخذوه موطناً لهم مع هاجر التي اطمأنت إلى جوارهم وعاشت بينهم مع ولدها إسماعيل.

ولم ينس إبراهيم ولده.. فقد كان يأتي بين الحين والحين يزوره ويطمئن عليه، حتى إذا شب وأصبح الولد ابن الثالثة عشرة، رأى ابراهيم في نومه أنه يؤمر بذبح ولده الوحيد.

كان إبراهيم مؤمناً بربه لا يعصى له أمراً، ولم يجد- برغم حزنه وألمه- إلا أن يمتثل للأمر ويسارع إلى الطاعة. فارتحل إلى حيث لقى ولده وأخبره بما أُمر به.

قال إبراهيم: يا بني.. إني أرى في المنام أني أذبحك.. فانظر ماذا ترى؟
أجاب إسماعيل: يا أبتِ.. أفعل ما تؤمر.. ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

ومضى إبراهيم بولده لينفذ فيه أمر الله. واستسلم الولد لأبيه وهو يشد وثاقه ويحكم رباطه حتى لا يضطرب.. ووضع الأب السكين على عنق ولده وأمرها.. غير أنها لم تقطع. فجربها على قفاه فما استطاعت أن تقطع شيئاً.. وأدركت إبراهيم الحيرة فتوجه إلى الله أن يجعل له مخرجاً.. فاستجاب الله لدعائه وناداه «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين».

وفوجىء إبراهيم بكبش بجانبه، فأدرك أن الله فدى به ولده، فأقبل على الكبش وهوى بالسكين عليه فصرعه وخضب الأرض بدمه.. وكانت تلك هي الضحية التي تم بها فداء إسماعيل.

وشب الصبي في ذلك المكان واختلط بالقوم الذين نزلوا حيث نزل مع أمه، وهم قوم من جرهم، فتعلم لغتهم وأخذ العربية عنهم وتزوج منهم.

بناء الكعبة

ومضت السنون وإبراهيم لا يأتي لزيارة ولده بمكة إلا لماماً. حتى جاء يوم أمر فيه إبراهيم ببناء الكعبة وإقامة أول بيت للناس يعبدون فيه الله في ذلك المكان.

ورحل إبراهيم ليلتقي بولده إسماعيل قرب زمزم. وهناك كشف له سر ما أُمر به، فقال لولده وهو يشير إلى مرتفع قريب «يا بني إن الله قد أمرني أن أبني هنا بيتاً».

واستجاب الولد ونهض لعون أبيه.. وراحا معاً يقيمان البناء ويحفران بالمعاول ويرفعان قواعد البيت.. وعندما بدأ البناء يكتمل وضع إبراهيم في الزاوية الشرقية منه الحجر الأسود الذي كان قد ورثه من آبائه الأولين،

والذي كان آدم أول البشر على الأرض قد جاء به من جنة عدن.

وعاش إسماعيل وذريته في ذلك المكان، وكبرت أسرته وازداد أبناؤه.. ومع كثرة عددهم راحوا جميعاً يبنون حول الكعبة المقدسة مدينتهم التي سموها مكة.

وتكاثرت ذرية إسماعيل وأخذت تنتشر شرقاً حتى الخليج الفارسي وشمالاً نحو البحر الأبيض المتوسط وجنوباً حتى خليج عدن. ولكنهم مهما ابتعدوا في رحيلهم وأينما استقروا.. فقد ظلت مكة عندهم هي المدينة المقدسة، وظلت الكعبة هي محرابهم الذي يتوجهون إليه وهم يتذكرون الله.. وظل الحجيج من نسل إسماعيل يأتون إلى مكة مدينة الله يحجون إليها ليتعبدوا في الكعبة، ويقبلوا الحجر الأسود الذي توارثوه من آدم، وليشربوا من ماء بئر زمزم الطاهر.

وأصبح أبناء إسماعيل وأحفاده ومن جاء من نسلهم جنساً اسمه العرب.

وأصبح أبناء إسحاق الذي أنجبه إبراهيم بعد ذلك من زوجته سارة جنساً آخرهم اليهود.. ومن نسلهم كان المسيحيون.

* * *

عقيدة العرب

كان العرب كالأمم القديمة من عبدة الطبيعة. عبدوا الشمس والنجوم وأرواح الشمس والنجوم، كما عبدوا ذكرى آبائهم إبراهيم وإسماعيل. وبنوا الأصنام في مكة بالقرب من الكعبة وعبدوها.

وكان لهم ثلاثمائة وستون صنماً يعبدون واحداً منها في كل يوم من أيام السنة. وقيل أن قريشاً وضعت هذه الأصنام حول الكعبة لتنتفع من قدوم القبائل العربية كلها في موسم الحج، فإذا وجدوا معبوداتهم حولها أولوها احترامهم وتقديسهم. وكان أهم هذه الأصنام هبل.. وهو صنم على صورة إنسان محفور من العقيق الأحمر اليماني، وكان مكسور اليد اليمنى ثم صنعت

له قريش يداً من الذهب الخالص. أما مناة فهي إلّهة القضاء ولا سيما قضاء الموت، وأما اللات فهي صخرة مربعة أقيم عليها بناء.. والعزي تمثل في شجيرات بواد بين مكة والعراق.



وكان العرب يعبدون الله- رب إبراهيم وإسماعيل- فوق عبادهم آلهة الطبيعة والأرواح والأصنام.. ولكن إلى جانب عبادتهم لله الذي كانوا يعتبرونه هو الإله الأكبر.. فقد أولوا النجوم والأصنام انتباهاً كبيراً. وكان لكل قبيلة صنمها واعتقاداتها الخاصة بها.. وغالباً ما كانت القبائل تتقاتل بقسوة ويسخر بعضها من معتقدات البعض الآخر.. ومع ذلك فقد كانوا جميعاً يشعرون أنهم ترابطوا بصلة النسب القديم.

ومع ذلك فقد استمرت عبادة الأصنام وتقديسها تأخذ مكاناً بارزاً في نفوس أهل شبه الجزيرة.. وكان عدد الأصنام يتزايد بشكل مستمر مع ما كان ينتشر بين الحين والآخر من أحاديث العرب الرحل عن اكتشاف تل أو كومة من حجارة أو خميلة أشجار لها قدرة على شفاء المرض أو جلب الحظ السعيد.. فقد كان مثل هذا الاكتشاف يزيد عدد الأصنام بقدر عدد الاكتشافات المقدسة.

هكذا ظلت بلاد العرب غارقة في حروبها القبلية وخلافاتها حول مختلف معتقداتها الدينية التي اكتظت بها وكتبت بمختلف صورها على حجارة مقدسة أو تلال أو نخيل. ولم يستطع جيرانها أن يؤثروا فيها كثيراً، إذ كان موقعها الجغرافي حائلاً دون أن تتعرض في يوم من الأيام لاضطهاد الدول الكبرى التي نشأت في الشرق أو في الغرب.. فلم يتجه طموح بابل أو آشور أو الإغريق أو الرومان إلى بلاد العرب قط.. سوى فترات ضئيلة مثلما حدث عندما أرسل هرقل الرومي إلى مكة من يحكمها، أو مثلما حدث عندما زحف أبرهة الحبشي إلى مكة ليهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها.. أو مثلما حدث عندما طغى الفرس على شرق البلاد أو على جنوبها.

على أن عجز هذه الدول كلها عن السيطرة على بلاد العرب، لم يمنع من أن تتأثر عقيدة العرب بالأديان التي كانت مقدسات أهل تلك الدول المحيطة بشبه الجزيرة. فأديان فلسطين عرفت طريقها إلى بلاد العرب.. إلا أن كل دين استقر هناك بوسيلة تخالف صاحبه. فأما اليهود فقد نفذت عقيدتهم إلى شبه الجزيرة مع هجرة بني إسرائيل وطلبهم للمرعى وبحثهم عن القوت. واستطاعت هذه الهجرات التي تمت قبل ميلاد المسيح بقرون أن تستقر في المنطقة بين يثرب ومكة لتتسرب منها بعد ذلك إلى اليمن. واستطاع هؤلاء اليهود أن ينشروا تعاليم التوراة من بعث وثواب وعقاب حيث نزلوا، مما كان له أثره في الوثنية الحجازية حتى أصبح أهل يثرب أسرع العرب إلى قبول الإسلام. وأما المسيحية فقد سارت في جزيرة العرب على أيدي دعاة ورهبان جدوا في نشر تعاليمها وتلقينها للعرب.. ولكن برغم جهود أباطرة البيزنطيين، إلا أنها لم تجذب إليها أنصاراً كثيرين، وإن لم يمنع ذلك من أن تنتشر المسيحية شيئاً ما من الجنوب عن طريق الحبشة والشمال عن طريق سوريا وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالصوامع والأديرة.

على أن اليهودية والمسيحية وإن كانت لم تنتشر بشكل كبير عند العرب، إلا أنها استطاعت أن تؤثر في عقيدة القوم الذين اختلطوا باليهود والمسيحيين عن طريق التجارة. وظهر بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقاد أرقى منها، ووجد بينهم من دعوا إلى دين توحيد جديد له بعض العلاقة بالمسيحية فدعو إلى نبذ عبادة الأوثان، والتخلص من العادات الجاهلية، كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر، واعتقدوا في البعث ووجود إله واحد يحاسب ويجازي الناس على أعمالهم من خير وشر.. هؤلاء هم الحنيفيون أتباع دين إبراهيم.



كل ذلك حدث إلى جانب أشياء أخرى كثيرة استطاعت أن تهز عقيدة العرب في مقدساتهم..

فقد كان العرب في كل مكان يعتقدون اعتقاداً حازماً بقدسية مكة حيث الكعبة وبئر زمزم. وكان العرب في حجهم إلى الكعبة المقدسة يحملون معم البخور والتوابل والعطور لبيعها أو للمقايضة بها في أسواق مكة. وكان طبيعياً أن يستفيد تجار مكة الأغنياء من وصول سيول الحجاج الذين يشترون منهم كل ما يحملون من المنتجات. وراح التجار يشجعون الحجاج على الإكثار من الحضور إلى ذلك المكان حيث الرحلة وحدها تجلب لهم الحظ السعيد. ثم شجع زيادة عدد الحجيج بعض تجار مكة وهم من قريش على أن يدعوا أن بئر زمزم ملكهم الخاص وراحوا يبيعون ماءه للحجيج..

وعندما حدث هذا بدأ العرب يشكون فيما إذا كان هذا الماء مقدساً حقاً.. فلو كان ذلك صحيحاً. فكيف يباع بيع السلع..!؟

وقال بعض الحجيج.. إذا لم تكن هناك قدسية في ماء زمزم، فأية قدسية هناك في تلك الأصنام والتماثيل؟!

وخطر ببال الكثيرين ألا قدسية هناك.. ولكنهم التزموا الصمت.. ثم أخذوا بالتدريج يفقدون الإيمان في قوة ماء زمزم وقدسية الكعبة وألوهية الأصنام.

وبعد أن تحطم إيمانهم بالأشياء المقدسة اتجهوا إلى الخمر والعرافة وادعاء معرفة المستقبل وكشف حجب الغيب.

وعندما انتشرت العرافة وحاول العرب معرفة أسرار أشياء كثيرة، لجأوا إلى حساب النجوم وتشريح الطيور والفران واستكشاف الطوالع..

وأدى كل ذلك إلى المقامرة..

وأدت المقامرة إلى عدة شرور أخرى.. من بينها الترف والطمع والإغراق في الخمر والقمار والمتعة وتسخير الأقوياء للضعفاء..

ولم يعد هناك أمل في استقرار بعد..

شيء واحد فقط كان يمكن أن يعيد إليهم الطمأنينة والراحة.. ويبعد عنهم الشكوك.. هو ظهور عقيدة جديدة تهديهم وتمهد لهم الطريق.

* * *

مولد محمد

وكان هذا هو الذي حدث بالفعل.

فذات يوم من عام ٥٧٠ بينما عبد المطلب بن هاشم جالس في جوف الجعبة وحوله بنوه وكبار قومه.. إذ دخل من ينبئ الشريف القرشي أن آمنة بنت وهب، أرملة ولده عبدالله الذي واراه تراب يثرب منذ شهور، قد ولدت صبياً. ودهش عبد المطلب للنبأ وفاض وجهه بالفرح وهو في غير حاجة إلى بنين. فقد ذكر ولده الحبيب الذي مات عن خمسة وعشرين عاماً وهو عائد من رحلة التجارة إلى الشام.

وأسرع عبد المطلب إلى آمنة، فوجد طفلها إلى جانبها، فحمله وهو يسمع إلى ما تحدثه أرملة ولده، إذ قيل لها ذات يوم حين أحست بالحمل:

«لقد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد.. ثم سميه محمداً».

وسمع عبد المطلب لآمنة وهي تقص عليه أن قد رأت حين حملت بالصبي، أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام..

وانطلق عبد المطلب بالصبي إلى الكعبة.. وهناك سماه محمداً..

على أن الصبي الصغير وإن كان قد تمتع بحب جده، إلا أنه كان في أمس الحاجة إلى رعاية أبيه الذي فقده وهو لا يزال جنيناً بعد. وبرغم أنه كان سليل عشيرتين كبيرتين من قريش أكبر قبائل العرب، وينحدر من أصلاب بني هاشم عن طريق أبيه ومن أرحام بني زهرة عن طريق أمه، إلا أن كل ذلك لم يمنع الوليد من أن تمر به ساعات وهو محمول على كتف جارية

تسمى «بركة» في انتظار أن تتقدم إليه من ترضعه، فلا يجد.. حتى إذا ما بلغ اليأس بالجارية حداً جعلها تأخذ طريق العودة إلى الدار.. إذ بمرضعة هي حليمة بنت أبي ذؤيب تقترب منه، وتمتد يدها إليه لتحمله وتأخذه، ليس عن رغبة فيه أو شفقة به، وإنما شفقة على نفسها من أن تعود وليس معها من ترضعه، بعد أن أخذت زميلاتها كل أبناء الأغنياء ولم يبق سوى هذا الطفل اليتيم الفقير..

على أن الطفل كان قد قدر له أن يجرب يتم الأب ويتم الأم أيضاً. فلم تكد تمضي سنوات ست حتى كان الموت قد استأثر بآمنة، وهي في طريق العودة من يثرب بعد زيارة قبر أبيه. ولم تكد تمضي سنتان أخريان حتى كان جده عبد المطلب قد هلك أيضاً..

وفي بيت عمه أبو طالب ذاق محمد طعماً جديداً للحياة.. حياة الفقر الوقور الذي لا يبذل فيه الإنسان ماء وجهه. ومن هنا.. بدأ الطفل يسعى في الحياة يكسب بعض رزقه، فمارس العمل منذ بكورة طفولته، وزاده رعي الغنم فهماً وجداً، كما زادته صحبته لتلك المخلوقات الوديعة التي لا شر فيها للإنسان ولا ضرر رحمة فاضت بها ينابيع روحه. ولم يكن ذلك هو كل ما أفاده من الرعي.. بل لقد جعله ذلك العمل يقضي على حافة الصحراء طفولته وصباه.. وأصبحت تلك الصحراء مدرسته، وتولت شمس النهار ونجوم الليل مهمة تعليمه.

لقاء بحيرى

وذات يوم تعلق الصبي بعمه أبو طالب وهو يخرج في ركب تجارته إلى الشام. ولم يجد العم ما يمنعه من أن يأخذ الصبي الحبيب معه، وأن يجعله إلى جواره حتى يبلغ به الشام. وهناك.. إلى جوار صومعة لراهب له علم أهل النصرانية اسمه بحيرى، وقف الركب كله ليستريح.. وإذا ببحيرى الذي طالما مروا به في قوافلهم من قبل ولم يحفل بهم، إذا به يدعوهم إلى طعام ويطلب منهم أن يحضروه كلهم كبيرهم وصغيرهم. وإذا كان رجال القافلة

قد استغربوا ذلك التحول في معاملة بحيرى لهم، فذلك لأنهم لم يدركوا أنه قد وجد بينهم هذه المرة من يستحق اهتمامه بشيء رآه وهو في صومعته.. إذ رأى محمداً في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من دون القوم، وحين نزلوا في ظل الشجرة تدلت أغصانها على محمد حتى استظل بظلها طوال الوقت.

وراح بحيرى يلحظ الصبي لحظاً شديداً. حتى إذا ما انتهى القوم من الطعام انتحى الراهب جانباً بمحمد وقال له: «يا غلام.. أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه» فأجاب الصبي في ضيق: «لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما» فقال له بحيرى: «فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه» وعندئذ قال محمد: «سل ما بدا لك».



وجعل بحيرى يسأله أسئلة عن حاله في نومه وهيئته وأموره، ومحمد يخبره، وإذا بكل ما يجيب به هو نفسه ما يعرفه بحيرى من صفات نبي جاء ذكره في علم أهل النصرانية..

ولما فرغ بحيرى انطلق إلى أبي طالب وقال له: «ما هذا الغلام منك؟» قال: إبني. قال بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي. قال بحيرى: فما فعل أبوه؟

أجاب: مات وأمه حبلى به. قال الراهب: صدقت. فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود. فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً. فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم».

زواج محمد

شب محمد ليترك رعي الأغنام ويتولى قيادة الجمال في تجارة الشرق والغرب.. وبدأ يشق الصحراء في قوافل تحمل منتجات بلاد العرب التي تباع في أسواق مصر غرباً وفارس شرقاً وسوريا شمالاً.

وأصبح قائد القوافل الشاب الأمين قبلة كل تاجر ثري من تجار مكة. وبدا لأبي طالب أن يمهد سبيلاً لابن أخيه في تجارة لسيدة كريمة ذات شرف ومال هي خديجة بنت خويلد، كانت تستأجر الرجال في مالها وتجعل لهم

شيئاً مما يكسبون لها. واقترح أبو طالب على محمد أن يعرض نفسه على خديجة، لعلها تستأجره وتضاعف له الجعل لعلها بمكانته من قريش، ولشهرته بالأمانة والذمة في كل ما تولاه من تجارة.. ورضيت خديجة بالأمين وكيلاً لها في تجارتها. وخرج محمد بأول قافلة لها محملة بالتوابل والعطور إلى سوريا.. ليعود منها بحرير وكتان.

وعاد محمد من الرحلة في الوقت المحدد، وقد ربحت التجارة ضعف ما كانت تربح من قبل، وذهب على الفور إلى خديجة لمحاسبتها. وكانت خديجة في الأربعين من عمرها وأماً لثلاثة أطفال. ولكن محمداً عندما رآها في بيتها لأول مرة أدهشه جمالها وشبابها، بينما كانت خديجة أكثر منه دهشة بمظهره وهي تراه لأول مرة.

وإذا لم يكن محمد مديد القامة، إلا أنه كان عريض المنكبين بصورة تجعله يبدو كعملاق. وكان ذا شعر أسود مجعد ولحية كثة، يكشف عندما يبتسم عن أسنان يبهر بياضها الأنظار.

وحالما تكلم محمد أدركت خديجة أنها لم تسمع من قبل صوتاً موسيقياً مثل صوته. وبرغم أن حديث محمد قد اقتصر على التجارة والبيع والربح ومصاعب الصحراء.. إلا أن عباراته كانت منغومة كأنها الشعر.

وختم محمد حسابه عن رحلته الأولى كممثل لخديجة، وعاد إلى بيته. وبعد ظهر ذلك اليوم جاءت إليه نفيسة بنت عليه إحدى قريبات خديجة تسأله:

« ماذا يحول دون أن تتزوج يا محمد » وأجاب محمد: « إنني فقير جداً.. وما بيدي ما أتزوج به ».

وقالت له: « فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف، ألا تجيب؟ » فرد عليها محمد: « وما هو اسمها ».

وأجابته: « خديجة بنت خويلد ».

واستغرب محمد ما قالته. فلما أكدت له نفيسة ما تقول رد عليها: «ومن لي بذلك؟».. فأجابته: دع الأمر لي» فقال فرحاً: «فأنا أفعل».

وهكذا تزوج محمد قائد الجمال في صحراء العرب وهو في سن الخامسة والعشرين، من خديجة الأرملة الثرية ذات الأربعين عاماً.. وكان زواجهما زواجاً هانئاً هادئاً.. أثمر بنين وبنات كان أولهم جميعاً القاسم، ثم ولدت له الطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.. فأما الصبية الثلاثة فماتوا في الجاهلية.. وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن وهاجرن مع النبي حين ذهب إلى المدينة.

* *

نزول الوحي

كان محمد على جانب عظيم من حسن الخلق والعفة والتواضع والجود والشجاعة والصدق والأمانة. وكان يكره عبادة الأوثان فلم يحضر مواسم الحج. وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما يقدم من القربان. ولا يحضر مجالس اليهودية.

وكان محمد يشعر باليأس والقنوط من فكرة تعدد آلهة شعبه. ولم يكن يأنس لهذا النوع من الديانات التي كان يدين بها العرب. وراح يخلو بنفسه ويفكر كثيراً. واستمر في ذلك حتى أخذ بالحنفية وهو دين إبراهيم الذي كان يدين به بعض العرب ممن انتهت عقولهم إلى انحطاط الوثنية.

وكان محمد وهو يقود الجمال قد وقف على الكثير من تعاليم اليهودية والمسيحية من اليهود والمسيحيين الكثيرين الذين اتصل بهم وتبادل وإياهم الحديث في الأسواق في سوريا وفارس ومصر. ولم يكن محمد يعرف القراءة أو الكتابة، ولكنه بعد زواجه من خديجة كثيراً ما كان يستمع إلى ورقة بن نوفل ابن عم زوجته وهو يتلو التوراة بعد اعتناقه اليهودية. وكانت

التوراة والإنجيل يبشران بنبي منتظر وزعيم يوقظ العرب ويدعوهم إلى الإيمان بإله واحد، يستطيع أن يخرجهم من حياتهم الضالة إلى حياة صالحة.

وآثر محمد العزلة وألف النسك والعبادة. وأخذ يخرج من المدينة إلى التلال المحيطة بمكة ويقضي عدة ساعات في غار حراء، يتأمل أحوال بلاده وينظر إلى عجائب الكون ويفكر في البعث والحساب والجنة والنار. حتى إذا فرغ ما معه من الزاد عاد إلى بيت خديجة فتزود مرة أخرى لمثل ذلك التغيب في الغار. ولم يزل كذلك حتى نزل عليه الوحي. وكان أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة. وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت بعد ذلك واضحة.. وبقي محمد على ذلك ستة أشهر حتى بلغ الأربعين من عمره. وذات يوم.. في اليوم السابع عشر من رمضان.. بينما كان محمد جالساً بتأمل في الغار.. إذ ظهر أمامه الملاك جبريل.

وأخرج الملاك صفحة ذهبية وقال له:

«إقرأ..».

قال محمد: «ما أنا بقارئ»: فضمه الملاك ضمة قوية حتى بلغ منه الجهد. وقال له:

«إقرأ» فقال: «ما أنا بقارئ». فضمه مرة أخرى بقوة ثم أطلقه وقال له:

«إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم».

وعاد محمد إلى خديجة وهو يرتجف مما أحس به وقال: «زملوني زملوني». فلفته في الثياب حتى ذهب عنه الروع. وأخبر خديجة بما رأى وقال: «قد خشيت على نفسي». فقالت «كلا والله ما يجزيك الله أبداً».

وانطلقت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل.. وكان شيخاً كبيراً يحفظ الإنجيل، فقالت له: «يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك». وأخبره محمد



بما رأى فقال له ورقة: «هذا الناموس الذي نزل على موسى». ثم قال: «يا ليتني كنت قوياً إذ يخرجك قومك» قال محمد: «أو مخرجي هم؟» قال ورقة: «لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً».

على أن ورقة لم يلحق بدعوة محمد حين جاء حينها.. فقد توفي بعد اللقاء بأيام.

عاود محمد الذهاب إلى غار حراء. وذات يوم آخر سمع صوتاً من السماء، فرفع إليه بصره فإذا الملك جبريل الذي جاءه من قبل بين السماء والأرض. فرجع إلى داره وهو يقول مرتجفاً: «دثروني دثروني». وراح محمد يهتز وثقلت أنفاسه ونضح جبينه وكل جسمه بعرق غزير. وسمع صوتاً يقول: «يا أيها المدثر قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر».

وعرف محمد أنها الرسالة.. فقد بعثه الله برسالة إلى هذا العالم يعلمه الحقيقة الخالدة، وهي أنه ليس هناك إلا إله واحد نبيه محمد. وهو يدبر ويراقب أعمال الإنسان ويجازي الطيبين والأشرار بعد الموت كل بمقدار عمله كما بعثه الله للناس يدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام والتسليم لإرادة الله.

* * *

الدعوة إلى الإسلام

بدأ محمد يبث بين أهله وأقاربه بما أوحي إليه. وكانت خديجة أول من آمن بدين محمد. ثم تبعها ابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان يعيش في كفالة الرسول. ثم أسلم مولاه زيد بن حارثة الذي وهبته خديجة لمحمد فأعتقه وتبناه. ولم يستمر الأمر في بيت محمد طويلا إذ آمن بعد ذلك رجالات من قريش كأبي بكر الصديق أخلص أصدقاء محمد، وكان ثرياً ذا مكانة آمن

على يديه خمسة من المسلمين الأولين هم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله. ثم تلاهم بعد ذلك رجال آخرون على رأسهم الأرقم الذي جعل داره مركزاً للدعوة سراً إلى الإسلام.

ومضت سنوات ثلاث ومحمد يدعو للإسلام سراً بين كل من يثق فيه ويطمئن إليه. وكان هو وأصحابه يستخفون من قريش في صلاتهم وفي الدعوة إلى دينهم الجديد..

وذات يوم.. جاء جبريل إلى محمد وقال له:

« وانذرعشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. وقل إني أنا النذير المبين. فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين ».

وذهب محمد إلى جبل الصفا في مكة ووقف عليه وهتف:

- يا معشر قريش.

وأجابه أبو لهب عمه:

- مالك يا محمد؟

وطلب إليهم محمد أن يدنوا منه يكلمهم، ثم سألهم:

- أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم تصدقوني؟

وأجابت قريش:

- نعم، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط.

قال محمد:

- إذن فاسمعوا.. إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك من الدنيا منفعة ولا من الآخرة إلا أن تقولوا لا إله إلا الله.

وهتف أبو لهب غاضباً:

- ألهذا جمعتنا، تباً لك سائر هذا اليوم. تفرقوا أيها الناس عن هذا المجنون الضال.

وقال محمد:

- ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم مؤازرني على هذا الأمر وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟

وسكت الجميع.. ثم ضحكوا ساخرين، ثم نهض من بينهم علي بن أبي طالب يقول:

- أنا يا رسول الله عونك.. أنا حرب على من حاربت.

وانصرفت قريش هازئة.. ووقف محمد لحظة مطرقا، ثم رواح يتلو «تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلي ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد».

مناقشات قريش

على أن دعوة محمد لم تلبث حتى تسربت إلى كل بيوت مكة.. وأسلم من الرجال كثيرون. ولم تحتمل قريش كتمان ما بها من غيظ على محمد فحرضوا بعضهم بعضاً عليه، ثم انطلقوا إلى عمه أبي طالب يشكونه إليه:

- يا أبا طالب، إن لك لسنا وشرفاً ومنزلة فينا. وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى نكفه أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

وذهب العم إلى ابن أخيه وقال له:

- يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني في أمر هذا الذي جئت به.. وأجمعوا على فراقي وعدواني، فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

وأجاب محمد بقوة وحزم:

- يا عم.. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

ومضى محمد في طريقه لا يهاب شيئاً قط.. واستمرت قريش تحاول أن تفعل الأفاعيل برسول الله.

وما أكثر ما وقف محمد يعظ الناس الذين تجمعوا لعبادة الأوثان، وما أكثر ما قال لهم «لا إله إلا الله محمد رسول الله..».

وكان المشركون ينظرون إليه ساخرين:

- وما دليلك على أنه لا إله إلا الله؟ وأنك رسول الله؟.

وكان محمد شديد الحساسية بالسخرية. فيحمر وجهه خجلا أمام السؤال، ولكنه يرى أن الأفضل هو متابعة أداء الرسالة التي كلف بها وتجاهل الساخرين.

ويرفع محمد صوته ويحدث المشركين في عبارات حلوة بقصة إبراهيم وكيف حطم الأصنام في بيت أبيه بأرض الكلدانيين. ويقاطع الناس محمداً مرة أخرى ويقولون له:

- وما برهانك على أنه لا إله إلا الله وأنك رسوله؟



ويتصبب جبين محمد بالعرق، ثم يتلو في صوت غاضب فيه انفعال شديد:

«الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى».

ثم يقول: «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد».

ويزيدون في السخرية به يوماً آخر فيتلو «الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

«والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى».

«والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها. ونفس وما سواها».

والتين والزيتون وطور سينين. وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون».

تعذيب المسلمين

واستمرت المعركة حامية الوطيس.. واستمر تكذيب قريش للرسالة التي جاء بها محمد.. وواصلوا التنديد به وبكل من آمن بدينه.

على أن المشركين إذا كانوا قد سكتوا عليه وتركوه يمضي في أداء رسالته، فذلك لأنه لم يمسهم هم أنفسهم بسوء أول الأمر.. إلا أنهم عندما وجدوا أنه لم يكتف بالهجوم على الوثنية والخمر والقمار، بل أخذ يعظ ضد التجار الأغنياء وأشراف مكة الذين جعلوا من بئر زمزم والمسجد الحرام مصدراً للكسب، زاد بهم الغضب وملأهم التصميم على ضرورة التخلص منه ومن كل من تبعه من المسلمين..

وبدأ المشركون يؤذون من تبع محمدا ليفتنوهم عن دينهم. غير أن كل العذاب الذي لقيه هؤلاء لم يزدهم إلا إيماناً. وهل كان أقسى مما عمد إليه المشركون من ضرب المسلم وتجويعه وتعطيشه، حتى كان لا يقدر على الجلوس من شدة الضرب ليرتد عن دينه ويقول «آمنت باللات والعزى؟.

وما أكثر ما قاسى مسلمون آخرون من تعذيب قريش.

عمار بن ياسر وأبوه وأمه.. كان المشركون يخرجون بهم إلى الأبطح إذا

حميت الأرض فيعذبونهم بحرها. ولما مات ياسر من العذاب أغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها بحربة فاستشهدت، ثم أمعن المشركون في تعذيب عمار بالحر تارة وبوضع الصخر على صدره تارة، ثم بالتغريق تارة أخرى.

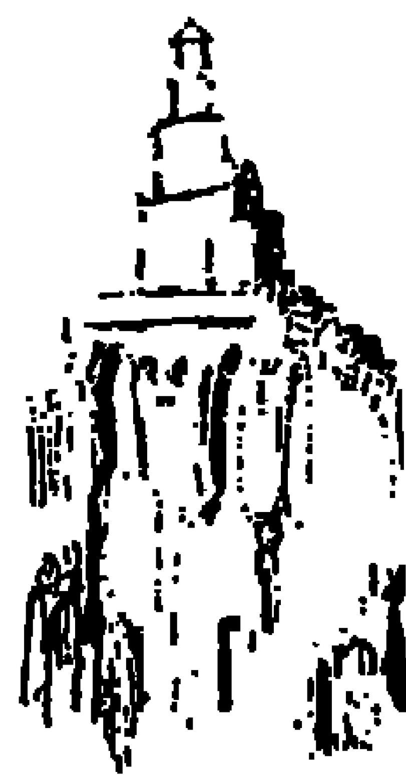
وبلال مؤذن الرسول.. كان أحد مشركي قريش يلقيه في الرمال الملتهبة على وجهه وظهره، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتلقى على صدره ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى.

وخباب بن الأرث.. عذبه الكفار عذاباً شديداً، وكانوا يوثقون ظهره ويلقونه في الرمضاء ويضعون على صدره الحجارة المحماة بالنار.

ومع كل ذلك.. ظل المسلمون في ازدياد.. وأخذ الغضب بالمشركين يزداد ويفور.

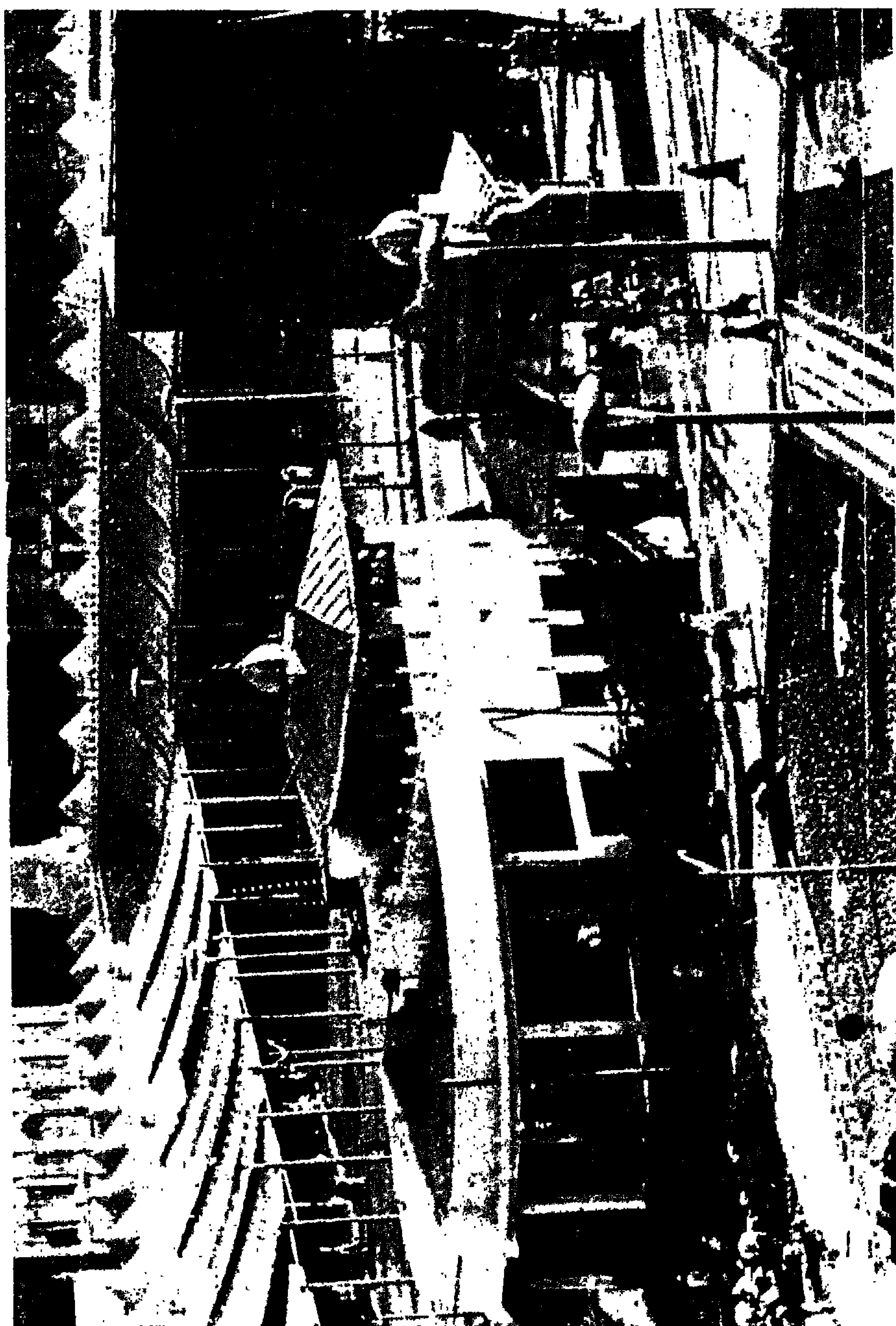
الحصار

والحق لقد كان لهم أن يغضبوا ويثوروا. فيرغم كل ما مزقوا من أجساد العبيد المسلمين. وبرغم طول ما ضايقوا محمداً واعتدوا عليه وسفهوا قوله وكادوا يقتلونه. وبرغم كثرة ما دسوا له عند زوار الكعبة وحجاجها حتى يخشوه ويتحاشوه، فما أجدى كل ذلك شيئاً قط، بل زاده كل ذلك قوة.. وكللت خطواته بنجاح عظيم إذ آمن به عمر بن الخطاب.. وآمن به عمه حمزة.. وحتى الذين استطاعوا الهرب من نكال قريش فهاجروا إلى الحبشة، وجدوا من النجاشي صدراً رحباً حيث سمح لهم بالبقاء ومنع عنهم أعداءهم حين قدموا إليه يدسون بينه وبينهم..



وإذن فلتجمع قريش أمرها على خطوة جديدة لعل فيها القضاء على الإسلام والمسلمين..

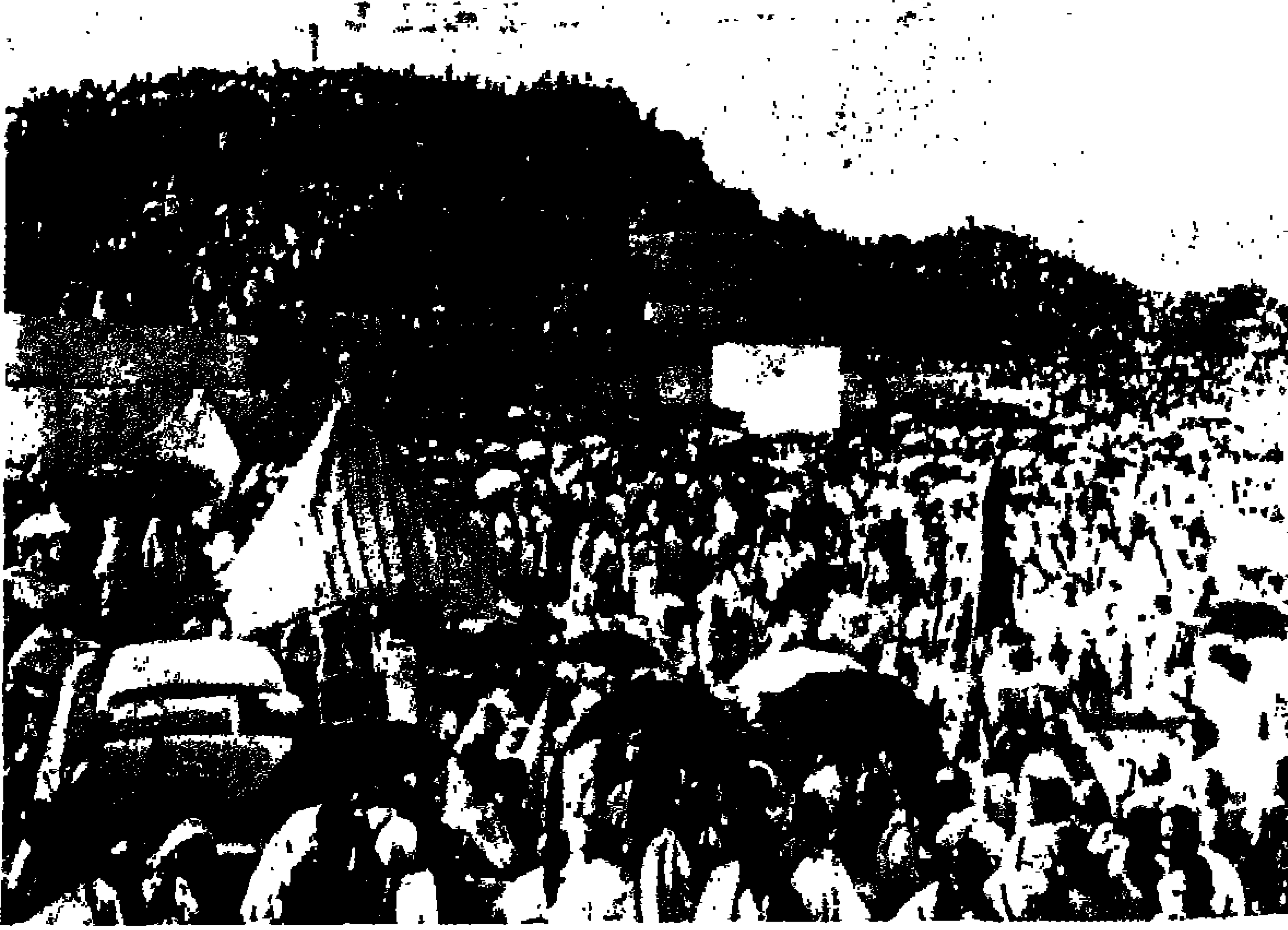
واجتمع سادة قريش وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب، لا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً..



بئر زمزم التي يؤمها الحجيج ويستقون إلى حوضها. وحولها بناء أقيم إلى جانب الكعبة.



غار حراء .. حيث نزل الوحي
على محمد رسول الله .. وقال له جبريل:
اقرأ باسم ربك الذي خلق



وقفة الحجاج على جبل عرفات.



القبة الخضراء فوق الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة.



غار ثور.. حيث اختفى محمد وأبو بكر ليلة الهجرة إلى يثرب.. وعشش العنكبوت والحمام في مدخله فما استطاع من تبعوهما أن يتصوروا وجود أحد بداخله.

وبدأ حصار رهيب ضد المسلمين.

واضطر المسلمون إلى اللجوء إلى شعاب الجبال بأعلى مكة. ولكن الحصار الذي فرضته عليهم قريش- برغم ما كان فيه من قسوة وشدة وجوع- إلا أنه كان حصاراً مهلهلاً. فقد كان الطعام يصل إلى المجاهدين سراً.. عن طريق أهاليهم في نفس قريش..

وانهار الحصار ولم يفلح. ونزل المسلمون وبنو هاشم من شعاب مكة إليها بعد ثلاث سنوات، حرموا فيها الأنس بدورهم والاطمئنان إلى منازلهم.. وذاقوا صنوفا من الجوع والخوف.

على أن المسلمين ما كادوا ينزلون من جبال مكة حتى وقعت الفاجعة.. وذهب سند محمد وعونه ليتركه وجهاً لوجه مع قريش..

مات عمه أبو طالب. ثم لحقت به خديجة.. فلم تعد قريش تجد من تستحي منه وهي تحاول التخلص من محمد ودعوته..

وزاد عسف قريش بمحمد والمسلمين..

وبدأ محمد يعود إلى بيته وقد نثر سفهاء قريش على رأسه وثيابه التراب.

ومع ذلك فقد واصل محمد دعوته.. وانتقل إلى الطائف..

على أن سادة قبيلة ثقيف بالطائف ضنوا عليه.. فقد كانت مدينتهم مركزاً واسعاً لإنتاج العنب. فكره زارعو العنب وتجار الخمر محمداً لأن تعاليمه كانت ضد شرب الخمر.. فلم يكد محمد يصل حتى أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يصيحون به ويسبونه.. واجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه.. فلما مر محمد بينهما جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما ألا دقوهما بالحجارة حتى أدموهما.. وكان إذا أصابته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه بعضديه فيقيمونه.. فإذا مشى رجموه بالحجارة وهم يضحكون حتى شجت بها رأسه..

ولجأ محمد إلى بستان من بساتين كانت لشيبة وعتبة ابني ربيعة.. وقد كاد اليأس يأخذ به وشق عليه الكرب والوجع. ولعل رأسه امتلأت في تلك

اللحظات أفكاراً سوداء تصور خلالها أن الله قد نسيه.. فاتجه بناظريه إلى السماء وابتهل قائلاً:

- اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك. ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

وعاد محمد إلى مكة. واستمر في أداء رسالته.

* * *

الإسراء

نهض محمد من صلاة الفجر، وانطلق إلى أم هانئ بنت عمه أبي طالب حيث كان يقضي في دارها ليلته تلك.. وفوجئت أم هانئ بمحمد يناديها في نشوة غريبة وفي عينيه لمعان، ولم تكن تدري أنه إنما ينطلق إليها وفي نفسه أن يحدثها بما شهده تلك الليلة من أمر عظيم.

قال محمد:

- يا أم هانئ.. لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه. ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين.

ولم تدر أم هانئ أول الأمر ما إذا كانت قد فهمت شيئاً من كل ما قال محمد.. غير أنها لم تشك واللحظات تمر وهي تعجز عن النطق، أن الله قد اختص محمداً بفضل منه وآثره بشرف لم يؤثر به أحدا قبله قط. ولم يخامر أم هانئ شك في صدق ما رأى محمد.

وانطلق محمد ليلقي قريشاً ويخبرهم بما رأى، وعندما بلغ الحطيم بين

الكعبة والحجر الأسود وجد أبا جهل جالساً ينظر إليه ويبتدره مستهزئاً قائلا:

- هل هناك من شيء؟

قال محمد: نعم.. أسرى بي الليلة.

قال أبو جهل ساخراً: إلى أين؟

أجاب محمد: إلى بيت المقدس.

ضحك أبو جهل وقال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال محمد: نعم..

عاد أبو جهل يقول: أرأيت إن دعوت قومك أن تحدثهم بما حدثتني؟

ووافق محمد. وانطلق أبو جهل يعدو منادياً قومه. فجاءوا من كل حدب وصوب حتى أحاطوا بمحمد من كل جانب. وطلب أبو جهل أن يخبرهم محمد بما رأى. فقال محمد:

- إني أسرى بي إلى بيت المقدس.. فنشر لي رهط من الأنبياء.. منهم إبراهيم وموسى وعيسى.. وصليت بهم وكلمتهم.

قال أبو جهل ممعناً في هزئه ومكره:

- إن كنت قد رأيتهم فصفهم.

قال محمد:

أما عيسى ففوق الربعة ودون الطويل، تعلوه حمرة كأنما يتحادر عن لحيته الجمان. وأما موسى فضخم أدم طويل كأنه من رجال شنوءة. وأما إبراهيم فإنه والله لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه.

وعاد القوم يطلبون من محمد آية تدل على صدق ما قال.. فأجاب:

- آية ذلك أني مررت بعير أنفرهم حس الدابة فَنَدَّلهم بعير. فدللتهم عليه وأنا موجه إلى الشام. ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير قوم آخرين فوجدتهم نياماً ولهم إناء فيه ماء. وقد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيته كما كان. وآية ذلك أن غيرهم

تصوب الآن من ثنية التنعيم البيضاء يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء.

وابتدر القوم إلى الثنية يتأكدون من صحة ما قال.. فوجدوا العير كما ذكر محمد.. في مقدمتها جمل أورق كما أخبرهم.

وسكت القوم قليلاً ثم عادوا إلى تغامزهم وإنكارهم. وقال أحدهم وهو المطعم بن عدي:

- كان أمرك قبل اليوم أمراً يسيراً، فإذا بك اليوم تعجب وتغرب. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس نصعد شهراً وننحدر شهراً. وأنت تزعم أنك أتيته في ليلة واحدة. واللات والعزى لا أصدقك ولقد أشهد أنك كاذب..

ورد أبو بكر لفوره:

- أشهد أنك صادق يا رسول الله.

فقال ابن عدي:

- أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح؟

قال أبو بكر:

- نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك. أنا أصدقه في خبر السماء. في غدوه ورواحه. أفأكذّبه في إكرام الله بأن ينفله مسيرة شهر؟

وسكت القوم.. ثم لووا أعناقهم ومضوا.. وكأن لم يسمعوا شيئاً قط.

* * *

البيعة

كان محمد لا يعرف موسماً يقام أو جمعاً يحتشد أو حجيجاً يقدمون إلا أذاع فيهم دعوته ونشر رسالته. وسمع محمد ذات يوم برهط قادم من يثرب فقدم إليهم والتقى بهم عند العقبة.

وعرف محمد أنهم قوم من الخزرج.. فجلس يتحدث إليهم ويقول:

- أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً. وأنزل عليَّ الكتاب. فهل تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً.. ولا تسرقوا. ولا تزنوا.. ولا تقتلوا أولادكم.. ولا تأتوا ببهتان.. فإن وفيتم فلكم الجنة.. وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحدة في الدنيا فهو كفارة له. وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر؟.

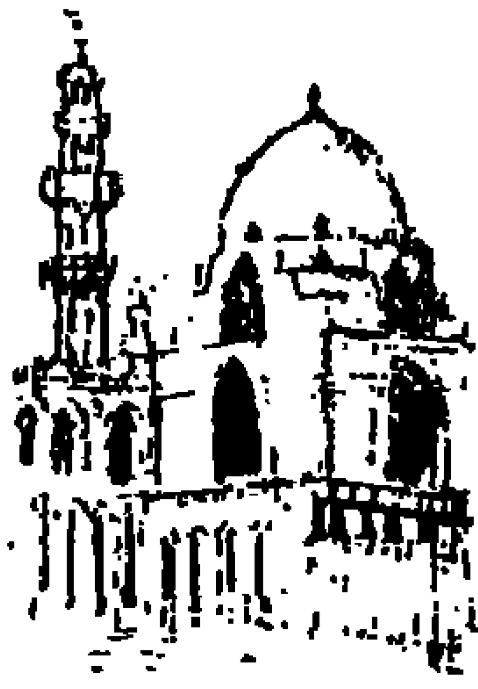
وتشاور القوم.. وكانوا من قبل قد سمعوا بالدين الجديد.. وعرفوا عن اليهود الذين يعيشون معهم في يثرب إيمانهم بالإله الواحد وكراهيتهم للأوثان.. ولهذا فهموا كل الفهم ما قاله لهم محمد.

واتفق القوم وقالوا لمحمد: إنا نقبل منك ما عرضت علينا من هذا الدين..

وعاهدهم محمد على كتمان أمرهم عن قريش.. ووعدهم اللقاء في العام التالي.. وأرسل معهم محمد أحد رجاله يفقههم في الدين ويقرئهم القرآن ويعلمهم قواعد الإسلام.

وعندما جاء العام التالي قدم إلى مكة سبعون رجلا وامرأتان من مسلمي الخزرج والأوس في يثرب، والتقوا بمحمد في الشعب عند العقبة ليدعوه للقدوم إلى مدينتهم. وسألوه أن يأخذ لنفسه ولربه ما يحب منهم. فأجابهم محمد: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم..

قالوا له: فو الذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر..



وقال له زعيمهم: ومالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟

قال محمد: الجنة..

قالوا: أبسط يدك نبايعك..

قال محمد: أنا منكم وأنتم مني. أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم

وعندما انتهى العهد طلب منهم إثني عشر من كبارهم. فلما انتخبوا نقباءهم قال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى.. وأنا كفيل على قومي.

* * *

الهجرة إلى يثرب

شاع في مكة أمر البيعة. وعلمت قريش بظهور الإسلام في المدينة فاضطربوا، وزادت بهم الغيظ واشتدت بصدورهم الحفيظة فضاعفوا الأذى بالمسلمين. وعندما ساءت حال المسلمين وكثرت أحزانهم ورأى محمد ما هم عليه من محنة وفتنة، أذن لهم بالهجرة إلى المدينة..

وجن جنون قريش عندما رأت المسلمين قد هربوا إلى المدينة..وعرفوا أن الإسلام سيزداد هناك قوة ومنعة.. فكان لا بد أن يقرروا شيئاً.

وكان قرارهم هو أن يقتلوا محمداً..

وفي تلك الليلة.. جاء جبريل إلى محمد يقول له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

وعاد محمد إلى داره وهو عالم أن القوم يحيطون به وفي أيديهم سلاحهم وبين جوانبهم كبدهم ومكرهم.. وعندما انتصف الليل والقوم خارج الدار، خرج محمد عليهم بعد أن أمر علياً بن أبي طالب أن ينام في فراشه وأن يتسجى ببرده. وألقى الله على المتربصين النوم فناموا.. وخرج محمد ومر بهم فلم يروه.. وانطلق إلى دار أبي بكر الذي كان في انتظاره.. وسار معاً حتى بلغا غار ثور.. حيث كمنا فيه.

وشف الصباح للقوم المتربصين أنهم قضوا الليل يحرسون علي بن أبي طالب لا محمداً.. فذعروا وهرعوا إلى أشرافهم الذين أرسلوا خلفه فارساً هو سراقة الكناني. فظل يروح ويجيء ويمر أمام الغار لا يدري ما بداخله.. حتى إذا مضى اليوم الثالث، وخرج محمد وأبو بكر من الغار في الطريق إلى المدينة إذ بسراقة يراهما فيحاول اللحاق بهما.. ولكن ما يكاد يقترب منهما

حتى يعثر به فرسه وتسيخ قوائمه في الأرض ويثور من حوله الدخان والإعصار.. وأدرك سراقة أن محمداً ممنوع منه فاستغاث واستنصر على ألا يخبر قريشاً بشيء مما رأى.. فدعا له محمد. وعاد سراقة إلى قومه فلم يقل شيئاً قط..

وتمت هجرة محمد إلى المدينة.. والتقى المهاجرون بالأنصار الذين خرجوا عند شعاب المدينة وهم يرددون «طلع البدر علينا.. من ثنيات الوداع».

* * *

مؤسس دين ودولة

لا يبدأ المسلمون تاريخهم بالسنة التي ولد فيها محمد.. ولا بيوم إبلاغه الرسالة ونزول الوحي عليه.. ولا بيوم وفاته.. ولكنهم يبدأون تاريخهم بيوم الهجرة الذي هاجر فيه محمد وهو في عامه الثالث والخمسين من العمر من مكة ليلحق بالمهاجرين الذي احتضنهم الأنصار في يثرب.

وكان ذلك اليوم في الواقع هو أهم يوم في حياة محمد.. وفي تاريخ الإسلام.

وكان محمد حتى هجرته رسول دين جديد.. أما بعد الهجرة فقد أصبح إلى جانب ذلك مؤسس دولة.

كان محمد في مكة مضطهداً. أما بعد وصوله إلى يثرب فقد تلقاه أهلها بترحاب كبير.. وأصبحت في يده السلطتان الدينية والزمنية.. فهو رسول الله إلى الناس، وحاكم قومه وراعي شؤونهم.



وجمع محمد حوله في يثرب- التي سميت منذ ذلك اليوم بالمدينة ومعناها مدينة الرسول- جمع أتباعه المخلصين.. وأخذ ينظم عقيدته. ولم يكتف بإصلاح أحوال أهل مكة، بل أراد إصلاح أهل الجزيرة العربية كلها..

وكانت مساحة المدينة لا تزيد عن نصف مساحة مكة.. إلا أنها كانت أنسب مكان لمحمد لتنظيم عمله. وكانت المدينة تحوطها أشجار النخيل؛ فكان من الممكن أن يقوي محمد نفسه وأتباعه ضد الجوع وضد الأعداء على السواء.

كان محمد وهو في مكة داعياً لدين جديد فحسب.. أما في المدينة فقد أصبح حاكماً يرعى شؤون المسلمين ويوجه أمورهم ويسن القوانين ويقود الجيوش ويقضي في جميع شؤون الناس.

وفي المدينة بدأت شعائر الإسلام تأخذ طريقاً محدداً مرسوماً..

فمنذ وصل محمد إلى المدينة كان أول شيء اتجه إليه، العمل على إقامة شعائر دينه الجديد فبنى مسجده الذي دفن فيه. ولما اطمأن بالمدينة واجتمع إليه اخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار واستحكم أمر الإسلام. أمر الرسول بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم.. كما أمر بصوم شهر رمضان.. وحمى حقوق الملكية.. ومنذ ذلك الوقت قامت الحدود وعرف الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهر المسلمين.

وكان محمد حين قدم المدينة يجتمع الناس إليه للصلاة في مواقيتها بغير دعوة. وتشاور المسلمون يوماً فقال بعضهم «لنتخذ ناقوساً مثل ناقوس النصارى» وقال آخرون «لنتخذ بوقاً مثل بوق اليهود».

وبينما هم على ذلك إذ قدم عبدالله بن زيد وهو أنصاري من الخزرج إلى رسول الله محمد وقال له:

«يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف.. مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبدالله، أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ أجاب: أن تقول «الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح.. الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله..»

قال محمد: إنها لرؤيا حق إن شاء الله.. فقم مع بلال فالقها عليه.. فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك..

ومنذ تلك اللحظة صار هذا النداء آذانا للدعوة للصلاة.. واستقلت شعيرة من شعائر الإسلام عن مجاراة اليهود في بوقهم والنصارى في ناقوسهم.

★ ★ ★

نشر الدعوة

استتبت الأمور في المدينة.. خاصة بعد أن آخى محمد بين المسلمين على اختلاف قبائلهم ومراتبهم، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية فأصبحوا متساوين جميعاً لا فرق بين سيد وعبد. وساعد محمدا على توحيد كلمة العرب تلك المساواة التي جاء بها الإسلام وتلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التي مزقت من قبل شمل العرب.

وعندما فرغ محمد من توحيد كلمة العرب.. بدأ يحول همته وجهوده إلى نشر الإسلام خارج المدينة..

وعندئذ بدأ محمد جهاداً واسعاً في سبيل نشر دعوة الإسلام.. والدفاع عن حقوق وحريات المسلمين..

على أن محمداً حين بدأ هذا الجهاد وأذن للمسلمين بالقتال.. كان يفعل ذلك لأمور على رأسها الدفاع عن النفس والعرض والمال.. ثم تأمين الدعوة والدفاع عنها أمام من يقف في سبيلها، حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام الفتنة عن دينه.

كان محمد يعرف جيداً أن السيف لم يكن وسيلة للدفاع قط.. ولا هكذا أراد الله للإسلام أن ينتشر بين الناس.. لهذا فعندما قاتل قريشاً فإنما قاتلهم لأنهم يقفون حجر عثرة في سبيل الدين الجديد بما ناصبوا المسلمين من عداء، وما راحوا ينشرونهُ بين جموع الحجيج كل عام من أراجيف وأكاذيب عن النبي بغية صد الناس عن الدين..



وعندما قاتل المسلمون الفرس والروم فلم يكن ذلك إلا بعد أن وقفوا حجر عثرة في سبيل تقبل شعوبهم للدعوة التي أنفذ محمد إلى ملوكها من أجلها كتبه، فاضطر خلفاء محمد إلى إزالة نفوذ قيصر الروم عن أكثر أملاكه، وإلى إزاحة عرش كسرى. ففتحت المدائن والقرى صدرها للإسلام وأقبل من شاء من أهلها على اعتناقه.. أما من آثر البقاء على دينه من الكتابيين فكانت له حرية اعتقاده وحرية مناسكه جميعاً.

هكذا لم يكن الإسلام دين قتال، ولم يكن محمد رجلاً مقاتلاً يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله سبيل آخر عنها.. ولكنه كان قائداً بصيراً إذا وجبت الحرب ودعت إليها المصلحة اللازمة.

الصدام بين المسلمين والمشركين

وقد وجبت الحرب حين كان على محمد أن يؤمن حياة المسلمين في المدينة.. ويرد إلى المهاجرين حقوقهم التي سلبها منهم أهل مكة وطردوهم عنها.

وراح محمد يعترض هو وأتباعه طريق القوافل التي تحمل تجارة مكة وكان يقسم الغنائم بين الأنصار والمهاجرين على قدم المساواة.

وكان محمد يعرف أنه بهذا العمل إنما يثير أهل مكة لكي يخرجوا إليه في قتال صريح.. ولكنه كان يعلم ألا سبيل له إلى استرداد حقوق المسلمين إلا من هذا الطريق..

وتجمع أهل مكة عندما تعددت حوادث الاعتداء على قوافلهم، وأخذوا يتدبرون أمرهم ويقررون ماذا يصنعونه إزاء محمد وأتباعه المسلمين.

وقال أهل مكة: لقد فسدت تجارتنا ولم نعد نجد أمناً في إرسال سلعنا إلى الأسواق الأجنبية.. وكل هذا بسبب الإسلام ومحمد.

ونهض أحد التجار ليقول: لنعلن الحرب على محمد وأصحابه.

وأجابوه: ولكنه في يثرب ونحن في مكة. وبيننا وبينه مسافة طويلة. فكيف يمكن أن نصل إليه.

قال التاجر: نستأجر جنوداً ونذهب بهم إلى يثرب ونقضي عليه هو ورجاله قضاء لا رجعة لهم بعده.

وأخذ القوم بالنصيحة.

واستؤجر المقاتلون.. وأعطوا الرماح للقتال بها.. وقدمت لهم الجمال ليركبوها.. جمال سريعة جداً يمكن المطاردة بها واللحاق بالعدو..

وأعلنت مكة الحرب على المدينة.. وعلى محمد.. وعلى كل من تبعه من المسلمين..

وعلم محمد بخطة قريش.. وأسرع بتنظيم رجاله لمواجهة العدو وجيوشه.

* * *

معركة بدر

كان لا بد أن تقع المعركة بين المسلمين والمشركين..

فمن قبل.. أخرج المسلمون مطرودين هائمين على وجوههم من مكة.. لم يحملوا معهم من أملاكهم وحاجاتهم سوى أقل القليل. بينما استولت قريش على كل ما تركه المهاجرون الذين فروا من أرضهم وبيوتهم لطول ما أوذوا وعذبوا.

ولم يكف كل ذلك قريشا، بل دأب رجالها على الوقوف في سبيل الدين الجديد بما ناصبوه من عداء، وما نشروه بين جموع الحجيج الذين يفدون إلى مكة من أراجيف وأكاذيب على النبي، يريدون بها صد الناس عن دينه..

من هنا كان لابد من قتال الفئة الباغية التي لا تعرف سوى الظلم.

أما المشركون من قريش.. فقد فر محمد من بينهم، وجاءت الأنباء تترى بأن أهل يثرب عصموه ومنعوه، وغاظهم ما راحوا يسمعونه من أحاديث جزيرة العرب كلها كلما رحلت قبائلها وقوافلها حول الدين الجديد.. وساءهم أن ينتشر دين يذم آلهتهم وآلهة أبائهم وأجدادهم ويحقرها.. أيمكن بعد ذلك لقريش أن تسكت أو تكف عن ملاحقة النبي بكل ما تملك من كيد ومكر..؟

وهكذا كانت بداية المعارك الكبرى بين الطرفين عند بئر بدر، في رمضان من السنة الثانية للهجرة.

في ذلك اليوم ندب الرسول نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة لقريش قادمة من الشام، فيها أموال للمسلمين صادرها المشركون قبل الهجرة وبعدها. غير أن أبا سفيان رئيس القافلة علم بخروج محمد ورجاله، فغير طريقه وتوجه إلى البحر وسار بحذائه، بينما أرسل إلى قريش من يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهم، ويستنفرهم لاستنقاذها. وخرجت قريش للقاء محمد.. والتقى الجيشان عند بدر، حيث نزل المسلمون عند أدنى ماء قبل أن تصل إليه قريش، وأفسدوا القليب بإلقاء التراب والأحجار. وبنوا فوقه حوض ماء. وحالوا دون أن يصل إليه المشركون.

ودارت المعركة بين قريش بقواتها التي بلغت الألف، ورجال محمد الذين لم يتجاوزوا الثلاثمائة.. ونصر الله المسلمين الذين استشهد منهم أربعة عشر، بينما قُتل سبعون من رجال قريش وساداتهم..

معركة أحد

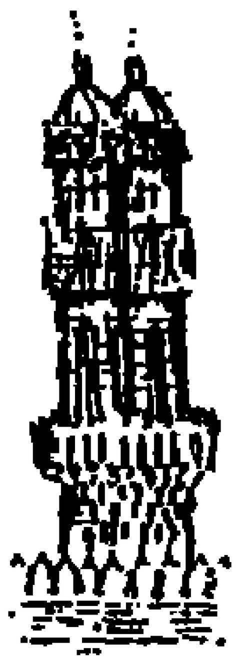
ولم يكن من المعقول أن تسكت قريش..

وكان لا بد أن تقع حرب شديدة.. للثأر..

وخرجت قريش بثلاثة آلاف رجل خصصت لهم جميع ما كان من مال القافلة التي كانت سبب بدر. وخرج محمد في ألف من المسلمين ليلتقي بهم عند جبل أحد. غير أن أحداثاً جرت غيرت ما كان يمكن أن تكون عليه نهاية المعركة.. فقد حدث انقسام في صفوف المسلمين بعودة عبدالله بن أبي إلى المدينة بثلث الجيش.. بينما أهمل الرماة وسط المعركة وصية الرسول لهم بالثبات في أماكنهم دون طمع في الغنيمة حتى يصدر إليهم أمره.. وكان لابد حين اندفعوا يتعجلون الغنيمة تاركين أماكنهم، أن ينتهز المشركون بقيادة خالد بن الوليد فرصة خلو الجبل من الرماة، فيأتوا المسلمين من خلفهم ويعملوا في ظهورهم الرماح..

ودب الذعر في المسلمين خاصة عندما صاح صائح أن محمداً قد قتل..

وكان الذي حدث لمحمد هو أن الأعداء وصلوا إليه بالفعل، ورماه أحدهم بحجر فأصيب في وجهه وشقت شفته. ثم ضربه آخر فشج جبهته. وتبعه ثالث بضربة في الوجه فدخلت حلقتان من خوذة الرأس في وجنتيه، فوقع في حفرة من الحفر التي كان المشركون قد حفروها لتكون أفخاخا لاصطياد المسلمين.



وانتشر في الناس أن محمداً قد قتل. وانطلق أهل مكة عائدين وفي قلوبهم فرح كبير.

وانتهت المعركة في هذه المرة بالفعل بانتصار قريش وهزيمة المسلمين..

ولكن هل كان من الممكن بعد ذلك أن تسكت قريش.. وأن يستكين المسلمون..؟

وهل كان من المعقول أن تدع قريش تلك الفرصة بعد أن اطمأنت إلى أنها قد هزمت محمداً وأتباعه، فلا تعد العدة لغزوة أخرى تقضي بها على ما بقي له من قوة..؟

وهل كان من الممكن أيضاً أن يرضى المسلمون بما واجهوه من استخفاف بعض القبائل المحيطة بهم، بين منافقين وكفار ويهود، حين استهانوا بقوة أتباع محمد وتجرأوا عليهم بعد يوم أحد..؟

الغزوات بعد أحد

لم يكن هناك من شك في وقوع معارك وحروب وغزوات جديدة. حتى قبل أن يلتقي المسلمون وقريش من جديد في يوم الأحزاب.

من بين ذلك ما حدث بين المسلمين ويهود بني النضير.

ولعل بني النضير ظنوا الأمر سهلا أن يقتلوا رسول الله.. وكان محمد قد جاءهم يستعينهم في دية قتيلين قتلهما المسلمون خطأ- كما كان يقضي بذلك

حلف الحديبية بينهم وبين المسلمين- ولم يرفض بنو النضير، واستمهلوا النبي ليأتوا له بالمال..

ولكنهم كانوا في ذلك الوقت نفسه، قد خلوا بعضهم إلى بعض يتآمرون على حياة الرجل الذي استأمنهم، وجلس إلى جانب جدار من بيوتهم حتى يأتوه بالمال.

وقال واحد منهم: أمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟.

واستحسنوا الرأي.. وصعد أحدهم ليلقي بالحجر على الرسول وهو جالس في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي. غير أن السماء كانت ترى كل شيء، فأتى الخبر إلى محمد بما أراد القوم. فعاد إلى المدينة، ولم يكن بد من أن يسير إليهم ويحاصرهم لأيام ستة.. عندما انتهت كان بنو النضير قد طلبوا الأمن منه على أن يتركوا الأرض ويخرجوا إلى خيبر.

وكان بعد ذلك لقاء المسلمين وقريش في غزوة الأحزاب. حيث انضم يهود خيبر وبنو النضير ومن ألبوه معهم إلى قريش التي اجتمعت للقضاء على محمد..

واتصل بالرسول ما عزم عليه المشركون، فحفر حول يثرب خندقاً. عجز المشركون عن تخطيه طوال أيام أحكموا فيها الحصار على المدينة. واضطر المسلمون آخر الأمر أن يعملوا الوقيعة بين صفوف الأحزاب، فاختلفت، وعزم بعضها على الرحيل. ثم لعبت الطبيعة دوراً آخر بريح عاتية جعلت تنزع خيام قريش وحلفائها.. وكان لا بد مع ضيق الأحزاب من طول الحصار أن يحس المتحالفون بالإخفاق وأن يقرروا الرجوع يجرون أذيال الخيبة والفشل.. وأن يكون رجوعهم فرصة جديدة لسرعة انتشار الإسلام بين قبائل العرب..

وراحت الأيام تمضي..

ومع مضيها كان لابد للمسلمين أن يحولوا اهتمامهم إلى اليهود ليؤدبوهم على نقضهم العهود وتحالفهم مع مشركي مكة.

وواصل المسلمون انتصاراتهم على اليهود والمنافقين.. والكفار..

وزاد عدد المسلمين مع كل انتصار أحرزه محمد..

ولما انتهت حروب محمد مع قريش ومن تبعهم.. استقر في المدينة للعمل على تقدم انتشار الإسلام..



وبالرغم من شهرة محمد وما صار له من قوة.. فإن نجاحه لم يغيره.. بل ظل في بيته وديعاً رقيق الجانب. وكان يعامل الخدم وكأنهم أبناؤه. وأقام عند باب بيته أريكة كل من جلس عليها قدم له الطعام والكساء.. وأحب الأطفال ولم يكن يشغله شاغل عن الوقوف معهم وملاطفتهم، وعندما كان يخرج في قتال فقد كان يصر على أداء نصيبه من العمل رغم أنه كان الرسول وكان القائد والزعيم.

أركان الإسلام

ولكنه ظل في الحرب كما في السلم يهدي أتباعه. وحاول أن يجعل تعاليمه غاية في البساطة حتى يمكن أن يتبعها ويفهمها حتى أشد الناس جهلا..

فكان يقول أن المسلم الحق عليه أن يتبع أركان الإسلام الخمسة:

شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

صلاة الأوقات الخمسة.. الزكاة والبر بالفقراء والإحسان لهم.. صيام شهر رمضان.. حج البيت لمن إستطاع إليه سبيلا..

والحق.. لقد كان التوحيد أول أركان دين الإسلام. وإذا كان محمد ومن جاء بعده من الخلفاء، لم يقبلوا هوادة ولا مساومة في الدعوة إلى التوحيد من المشركين وعبدة الأوثان، إلا أنهم كانوا يؤمنون بأن الدعوة التي جاء بها النبي قد بلغت من التسامح مع أهل الكتاب من أتباع عيسى وموسى حداً لم يعرف مثله أصحاب هذه العقائد أنفسهم.. فقد كان نصب أعينهم ما جاء به القرآن حين قال «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم

بالتي هي أحسن ». وكانوا يعرفون أن الهدف الأسمى لرسالة محمد هو الإيمان بالله لا شريك له.. وفي سبيل التوحيد تسهل كل العقبات وتتساوى القبائل والشعوب جميعها بل والأديان السماوية أيضاً.. ولطالما ردد أصحاب محمد وخلفاؤه تلك الآية التي جاءت في الكتاب « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ».

ولقد كان كل ذلك هو الحقيقة.. فمحمد الرسول لم يدع قط أنه مبتدع، بل قال أنه مكمل للشرائع السابقة ومعيد للحنيفية الفطرية، التي هي دين إبراهيم بل دين نوح وآدم، وأنه لا تبديل لذلك الدين القيم الذي يستند إلى وحدة الله، ويترتب عليه وحده خلقه.. وإذا كان محمد قد اختلف مع أهل الكتاب في بعض ما قالوه فإنما كان ذلك حيث كان تنزيه الخالق موضع الشك. ففي سبيل التوحيد والتنزيه جادل وخاصم ولم يصالح أو يهادن أحداً على حساب دعوة الإسلام..

وما كان هناك من شك قط فيما قررته الدعوة المحمدية من أن الناس كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده، ثم ضلوا، فإذا عادوا لها استقاموا.

والواقع أن الشرك بالله غالباً ما جاء نتيجة لبدع وخرافات وأباطيل أحدثها الناس حين عددوا الآلهة وابتدعوها: وأقام المبتدعون والمفسدون أنفسهم قوّماً على الآلهة وحراساً على معابدهم، كما جعلوا أنفسهم وكلاء ونواباً يملكون سلطان الآلهة الذين ينوبون عنهم. وتآمر ذوو الاغراض وتساندوا على تضليل الناس، وانتهوا بوضعهم في أسر مجموعة من الخرافات من الوكلاء والمرشدين خزنة الأسرار الدينية هم في الواقع الآلهة المتصرفون في المجموعات البشرية.



ومن هنا تحولت العبودية للصنم إلى عبودية للقائمين على الصنم أنفسهم. واستطاع هؤلاء أن يستغلوا ذلك السلطان الذي منحوه

لأنفسهم فطغوا واستبدوا.. حتى بدا الشرك والاستبداد حليفين متلازمين..

ثم جاء التوحيد في دين محمد..

وكان الإلّه الذي دعا إليه محمد منزهاً عن الهوى والغرض.. لا يريد من خلقه رزقاً ولا طعاماً ولا قرباناً.. وليس له وكلاء ولا نواب ولا وسطاء. فهو يقول للناس «ادعوني أستجب لكم» وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد.. وهو الرحمن الرحيم، الغني القدير، الحكم العدل، المنتقم الجبار البارىء المصور، العفو الغفور، المعطي المانع، المسيطر فوق عباده، العزيز الحكيم..

وأطل الناس حولهم وهم يتأملون حقيقة الإله الواحد، وبدا لهم أن كل تلك الصفات وما معها من تنزيه عن وجود شبيه ومثيل.. جعلت الألوهية في وضع يعلو بها عن الاستغلال السيء، وجعلت الناس تحتها متساوين في حكمها أكرمهم عند الله أتقاهم، وأقربهم أبرهم بالعباد..

وأدرك الناس أن الظلم والأثرة والفساد الذي يلازم الشرك.. يتحول كله من الإيمان بالتوحيد إلى إنصاف وعدل ومساواة..

وعرفوا أن الإيمان القلبي الخالص من الشوائب، يتبعه كل أنواع الفضيلة. لأن المؤمن يجذ حسابه مع الله مباشرة، وهو من أجل ذلك لا يعيش لنفسه بل لكل المحيطين به.. وهو لا يكن ظالما لأنه يعارض بالظلم صفة من صفات الله وهي العدل.. ولا يكون غليظاً قاسياً بينما ربه رحمن رحيم.. ولا يكون كاذباً مخادعاً منافقاً لأن حسابه مع الله العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. ولا يكون ذليلا جباناً لأنه يعلم أن ذلك لا يفيده ما دام الأمر بيد الإلّه الواحد..

وبذلك الإيمان تحول الناس غير الناس..

الأعراب الذين وأدوا البنات وأعتادوا سفك الدماء والنهب، صاروا خاشعين راكعين يبتغون فضل الله الواحد ورضاءه.

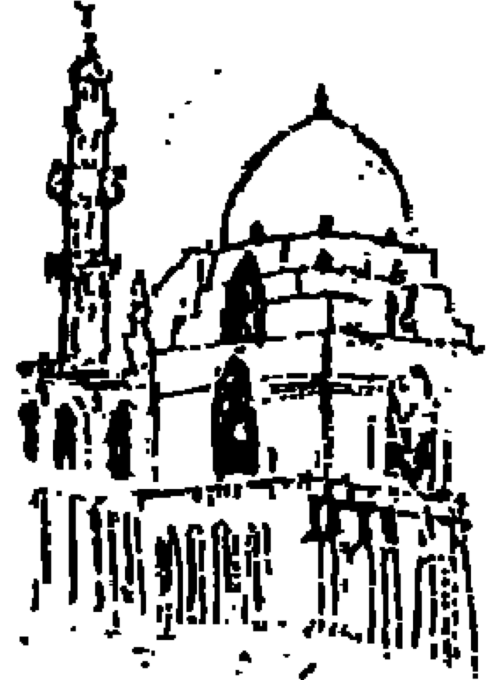
والأسرة التي كان يرث الرجل فيها زوجات أبيه تحولت إلى أسرة مطهرة. والقبيلة التي كانت لا تعرف حقاً إلا لعصبيتها، ولا ترعى ذمة إلا لمن كان منها، صار فيها من يرد إلى النصارى أموالهم لأنه عجز عن رعاية ذمتهم، كما حدث من خالد بن الوليد حين أجلاه الروم عن حمص فرد إلى المسيحيين أموالهم وهو يقول: إنما أخذناها لحمايتكم وقد عجزنا عنها.

والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا يخشون في الحق لومة لائم.

ومن الجفاة القساة كان الخليفة الذي ترده امرأة وهو واقف بين الناس فيقول «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

والمجتمع الذي عاش على كل السوءات تقسمه العصبيات القبلية والقسوة الفردية، تحول إلى مجتمع تسوده الرحمة والإخاء والمساواة.. يخشى كل فرد فيه أن يكون واحداً ممن جاء ذكرهم في حديث محمد الرسول حين قال:

«يقول الله يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. فيقول ابن آدم: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، فيقول: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أن عبدي فلانا استطعمك فلم تطعمه؟ أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، فيقول: كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول: استسقاك عبدي فلم تسقه. أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي».



وهكذا عرف الناس أن البر والرحمة والمساواة أركان هامة من أركان دين محمد الذي قال «كلكم لآدم.. وآدم من تراب» وأن ذلك الدين يؤمن بالوجود الإنساني ويبعث الكرامة البشرية، كما يؤمن بالمساواة المطلقة في الحقوق والواجبات وفي تكافؤ الفرص بين الناس بعضهم بعضاً..

كما يحقق التحرر الكامل للإنسان من ضغط الضرورات سواء نشأت عن اعتبارات اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية.

ومرت السنوات.. ثم كان فتح مكة..

فتح مكة

والحق لقد كان حج البيت الحرام في مكة أحد أركان الإسلام الهامة.

وكان محمد يعرف أن الناس منذ قرون طويلة يعتبرون المسجد الحرام والحجر الأسود وبئر اسماعيل في مكة أماكن مقدسة. غير أن الشيء الذي حدد موعد غزو مكة كان نقض قريش لصلح الحديبية الذي كانوا عقدوه مع المسلمين في السنة السادسة للهجرة، واتفقوا فيه على هدنة قدرها عشر سنوات، وأن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه، ولا تلزم قريش برد من يأتي إليها من عند محمد. إلا أن مكة لم تحترم الصلح وأغارت على أحد القبائل الموالية للمسلمين. فاستجارت القبيله بمحمد. فكان لابد أن يسير إلى مكة لفتحها.

وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة.. حين جمع محمد جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل مسلح من أتباعه وزحف بهم على مكة.

وعندما عرف أهل مكة نبأ اقتراب الجيش هربوا إلى التلال رعباً وفزعاً. ولم يعد بمكة واحد من أهلها. وأخذ الناس وهم فوق التلال يرقبون في خوف تقدم الجيش العظيم القادم من المدينة.

ودخل المسلمون مكة، المدينة المهجورة، وعلى رأسهم رسولهم وقائدهم على ظهر جمله «القصوى»..

وزحفوا في الشوارع الخالية رأساً نحو المسجد الحرام.

وأوقف محمد جمله أمام صنم المعبود هبل ذي اليد الذهبية، وأشار إليه وهو يقول:

- قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً..

وانهال أتباع محمد على الصنم وأنزلوه من مكانه وحطموه. وعندئذ مضى محمد إلى الصنم الثاني وأشار إليه وردد قوله:

- قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

فحطمه المسلمون هو الآخر..

وأخذ محمد ينتقل من صنم إلى آخر حتى قضى على الأصنام الثلاثمائة والستين. وعندئذ أمر محمد رجاله بعدم تحطيم شيء آخر في مكة، أو سلب أسواقها، أو الإتيان بأي خطيئة..

وعندما عاد الهاربون من الجبال ورأوا أن محمداً قد جاء مسالماً ليتعبد في المسجد الحرام، ولم يكن يعتزم قتلا أو نهباً.. دخلوا دين الإسلام واعترفوا بمحمد رسولاً وزعيماً وقائداً.

وكان ذلك اليوم الذي تم فيه فتح مكة من أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية.. فقد تأكدت القبائل العربية التي رفضت الدعوة من قبل، أن المسلمين تلحظهم عناية إلّهية لاقبل لغيرهم بها.. فسارعوا إلى الإسلام ودخلوا فيه أفواجاً..

* * *

وفاة محمد

في العام السادس الهجري، وقبيل دخول محمد مكة.. بدأ يرسل كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام.

كتب إلى هرقل ملك الروم يقول:

« بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم.. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد: أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن تتول فإن إثم الأريسيين عليك. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم.. ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً.. ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ».

وكتب إلى نجاشي الحبشة:

« بسم الله الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأفخم ملك الحبشة، سلام أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته. ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة. فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين. فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر. فإني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي. والسلام على من اتبع الهدى ».

على أن الملوك والأمراء لم يستجيبوا إلى دعوة محمد.. وكان لا بد أن تسير جيوش المسلمين بعد ذلك لتقر دعوة الإسلام بين الشعوب.. ولم تمض سنوات ثلاث حتى أصبحت كل بلاد العرب وكثير من القبائل المجاورة تحت دين الإسلام..

وهنا كانت مهمة محمد رسول الله قد انتهت وتحققت..

ففي السنة العاشرة للهجرة.. وكان محمد قد بلغ الثالثة والستين.. شعر أن نهايته قد دنت.. فخرج للحج في أكثر من مائة ألف من المسلمين.. وعند جبل عرفات وقف محمد يلقي خطبة الوداع الخالدة التي بين فيها دستور الإسلام وقواعده، ونادى بالمساواة بين الناس لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي والشريف القرشي..

« أيها الناس.. إن ربكم واحد. وإن أباكم واحد. كلكم لآدم. وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ».

وفي ذلك اليوم تم القرآن بنزول الآية الكريمة:

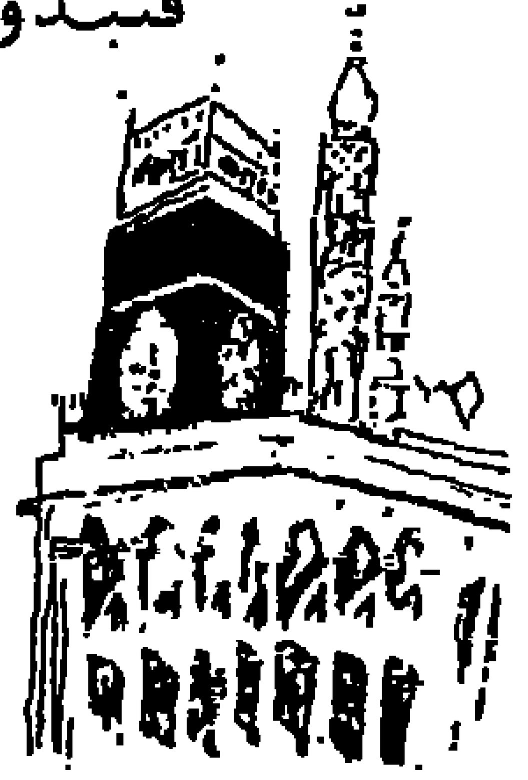
« اليوم أكلمت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ».

ولم تمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض محمد وانتقل إلى جوار ربه بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة كما كلفه بها الإله الواحد العظيم.

* * *

معجزات محمد

بعد وفاة أصحاب العقائد والأنبياء والرسل.. غالباً ما كان يحدث أن تنسب إليهم معجزات وعجائب.. في أغلبها من الخرافة بقدر ما فيها من خيال مؤلفيها من الكهان والمغرضين. والذين يكتبون التاريخ لا يجدون ما يمنعهم قط من أن ينقلوا ما يسمعونه ويزيدوا عليه عن قصد أو غير قصد، فتبدو بعض المعجزات الحقيقية بما أضيف إليها من خيال وكأنها الخرافات.. ثم يختلط الحابل بالنابل فلا يكاد الصالح يبين من الطالح ولا تكاد الحقائق تعرف مما أحاط بها من «أباطيل»..



وهذا هو الذي حدث بالضبط عندما كتب المستشرقون وكتاب الغرب والشرق عن معجزات محمد..

ادعى البعض أن ملك فارس كان يتجول مع بعض مستشاريه ذات ليلة حين أطل إلى السماء الصافية التي تألقت فيها النجوم. وظهر على حين فجأة نجم مفرد فاق في لمعانه ضوء الشمس. ونظر الملك إلى مستشاريه الذين كانوا يتبادلون النظرات في عجب. ثم قال كبيرهم «لا بد أن نبياً عظيماً قد ولد» وعندما عادوا ينظرون من جديد إلى السماء ويحسبون مكان النجم وجدوا أنه كان في ناحية مكة..

وكان ذلك اليوم هو يوم ميلاد محمد.

وتقول قصص أخرى أنه حدث وقت ميلاد محمد أن رقصت الجبال وغنت «لا إله إلا الله» وتهامست الأشجار في سعادة وابتهاج «محمد رسول الله».. كما تجمعت كل الطيور حول مكة وأخذت تسبح بحمد الله، ورفعت كل المخلوقات السابحة في الماء رؤوسها إلى أعلى وهي تقول «لقد آن الأوان فقد جاء إلى العالم النور الذي يهديه».

وتقول إحدى القصص أن زواراً عديدين جاءوا ليروا محمداً يوم مولده.. ولكنهم عندما كشفوا عن وجهه غطوا أعينهم بسرعة حتى لا يخطف أبصارهم بإشراق وجهه..

وقالوا أيضاً أن عدداً كبيراً من ملائكة السماء جاءوا في صورة أطفال صغار إلى بيت محمد ومعهم إناء من الذهب مليء بندى الجنة استحم فيه الطفل الصغير.

وكان هذا هو السبب في أنه كان نظيفاً دائماً منير الوجه ناصعه.

وقالت قصص أخرى أن محمداً لم يتعرض للحرارة قط، حتى أيام كان يقطع الصحراء مع قوافل التجارة. فقد كانت سحابة تظلله أينما سار فتمنع عنه الحر والقيظ.. وفي الليل كانت عيناه تنيران له الطريق، وإذا سقط منه شيء على الأرض كان في استطاعته أن ينحني فوقه ويلتقطه بسهولة كما لو كانت الشمس مشرقة..

وقيل إنه عندما أزيح فراشه جانباً، وحفر قبره تحت المكان الذي مات فيه، وجد الذين حفروا القبر حجراً يمكن أن يرى ضوؤه من بعد كبير.

وأمثال هذه المعجزات كثير مما قاله المستشرقون والمؤرخون واختلفوا فيه وتناقضوا وراحوا يذيعونه في محاولات للنيل من المسلمين.

وإذا كان بعض ما قيل ربما حدث وبعضه لم يحدث.. إلا أنه كان ثمة معجزة لم يستطع أن يختلف في حقيقتها أحد قط..

القرآن

وكانت هذه المعجزة هي القرآن.. ذلك الكتاب المقدس الذي شغل غير المسلمين من الباحثين تماماً كما شغل المسلمين أجمعين.. فهو الذي جمع المسلمين حوله منذ نزل به الوحي على رسول الله محمد حتى اليوم، وكان هاديهم ومرشدهم وعاصم دينهم وعقيدتهم من الفتن والطغيان.

أما كيف تمت هذه المعجزة الكبرى، وكيف نزل كلام الله.. وكيف

اجتمع عليه الناس وكيف اختلفوا حوله.. فتلك حقيقة تبدأ تفاصيلها مع نزول الوحي على محمد وهو بعد يتعبد في غار حراء، حين غشيه وهو في سنة من النوم نور نزل إليه من السماء، وإذا بجبريل واقف أمامه يدعوه إلى النهوض ويقول له «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم».

هكذا نزل الوحي على محمد، وانطلق لسانه بالقرآن الكريم.

وإذا كان الناس قد عجزوا عن معرفة الطريقة التي كان الوحي ينزل بها على محمد.. إلا أن علماء الدين والمفسرين أجمعوا على أن الوحي كان يأتي رسول الله في صور متباينة.

إحدى هذه الصور أنه كان يأتي كالرؤيا في المنام، كما حدث عند نزوله على محمد في غار حراء ليلقنه سورة القلم إذ هو في سنة من النوم.. والصورة الثانية للوحي ما كان يلقيه جبريل في روعه وقلبه حيث كان محمد لا يرى شيئاً ولكن يحس أن معنى جديداً وعاه قلبه في صورة خاصة.. والصورة الثالثة أن يظهر الملك لمحمد في هيئة رجل يخاطبه حتى يعي عنه ما يقول.. والحالة الرابعة كان يأتي فيها الوحي للنبي مثل صلصلة الجرس، وكانت هذه الحالة أشد ما يعانيه النبي حتى أن جبينه كان يتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد. والصورة الخامسة التي روي أن الوحي ظهر فيها هي أن يرى النبي جبريل في صورته التي خلق عليها.

وهناك صورتان أخريان أوردهما «ابن القيم» هي التخاطب المباشر كما كلم الله موسى، والأخرى ما أوحاه الله إليه وهو فوق السماوات من فرض الصلوات وغيرها.

وقيل إن النبي رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين، إحداهما عند البعثة والثانية عند الإسراء.. وهو ما يفسرون به ما جاء في صورة النجم «والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي، علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى، وهو بالأفق

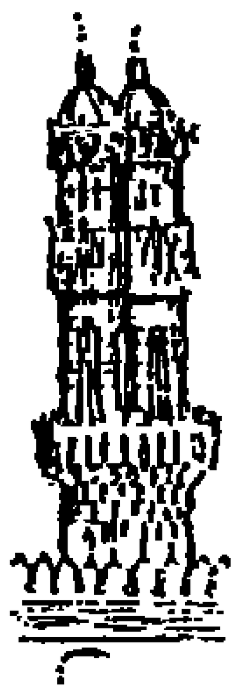
الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى أفتارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى ».

هكذا نزل القرآن الذي لم يكن لمحمد من سلاح أقوى منه وأعظم يستعين به على المشركين طوال الأعوام الثلاثة التي أقامها بمكة، فكان نفاذ القرآن إلى قلوبهم أقوى من كل ما أبدوه من عناد.

وكان كفار قريش يتجادلون كل يوم حول الآيات التي يأتي بها محمد.. فيقول أحدهم إنه سحر، ويقول آخر بل هو شعر، ويقول ثالث ما هو بسحر ولا بشعر ولكنه كهانة.. فيقول لهم شيخهم: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لغدق وإن فرعه لجناة. وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل.

ولكن عتبة بن ربيعة الذي ترسله قريش ليفاوض النبي في ترك دعوته، لا يكاد يعود من عنده بعد أن يسمع كلامه حتى يقول لقريش وهم يسألونه عما وراءه:

« ورأيي أني سمعت قولاً. والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ».



استمر الوحي يهبط على محمد بالقرآن مدة استغرقت ثلاثة وعشرين سنة، كان يوافيه خلالها بأحكام الله وما شرع لعباده، في آيات تحل ما يعرض للنبي من مشكلات وتذلل ما يعترض مهمته من عقبات وتيسر له الطريق وترسم الخطط.

وكانت الآيات توحي إلى النبي متفرقة بحسب الحاجة، بين خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل. وكانت الآيات التشريعية وهي آيات الأحكام تنزل على الرسول في الغالب جواباً لحوادث في المجتمع الإسلامي.

وكانت تنزل في أحيان أخر جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين، وقليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة بغير سؤال.. أما الأحكام التي أنزلت بدون حادث أوسؤال فهي آيات تقل كثيراً جداً عما جاء في إجابات على أسئلة متصلة بأحداث معينة..

ولقد اختلفت الآيات التي نزلت من القرآن قبل الهجرة عن تلك التي نزلت بعدها. فقبل الهجرة كان الرسول يناقش قريشاً في المبادىء العامة يختلف وإياهم في الألوهية وهل أساسها التوحيد أم تعدد المعبودات، ويخوفهم بيوم القيامة ويرهبهم بما فيه من بعث وحساب يتبعه الثواب أو العقاب.. ويطالب بإنصاف نسائهم وعبيدهم ويسوي بين فقيرهم وغنيهم وينبههم إلى أن في أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم.

فلما هاجر الرسول إلى المدينة، أخذ القرآن يفصل ما أجمل في العهد المكي من أمور العبادة ومبادىء الأخلاق، كما وضع النظريات العامة وشرع للمسلمين نظم المعاملات كالبيع والشراء والزواج والطلاق، وحرم المنكرات كالخمر والزنا والميسر، وقرر الحدود والقصاص.

وفي تلك الآيات شرعت أركان الدين. فشرعت الصلاة والزكاة في مكة، أما كيفية إقامة الصلاة وألوان الزكاة وحدودها فلم يشرع إلا في المدينة كما شرع بها الصوم.

وعندما شرعت الصلاة كان ذلك لتكون رمزاً لشرك الخالق بما أنعم على عباده، وليلتمس بها المسلم العون مَنَ الله.

أما الصوم فشرع لتقوم به الروح على كبح جماح النفس إذا ما طغت المادة، لما فيه من كسر حدة الشهوات الجسمية التي تعوق الروح عن السمو اللائق بالإنسان.

والزكاة تتفق مع الصوم في ذلك التشريع.. فبها تطمئن نفس المسلم وتؤمن بما عليه من حق نحو بني جنسه وبذل هذا الحق عن حب ورضا: وذلك بما يعطي المرء الفقير والمحروم.

أما الحج فحين شرع فقد كان ذلك ليجتمع فيه القادرون من المسلمين.. لأن الإسلام دين وحدة وتعارف وألفة.

كل ذلك جاء في القرآن.. كلام الله الذي كلما ازداد تكراره ازداد تأثيره في النفوس.. والذي عجز عن الإتيان بمثله مجتمع حي هو أصل اللغة العربية، لم يستطع أن يرد على تحديه، ولا أن يحاكيه.. برغم كل محاولات التقليد التي حاولتها قريش فلم تجد بداً آخر الأمر من الاستسلام.

★ ★ ★

المتنبئون

مضت الأيام بالمسلمين بعد وفاة النبي كما لم تمض من قبل أبداً..

فبرغم أن محمداً أعلنها داوية وهو يتلو «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي» إلا أن عدداً كبيراً من أتباع محمد ما كانوا ليصدقوا قط أن الموت يمكن أن يقبض رسول الله.. فما كان من المعقول في نظر هؤلاء الذين افتتنوا به أن يموت محمد.

وزاغت أبصار كثيرة في كل مكان.. وارتفعت همسات حائرة في عدد من القبائل، بينما انكشفت من بعض الصدور ما كانت تخفيه من حقد وغل..

واضطربت المناقشات واشتدت في كل مكان من أرض العرب.. وارتفعت أصوات تقول:



- لقد ذهب محمد وانتهى الإسلام بوفاته.. وما كان لأحد أن يحل محله ويأخذ مكانه.. ولقد فارقنا إلى ربه بعد أن كان يقوم بالسفارة عنه: يبلغنا أوامره ونواهيه، ويتمتع بالعصمة عن الخطأ والتنزه عن الزلل.. وما في العالم كله إنسان يتصف بهذه الصفات التي كانت الضمان الوحيد لمساواة القبائل بعضهم ببعض وجعل الناس كأسنان

المشط.. فكيف يكون أمرنا إذا جاء من يخلفه ليحكم هواه وأهله وعشيرته في الناس ومصالح الناس؟

ونهض آخرون يتبعونهم ويقولون:

- أجل.. إنه لا يبعد أن يرفع مركز الخلافة من شأن القبيلة التي ينتمي إليها من يخلف محمداً، ويغض من شأن غيرها من القبائل.. فيميل ميزان العدل بين الناس..

وتلفت عدد من الأنصار حولهم وهم يتهامسون:

لماذا يكون الأمر لقريش والمهاجرين يستأثرون به دوننا.. ولولانا ما كان نصر للإسلام ولا بقاء.

وكان المهاجرون يجيبون: منا الأمراء ومنكم الوزراء..

ويرد الأنصار: بل منا أمير ومنكم أمير..

ويهمس بعض من قريش:

- لقد تم الأمر لأبي بكر في خلافة رسول الله.. أفما كان أجدر أن يكون محمد منا نحن بني هاشم..؟

وهمس أبو سفيان بن حرب في أذن أنصار علي ابن أبي طالب:

- كيف يكون الأمر لأبي بكر وليس لعلي ابن عم رسول الله وأول من آمن به.. ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش.. والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالاً.. فيم أبو بكر من أموركم: أين المستضعفان؟ أين الأذلان علي والعباس؟

وينظر بعض الناس من غير قريش إلى كل ما هناك من خلاف ويقولون:

- أو ظنتها قريش ملكاً يورث.. ألا إن قريشاً لن تقوم لها قائمة بعد موت زعيمهم.. لقد سلبتنا قريش حريتنا وأدخلتنا تحت سلطانها بحكم الدين.. فلن نستكين لها أبداً..

على أن أشد ما كان من ذلك الخلاف ما تردد في بعض القبائل من اتخاذ أنبياء جدد لهم أسوة بالنبوة التي قامت في بني هاشم.. إذ كيف يظهر من بني هاشم نبي ولا يظهر في قبائلهم وبطونهم مثل تلك النبوة، التي تعد شارة من شارات الشرف والزعامة، ونوعاً من السلطان يبغيه لنفسه كل فريق..؟

ولعل تلك النبوات لم تظهر ويستفحل بها الأمر قبل انتهاء حياة محمد مثلما حدث بعد موته. فقد كانت الفرصة في ذلك الوقت قد بدت ممكنة.. سواء أكان أصحابها ممن دخلوا في الإسلام، وهم يبطنون غير ما يظهرون.. أم كانوا ممن لم يدخلوا الإسلام، وتمنوا أن يقاوموه، ولكنهم وجدوا أن المقاومة المسلحة وحدها لم تكن تكفي لمنع هذا الدين الجديد، ففكروا في وسائل أخرى غير السيف، هي قيام أنبياء مثل هذا النبي الذي ظهر في مكة..

وكان هذا هو الذي حدث بالفعل..

ففي بني حنيفة باليمامة ظهر مسيلمة، وفي اليمن ظهر الأسود، وفي قبيلة أسد تنبأ طليحة بن خويلد، وفي بني تغلب تنبأت امرأة اسمها سجاح..

فأما مسيلمة فقد زعم أن وحياً يهبط عليه من السماء يسمى «رحمان»، وأنه يهبط عليه في الظلام لا في وضح النهار، وأنه يقرئه قرآناً. وقبل أن تنتهي حياة محمد أرسل مسيلمة إليه كتاباً يدعي فيه مشاركته في الرسالة، ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب.. فكتب إليه الرسول: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب.. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

ولكن مسيلمة تمادى في الحديث عن الوحي الذي يهبط عليه. وقال في قرآنه «يا ضفدع يا بنت ضفدعين. نقي ما تنقين. نصفك في الماء ونصفك في الطين. لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين».

وقال مسيلمة آيات أخرى يقلد فيها قرآن محمد «والباذرات زرعا.

والحاصدات حصدا. والذاريات قمحا. والطاحنات طحنا. والعاجنات عجنا. والخابزات خبزا. والثاردات ثرداً. واللاقمات لقما. أهالة وسمنا. لقد فضلتم على أهل الوبر. وما سبقكم أهل المدر. ريفكم فامنعوه. والمعتر فآووه. والباغي فناوئوه».

وأما طليحة بن خويلد، وهو كاهن من بني أسد، فقد اتبعه قومه ودعوا إليه حلفاءهم من طيء والغوث. وكان وحيه ينزل به عليه - فيما زعم - ملك أسماه ذا النون، ثم عدل عن ذي النون وقال لا بل هو جبريل. ولم يعرف عن قرآنه شيء إلا أنه كان يعترض على السجود في صلاة المسلمين ويقول «صلوا قياما فإن الله لا يقنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم».

وأما الأسود العنسي الذي ادعى النبوة في اليمن وتابعه قومه، فقد طغى وبغى ودانت له بلاد نجران، وهاجم صنعاء وقتل أميرها وتزوج امرأته، وألقى الرعب في قلوب ولاة المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك إلى الرسول. فبعث محمد إليهم فأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسود، الذي كان يقول أن وحيه ينزل به عليه ملك سماه «ذا خمار»، وقد إئتمر الولاة به حتى قتلوه غيلة في الليلة التي مات الرسول في صبيحتها.

وأما سجاح فقد ادعت النبوة وقالت أن لها قرآنا يهبط عليها به الوحي، غير أن هذا الوحي صمت حين لقيت مسيلمة وتزوجته، وكان الصداق الذي أعطاه لها هو إعفاء أتباعها من صلاة العصر، وقد ظل بنو تميم وقتاً غير قصير لا يصلون العصر حتى لا يضيعوا صداق ابنتهم زوجة مسيلمة..

* * *

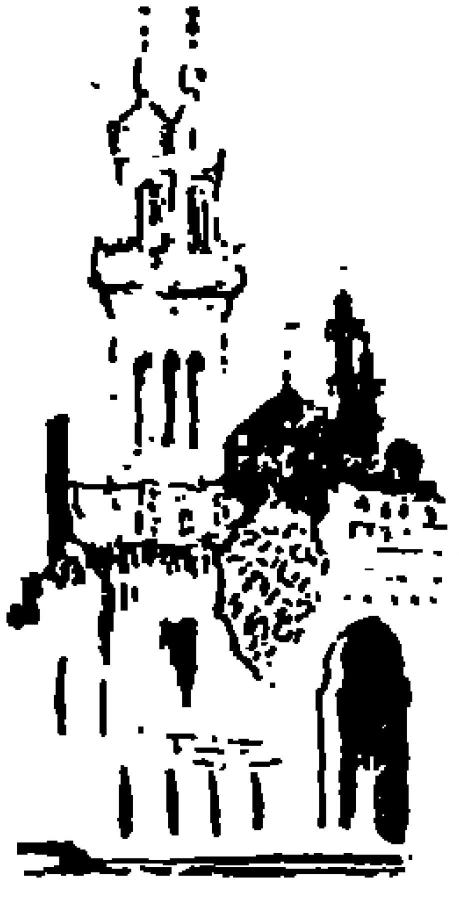
المرتدون

كل ذلك حدث في أرض شبه الجزيرة، واستفحل أمره خاصة بعد انتهاء حياة محمد.. وكان ممن التف حول هؤلاء المتنبئين عرب لم يؤمنوا

بنبوتهم، وإنما فكروا في الارتداد.. وانحازوا إلى هؤلاء المتنبئين يستنصرون بهم على قريش، ليتخلصوا من زعامتها وسيادتها التي فرضتها عليهم.

ولم يكن من المعقول لأبي بكر وقد تولى الخلافة على المسلمين، أن يسكت على كل تلك الأحداث التي كان يمكن أن تودي بالإسلام كله. وكان لا بد أن يحارب المتنبئين والمرتدين، فأرسل إليهم جيوشه وأمر كل قائد بالمسير إلى ناحية من نواحي بلاد العرب، بعد أن كتب له عهداً يأمره فيه بعدة أشاء:

- الجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان..
- ألا يرد المسلمين عن قتال عدوهم..
- ألا يقاتل إلا من كفر بالله ورسوله..
- ألا يدخل في الإسلام قوماً حتى يعرفهم ويعلم ما هم، حتى لا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلتهم.



ومع كل قائد من قواده أرسل أبو بكر كتاباً يدعو جميع المرتدين للرجوع الى حظيرة الدين، ويرد الشبهة التي نشأت عن موت الرسول بأنَّه بشر يموت كما يموت كل إنسان. ثم هددهم بالقتل والإحراق وسبي النساء والذراري إذا لم يرجعوا..

ودارت المعارك في كل مكان..

ومن جديد.. كان النصر حليف المسلمين.. وارتفعت كلمة الدين الإسلامي من جديد بعد أن أعمل القواد وجنودهم السيوف في رقاب المرتدين.. على أن المسلمين وهم يحاربون المرتدين لم يكن هدفهم قط- كما أدعى بعض المستشرقين من بعد- نشر الإسلام بحد السيف وإرغام العرب على الدخول في هذا الدين بالرغم منهم، فما كان المرتدون في الواقع مسلمين ممن دخلوا الإسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو مبادئه فهؤلاء لم يرتد

منهم أحد قط، ولكن المرتدين كانوا أحد اثنين:

أولهما: قوم لم يخالط الإسلام قلوبهم، إذ كانوا من الأعراب الذين تعودوا النفاق، ولم يمض عليهم من الزمن ما يكفي لأن يؤثر الدين في قلوبهم، فأرادوا القضاء عليه وهو لا زال في المهد.

والثاني: قوم منعوا الزكاة فقط زعماً منهم أنها إتاوة تدفع إلى الرسول، وأنهم بعد موته أصبحوا في حل من عدم دفعها لخليفته، وهؤلاء لم يرتدوا عن الإسلام لبغضهم إياه أو كراهتهم فيه وإنما ظنوا أن الإسلام قد انتهى بوفاة الرسول.

ولقد كان الإسلام شديد الحيطة في أمر المرتدين كلهم.. فهم لم يؤخذوا بالشبهة ولا بالظنون.. وإنما كان المرتد يمهل ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما ألبس عليه من أمر الدين ومادخل فكره من الشبهة في صحته. وذلك حتى يهلك من يهلك عن بينة، أو يعيش من يعيش عن بينة وإدراك، دون أن يتهم أحد فيه بالظلم والطغيان..

* * *

الموالي

كان فجراً حزيناً. لكأنه يبشر بيوم أسود كئيب..

ولكن الخليفة عمر بن الخطاب لم يكن يهتم للنذر السود. وعندما خرج ليؤم المسلمين في المسجد لصلاة الفجر، نفض عن نفسه تلك الذكرى التي أرقته في منامه تلك الليلة، وهو يذكر ذلك النقاش الغريب الذي حدث بينه وبين أبي لؤلؤة الفارسي، أحد الموالي الذين أوصى بهم والي الكوفة المغيرة بن شعبة. في ذلك اليوم كان عمر يتحدث إلى أبي لؤلؤة عندما ذكر له أن الفرس يصنعون طواحين الهواء.

وقال عمر للمولى الفارسي:

- ذكر لي أنك تستطيع أن تصنع رحى تطحن بالريح؟..

ولمح عمر في عيني الفارسي عبوساً غريباً وهو يجيبه:

- لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس..

وأحس الخليفة تهديداً من وراء ذلك الرد الغريب.. ولكنه وإن لم يدرك بالضبط ما يعنيه الفتى، إلا أنه همس لمن حوله: أوعدني العبد..

على أن عمر نفض عن نفسه تلك الذكرى وهو يذهب ليؤم الصلاة. ومر في صفوف المصلين يسويها. ثم وقف عند القبلة.. وبدأ الصلاة وهو يقول «الله أكبر».

وفجأة. سمع المصلون خلفه صرخة خفيفة وصوتاً يهتف محشرجاً:

- آه.. قتلني الكلب..

وخرج المسلمون من الصلاة.. فقد كان الصوت صوت عمر.. الذي كان يخر صريعاً على الأرض وهو يتمتم.. «وكان أمر الله قدراً مقدوراً».

وتلفت الناس حولهم.. فإذا أبو لؤلؤة العبد الفارسي يحاول أن يفر وفي يده خنجر مشرع، لا يقترب منه أحد إلا طعنه، حتى بلغ جملة من أصابهم سبعة رجال.. وأسرع وراءه عبد الرحمن بن عوف فألقى عليه برنساً شل حركته وأوقفه، غير أن العبد الفارسي عندما أحس بوقوعه في أيدي الناس، أسرع فطعن نفسه بنفس الخنجر الذي طعن به خليفة المسلمين..

وقبل أن يلفظ عمر بن الخطاب أنفاسه الأخيرة.. كان آخر ما قاله عندما علم بأن قاتله أبو لؤلؤة:

- الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط.. ما كانت العرب لتقتلني..

وكانت هذه هي الحقيقة..

فما كان في العرب من يجرؤ على قتل عمر خليفة رسول الله.. ولكن كان هناك من يعيشون بين العرب أنفسهم ممن دخلوا الإسلام من الفرس. جاءوا كأسرى حرب أو كصناع وتجار ورقيق. وإذا كان بعض هؤلاء قد دخل

الإسلام عن إيمان حقيقي به، إلا أن الإسلام لم يبلغ في قلوب البعض الآخر مبلغاً كبيراً.. بل ربما انطوت هذه القلوب على غير قليل من الحقد والموجدة على هؤلاء العرب الذين مزقوا أوصال بلادهم ووطؤوا بأقدامهم سيادتها.

وكان هؤلاء الحاقدون من أول أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين. وإذا كان مقتل عمر قد جاء على يد واحد منهم. فإن الفتنة التي حدثت بعد ذلك أيام عثمان بن عفان ثم ما تبعها من انقسام المسلمين وظهور مختلف الفرق والأحزاب التي خرج بعضها على الإسلام نفسه وإن تظاهرت بالإيمان والشدة فيه.. كل ذلك كان وراء نفس هؤلاء الحاقدين..

وكانت الفرصة مواتية حقاً..

فقد كان واضحاً منذ أول خلافة عثمان أن ثمة شيئاً سيحدث.. فما كان عثمان بالذي يستطيع ملء مكان عمر بن الخطاب الذي عرف كيف يسوس أمور الإمبراطورية الإسلامية التي اتسعت خارج الجزيرة العربية اتساعاً هائلا. وما كان الخليفة الجديد بقادر على أن يمسك بيديه المرتعشتين دفة السفينة في حزم وقوة كما فعل عمر في أدق فترة من فترات الإسلام وأخطرها.

من أجل ذلك برزت عوامل النكسة لتسيطر على أقدار المسلمين. ونهض العداء الدفين للإسلام داخل الجزيرة وخارجها يستغل فرصة عدم التكافؤ بين شخصية الخليفة عمر والخليفة عثمان، بشيخوخته وتساهله وضعفه أمام أسرته. فراح يعمل عمله في جسم الإسلام القوي الصلب، وأطلت العصبية القبلية بوجهها الكئيب.. لتجعل الأمويين يضمرون العداء للهاشميين الذين كانوا أنداداً لهم في الجاهلية.

وظهرت عوامل الفرقة والخصام والتنافس في المجتمع العربي في الجزيرة وفي الأمصار.. ثم ظهرت عصبية العرب ضد الموالي خاصة بعد المؤامرة الفارسية التي دبرت لقتل عمر.. فبدت قسوة العرب للموالي واضحة.. ثم

استفحل الأمر.. وبدأت الفرق الإسلامية تظهر في الأفق بشكل سافر.. وبدا الخلاف واضحاً بين المسلمين بعضهم وبعض.

* * *

الفرق الإسلامية

على أن الأحداث التي جرت فيما بعد أكدت بما لا يدع مجالا للشك، أن العداء المقنع للإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، وظهور العصبيات القبلية.. كل ذلك كان ينطوي على مكر بالإسلام ومحاولة لهدمه، من أناس يتسترون بالإسلام ظاهرياً ليغفل عنهم المسلمون. فكان أن وجدت الفرق الإسلامية التي أوجدت بدورها التشاحن والتصارع بين المسلمين.. برغم أن الإسلام في كل خصائصه جاء منكراً الفرقة والخصام، مقدساً رأي الجماعة، عاملاً على إيجاد التعاون والألفة بين الناس. ومشاركة بعضهم البعض في الأحاسيس والمشاعر. بل واستطاع بما رسمه من مبادىء وتعاليم أن يمازج ويؤالف بين مختلف الأجناس البشرية، المتباينة العادات، المتنافرة الطباع، ممن ارتضوه ديناً أو استظلوا به مطمئنين لحمايته.

كل ذلك الذي حدث.. كان بعض اسباب الفتنة التي استفحل أمرها عندما قتل عثمان بن عفان ليزيد الأمر سوءاً على سوء..

وكان أساس الفتنة اختلاف المسلمين أواخر أيام عثمان بن عفان حول تصرفات للخليفة وولاته على الأمصار، رأى فيها بعضهم خروجاً على مبادىء الإسلام واستنكروها عليه. وبذر بذور الثورة على عثمان رجل من أهل صنعاء هو عبدالله بن سبأ، كان يهودياً ثم أسلم. واستفحلت الثورة حتى بلغ بها الأمر أن اقتحم الثوار على الخليفة داره فقتلوه ونهبوا بيته وبيت المال.. ثم كان تولي علي بن أبي طالب الخلافة بعده، أول فصول المأساة، وما أعقبها من انقسام العرب أحزاباً متباينة متضاربة مما أضعف الإسلام وزاد كلمة المسلمين انقساماً.

وكان أول الغيث قطر، حين انحصر النزاع في أول الأمر في حزبين اثنين: حزب عثمان وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان رأس بني أمية، وحزب علي بن أبي طالب رأس بني هاشم. الذي كان العداء بينهم وبين بني أمية قديماً منذ الجاهلية ولم يزده الإسلام إلا شدة، إذ لم ينس بنو أمية ما كان من حمزة وعلي يوم صرع أكبر رجالهم يوم بدر، كما لم ينس بنو هاشم ما كان من هند حين لاكت كبد حمزة ومثلت به يوم أحد..

واشتعلت نار الحرب بين الفريقين حين أبى معاوية الإعتراف بخلافة علي، وشق عليه عصا الطاعة واتهمه بدم عثمان.

على أن المعركة التي كانت سجالاً كادت تنتهي ذات يوم بانتصار علي ومن معه من أهل العراق، على معاوية وجيشه من أهل الشام، لولا خدعة عمرو بن العاص. وهو على جيش معاوية حين جعل رجاله يضعون المصاحف على رماحهم ليكون كتاب الله بين الفريقين.

فقد اضطر علي إلى قبول التحكيم الذي أراده عليه رجاله من أهل العراق، برغم نصحه لهم بألا يغتروا بقول معاوية وأصحابه.

وكان التحكيم خدعة انتصر فيها عمرو، حين استدرج الحكم الذي ارتضاه علي حتى خلع علياً، بينما ثبت هو موكله معاوية على الخلافة.

وحين اضطر علي إلى القبول وأصبح الأمر لمعاوية.. انقسم جند علي وخرجوا عليه.. وأعلنوا غضبهم لقبوله التحكيم رغم أنهم هم الذين أرغموه عليه. وأخذوا يلومونه، ويلومون أنفسهم لانخداعهم بخدعة عمر.



وكان هؤلاء هم الخوارج..

وكان موقفهم من علي غريباً.. وردهم عليه أكثر غرابة..

- سألهم علي بن أبي طالب:

- ما أخرجكم علينا؟

قالوا: حكومتكم يوم صفين..

قال علي: أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم عليَّ رأيي، ولما أبيتم إلا ذلك اشترطنا على الحكمين أن يحكما بما في القرآن.. فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما في القرآن، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء..؟

قالوا له: فخبرنا.. أنراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟

قال علي: إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن. وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال.

قالوا له: فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم؟

قال: ليعلم الجاهل ويثبت العالم. ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة.

قالوا وهم يهزون أكتافهم: لا حكم إلا الله.

أجاب علي وهو يمضي: كلمة حق يزاد بها باطل.

وكان لابد أن يصطدم علي بالخوارج قبل أن يعود لتحكيم السيف بينه وبين معاوية.. واستطاع على أن يقضي على جزء كبير منهم، إلا أن الذين فروا أمام جيشه واصلوا الانتشار سواء في أيام الدولة الأموية أو الدولة العباسية.

على أن الخوارج كان لهم رأيهم في الأمر كله. فبينما كان شيعة بني أمية في الشام ومصر يرون أن تكون الخلافة في قريش وأن البيت الأموي أحق بها، وبينما كان شيعة علي بن أبي طالب في العراق يرون أن تكون الخلافة في قريش، وأن علياً وأولاده من بعده أحق المسلمين بها.. كان الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم، ويرون أن كل أفراد الجماعتين الأخريين خارجون على الدين..

وكان هؤلاء الخوارج يمثلون الديمقراطية الإسلامية، إذ كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم عربي حر، ثم عدلوا شرطهم إلى الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية، خاصة بعد أن انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب وخاصة الفرس. كما قالوا أيضاً أنه إذا اختيز الخليفة فلا يصح له أن ينزل عنها. وإذا ظلم استحلوا عزله أو قتله..

واصطبغت آراء الخوارج السياسية بالأبحاث الدينية. فقالوا إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان، وليس الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب.. فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم لم يعمل بما يفرضه الدين، وارتكب الكبائر فهو كافر.

وامتاز الخوارج بشدة تمسكهم بالقرآن واتباع أحكامه وتنفيذ أوامره. وكان خوفهم من عذاب الله يوم القيامة يثير في نفوسهم الحماس للحق وشدة التمسك به، والامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه.. إلا أنهم غلوا في إنكارهم حتى عدوا مرتكب أي فهوة مهما صغرت كافراً. واشتدوا في معاملة المخالفين لهم، حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني. ولم يتورعوا عن ارتكاب أشد الأعمال قسوة، برغم ما كان من ظهورهم بمظهر العباد الزهاد وتورعهم عن تافه الأشياء، كما كانوا يأتون بأفظع المنكرات كأنهم لا يدينون بإله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة.

ويقول البعض إن العوامل التي أثرت في عقيدة الخوارج لم تكن عوامل داخلية ذاتية بقدر ما كانت عوامل خارجية، إذ ساهم فيها اختلاط العرب باليهود والنصارى واختلاطهم أكثر من ذلك بالفرس.. الذين كانوا عوامل رئيسية في كل ذلك الاضطراب الذي دخل على الدين.

ومن أجل ذلك أيضاً تفرق الخوارج أنفسهم إلى فرق عدة.. كاد عددها يصل إلى عشرين فرقة.. ولكن هذه الكثرة لم تمنع من أن يكون بين الخوارج من يبدو فيهم الاعتدال.. وأن يكون بينهم من يميلون إلى المغالاة.

على أن مغالاة بعض فرق الخوارج كانت هي السبب بغير شك في اتهامها هي نفسها بالخروج على الإسلام.. وكان من بينها فرقتان بارزتان هما: اليزيدية أتباع يزيد بن أبيه الذي زعم أن الله سيرسل رسولاً من العجم وينزل عليه كتاباً ينسخ القرآن.. والميمونية أتباع ميمون العجردي الذي أباح الإتصال ببنات الإبن وبنات أولاد الإخوة والأخوات، كما أنكر سورة يوسف ولم يعدها من إلقرآن، وزعم أنها قصة من القصص.. وقالوا أنه لا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن فاستبعدوها.

كان هذا هو أمر الخوارج..

فماذا كان من أمر الشيعة؟..

الشيعة

لقد كان أساس اعتقاد الشيعة هو أن علي بن أبي طالب أحق بالخلافة وأن أبا بكر وعمر وعثمان أخذوا حق الإمامة المقدس من علي.

وكان الأمر قد بدا سهلاً لهم حين تذمر المسلمون من سياسة عثمان بن عفان، وطالبوا بتحويل الخلافة إلى أهل البيت. وأشعل نيران ثورتهم أبو ذر الغفاري بتحريض ابن سبأ الذي أخذ يتنقل في الولايات الإسلامية ووضع أسس عقائد مذهب الشيعة. وفي مصر استقر به المطاف حيث ألبس دعوته لباس الدين.. ووضع مذهباً يقول برجعة عيسى، ولا يقول برجعة محمد رسول الله إذ قال: «إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد» وزاد ابن سبأ «أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى» وكان ذلك أساس نشوء مذهب تناسخ الأرواح في الإسلام.. وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر.

السبئية

وكان ابن سبأ يهودياً قبل إسلامه. لهذا أخذ بمذهب الوصاية، فقال أن علياً وصي محمد، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين.. كما قال أيضاً أن علياً هو الخليفة بعد النبي، وأنه يستمد الحكم من الله.

والحقيقة أن ابن سبأ لم يكن خالص الإيمان بالإسلام.. بل كان يريد من وراء دعوته إفساد دعوة الإسلام وتشويه العقيدة وإثارة الفتنة بين المسلمين.

ودارت مناقشات غريبة حول مذهب الشيعة من أصحاب عبدالله بن سبأ..



ذهب بعضهم إلى علي بن أبي طالب وقالوا له:

- أنت هو..

قال علي: ومن هو؟..

قالوا له: أنت الله..

وغضب علي، وأمر بنار أوقدت، وأمر مولاه بأن يلقي بهؤلاء الرجال في النار، وبينما كانوا يساقون إلى النار كانت أصواتهم ترتفع لتقول:

- الآن صح عندنا أنه الله..

وعندما مات علي قال السبئية بأنه سيرجع مرة أخرى.. وأنه هو المهدي المنتظر. وقال ابن سبأ لما بلغه مقتل علي «لو أتيتموني برأسه سبعين مرة ما صدقنا موته. ولا يموت حتى ينزل من السماء ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً».

وقال السبئية إن المقتول لم يكن علياً وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم وعندما يعود سيجيء من السماء.. وقالوا أيضاً أن الرعد صوت علي والبرق نوره حتى أنهم عندما كانوا يسمعون صوت الرعد كانوا يهتفون «عليك السلام ياأمير المؤمنين»..

على أن السبئية لم يكونوا هم وحدهم شيعة علي.. فقد كان هناك فريق معتدل لا يمكن أن يتطرق الشك إلى إيمانهم وإخلاصهم للإسلام..

ومضت هذه الشيعة في طريقها حتى بعد مقتل علي بن أبي طالب،

ونزول ابنه الحسن عن الخلافة، عندما أحس بخذلان أهل الكوفة له تماماً كما خذلوا أباه من قبل..

على أن الحسين بن علي لم يعتبر بما فعله أهل الكوفة بأبيه وأخيه. ولبى دعوتهم عندما دعوه إلى أرضهم على أن يناصروه ضد يزيد بن معاوية ولكن المأساة كان لابد أن تقع مع استمرار ناس الكوفة في خذلان الحسين.. وكانت موقعة كربلاء التي قتل فيها ابن بنت رسول الله. ولطخت أرضها بدمه وأحيطت جثته بجثث أهل بيت النبي.

منذ تلك اللحظة اندلعت من جديد نار التشيع في نفوس الشيعة- وخاصة الفرس، فوحدت صفوفهم بعد أن تفرقت من قبل كلمتهم. ولم يكن عجيباً أن يأخذ شعور العداء للأمويين منذ ذلك الوقت يثور لأوهى الأسباب. كما لم يكن غريباً أن يقف القائد الأموي بعد قتل الحسين ليخطب في المسلمين فيقول: «الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه، وقتل الكذاب بن الكذاب وشيعته». فيجد القائد المنتصر من يقف في وجهه ليصرخ فيه «يا عدو الله.. إن الكذاب أنت وأبوك الذي ولاك وأبوه، تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقيين..؟»

وواصل الشيعة صراعهم ضد الأمويين..

الكيسانية

على أن الشيعة كانت هي الأخرى قد انقسمت أقساماً أخرى عديدة.. كان أبرزها بعد ذلك فرقة تسمى الكيسانية، ناصر أهلها محمد بن الحنفية أصغر أبناء علي بن أبي طالب. وقالوا إنه هو إمام المسلمين بعد أبيه، وغالوا في اعتقادهم بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلهية. وقالوا أن ابن الحنفية أحاط بالعلوم كلها وأن أخويه الحسن والحسين عهد إليه بالأسرار السماوية، وبعلم التأويل والباطن.. ثم قالوا بعد ذلك أن من حق الإمام تأويل

الشريعة، وضرورة الطاعة له.. لأن طاعته ليست سوى طاعة للقانون الإلهي..

واعتقد الكيسانية أن الله يغير ما يريد. وآمنوا بتناسخ الأرواح والحلول من جسد إلى جسد. واعتقدوا بنبوة علي والحسن والحسين وابن الحنفية وعندما مات الإمام ابن الحنفية أنكروا موته، وقالوا أنه يقيم في جبل رضوى على مسيرة سبعة أيام من المدينة، وأن عودته ستكون من هذا المكان.

وإذا كان للشيعة ذلك الأثر الكبير في سير الإسلام.. فقد كان هناك طائفتان أخريتان في ذلك العهد أيضاً.. هما المرجئة والمعتزلة.

المرجئة

والمرجئة ظهروا في دمشق عاصمة الأمويين بتأثير بعض العوامل المسيحية. وكان أساس إيمانهم هو إرجاء الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث وعدم إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها.

وقال المرجئة إنه لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.. وبذلك لا يمكن تكفير إنسان أياً كان مهما ارتكب من المعاصي، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق الشهادتين، ويترك أمر حسابه أو عقابه إلى الله وحده. وكان من الطبيعي أن تدفع مثل تلك العقيدة أصحابها إلى ترك الفروض التي فرضها الدين من صلاة وزكاة وصوم، وأن يضعوا واجبات الإنسان نحو من يحيط به من الناس، فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن.

المعتزلة

أما المعتزلة.. فكانت نشأتهم عندما اختلف واصل بن عطاء مع أستاذه الفقية حسن البصري، في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنباً كبيراً.. أيسمى مؤمناً أم كافراً. وقال واصل إن مثل هذا الشخص لا يعتبر مؤمناً

ولا يسمى كافراً.. بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتين. واعتزل واصل ناحية بعيدة عن المسجد يشرح رأيه لأتباعه.. فكان أن سموا بالمعتزلة..

وسمي هؤلاء المعتزلة بالقدرية.. وترجع تلك التسمية إلى أن مذهبهم يقول بحرية إرادة الإنسان.

وتتكون عقيدة المعتزلة من خمسة أصول:

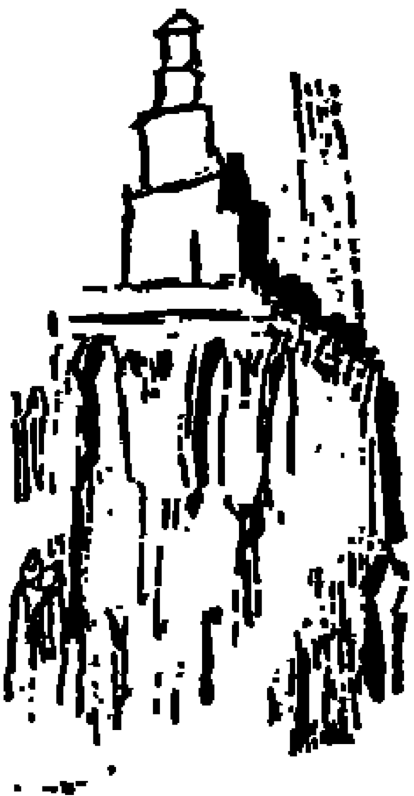
● التوحيد.. إذا قالوا أن الله ليس كالأشياء والأجسام، وأنه ليس بجزء ولا عنصر ولا جوهر، بل هو الخالق لهذه الأشياء جميعاً، وأنه يحصره المكان ولا تحويه الأقطار.

● والعدل هو الأصل الثاني، ومعناه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل إنهم يفعلون ما أمروا به وينهو عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم، لأنه لم يأمر إلا بما أراد، ولم ينه إلا عما كره. وأنه ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، وأن الله لو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم عن معصيته، غير أنه لم يفعل وهو قادر. وعلى ذلك فإن من الظلم أن يعاقب الإنسان على عمل ساقه إليه القدر الإلهي.

● والوعيد هو الأصل الثالث.. وهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وأنه لصادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته..

● والأصل الرابع هو المنزلة بين المنزلتين.. وهو أن الفاسق مرتكب الكبائر ليس بمؤمن ولا بكافر، بل يسمى فاسقاً..

● وأما الأصل الخامس فوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك بالسيف فما دونه، ولا فرق بين جهاد الكافر والفاسق.

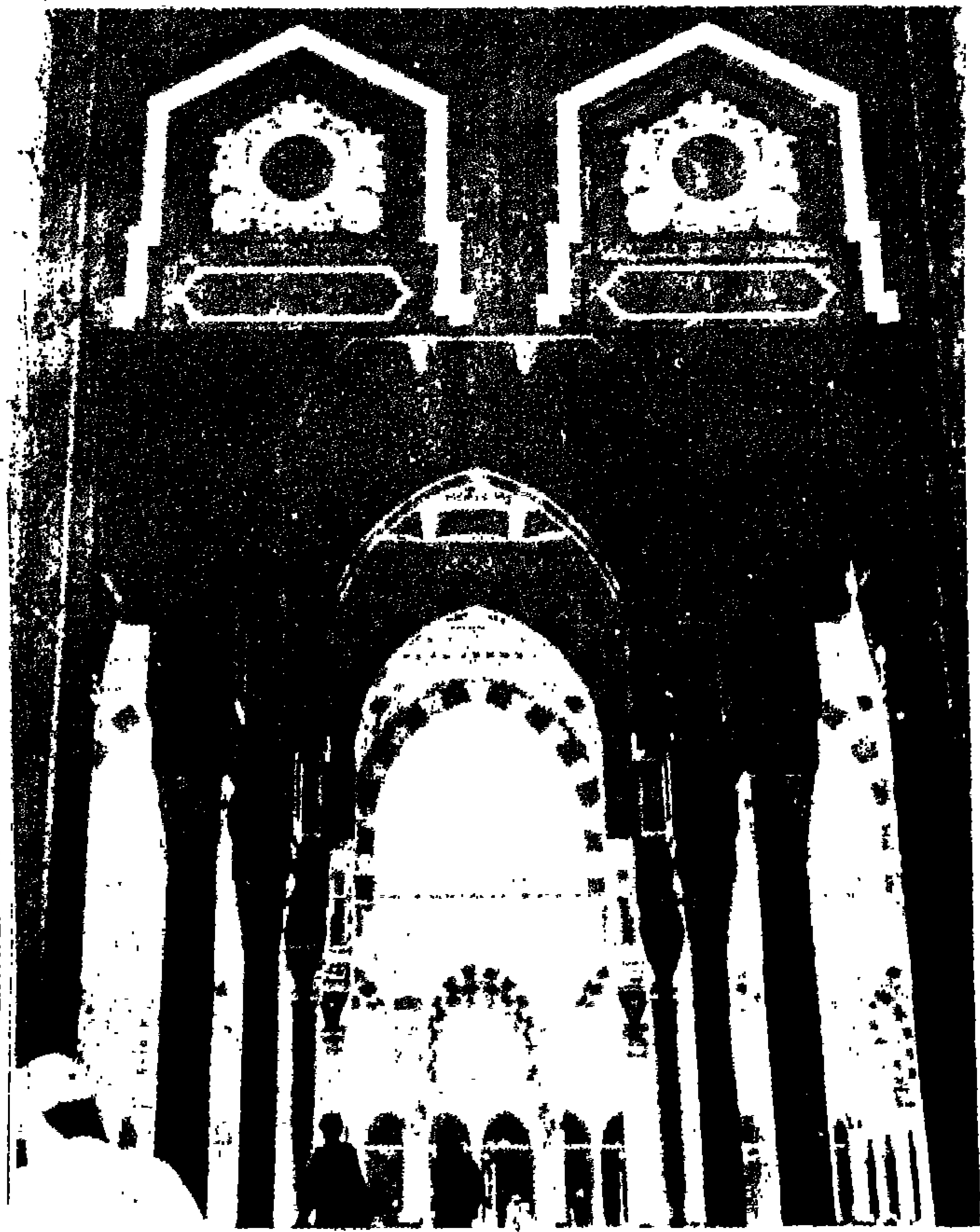


ويقول المعتزلة أيضاً بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح. كما يقولون أن الإمامة اختيار من الأمة، لأن الله لم ينص على رجل بعينه، وأن اختيار الإمام مفوض إلى الأمة.

★ ★ ★



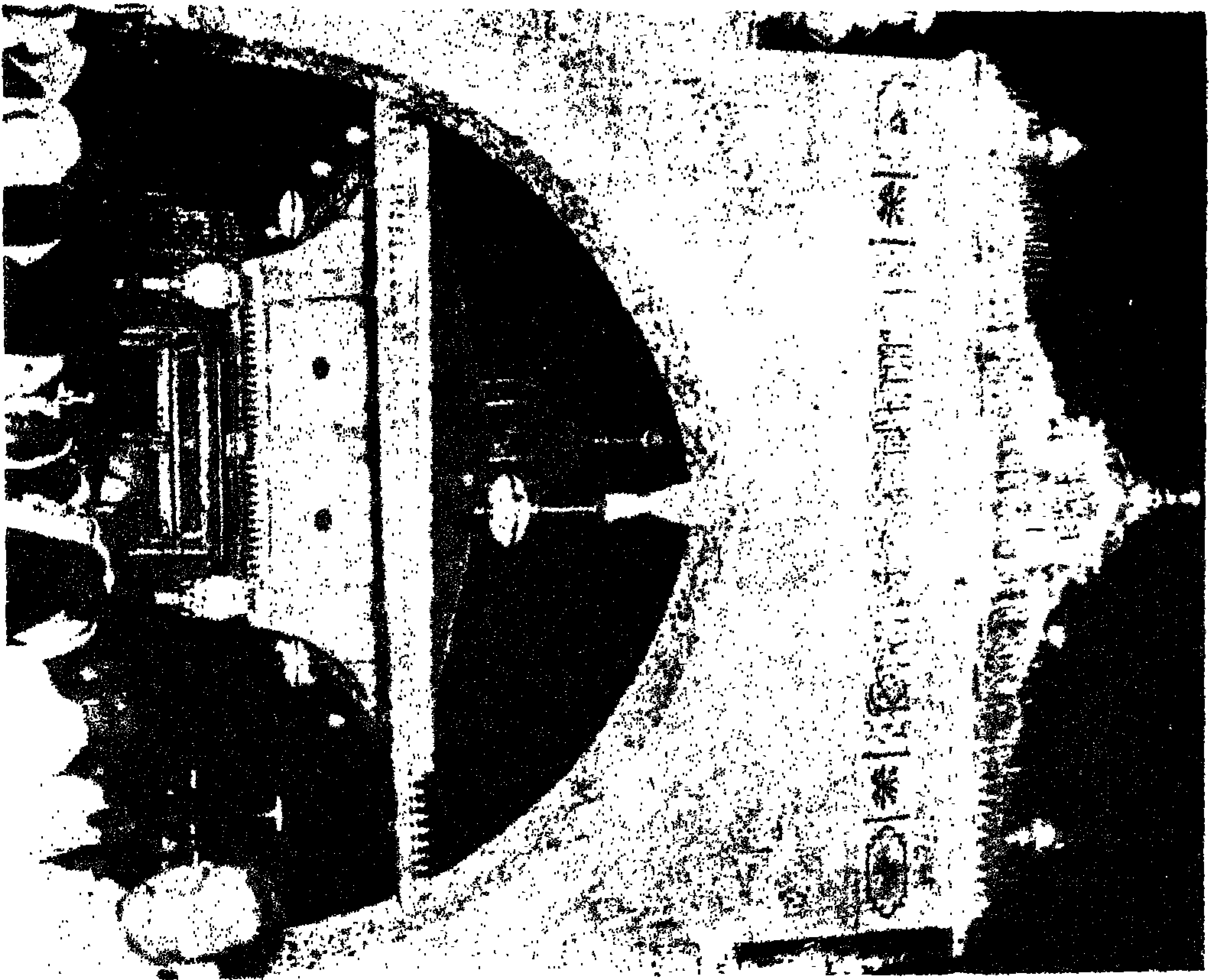
القليب... وحوله دارت معركة بدر أولى معارك المسلمين مع المشركين



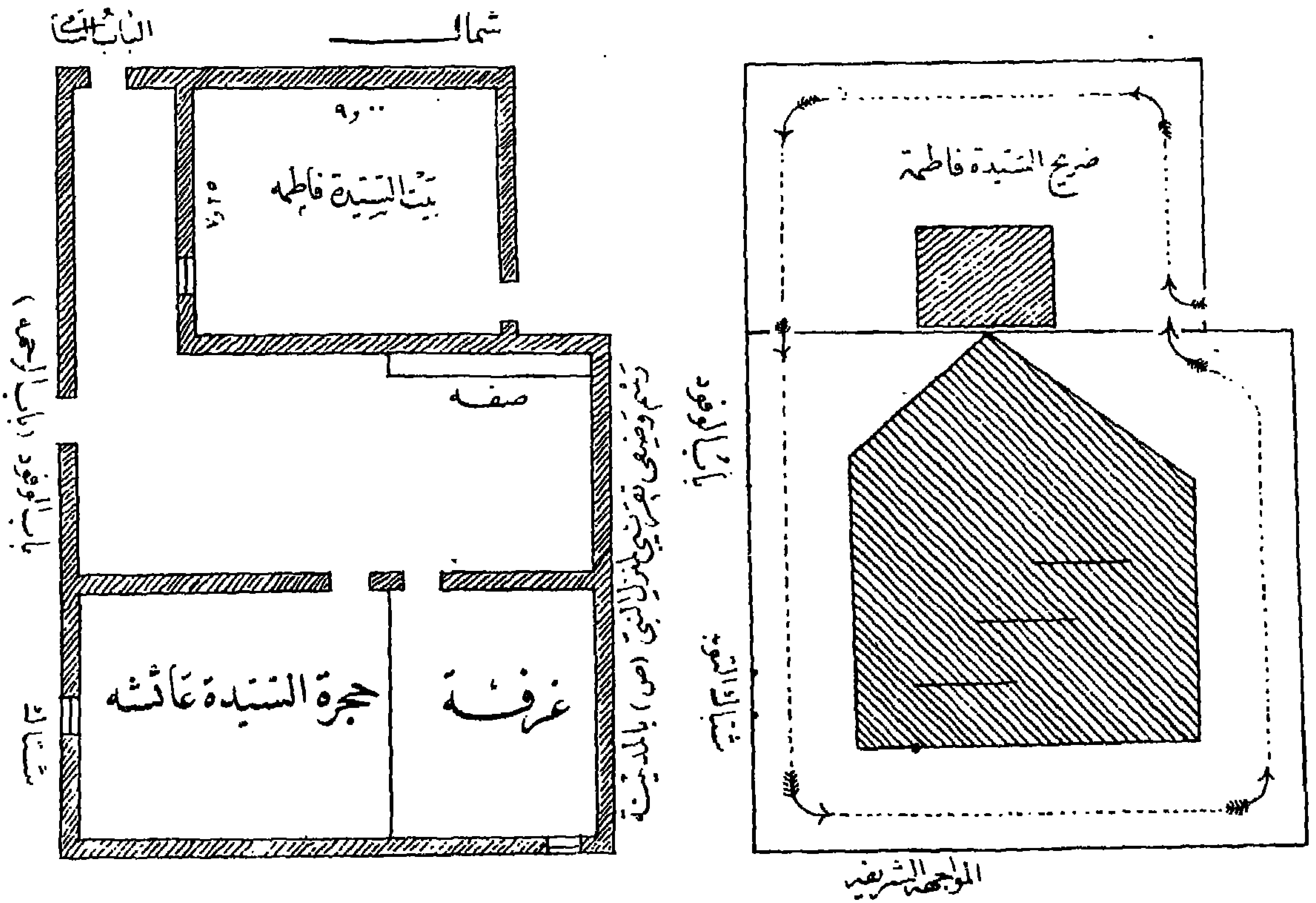
باب السلام..
مدخل لحرم
النبوي الشريف.



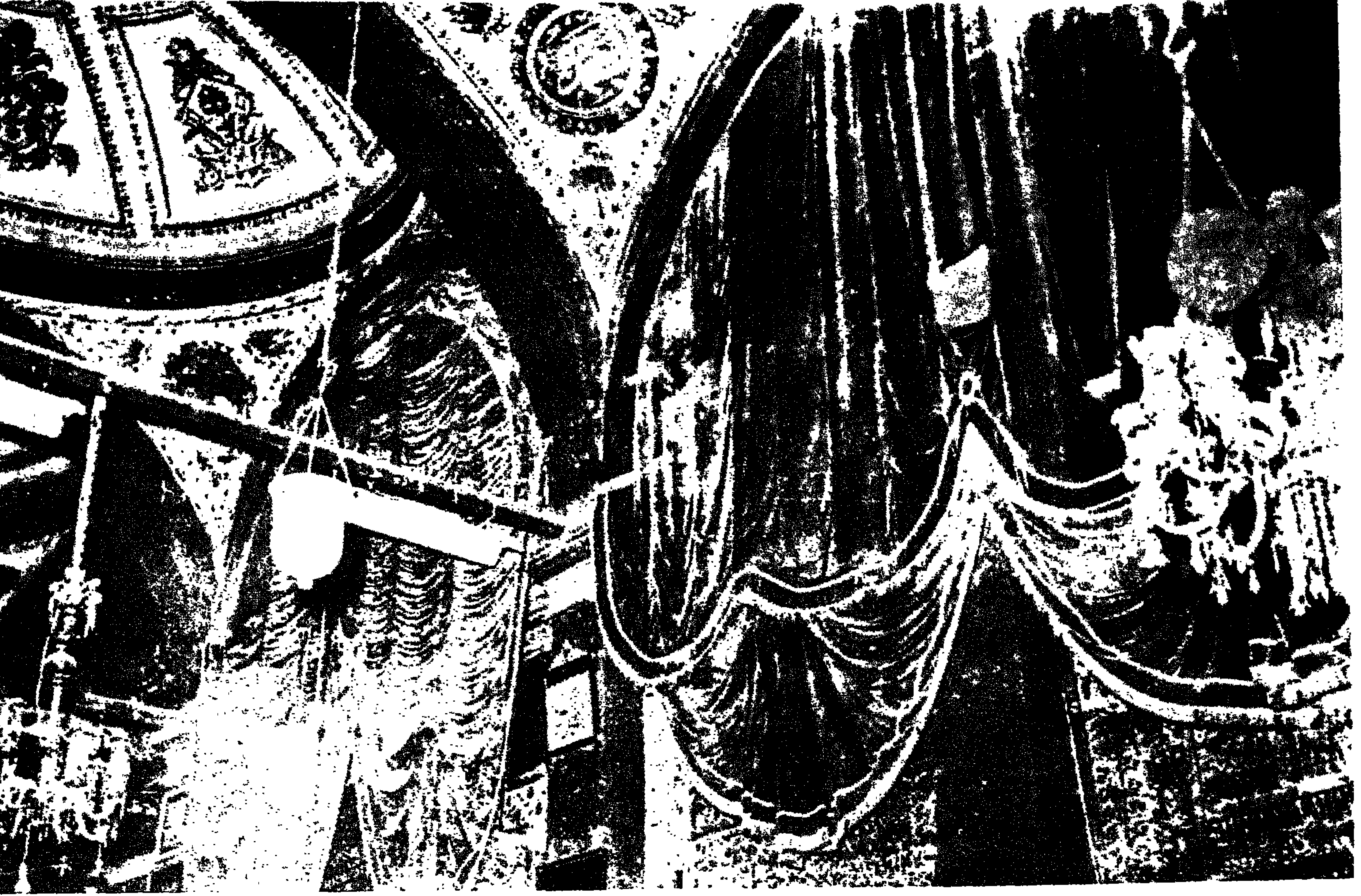
في هذه المقبرة.. دفن أبناء النبي محمد في مشارف يثرب.



قبر ابراهيم في الفضاء أمام الكعبة. وبالقرب منه بئر زمزم



رسم للمقصورة الشريفة الحالية التي بها قبر الرسول (ﷺ) وإلى جواره قبر أبي بكر ثم قبر عمر



قبر رسول الله محمد بن عبدالله في الحرم النبوي الشريف بالمدينة.

كل تلك الاختلافات وهي قليلة جداً من كثير- حدثت عندما استمر انقسام المسلمين إلى فرق متنازعة متضاربة، وراح الفرس والمدعون للإسلام ينفثون سمومهم لإفساد عقيدة المسلمين.

غير أن أخطر الخلافات لم تأت إلا بعد أن انقسمت فرق الشيعة نفسها إلى أكثر من حزب.. وراح البعض منهم يدخل على الدين بدعاً كان لا بد أن تؤدي إلى اعتبارهم خارجين على الإسلام.

من بين ذلك فرقة تسمى «الغرابية» زعمت أن الله أرسل جبريل إلى علي بن أبي طالب، فأخطأ وذهب إلى محمد لأنه كان يشبه علياً.

* * *

على أن الفرق التي لا تزال حية من فرق الشيعة، تكاد لا تزيد اليوم عن ثلاث فرق رئيسية فقط.. هي الإثنا عشرية والزيدية والإسماعيلية.

الإثنا عشرية

فالإثنا عشرية سموا بذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم اثني عشر إماما، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم محمد المهدي.. وهؤلاء الناس يؤمنون كغيرهم من الشيعة بالإمام الخفي «المستور» وينتظرون ظهوره آخر الزمان ليطهر الأرض ويقضي على المفاسد والشرور. وهم يروون عن موسى الكاظم سابع أئمتهم أنه قال «كل من حكى غني أنه عنى بي خلال مرضي أو غسلني أو حفظني ودفنني، وأنه نزل في قبري ومس رفاتي، فقل عنه أنه كذاب. وإذا استعلم أحد عني بعد اختفائي فليجب أنه يعيش ولله الحمد. ولعنة الله على من سأل عني فأجاب أنه قد مات»!.

الزيدية

أما الزيدية فيعتبرون من فرق الشيعة المعتدلين. فهم لم يؤمنوا كباقي فرق الشيعة بعصمة الإمام المستور عن الخطأ، ولا بالعلم الباطني الذي يهبه

الله للأئمة دون غيرهم، ولم يلعنوا أبا بكر وعمر وسائر الصحابة ويرموهم بالخروج على الإسلام وأخذهم الخلافة غصباً من علي، ولكنهم يؤمنون في الوقت نفسه بتفوق علي بن أبي طالب عنهم في قوة الإدراك، وفي المواهب الممتازة والصفات الحميدة. ولم يتعصب الزيدية ذلك التعصب الأعمى.. إذ اعترفوا بالإمامة لكل علوي دون مراعاة انتسابه لهذا الفرع أو ذاك من البيت الهاشمي، متى توفر له من الاستعداد الروحي والمواهب الدينية والتكافؤ الشخصي ما يعينه على القيام بمسؤليات الإمامة الدينية.

* * *

الإسماعيلية

فأما الإسماعيلية ففرقة أشد من كل هذه الفرق قوةً وتنظيماً..

فهؤلاء ينظمون جمعيةً منظمةً تنظيماً دقيقاً، لها تعاليم سرية على حظ كبير جداً من الدهاء، وتنتسب إليهم الدولة الفاطمية التي أسسها الفاطميون في مصر. وكان قيام هذه الفرقة في أواخر القرن الثالث الهجري نسبة إلى الإمام السابع من الإثنا عشرية وهو اسماعيل بن أبي جعفر الصادق. وقالوا لتأكيد الإمامة فيه «أن السموات سبع والأرض سبع والأيام سبعة وكل ذلك دليل على أن دور الأئمة يتم بسبعة».

وظل الإسماعيليون يعترفون بالإمامة لإسماعيل، برغم أن أباه بعد أن نصبه للإمامة رجع فسحب الولاية منه، لما رآه عليه من انغماس في الملذات والمنكرات وتعاطي الخمور. وعندما نعى خصوم الإسماعيلية عليهم ذلك لم يحاولوا أن يبرئوا إمامهم مما يصنعه من إتيان المنكرات جهاراً. فزعموا أن الإمام مباح له أن يفعل كل شيء لأنه مطهر عند الله ومعصوم من الخطأ والمنكر. فكل ما يأتيه من قول أو فعل يراه الرأي منكراً ليس كذلك إلا في الظاهر فقط.. أما الحقيقة فهو مبرأ منذ القدم من المعاصي معصوم من الخطأ!

وانقسمت الإسماعيلية نفسها أقساماً خاصة بعد أن فر المعتنقون لها إلى فارس وخراسان وما وراء ذلك من الأقاليم الإسلامية كالهندو تركستان. فهناك خالط مذهبهم بعض آراء من عقائد الفرس، والهند، وتحت تأثيرها انحرفت بعض الطوائف الإسماعيلية حتى خرجت عن دائرة الإسلام.

ولقد قيل في بعض طوائف الاسماعيلية إن القيرواني، وهو من كبار رجالهم، قال في رسالة له إلى سليمان بن الحسن القرمطي «إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل. وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشر من القبور. وإبطال الملائكة في السماء وإبطال الجنْ في الأرض. وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون على القول بقدم العالم. وفي هذا تحقيق دعوانا الباطنية. وينبغي أن نحيط علماً بخوارق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم، كعيسى بن مريم قال لليهود لا أرفع شريعة موسى ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبت. وأباح العمل في السبت وأبدى قبلة موسى بخلاف جهتها. ولهذا قتلته اليهود لما اختلفت كلمته».

وكان الإسماعيلية يخفون ما يريدون أن يحملوا الناس على أتباعه ويتظاهرون أمامهم بأمور أخرى. وكان دعاة المذهب الإسماعيلي إذا شككوا المدعو وطلبوا إليه حل رموز الدعوة التي جعلوها سرية، أخذوا عليه العهود والمواثيق بألا يكشف عن سر دعوتهم، وأن يدافع عنها وأن يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام.

ونظام الإسماعيلية الداخلي ينقسم إلى خمسة أقسام:

المقدمون: وهم الرؤساء.

الدعاة: وهم الذين يبثون الدعوة.

الرفاق: ويتولون إدارة حركة المؤمنين.

الفدائيون: وهم المنفذون للأحكام.

المؤمنون: وهم المستجدون في الطريقة.

والطرق المحددة في طريق نشر الدعوة.. وإن كانوا يهتمون جيداً بإخفاء أسرارها.. تسير في عدة خطوات:

أولها: اختيار استعداد الشخص لقبول التعاليم، وثانيها: الاستئناس به، وثالثها إدخال روح التشكك في أعماقه. فإذا نجحت هذه الخطوات الثلاث تؤخذ عليه المواثيق بألا يبوح بشيء مما يسمع، ثم تبدأ خطوات الإقناع وأولها غرس الإيمان بعقيدة الإسماعيليين وقوتهم، وثانيها تلقين التابع تعاليم العقيدة. فإذا تم ذلك رفعت عنه بعض الفروض الشرعية ومنح السر الأعظم.

وكما كان دور الأئمة يتم بسبعة عند الشيعة.. كذلك فإن الأئمة أنفسهم سبعة كأيام الأسبوع وكالسموات والكواكب. ويوجد بين كل إمامين سبعة رسل ناطقين. وبين كل ناطقين سبعة من أئمة العصر يعملون لإتمام شريعة الناطق التابعين له. ولكن إمام عصر من هؤلاء مساعدون يبلغ عددهم به سبعة هم الذين يقتدى بهم:

فإمام العصر يستمد فيضه من الله ليتم شريعة الناطق. والحجة يستمد فيضه من الإمام ويكون حجة لوجوده. وذو المصة يمتص العلم من الحجة. والداعي الأكبر وهو أعظم المؤمنين مقاماً. والداعي المأذون يأخذ العهد ممن يريد الدخول في الإسماعيلية من أهل الظاهر. والمكلب لا يؤذن له بالدعوة ولكنه يرشد الطالب إلى المأذون. والمؤمن هو الذي دخل في زمرة الجماعة.



وكل ناطق ينسخ الشريعة التى أتى بها الناطق السابق له.. والسبعة الناطقون هم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد بن عبدالله.. ثم محمد المهدي..

ومعنى ذلك أن كل شريعة تأتي في كل دورة من دورات الناطقين تنتهى بظهور الناطق الذي يليه.. أي أن الوحى الآلهي لا ينقطع ولا ينتهي في فترة زمنية معينة. وبهذا النظام يكون محمد المهدي قد أتى برسالة تعد من حيث هي مظهر من المظاهر الدورية أكمل وأعظم مما

سبقها.. بل تفوق رسالات من سبقوه. حتى رسالة النبي محمد..

ويقول الإسماعيليون إن المريد ينبغى أن يفهم القرآن والشريعة فهماً مجازياً. أي أن عليه أن ينبذ المعاني الظاهرة ولا يعنى بها، لأنها ستار يحجب المعنى الروحي الصحيح.

فالحقائق عند هذة الطائفة لا توجد إلا في المعاني المستترة، أي «الباطنة» أما المعاني الظاهرة فهي حجب مضطربة وأقنعة متناقضة. والذين يريدون الاندماج في الطائفة تزاح عنهم هذه الحجب بالقدر الذي يناسب استعدادهم، ويتدرجون في هذه المعرفة حتى تهيأ لهم المقدرة على مواجهة الحقائق وهي سافرة.. ولهذا سمي الاسماعيليون بالباطنية. وهم يقولون:

«إعلم أن آيات الكتاب سهلة يسيرة، ولكنها على سهولتها تخفى وراء ظاهرها معنى خفياً مستتراً. ويتصل بهذا المعنى الخفي معنى ثالث يحير ذوي الأفهام الثاقبة ويعييها، والمعنى الرابع ما من أحد يحيط به سوى الله واسع الكفاية من لا شبيه له. وهكذا نصل إلى معان سبعة: الواحد تلو الآخر. ولذا لا تتقيد يا بني بفهم المعنى الظاهري، كما لم تر الشياطين في آدم إلا أنه مخلوق من الطين».

وقالت بعض طوائف الإسماعيلية: «إن الخلافات لا تتسبب إلا عن المال والنساء... فيجب إباحتها للناس عامة».

ولا يزال الإسماعيليون يعيشون إلى اليوم جماعات متفرقة.. بعضها في شمال سوريا، وهم منفصلون عن طائفة الدروز التي تؤله الحاكم.. والبعض الآخر يقطنون أجزاء أخرى من العالم الإسلامي وخاصة إيران والهند، حيث يسمون باسم «الخوجة» وشيد لهم بزنزبار بناء تعقد فيه اجتماعات الإسماعيلية.

وقد اختلفت معتقدات الجماعتين عما كانت عليه المعتقدات الأولى. ولكنهما تتفقان في تجلي الألوهية في الأئمة المعاصرين حيث لا زالوا يقولون

«ليس من المعقول الاعتقاد بإله لا يرى.. فظهور الإله لازم لأجل تلقين الشرائع» وإذا كانت هناك أقلية لا تزال تبحث حتى الآن عمن يليق بالإمام.. إلا أن الأغلبية وجدت» محمد علي شاه وهو «أغاخان» الذي قالوا إن نسبه ينتهي إلى أحد فروع الدولة الفاطمية.. بصفته سليل أمراء الحشاشين الذين يدعون انتسابهم إلى هذه الدولة.

وأتباع أغاخان كانوا يدينون له بالطاعة.. كما يدينون الآن لحفيده.. وهم يقدسون صورة أغاخان ويصلون لها مرتين كل يوم.. إحداهما في الصباح والأخرى بعد العشاء. وهم لا يصومون أبداً. ولكنهم يحجون إلى بومباي حيث هبط «محمد علي شاه». وأما الزكاة فتدفع حسب تفسيرهم للآية: «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى».. فهم يخصصون لأغاخان نسبة الخمس من كل ما يملكونه بعد الموت.. كما يخصصون له خمس الإيراد وخمس المهر.. وإذا لم يعقب الإسماعيلي ولدا تذهب أمواله لأغاخان لأن البنات لا يرثن. وهم يرددون الشهادة بجملة تقول: «الله رب واحد وروح الوجود الحق المعبود».

أما احتفالات أعيادهم فهي عيد الأضحى مع المسلمين، وعيد الميلاد مع المسيحيين.. كما يعبدون النيروز.. وصلاتهم رطانة من اللغتين الأردية والعربية.

* * *

الدروز

ومن بين فرق الإمامية الباطنية قوم غالوا معنى «الإشراق الالهي» حتى أخذوا بنظرية حلول الإله في نفس الإمام.. ودعوا إلى عبادته. وكان على رأس هؤلاء «الحاكم بأمر الله الفاطمي» الذي ادعى أن الإله قد حل فيه.. ودعا إلى عبادته.

فعندما تولى الحاكم الخلافة في القاهرة عام ٩٩٦ وهو بعد في الحادية

عشرة من العمر، تعمق في دراسة الفلسفة والتنجيم. وبدت عليه في ذلك الوقت بوادر غريبة. فكان يفرط إذا عاقب ويغلو إذا أجاز.. وكثرت المشاحنات الدينية في عهده مما اجتذب العلماء إليه، حتى أنه أسس بهم مدرسة جديدة شادت بذكره حتى لقبته «الحاكم بأمره». وراح الأئمة يخطبون له مبتدئين بدلاً من البسملة بقولهم: باسم الله الحاكم المحى المميت.

على أن كل ذلك لم يتم إلا على أيدى قوم ممن كانوا يهدفون إلى هدم الإسلام من الفرس. فقد كان المحرك لتلك الدعوة هو أحد القرامطة واسمه محمد بن اسماعيل الطهرانى ولقبه لافشكين الدرزي. وأطلق لافشكين على مولاه اسم «سيد الهادين وسيف الإيمان». وجاء بكتاب قديم أدخل فيه صفحات قال فيها إن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبى طالب، ومنه إلى الفاطميين أسلاف الحاكم.

وأحدثت تلك الدعوة بلبلة في مصر، ولم يجد الحاكم إلا أن يرسل لافشكين الدرزى إلى وادى التيم في الشام للتبشير بالوصية، حيث أبى أهله من التنوخيين دعوته.

في ذلك الوقت كان الحاكم قد اتخذ لنفسه وزيرا هو حمزة بن علي بن أحمد الطهراني. واستطاع هذا الرجل إبعاد الدرزي وحل محله. وكان هو الآخر من الباطني. فراح يسيء إلى سمعة سلفه الذي كان الخلاف قد اشتد بينه وبين أهله في جبال الشام فقاموا عليه وقتلوه.

وعندما مات الدرزي اتسع المجال لحمزة.. فادعى الإمامه في ظل الحاكم بأمره، ولقب نفسه «بهادي المستجيبين»

وذات يوم خرج الحاكم للخلوة فوق جبل المقطم كعادته لاستطلاع النجوم ولم يعد. وبعد أيام عثروا على ثيابه ملوثة بالدم، فزعموا أنه خرج إلى البركة الزرقاء ومنها عرج إلى السماء مختفياً عن الناس ليمتحن إيمان المؤمنين..!

ويسمى أتباع الحاكم.. بالحاكمة.. وهم الدروز أو «الأعراف» الذين يكثرون بالشام.. ويؤمنون بأنه يعيش مستخفياً وأنه سيرجع.

وهم يعتقدون أن الحاكم بأمره إله واحد أتباعه له موحدون. وعندما يظهر آخر الزمان سيعين أتباعه أمراء وسلاطين يحكمون بقية البشر وسيعذب غير أهل ملته عذاباً أليماً. ويقول كتاب «ميثاق ولى الزمن» الذي وضعه حمزة الذي جعل إماماً على التابع أن يقول «توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد المنزه عن الزواج والعدد. أقر أني قد تبرأت من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات على أصنافها واختلافها، وأني لا أعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره والطاعة هي العبادة.»

ويؤرخ الأعراف «أي الدروز» بسنة كذا من سني عبد مولاه جل ذكره حمزة بن علي الهادى. وهم يعتقدون بوحدانية الله «وهو الحاكم» وأنه فرد صمد منزه عن الأزواج والعدد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ولا بدء له ولا نهاية. عادل لا غرض لفعله قادر لا مرد لحكمه. إن أثاب فبعدله وإن عاقب فبعدله». ويؤمن الدروز بالملائكة والأنبياء والرسل وبالقضاء خيره وشره وبالقدر. كما يعتقدون بخلود النفس التى تتقمص في الأجساد البشرية إلى يوم الحشر، حين كل نفس بما كسبت «قال الله للعالم كن فكان والأعمار مقدرة».

وكان حمزة قد أعفى المؤمنين والأتباع من أركان الإسلام الخمسة وعوضهم بسبعة أركان :

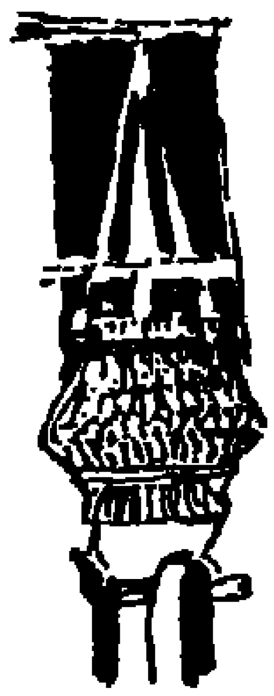
- التوحيد للمولى الحاكم.
- الرضى بفعله كيفما كان.
- التسليم بأمره. في السر والإعلان.
- صدق اللسان.
- حفظ الإخوان.
- ترك ما كان يعبد العدم والبهتان.

● البراءة من الأبالسة والطغيان.

وجاء في كتابهم «تكونت النفوس البشرية دفعة واحدة في بدء الخلق من نور حمزة وعددها محدود لا تزيد ولا تنقص. فإذا مات شخص ولد غيره وقت دفنه، فتحل فيه روح الفاني، لأن الجسد ليس إلا قميص والنفوس خالدة تنتقل من قميص لآخر حتى يوم الحشر».

وتنقسم الطائفة إلى مشايخ عقلاء.. وقضاة المذهب. والعقلاء ثلاث درجات: المنزهة وهم أكثرهم تقى وورعاً، والشراح وهم أقل درجة، والأجاويد أو الخلوتية هم الطبقة الدنيا. والشراح هم أصحاب الأسرار الداخلية، بينما الأجاويد هم أصحاب الأسرار الخارجية. أما الجهال فبيدهم قبضة السيف والزعامة الوطنية، وهم أربع طبقات أعلاها الأمراء فالمشايخ فالأعيان فالعامة. والطبقتان الأوليتان تتوارثان الألقاب أباً عن جد.

وحتى يترك الدرزي الجهالة إلى العقل- حتى ولو كان أميراً- يتحتم عليه أن يتصف بالعفة وأن يبتعد عن التلفظ بكل خبيث من القول، وأن يبتعد عن التأنق وشرب الخمر والتدخين، وأن يرسل لحيته. فإذا ما تبين فيه الصلاح سمح له بالحضور في خلواتهم ليالي الجمع. وفي هذة الخلوات البعيدة عن العمران يتجمع العقلاء تحت حراسة شديدة جتى لا يسترق معلوماتهم أحد من الطفيليين. فإذا ما انقضى شطر من الليل انسحب الأجاويد وبقي الآخرون، وبعد مدة أخرى ينسحب الشراح ويظل المنزهة يتذاكرون حتى مطلع الفجر، أما الجهال فيسمح لهم بالحضور ليلتي أول يوم عيدي الفطر والأضحى.. ويبلغ عدد الدروز ٢٥٠ ألفاً.



* * *

البابية

وثمة فرقتان أخريتان من أخطر الفرق التي خرجت على الإسلام.. وأول هاتين الفرقتين لها قصة.

فذات يوم من عام ١٨٤٠ ، وقف فتى غراسمه ميرزا علي محمد الشيرازى لا يتجاوز من العمر الخامسة والعشرين ، ليعلن في ١٨ مرتدا من المسلمين الشيعيين أنه هو « الباب » أى الواسطة بينهم وبين المهدي المنتظر ، الذي قرب موعد ظهوره وعودته بعد أن غاب « غيبته الصغرى » قبل ذلك بألف سنة .

وكان هذا الإمام وهو « محمد المهدي » ، اختفى وهو ابن ست سنين في سرداب « سامراً » ولم يعد .. وكان هو الإمام الثاني عشر من أئمة الشيعة الإمامية .

ولم يكن ذلك الفتى قد عمد وحده إلى تولي هذا الدور الذي بدأ يلعبه .. فقد كان من ورائه رجلان آخران يتآمران ومعهما آخرون ، لهز أركان الدين القائم بتغيير عقائد وتشريعاته وأنظمته وجميع أهدافه ، مدفوعين بأسباب لا تزال مجهولة ، وإن كان الغالب فيها التآمر ضد الإسلام والعداء له .

وتمكن الرجلان من أن يوهما الفتى الصغير ، الذي كان يتدين تدين العوام ، ويغلوا في تدينه غلواً ضخماً مستعيضاً في تدينه من العلم بدعوى الفهم فراحاً ومعهم ثالث اسمه البشروتى ، عرف كيف يستغل سذاجته وغروره وغلوه في الدين ، فأوهموه أن سيكون له شأن ، وأن هذا هو أوان ظهور المهدي المنتظر ، وفي ثنايا حديث البشروتى مع الصبي أدخل في روعة تماماً أنه سيكون البشير بظهور المهدي ، سيكون الواسطة بينه وبين شعبه .

واقنع الفتى وأعلنها في الناس أنه البشير بظهور المهدي . واعتقد أنه يؤدي رسالة سامية فوق مستوى البشر . وأن أداءها هو نتيجة حتمية ملازمة للتطور التاريخي للاسلام وتحقيق رسالته السامية ، وبعد أن اقتنع بأنه الباب الذي أشرقت منه على العالم الرغبة المعصومة التي « للامام المستور » الذي يعد المصدر الأعلى لكل حقيقة وهداية ، أصبح عند أتباعه

الذين تصوروا أنه أوتي علم الإمام النوراني ، حجة فيا يقول لا معقب لقوله كشأن الإمام تماماً.. ووجد منهم طاعة مطلقة وتلقياً لكل ما يقول بالقبول.

وانطلق ميرزا علي يدعو في الناس تاركاً تجارة خاله الذي كان يعمل لديه في مدينة بوشهر على الساحل الشرقي من الخليج العربي بإيران. واستمر ميرزا علي يدعو ومن حوله الناس مكذبين ، بينما قليل من الراغبين عن الدين يميلون إلى تصديقه.

ومع ذلك واصل ميرزا علي تصوره بأنه مصدر الهدية والمعرفة.. ثم ما أسرع ما جال في خاطره أنه أكبر من أن يكون أداة للإمام المستور الذي يحيا ليهدي الناس ويعلمهم رغم اختفائه عن الانظار.. وأعلن أن الله قد رفع قدره اقتصاداً في مراحل التطور الروحي واختصاراً لمراتب الهداية ، وبذلك أصبح هو نفسه المهدي الجديد ، الذي لا بد من ظهوره على وجه التحديد عام ١٢٦٠ أي بعد غيبة الإمام المستور بألف سنة.

وهكذا ادعى ميرزا علي أن الله قد حل فيه ، وأنه هو الذي يظهر به الله لخلقه ، وأنه السبيل لظهور موسى وعيسى في آخر الزمان ، وأن كل الرسالات الإلهية تجمعت فيه.. وراح الباب يعلن أن اليوم الآخر ليس أكثر من رموز لحياة روحية متجددة. وأنكر وجود الجنة والنار. وقال إن الرسالة المحمدية ليست آخر الرسالات ، ثم سمى نفسه « الذكر » قائلاً إنه المقصود من الآية الكريمة « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ».

ووضع ميرزا علي كتاباً ضمنه كل آرائه وسماه « البيان » هو عنده الكتاب المقدس ، وقال إنه هو المقصود من الآية « خلق الإنسان علمه البيان ».

واعتبر علماء المسلمين ميرزا علي وأتباعه خارجين على الإسلام. وتصدت لهم الدولة فطاردت ميرزا علي وأتباعه وشردتهم. ووقع ميرزا على نفسه في أيدى الحاكمين فحجزوه.. ثم أمروا بنفيه في « أذربيجان ».

غير أن الذين صنعوا منه ذلك الداعية كانوا لا يزالون في عداوتهم

للدين الإسلامي. ووجدوا الفرصة سانحة لاستغلال قضبته بالاستمرار في الدعوة على أساس أنه بمر به من سبقوه من الرسل واجتمع هؤلاء في مؤتمر عقدوه بالصحراء بين خراسان ومازندران. وأعلنوا نسخ دين الإسلام بالدين الحنيفي الكامل الجديد.. وظهور «البهاء».

والدين قاموا بأدوار البطولة على مسرح ذلك المؤتمر أربعة: البشروتي الذي أقنع الباب «بأنه وسيط» المهدي المنتظر وسمي نفسه «باب الباب» والبارفروشي الذي سمي نفسه «القدوس» وأم سلمى التى لقبوها «الطاهرة» ثم رابعهم ميرزا حسين الذي أكتشفوا فيما بعد أنه هو «بهاء الله» ومطهر أمر الأرباب..!

وكان الأمر يقتضي أولاً وجوب سبب للاجتماع، فقيل إنه العمل على تخلص حضرة «الباب» وإنقاذه من منفاه. وتم الاتفاق مع «الأحباء» على أن يصحبوا معهم ذوي قرباهم إلى البلدة التي اعتقل فيها الباب، ليطالبوا بالإفراج عنه.. وإلا انقذوا حضرة «الباب» بصارم القوة وحد الاقتدار.

وكان بعد ذلك أن قرر المجتمعون من «الأحباء» بحث مسألة الاحكام الفرعية وهي: الصلاة والصوم والحج. وتنادي البعض بلزوم «التجديد» على أساس أن قوانين الحكمة الإلهية في التشريع الديني تقتضي أن يكون «الظهور» اللاحق أعظم مرتبة وأعم دائرة من سابقه وأن يكون كل خلف أرقى وأكمل من سلفه. وعلى هذا القياس يكون حضرة «البهاء» أعظم مقاما وآثاراً من جميع الأنبياء الذين جاءوا من قبله.. وله بذلك مطلق الحرية في تغيير أحكام التشريع وتبديله.

غير أن «التجديد» مع إلغاء التشريعات الخاصة بالدين السابق- تكون الإسلام بالطبع- يقتضي حبكة أكثر.. والحبكة تقتضي أن تكون «الطاهرة» في جانب وأن يكون «القدوس» في الجانب الآخر، وأن يظل الحكيم الذي سيعتبر هو «البهاء» فيما بعد غير منحاز إلى أي من الإثنين. واشتد الخلاف بالطبع بين الجانب الذي تزعمه الطاهرة والذي ينادي

بضرورة نسخ القديم وتجديد الجديد ، والجانب الذي يتزعمه القدوس والذي ينادي بالتمسك بعادات الإسلام « والعادات هنا هي الصلاة والصوم ».

وهكذا اقتضى الاتفاق. واشتداد الخلاف حتى الذروة. وهنا.. لابد بالطبع أن يتدخل حضرة الحكيم الذي سيكون « البهاء » فيما بعد ، فيبرز من أساليب الحكمة والطائف الحزم ما يهدىء به روع الجميع.. ثم يغمض عينيه ليقرأ سورة « الواقعة » ويفسرها للناس ويفيض في شرحها وبيانها بما يتفق مع الهدف الأساسي.. وهو وقوع الواقعات وتغيير قواعد الدين القديم.

وكان لابد أن ينتهى الأمر.. كما يقتضي التدبير بأن يقال أن المسألة تحتاج إلى رفع التفاصيل إلى حضرة « الباب » في معتقله ليصدر حكمه الفاصل..



وقد كان.

وأعلن أن رأي الباب يتفق مع التجديد..!

★ ★ ★

البهائية

ولكن.. كيف جاء البهاء.. هو نفسه!؟

الحقيقة أنه بعد إعدام « الباب » الذي ادعى قبل إعدامه أنه كان هو « المهدي المنتظر » وليس « بابا » له ، قيل أنه حين علم بصدور الأوامر بإعدامه ، جمع كل ما كتبه ووضعه في خاتمة مقلمته في جعبة أرسلها مع مفتاحها إلى شخص أذاع أنه مأمور بتوصيلها إلى ميرزا حسين المازندراني. وعندما تلقى ميرزا حسين الجعبة أعلن أنه هو نفسه « البهاء » وأن الباب لم يكن سوى « نقطة » جاء كمن سبقه من الرسل والأنبياء ليبشر بمجيء البهاء ، وهو أكمل وآخر مظاهر أمر الله ومهابط وحيه.. وهو بذلك مظهر الله الأكمل وجماله الأبهى.

وهكذا ظهر البهاء.. الذي سماه البهائيون في كتبهم المقدسة وألواحهم الإليهة «ربنا الأبهى».. رغم أن هذه الربوبية نازعة فيها أخوة يحيى المسمى «صبح الأزل» الذي خرج عليه وقال أن الوحي نزل عليه هو ولكن أخاه حسين سرق كتاب الوحي وادعاه لنفسه. وظل يقول هذا حتى بعد أن كشف أمرهما وتم نفيهما في عكا. حيث مات البهاء وصار مدفنه مقصد الحجاج البهائيين.

يقول أكبر دعاة البهائية في شرح عقيدته في كتاب «الدرر البهية»:

«نحن معشر الأمة البهائية. نعتقد أن مظاهر أمر الله ومهابط وحيه وهم هنا برهما وبوذا وكونفوشيوس وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد والباب الذين بشروا في النهاية بالبهاء- هم في الحقيقة مظاهر جميع أسماء الله تعالى وصفاته ومطالع شموس آياته وبيناته. لا تظهر صفة من صفات الله في المرتبة الأولية إلا منهم. ولا يمكن إثبات نعت من النعوت الجلالية والجملية إلا بهم».

ثم يقول الداعية البهائي:

«وكل الأدلة والبراهين تثبت حقيقة مظهر أمر الله في زماننا هذا، وهو البهاء ميرزا حسين المازندراني، أكثر وأوضح وأحلى مما كانت عليه حقيقة مظاهر أمر الله- أي الأنبياء- في الأزمنه السابقة. وهذه البراهين قائمة متوافرة في هذا الظهور الأعظم الأسنى والطلوع الأفخم الأبهى.. ونعني به ظهور سيدنا البهاء جل اسمه وعز ذكره»

والواقع أن «البهاء» قبل أن يموت راح وهو في المنفى بعكا يضع كتاباً سماه «الكتاب الأقدس» عارض به القرآن وادعى أن آياته كلها نزل بها الوحى عليه، وأنها قديمة قدم الذات العلية. وأعلن أن ما كتبه لا يمثل كل علمه الالهي، بل هناك ما أحتفظ به لصفوة أصحابه لأن من عداهم لا يطيق هذه العلوم الباطنية.

وقال البهاء إن الدين الجديد الذي يدعو ليس هو الإسلام. بل إنه دين جديد عالمي تجمع الأديان كلها والأجناس كلها، ويدعو لمحو الإقليمية والوطنية لأن الارض للجميع، ويجعل البشر كلهم مساوين مهما اختلفوا. ويلغى كل ما جاء في الإسلام من الاحكام والحرام والحلال، ويحل العقل فى الحكم محل الشرع الاسلامى.

وهكذا انتشرت البهائية.. وإن لم ينته عهدها بموت البهاء عام ١٨٩٣ فقد خلفه فى زعامة المذاهب ابنه «عباس افندي» الذي سمى نفسه «عبد البهاء»

وكان لثقافة عباس الغربية إثرها في تحوير تعاليم أبيه بما يتقارب مع العقل العربي. فأبعد فكرة «حلول الله فى جسد الإمام» ولم يدع الخوارق التى ادعاها أبوه.

واتسعت البهائية ودخل فيها عدد من اليهود والمسيحين والمجوس. فقد وجد عباس كما وجد أبوه من قبل. أن المسلمين يرفضون تعاليمه. وأقام البهائيون حول فارس والبلاد والقريبة منها، كما أسسوا بناء لهم في بعض بلاد التركستان يعقدون فيه اجتماعاتهم. وتبعهم بعد ذلك عدد من الناس فى أوروبا وأمريكا.. حتى أصبحت مركز دعاية البهائية في شيكاغو.

واصبح البهائيون يعلنونها اليوم صراحة بأن البهاء ليس فقط مظهر صفات الله.. بل لقد أصبح ينصف بها من دون الله.. وهو مصدر أفعال الله.. يفعلها بنفسه من دون الله. وهو المعنى بالقيامة وبالساعة الكبرى.

وهو وجه الله وجماله البهي الأبهى.. وهو الموعود للناس في كل البشارات التي أتى بها كل الانبياء والرسل.. ثم.. هو الإله لا إله إلا هو ولا قيامة إلا قيامة، ولا اخرة إلا بدايته، ولا دين إلا دينه. وكما أن الإسلام نسج الديانات التي سبقته فالبهائية نسجت الاسلام، وكل الاديان كانت ناقصة بدائية ولم تجىء إلا لتكمل بالدين الكامل الذي جاء به البهاء.

على أن البهائية ازدادت بعد ذلك انغماساً في الإلحاد.. خاصة بعد أن خلف عبد البهاء عباس أباه.. وكانت خلافته هو نفسه صورة من صور الغدر، فبينا قيل إنه خلف أباه بوصيته منه.. قال آخرون إن البهاء جن في أواخر أيامه، وكان ابنه يعمل كحاجب له، فاستأثر بالامر واغدق على الجماعة أموالا حبب بها الأتباع فيه حتى سموه «المعلم».. فلما مات البهاء وحل محله عباس غضب أخوه وسعى ضده لدى الحكومة التى ضيقت عليه حين أعلن الدستور عام ١٩٠٨. وفي ذلك العام أطلق سراحه وتمكن من قضاء ثلاثة سنوات سائحا بين مصر وأوروبا وأمريكا.. وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كان في فلسطين فخدم الحلفاء حتى أنعمت عليه الحكومة البريطانية برتبة فارس مع لقب سير. وعندما توفي عام ١٩٣١ وهو في السابعة والسبعين خلفه بوصية منه حفيده لابنته ربانى..

على أن البهائية لم تعد مذهباً خاصاً الآن. وإذا كان البهائيون كثيرين اليوم في إيران إلا أن مذهبهم تحول منذ وقت ليس بالقصير ليكون حركة صهيونية أمريكية. فبعد أن أعلن البهائيون أن عقيدتهم دولية وأنها تهدف إلى تحقيق الديانة العالمية التي لا تفرق بين جنس وجنس، وبعد أن مات ميرزا شوقي رباني دون أن ينجب ولداً.. اجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية في إسرائيل.. وانتخب اليهود الأمريكي الصهيوني ميسون رئيساً روحياً لجميع أفراد الطائفة البهائية في العالم.. ومنذ تم انتخاب الرئيس الأمريكي اليهودي للطائفة تحولت إلى حركة صهيونية أمريكية.

ولا يزال المعبد الرئيسي للبهائين يقع في اسرائيل.. بمدينة عكا حيث يحج إليها كل عام عشرات الالوف من البهائيين، من إيران والولايات المتحدة وبعض أنحاء اوروبا

* * *

وبعـد..

كل تلك الاختلافات حدثت عندما انقسم المسلمون إلى فرق متنازعة،

وراح الكارهون للإسلام ينفثون سمومهم لإفساد عقيدة المسلمين.

على أن كل هذه الآفات إذا كانت قد استطاعت أن تفرق كلمة الإسلام.. وإذا كان عدد من الفرق والأحزاب قد تغالت في غلوها حتى خرجت عن تعاليم الاسلام نفسه.. كما فعلت طوائف الإسماعيلية والدرزية ثم البهائية.. إلا أن الإسلام رغم كل ذلك مضى.. يجدد للناس طريقه ويرسم لهم كل خطوات الحرية.. والتآخي. والسلام.

فهرس الموضوعات

فهرس الصور

صفحة

	صفحة

المراجع العربية

١ - القرآن الكريم

٢ - العهد القديم والعهد الجديد

٣ - الملل والنحل « ٥ أجزاء٦ » : للامام أبي الفتح الشهرستاني

٤ - تاريخ الأمم والملوك : ابن جرير الطبري

٥ - العقد الفريد : ابن عبدربه

٦ - الفرق بين الفرق : أبو منصور البغدادي

٧ - تاريخ الاسلام السياسي « ٣ أجزاء » : د. حسن ابراهيم حسن

٨ - تاريخ الفلسفة في الاسلام : تأليف دي بور ترجمة أبو ريدة

٩ - كتاب فرق الشيعة : النوبختي

١٠ - تاريخ الجمعيات السرية : محمد عبدالله عنان

١١ - قصة الحضارة « ٢٢ جزءا » : ول ديورالت ترجمة محمد بدران

١٢ - محاكم التفتيش : د. علي مظهر

١٣ - ولمذاهب الإسلامية : الشيخ محمد أبو زهرة

١٤ - العقيدة والشريعة في الاسلام : تأليف احناس جولد تسهير ترجمة يوسف محمد موسى واخرين.

١٥ - قصص الانبياء : عبدالوهاب النجار

١٦ - شرح صحيح البخاري : الكرماني

١٧ - تاريخ بني اسرائيل « ٣ أجزاء » : محمد عزة دروزة

١٨ - البهائية « لجنة النشر المركزية للبهائيين »

١٩ - محمد ﷺ : توفيق الحكيم

٢٠ - حياة محمد ﷺ : د. محمد حسين هيكل

٢١ - محمد « كتاب الشهر جزءان » محمد صبيح

٢٢ - في منزل الوحي : د. محمد حسين هيكل

٢٣ - قصص القرآن : محمد أحمد جاد المولى

٢٤ - الرسالة الخالدة : عبدالرحمن عزام

٢٥ - مستقبل الإسلام : محمد عبدالقادر العماوي

٢٦ - اليهودية دين لا قومية : « المر برجر » ترجمة دار المعارف

٢٧ - تاريخ الاسلام في الهند : دالمنعم النمر

٢٨ – قصص الكتاب المقدس	القس لبيب مشرقي

٢٩ – الانبياء : القس لبيب مشرقي

٣٠ – ابن الانسان : القس لبيب مشرقي

٣١ – سفراء في السلاسل : القس لبيب مشرقي

٣٢ – هذا هو الاسلام : د. محمد غلاب

٣٣ – زرادشت الحكيم : حامد عبدالقادر

٣٤ – كونفوشيوس : د. حسن سعفان

٣٥ – بوذا الاكبر : حامد عبدالقادر

٣٦ – قصة الادب الفارسي : حامد عبدالقادر

٣٧ – زرادشت باستاني : حاجي ميرزا عبدالحمد خان

٣٨ – الشاهنامة «الفردوسي» : ترجمة الفتح بن علي البنداري

٣٩ – دراسات في الشاهنامة : د. طه ندا

٤٠ – الحراب في صدر البهاء والباب : محمد فاضل

٤١ – بلاد ما بين النهرين : ديلابورت ترجمة محرم كمال

٤٢ – ايران في عهد الساسانيين : كريستنسن ترجمة يحيى الخشاب

٤٣ – تاريخ الكنيسة : يوسابيوس القيصري ترجمة مرقص داود

٤٤ – اسرائيل والفكرة الصهيونية : تأليف روفائيل باتاي واخرين

٤٥ – الصهيونية العالمية : عباس محمود العقاد

٤٦ – الصهيونية في المجال الدولي : د. محمد عبدالمعز نصر

٤٧ – التلمود

٤٨ – التلمود شريعة اسرائيل : لجنة كتب سياسية

٤٩ – أساس الدين : د. هلال فارحي

٥٠ – المسألة اليهودية : كارل ماركس ترجمة محمد عيناني

٥١ – عقائد الامامية : د. حامد عفيفي داود

٥٢ – يهوه : برسوم ميخائيل

٥٣ – عشرون قرنا في موكب التاريخ : حبيب سعيد

٥٤ – الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة : اغناطيوس أفرام الاول برصوم

٥٥ – قصة بوذا : عبدالعزيز أحمد الزكي

٥٦ – موجز تاريخ المسيحية : يسطس الدويري

٥٧- تاريخ الادب في ايران : أدوارد جرانفيل براون ترجمة ابراهيم الشواربي
٥٨- مصر والشرق الادنى القديم «٦ أجزاء» : د. نجيب ميخائيل ابراهيم
٥٩- مصر القديمة «٦ أجزاء» : د. سليم حسن
٦٠- في موكب الشمس (جزءان) : د. أحمد بدوي
٦١- حضارة مصر والشرق القديم : د. محمد انور شكري واخرين
٦٢- مصر الفرعونية : د. احمد فخري
٦٣- انتصار الحضارة : تأليف وست ترجمة فخري
٦٤- ديانة مصر القديمة : تأليف ارمان ترجمة عبدالمنعم ابو بكر
٦٥- دوريات ومراجع مترجمة وحوليات اخرى مختلفة

مراجع أجنبية

1 – Encyclopaedia Britanica
2 – Encyclopaedia of Living Faiths: By R. C. Zaehner
3 – Oriental Philosophy: By F. Grant
4 – A Popular History of Philosophy: By M. Kaunitz.
5 – The Outline of History: By H. G. Wells
6 – How The Great Religions Began: By Joseph Gaer
7 – Myths and Legends of china: By Chalmars Werner
8 – Myths and Legends of Japan: By Hadland Davis
9 – Myths of Babylonia nd Assyria: By Spence
10 – Myths of the Hindus and Buddhists: By Nivedita & Coomaraswamy
11 – The Book of the Epic: By Guerber
12 – Mythology of All Races Indian: By Keith Iranian: By Carnoy
13 – An Introduction to Muthology: By Lewis Spence
14 – India of the Princes: By Rosita Forbes
15 – Life of Christ: By Hillard
16 – The Uses of the Past: By Herbert Muller
17 – Epics, myths and Legends of India: By P. Thomas
18 – Thus Spoke Zarathustra: By Nietzsche. Trans. By Hollingdale
19 – A History of the Christian Church: By W. Walker
20 – A First Church History: By V. E. Walker

القارئ لهذا الكتاب يستطيع أن يجد أنه حصيلة قراءة متأنية فى مقارنة الأديان ، من خلال المراجع والكتب المتخصصة والرحلات الشخصية فى مجال العقائد والديانات بالإضافة إلى أنه يجد فيه معايشة على أرض الواقع من خلال رحلات الكاتب الى الشرق منبت الحضارات وموطن العقائد التى ماتزال حية يؤمن بها مئات الملايين من سكان هذا العالم .

ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة تلك التى توخت أن تضم بين دفتيها معلومات وحقائق جديدة .

كما توخت الاعتدال والبعد عن التحيز مما جعلها تحمل طابعاً متميزاً اتسم بالموضوعية كما التزم بالأمانة العلمية ، من خلال استعراض العقائد والديانات التى عاشت على هذه الأرض طوال آلاف السنين ، ومن خلال حياة البشر الذين طالما حاولوا التطلع إلى معرفة الخلق والخالق وحقيقة الصراع بين الخير والشر .

لوحة الغلاف للفنان فنسنت فان جوخ
تصميم الغلاف للفنان عاطف عبد الحفيظ